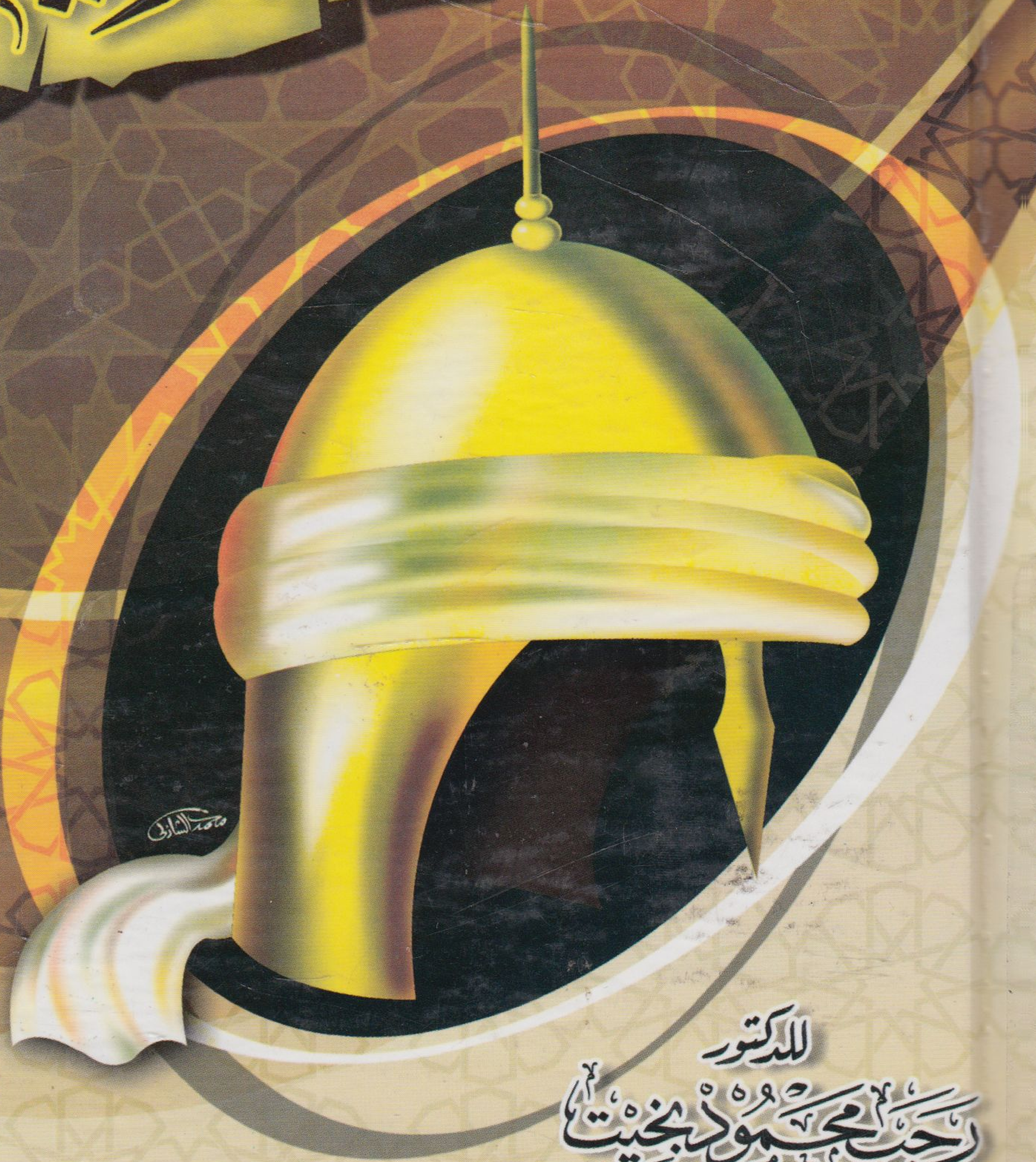
تاريخ الدولة الأيوبية



للدكتور
رجب محمود بخيت

مكتبة جزيرة الورد
شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر - بالحسين
ت: ٠١٢٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢٢٥١١٤٣٧١

إهداء
إلى مكتبة الإسكندرية
د/ رجب محمود
إبراهيم بخيت

تَارِيخُ
الدَّوْلَةِ الأيُّوبِيَّةِ

دكتور

رجب محمود إبراهيم بخيت

مكتبة الإيمان

المنصورة

فهرسة دار الكتب المصرية

بخيب، رجب محمود إبراهيم.
تاريخ الدولة الأيوبية
رجب محمود إبراهيم بخيب.
ط ١. - المنصورة: مكتبة الإيمان، ٢٠٠٩
٥٦٠ صفحة، ٢٤ سم
١ - الدولة الأيوبية
٢ - العنوان ٩٥٣,٠٧٣٩٣

رقم الإيداع: ١٠٥٩٦ / ٢٠٠٩

مكتبة الإيمان
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

الإهــداء

إليك أيها الرحمة المهداة والسراج المنير

فقــل لرســول الله يــا خــير مرســل
أبثــك مــا تــدري مــن الحــسرات
شــعوبك في شــرق الــبلاد وغربهــا
كأصــحاب كهــف في عميــق ســبات
بأيمـــانهم نـــوران: ذكـــر وســـنة
فمــا بــالهم في حالــك الظلمــات
فقـــل رب وفـــق للعظـــائم أمتـــى
وزيـــن لهـــم الأفعـــال والعزمـــات

أحمد شوقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة : ٢٨٢)

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الليل لباسًا ، والنهار معاشًا ، غافر الذنوب، وكاشف الكروب ، دانت الأرباب لعظمته ، وخضعت الصعاب لقوته، وتواضعت الصلاب لهيبته ، وانقادت الملوك لملكه ، فالخلائق له خاشعون ، ولأمره خاضعون ، وإليه راجعون ، سبحانه لا إله إلا هو الحي القيوم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بشيرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فبلغ رسالة ربه، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ﷺ ، وبارك ، ما دار في السماء فلك ، وما سبح في الملكوت ملك ، وسلم تسليمًا كثيرًا.

فالحمد لله الذي هداني لهذا وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله ، والحمد لله الذي تتم بفضائله الصالحات ، يا رب لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فلله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله ، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه.

أما بعد ...

فقد كان المسلمون قبيل قيام الدولة الأيوبية في انقسام وفرقة واختلاف وعدم ائتلاف ، وهذا أعطى الصليبيين فرصة للعدوان على أرض الإسلام والنجاح والتوسع والبقاء ، وعاش العالم الإسلامي أيامًا عصيبة ، وتناوشتهم السهام من كل حدب وصوب ، وأحاطت بهم الآلام والنوائب ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، وهم لبسوا قلة ولكنهم كثرة – ولكن كغثاء السيل – كما جاء في الحديث الشريف.

رجب محمود إبراهيم بخيت

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في المشرق قبيل ظهور الدولة الأيوبية :

لقد عاش العالم الإسلامي قبيل نشأة الدولة الأيوبية أيامًا عصيبة ، حيث تناوشت السهام المسلمين من كل حدب وصوب وأحاطت بهم الآلام والنوائب، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، وهم ليسوا قلة ولكنهم كثرة ولكن كغثاء السيل - كما جاء في الحديث الشريف.

فأريقت دماء المسلمين أنهارًا بغير حساب على يد أعدائهم تارة ، وعلى يد أنفسهم تارة أخرى ؛ حيث أغرى العدو بعضهم بعضًا ، ووضع في أيديهم السلاح الذي قتلوا به أنفسهم ، واعتصرت القلوب حزنًا وألمًا على ما يحاك للمسلمين وما يبيت لهم بليل وهم عنه غافلون.

لقد نشأت الدولة الأيوبية في ظل حالة من الضعف والتفكك تعتري العالم الإسلامي ، وباتت أحوال الخلافة العباسية تدعوا للحزن ؛ حيث باتت أحوالها منوطة بسياسات قوى خارجية تحركها وتوجهها حيثما وأينما شاءت ، مما أطمع وأغرى أوربا للقيام بحركة الحروب الصليبية على العالم الإسلامي.

وبادئ ذي بدء لابد أن نذكر أحوال العناصر الرئيسية التي ظهرت على مسرح العالم الإسلامي قبيل نشأة الدولة الأيوبية وهم السلاجقة والصليبيون والفاطميون:-

أولاً : السلاجقة :

أما السلاجقة فقد ولدوا من رحم ضعف الخلافة العباسية..

فبعد قوة الخلافة العباسية لسنوات ، أتت عليها سنوات خداعة ، انقسمت فيها أملاكها بين حكام مستقلين ، ولم يعد للخليفة ولا للخلافة نفوذ ولا سيطرة إلا على العراق وبغداد فقط - وحتى هذه كانت موضع خلاف - وأصبح الخليفة أشبه بالشبح ، ليس له سلطة إلا سلطة اسمية ، حاكم بلا حُكم ، وملك

بلا مُلك ، وأصبح تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك ذوي الشكيمة والبأس ، فكانت لهم السلطة الفعلية ، فأبطلوا الوزارة والدواوين ، وأنشأوا لأنفسهم لقب إمرة الأمراء ، واستأثروا بالسلطة اسمًا وفعلاً ، وكان أول ظهور لأمرة الأمراء في عهد الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ – ٩٤١م) ، وأطلق على الخلفاء العباسيين : الخلفاء المستضعفين ، كما أطلق المؤرخون المحدثون على خليفة تركيا في وقت ضعفها الرجل المريض ، فقال الشاعر يصف ضعف الخليفة العباسي :

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما تقول الببغا[1]

وأصبحت الخلافة العباسية تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، وأخذ الضعف ينخر في جسمها ، حتى وصل الضعف بالخليفة العباسي ليس للتنازل عن أسهمه في الحكم فقط ، بل قبل الوصاية عليه من أسرة شيعية تخالفه المذهب – السني – وهي أسرة بني بويه (٣٣٤ – ٤٤٧)[2] التي تابعت سياسة الأتراك في إضعاف

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ٦/ ٢٤٥ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٨.

(٢) بنو بويه : تنسب هذه الأسرة إلى جدها بويه بن فنَّاخسروا الديلمي الفارسي ، وظهر أولاد بويه – علي والحسن وأحمد – على مسرح التاريخ بظهور أكبرهم الملقب بـ "عماد الدولة" عام٣٢١ هـ ، وكان متوليًا من قبل أحد ملوك الديلم واسمه "مرداويح" على منطقة صغيرة اسمها "كرج"، ولم يزل يتلطف الناس ويحسن إليهم حتى أحبوه ، واشتهر في البلاد المجاورة، وخضعوا له، ونزلوا على طاعته ، وساعده في ذلك إخوته ، حتى استولى على إقليم فارس ، وفي سنة ٣٣٤ هـ زحف أحمد بن بويه إلى بغداد ودخلها بدون قتال ، وغدت العراق تحت سيطرة بني بويه، وفي بداية الأمر أظهروا الطاعة للخليفة ، وأخذوا ألقابهم منه ، فلقب أحمد "معز الدولة"، وبقى حاكمًا على العراق نائبًا عن أخيه "عماد الدولة" نيفًا وعشرين سنة ، حتى توفى ٣٥٦ هـ وأما ركن الدولة الحسن بن بويه فقد حكم أصبهان وطبرستان وجرجان ، وأخوهم الكبير "عماد الدولة" سيراز وما حولها وهو المقدم فيهم الذي يسمعون كلامه.ولم يخف البويهيون=

هيبة الخلافة وجعلها كأنها غير موجودة ، وهم بهذا العمل إنما يدللون على بعدهم عن أي حس حضاري زيادة عما في قلوبهم من حقد على السنة ، وكانوا يرون أن العباسيين مغتصبون الخلافة ، ولذلك فكر معز الدولة في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة الخلافة العلوية الشيعية ، وكان يريد أن يقيم الدعوة للمعز الفاطمي في مصر ويلغي الخلافة العباسية ، ولكن مستشاريه أثنوه عن هذا العزم ، وعندما قلت الأموال عند بهاء الدولة حسَّن له وزيره القبض على الخليفة الطائع وأطمعه في ماله ، ودخل بهاء الدولة على الخليفة وأنزله من سريره ، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد ، وأخذ ما في داره من الذخائر ونهب الناس بعضهم بعضًا ، وكان سلفه معز الدولة البويهي هو الذي أهان المستكفي، وأمر الجنود بشده من عمامته ، ثم أمر به إلى السجن ، ولم يزل فيه حتى وفاته ، وقد سلبوا الخلفاء ما تبقى من مظاهر السيادة والحكم وساموهم وأذلوهم ، وضربوا العملة باسمهم[1] .

ولم يكن لدى البويهيين أي نية لإحياء الجهاد في سبيل الله ولا حماية الثغور الإسلامية من هجوم الروم ولا حتى استجابة لأي استغاثة تأتيهم من مستغيث، فقد استغاث أهل الجزيرة بالعاصمة بغداد لصد غارات الروم عليها ، واستجاب الشعب في بغداد لهذا النداء وتجهزوا للجهاد ، وأرسل بختيار بن معز

=تشيعهم ، بل شجعوا المذهب الشيعي في بغداد ، فقام الشيعة بعدد من الأعمال الاستفزازية ضد أهل السنة ، فكانت لا تمر سنة دون شغب واصطدامات تقع بين السنة والشيعة تذهب فيها الأرواح والممتلكات وتحرق الأسواق ، وكتب الشيعة في بغداد بأمر "معز الدولة" على المساجد عبارات لعن معاوية والخلفاء الثلاثة ، والخليفة العباسي لا يقدر على منع ذلك. انظر : محمد العبده ، أيعيد التاريخ نفسه ، ص ٤٨ ، علي محمد الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص ٣١ ، الكامل ، ٦/ ٢٣٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٨.

(١) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/ ١٤٢ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٩٠٨ ، د/ علي محمد الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص ٣٢.

الدولة إلى الخليفة يطلب مالاً لتجهيز الناس للغزو ، واضطر الخليفة لبيع أثاث بيته ليدفع له الأموال ، ولكن بختيار أنفقها لمصالحه الشخصية وأبطل أمر الغزو والجهاد لنصر المستغيثين [١] .

وبالإجمال فإن الخلافة العباسية والمذهب السني كاد أن يندثر بين أقدام البويهيين، لولا أن جاء الخلاص على أيدي السلاجقة [٢] حيث استنجد بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) لإنقاذه والخلافة العباسية من البويهيين الشيعة بعد أن طردوه من الخلافة ، فلم يتوان طغرلبك في التدخل حيث أزال الله به ملكهم وأراح الخلافة والمسلمين من شرهم عندما دخل بغداد وقبض على آخر حاكم منهم وهو الملك الرحيم أبو نصر خسرو وذلك سنة ٤٤٧ هـ ، وبعث به مقيدًا إلى الري وأسقط اسمه من الخطبة في شهر رمضان من تلك السنة، وبذلك زالت الدولة البويهية من الوجود لتأخذ مكانها الدولة السلجوقية [٣] .

ومع مجيء السلاجقة إلى بغداد استبشر بهم المسلمون خيرًا ، حيث كانت لهم

---

(١) ابن تغر بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/ ١٤٢ ، د/ عبد المنعم ماجد ، د/علي محمد الصلابي ، دولة السلاجقة، ص ٣٢.

(٢) السلاجقة : نسبه إلى اسم سلجوق بن يقاق أو دقماق ، وهو أول من أدخل الغز في الإسلام على المذهب السني ، وأصولهم ترجع إلى قبائل الغز التركية ، وكانوا يعيشون على نهر أثيل (الفولجا حاليًا) في جنوب روسيا الآن ، وفي خدمة ملوك الترك في آسيا الوسطى ، وانتقل هؤلاء السلاجقة إلى بلاد ما وراء النهر حيث بدأ نشاطهم السياسي والعسكري المستقل ، بعد أن ساءت العلاقة بينهم وبين السامانيين ، ثم انتقلوا إلى خراسان ، حيث تمكن طغرلبك حفيد سلجوق بعد نزاع مع السامانيين من السيطرة على أملاك السامانيين منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١١٣٨ م . د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٩ ، د/ علي محمد الصلابي، الدولة السلجوقية ، ص ٣٨-٣٩.

(٣) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٠ ، سميرة الجبوري ، الدولة السلجوقية منذ قيامها ، ص٣٩-٤٢ ، د/ علي محمد الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص٣٩.

آمال عريضة في إخضاع جميع البلدان الإسلامية إلى المذهب السني القائم في بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، وبدوا وكأن تجديد الخلافة العباسية سيكون على أيديهم فأظهروا لها احترامًا كبيرًا وتوقيرًا جمًّا، على نقيض البويهيين الذين أذلوا الخلفاء وحاولوا هدم الخلافة العباسية.

وعلى الرغم من أن السلاجقة دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة العباسي القائم ، فإنهم عدوا أنفسهم فاتحين ومنتصرين للخلافة العباسية التي هدد زوالها النفوذ الفاطمي والبويهي ، وأصبح الجيش السلجوقي هو جيش الخلافة ، لذا لم تختلف علاقة السلاجقة مع خلفاء بني العباس من علاقة البويهيين بالخلافة على الرغم من اختلاف النظرة الدينية للسلاجقة إلى الخلافة ، فعلى الرغم من اعترافهم بشرعية الخليفة العباسي باعتباره خليفة الله ، فإن هذا الأمر لم يغير من العلاقة بين السلاجقة والخلفاء العباسيين كثيرًا ، وازداد نفوذ السلاجقة كثيرًا في العراق ، فسيطروا على البلاد جميعًا وتنازل الخلفاء العباسيون لهم عن صلاحياتهم حيث فوضوا إليهم الأمور ، وانزوى في قصورهم يعيشون على وارد بعض الإقطاعيات التي خصصها لهم السلاجقة.

وبالإجمال فإن أحوال الخلافة العباسية لم تتحسن كثيرًا بمجيء السلاجقة ، اللهم إلا أن أعيدت لها سلطتها الروحية وهيبتها بين عامة المسلمين ورفع الخناق البويهي الشيعي عنها ، ودبت فيها الروح من جديد[١] .

لقد كانت للسلاجقة أيدي بيضاء ذكرها التاريخ الإسلامي بكل فخر واعتزاز، فقد أصبحوا أكبر قوة إسلامية خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على البويهيين والغزنويين ، وتوغلوا في أرض الدولة البيزنطية ، واصطدموا بجيش الروم ، وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فسادًا أيام البويهيين في أراضي الخلافة العباسية لعدم قدرة

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٠-١١ ، د/ علي محمد الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص١٥٨.

الخلافة ولعدم اكتراث البويهيين بالجهاد ، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس ، ولعل أشهر ما يذكر لهذه الدولة بخير القضاء على فتنة البساسيري في العراق سنة ٤٥٠ هـ[(١)] ، حيث رغب في إعادة المذهب الشيعي ولكن السلاجقة قضوا على هذه الفتنة في مهدها[(٢)] ، وفي مجال العلاقة مع الدولة البيزنطية فقد أذلوا هذه الدولة التي لطالما استغلت فترات الوهن التي اعترت الخلافة العباسية والدويلات المستقلة لتستقطع من جسدها وتضيفه إلى حكمها ، فلما جاء السلاجقة أوقعوا بالبيزنطيين الهزائم المذلة وأسروا إمبراطورهم رومانوس ديوجانس يسميه العرب أرمانوس في موقعة ملاذكرد (أو مناذكرد) على الفرات الأعلى

---

(١) فتنة البساسيري :- كان البساسيري من القواد المقربين من الخليفة العباسي ، إلا أن الدعوة الفاطمية الشيعية كانت قد تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان والقواد وممن تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري حيث تأثر بدعوة الدعاة الفاطميين وأصبح يكاتب الفاطميين ، ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية ، فلما علم بمكاتبة الخليفة القائم بأمر الله للسلاجقة السنة يستدعيهم إلى نجدته أسرع بالهرب إلى واسط ومنها إلى الرجعة حيث اتصل بدعاة الفاطميين وأشهرهم المؤيد هبة الله الشيرازي ، ونجح هذا الحلف في استمالة بعض أمراء الأطراف ، واستغلوا خروج إبراهيم ينال على طاعة أخيه طغرلبك وانشغال السلاجقة في هذه الفتنة في دخول بغداد والاستيلاء على الخلافة وإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بغداد في يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ وزيد في الأذان : "حي على خير العمل" ، وأخرج الخليفة وحمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة ، وخطب للفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر، وظلت فتنة البساسيري حتى قضي عليها طغرلبك وأعاد الخلافة العباسية السنية . البداية والنهاية لابن كثير ، ١٥/ ٧٦٨ - ٧٧٤ ، ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٨/ ٢ ٣ ، الأزدي ، أخبار الدول المنقطعة ، ٢/ ٤٢٧ -٤٣٠ ، الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص ٥٦-٥٨.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٥/ ٧٦٩ - ٧٧٤ ، الأزدي ، تاريخ الدول المنقطعة ، ٢/ ٤٢٧- ٤٣٠ ، الصلابي ، دولة السلاجقة ٥٦-٦٤.

سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧١م ، فجاؤوا به منبطحًا على وجهه ليضع ألب أرسلان قدمه على رقبته على العادة التركية وإن سمح لهذا الإمبراطور بالافتداء ، وأهمية النصر السلجوقي على البيزنطيين أن فتحوا أبواب آسيا الصغرى الشرقية أمام حجرات الترك ، فبقوا فيها إلى وقتنا الحاضر[1].

ووجد الغرب الأوروبي في ذلك كله فرصة لتحقيق ما كان يصبو إليه ، ولم ير الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع فوقاس بدًّا من طلب المساعدة من البابا جريجوري السابع الذي بادر إلى دعوة ملوك أوروبا إلى الوقوف بجانبه ضد السلاجقة الذين سرعان ما استولوا على آسيا الصغرى ، ودخل بيت المقدس في حوزتهم ، ووصلت سيطرتهم إلى حدود مصر ، التي كانت تحت سيطرة الخلافة الفاطمية الشيعية آنذاك[2].

وبعد وفاة ألب أرسلان سنة ٤٦٥/ ١٠٧٢م ، تولى ابنه ملكشاه بتوصية من ألب أرسلان نفسه ، حيث استطاع أن يقضي على فتنة عمه قاروت ملكة كرمان أخى السلطان ألب أرسلان ، حيث خرج على ملكشاه وطالب بالعرش، كما أثبت ملكشاه مقدرة فائقة في الحرب ورغبة نادرة في الإصلاح والتعمير حتى عدّه أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية ، واستطاع أن يستولي على الموصل وحلب وإخضاع القبائل العربية في منطقة الجزيرة لحكمه ونجح أخوه تتش بن ألب أرسلان في السيطرة على دمشق والقدس ولم يكن بينهم وبين مصر إلا الحدود[3].

ولكن شيئًا فشيئًا أخذ الضعف يدب في أوصال الدولة السلجوقية بعد وفاة

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١١.

(٢) د/ محمد أحمد محمد ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص١٤.

(٣) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص١٢ ، الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص٨٢-٨٣.

السلطان ملك شاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م بسبب النزاع الذي نشأ بين أبناء السلطان حول العرش ، فقد ترك أربعة أولاد انقسمت دولته بينهم في العراق والجزيرة وإيران وخراسان ، ودار الصراع المرير بينهم وأخذوا يتنافسون السيطرة على الخليفة المستضعف في بغداد ومن يتمكن من السيطرة عليه ينال لقب السلطنة ، كما ظهر اعتماد السلاجقة على مماليكهم الترك في قيادة الجند ووهبوا لهم الإقطاعيات مقابل ما يقدمونه من أعمال عسكرية وما يشاركون به في إدارة الأقاليم نيابة عنهم ، وتطور بهم الأمر إلى حد الوصاية على أطفالهم وشبابهم الصغير وعهدوا إليهم بتربيتهم ، وسرعان ما أصبح هؤلاء القادة الأتراك أصحاب النفوذ والسلطة الفعلية في الولايات التي أسندت إليهم إدارتها، ومن هؤلاء القواد أقسنفر أحد المماليك الذين تبوؤوا مكانة رفيعة في بلاط ملكشاه ، بعد أن كان لصيقًا به في طفولته، وصاحبًا له ، من كبار أمرائه في سلطنته ، وكانت له حظوة ومكانة عند ملكشاه وبلغ من ثقة ملكشاه به أن اعتمد عليه في تصريف أمور دولته وسماه بقسيم الدولة وأقطعه حلب وأعمالها، وبعد وفاة ملكشاه دخل في خدمة أخيه تتش ونال نفس المكانة والحظوة لديه هو الآخر[١].

وصار التقرب من الأمراء والمماليك الأتراك وإقطاعهم الإقطاعات أحد أهم سمات دولة السلاجقة – بعد أن ضعفت – ولم يكن هؤلاء القادة ليفوتوا الفرصة التي أتتهم على طبق من ذهب ، فكونوا لأنفسهم مراكز قوى ونفوذ داخل جسم الدولة السلجوقية ، وأخذوا هم وأبناؤهم يتوارثون المناصب ويتنافسون فيما بينهم السيطرة على الولايات ويستقلون ببعض الإمارات

---

(١) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ص٢٠٣ ، د/ محمد أحمد محمد ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص ١٤.

والبلدان الصغيرة ، وبدأ نجم هؤلاء الأمراء والقادة الأتراك يعلو ، وتسموا بالأتابكة [(١)] ، وكان من أشهر هؤلاء الأتابكة زنكي بن أقسنقر الذي اكتسب المكانة الكبيرة لدى سلاطين السلاجقة وأخذ يتقلب في المناصب الكبرى حتى ذاع صيته في عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١-٥٢٥ هـ) ، وأخذ زنكي يوطد نفوذه وسلطته بما يكفل له تكوين مملكة ولو صغيرة مستغلاً أحداث الصراع بيت البيت السلجوقي من ناحية وبين سلاطين السلاجقة وبين الخليفة العباسي من ناحية أخرى ، في الوقت الذي كانت الهجمة الصليبية تشتد على بلاد الشام ، فأخذ يقوي الجبهة الداخلية الإسلامية ويعبئ الجهود لتوحيد صفوف المسلمين ، وأخذ ينازع الصليبيين ويقلق مضاجعهم ، حتى قتل في ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ على يد جماعة من مماليكه أثناء حصاره لقلعة جعبر ، وورثه أبناؤه من بعده وكان أعظمهم شأنًا نور الدين محمود صاحب حلب الذي سار على درب أبيه في مواجهة الصليبيين ومحاولة إعادة إحياء الجهاد الإسلامي في مواجهة الصليبيين [(٢)] .

ثانيًا : الصليبيون :

الحروب الصليبية هي سلسلة محكمة الحلقات ، وهي ليست وليدة اللحظة التي قامت فيها ، بل امتدت عبر التاريخ ومنذ قيام الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، وإن أخذت أشكالاً أخرى، وألوانًا غير التي نعرفها وإن تزيت بأزياء

---

(١) الأتابكة : لفظة تركية مفردها أتابك ، وهي كلمة مركبة من كلمتين هما "أتا" بمعنى أب ، وكلمة "بك" بمعنى السيد أو الأمير ، أي : الذي يربى أولاد الملوك.
انظر : د فاطمة المحجوب ، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية ٢/ ٢٦٢ ، د/ عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين ، ص ١٢.

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٨/ ١٠٣ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ص١١-١٢ ، د/ محمد أحمد محمد ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص ١٦.

خدعت المسلمين ألوانها وقسماتها.

فترجع بدايات التحرك البيزنطي المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه ، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل ، وذات السلاسل ، ومؤتة ، وتبوك ، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين ، كان المعسكر البيزنطي يتحسس الخطر الإسلامي الجديد القادم من الجنوب لاسيما بعدما تمكنت الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالي الجزيرة من سادتهم القدماء الروم ، وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء ، أو كرد فعل لتحرك إسلامي ، فإن المحصلة الأخيرة هي أن هذا المعسكر بدأ يدرك أكثر فأكثر حجم التحدي الجديد ، ويعد العدة لوقفه ، صحيح أن هذه العدة لم تكن – أحيانًا – بالحجم المطلوب ، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التي كانت القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا المحور وازدادت اشتعالاً بعد وفاة الرسول ﷺ ، وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون(١) .

فمنذ فكر المسلمون في مد نفوذهم نحو البحر الأبيض المتوسط ، حيث دفعوا البيزنطيين على وجوههم شمالاً نحو آسيا الصغرى ، فمنذ عهد الخلفاء الراشدين امتلك المسلمون سورية والجزيرة ومصر وأرمينية وقبرص ورودس ، أي على معظم شرق البحر الأبيض المتوسط ، وفي عهد الدولة الأموية سيطر المسلمون على المغرب والأندلس وعلى الجزائر الواقعة قبالة ساحل الأندلس المعروفة باسم الجزائر البحرية "البليار" وعلى سردانية وكريت وليبيا والجزائر ومعظم هذه البلاد كانت للبيزنطيين اليونان أو للأوروبيين المعروفين للعرب بالفرنجة ، أي أن الإسلام سيطر أيضًا على معظم فربي البحر الأبيض المتوسط ،

---

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٦ ، د/ علي محمد الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٥.

و لما جاءت دولة بني الأغلب في شمال إفريقية ، مستقلة عن الدولة العباسية استولت على صقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ ثم على مالطة سنة ٢٢١ هـ / ٣٨٥ -٨٣٦ م ، أو في ٢٥٦هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠م ، وفتحوا جنوب إيطاليا وهي كالبريا التي سماها العرب قلورية ، فاستولوا عليها في غارات متعددة ، ووصلوا إلى رومية - روما - في سنة ٢٣١ هـ / ٨٤١م ، وبها يسكن البابا رئيس النصرانية الغربية ، ودخلوا نهر التيبر وأحرقوا المدينة ، ودخلوا كنائس القديسين بطرس وبولس ، واضطر البابا ليون الرابع أن يختبئ . ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم في شمال أفريقيا بعد قضائهم على الأغالبة استولوا على صقلية سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م وأخذوا يغزون أيضًا في قلوّرية وهاجموا لمبورديا ، وفتحوا مدينة جنوة في سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥م ، وهاجموا ساحل الريفيرا الفرنسية ، كما غزوا سواحل بلاد الروم ، فلم تعد تسبح للنصرانية سفن في البحر المتوسط[1].

ميدان الحرب الصليبية :

لقد تصالح المؤرخون على إطلاق الحروف الصليبية على الحركة الصليبية الاستعمارية التي ولدت في غرب أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس ، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر واتخذت من الدين وقودًا لتحقيق أهدافها، فالغزو الصليبي ليس أمرًا جديدًا ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية ، إنما هو القاعدة وغيره الاستثناء ، ولذلك نقول : إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ٤٨٨-٦٩٠هـ ، هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : " لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٤.

الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءًا من تلك الحركة ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى"[1]. ولما كانت الحركة الصليبية ممتدة عبر فترات التاريخ ، ومنذ نشأة دولة الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، فإن ميادين الحرب الصليبية قد تعددت تاريخيًا وجغرافيًا، حيث استمرت الحروب الصليبية بصفة دورية ومتعاقبة كادت تغطى المدى الزمني بين ظهور الإسلام والعصر الحديث ، وما يكاد الصراع مع الإسلام يفتر قليلاً على جبهة أو ميدان حتى يشب ثانية في ميدان جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفًا واستنزافًا للطاقات الإسلامية في مساحات واسعة من الأرض، وهذه هي الميادين.

١- بيزنطة :

لقد اشتعلت النيران في هذا الميدان منذ نشأة الدولة الإسلامية وازداد اشتعالاً بُعيد وفاة الرسول ﷺ وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون ، وبعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من أفريقيا على أيدي القيادة الراشدة ثم ما لبث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية بفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها الأمويون ابتداء من معاوية رضي الله عنه مؤسس الدولة الأموية وعهد عبد الملك وبنيه خصوصًا الوليد وسليمان.

واستمرت الملاحقة النشطة للبيزنطيين بعد الأمويين في الشام ومصر وشمالي أفريقيا وانحسروا بالكلية عن الشمال الإفريقي ومساحات واسعة من البحر المتوسط ، وانزووا هناك في شبه جزيرة الأناضول ، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوروبا نفسها ، وهكذا وبمرور الوقت أصبح خطر هجماتهم المضادة محدودًا لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية ، دون أن تتعداه

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ١/ ٢٦ ، د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٣٢ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٨.

إلى العمق إلا نادرًا بسبب يقظة القيادات الإسلامية وتحصينها خط الحدود من جهة، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية ، وتوغلها في العمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى ، الأمر الذي لم يدع للإمبراطور البيزنطي – في معظم الأحيان – أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد اللهم عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت ، وإن كانت قد ولدت دويلات ودولاً استطاعت إن تحافظ على هيبة الإسلام والمسلمين ضد الهجمات البيزنطية ، مثل الحمدانيين والسلاجقة والزنكيين(١) .

وبالإجمال يمكن القول بأن هذا الميدان كان عاجزًا عن الإسهام بدور كبير في حركة الحروب الصليبية لعدة أسباب:

١- لأن بيزنطة تلقت عددًا من الضربات القاسية من المسلمين ، منذ انسياحهم في حركة الفتوح وباستيلائهم على أملاكها في حوض البحر المتوسط ، وكانت هناك يقظة كبيرة من جانب القيادات الإسلامية لأي تحرك بيزنطي يهدد الحدود الإسلامية.

٢- ومن ناحية أخرى بسبب أن حدودها في أوروبا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية وبخاصة البلغار ، ولما قويت بيزنطة بضعف الخلافة العباسية وبتسوية مشاكلها مع البلغار مدت نفوذها في عهد الأسرة المقدونية – التي كانت تحكمها – إلى إمارات المسلمين في الشام وإقليم الجزيرة ، واستعادت جزائر رودس وقبرص وأقريطش "كريت" وجعلت منها مراكز للإغارة على سواحل المسلمين ، وفي أول عهد الفاطميين الذين كانوا قد نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر ، افتتح البيزنطيون الحروب الصليبية ووصلوا إلى قرب القدس عدة مرات إلا أن الفاطميين أوقفوا

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٦-٢٧ ، د/ الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص ٤٠٨.

تقدمهم وأجبروهم على السكون وعقدوا الصلح معهم[١] .

٣- لما جاء السلاجقة إلى العراق زادوا من ضعف البيـزنطيين وبخاصـة منـذ أن تقدموا نحو أبواب آسيا الصغرى وفتحوها لهجـرات قبائلـهم وكونـوا فيهـا إمـارة قويـة علـى يـد ابـن عمـة ملكـشاة المـسمى سـليمان بـن قُـتَلمِش (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ، فأخذت هـذه تقتطـع مـن أراضـي البيـزنطيين جـزءًا جزءًا واتخذت قونية وغيرها بلادًا لهـا ، وكـان ملـوك اليونـان يـدفعون لهـا الجزية ، وإجمـالاً أصـبحت الدولـة البيزنطيـة لا تكـون خطـرًا كـبيرًا علـى المسلمين بأية حال في عصر ما قبل الدولة الأيوبية[٢] .

٢- أسبانيا :

شهدت الساحة الأندلسية – منذ بدايات مبكرة – هجمات مضادة متواصـلة قادمة من الشمال حيـث يتحـصن الأسـبان في المنـاطق الأشـد وعـورة ، ولقـد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير استطاعت القيادة الأموية عبره أن تجابـه الهجوم المضاد على مدى ما يقرب من القرون الثلاثة ، وأن تحتويه وترغمه على الانحسار في الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ثـم جـاءت دفقـة الحيويـة الإسلامية الجديدة مرتين : إحداهما على يـد المـرابطين القـادمين مـن المغـرب، الذين سجلوا لنا في صفحات المجد انتـصارهم العظـيم في معركـة الذلاقـة علـى النصارى الأسبان في عـام ٤٧٩ هــ ، والأخـرى علـى أيـدي الموحـدين الـذين جاءوا من بعدهم ، وحققوا انتصارًا ساحقًا على النصارى في معركة ألارك عـام ٥٩١ هـ ، والتي سجلت على صفحات الزمان بمـاء الـذهب الـصافي ، وبـذلك تمكن الإسلام في الأندلس من الصمود في مواجهة التحدي ، ومقارعـة الهجـوم الأسباني المضاد بسلاح شبه متكامل ومتكافئ لمدى يقرب من الأربعـة قـرون ،

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٤-١٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

ولكن المسلمين هناك ما لبثوا أخيرًا أن استُنزفوا ، وزادهم ضعفًا انقسامهم على أنفسهم وصراعهم الدموي الطاحن فيما بينهم ، الأمر الذي حول الميزان لصالح القيادة النصرانية التي تمكنت في نهاية المطاف من إسقاط آخر كيان إسلامي هناك ، مملكة غرناطة عام ٨٩٧ هـ ثم ما لبثت – تحت زعامة فرديناند وإيزابيلا – أن تنفذ أبشع مجزرة رهيبة في تاريخ البشرية ، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التحقيق ، وقدرت – بأساليبها التي تتجاوز البداهات والقيم الإنسانية ، فضلاً عن الدينية – على تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الأسبانية ، ودمج الجماعات الإسلامية قسرًا بالمجتمع النصراني دينًا وثقافة وسلوكًا.

ومما يستحق أن يفهم أن الصراع المذهبي والحضاري ذا الطابع المصيري الذي حكم علاقات آسيا وأوروبا عبر التاريخ ، هو الذي جعل أوروبا تتشنج إزاء امتداد الإسلام إلى أراضيها ، غربًا في الأندلس ، جنوبي فرنسا ، وشرقًا في جهاتها الجنوبية والشرقية ، وتبذل جهودًا مريرة ومحاولات متواصلة من أجل إزاحة الوجود الإسلامي من هناك بأي أسلوب ، وبأية صيغة حتى لو تنافت مع أبسط قواعد التعامل الشريف مع الجماعات والأديان ، من أجل التفرد بحكم القارة ، ومجابهة التحدي الإسلامي فيما وراء الحدود [1].

- شمال إفريقيا والبحر المتوسط :

والخطر الحقيقي الذي جاء من أهل أوروبا وصارع الإسلام الذين عرفوا باسم الفرنجة أو الإفرنج ، وقد جاء الخطر منهم من قبائل تناصر شمالية مخاطرة عرفت بالنورمان ويسميهم العرب بالتسمية العامة بالفرنج ، ظهروا في الوقت الذي ظهر فيه السويديون ، غزوا إنجلترا في القرن الثاني الهجري الثامن

---

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٨ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٦-١٧ بتصرف.

الميلادي، وتحولوا فيها إلى النصرانية ، ثم انتقلوا إلى فرنسا ، واستقروا فيها بالمنطقة الشمالية ، التي عرفت باسم نورمنديا ، ثم هجموا على سواحل الأندلس التي بها المسلمون في سنة ٢٢٩هـ / ٨٨٤ م ، وعرفوا فيها باسم المجوس ، وعلى سواحل الأدرياتيك حاولوا بقيادة زعيمهم روبر جسكار أن يقضوا على نفوذ الدولة البيزنطية في هذه الناحية ، وحينما أوقف البيزنطيون تقدمهم ، اتجهوا إلى جنوب إيطاليا وصقلية ومالطة ، وكانت خاضعة للفاطميين في مصر أو لآل باديس الذين حكموا إفريقية (تونس) مستقلين عن نفوذ الفاطميين ، فاستولوا عليها جميعها بعد عدة معارك بقيادة ملكهم المسمى للعرب رجار في سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م ، لانشغال الفاطميين وآل باديس بمشاغلهم الداخلية. وقد كان استيلاء النورمان على جزيرتي صقلية ومالطة سببًا في تحطيم سيطرة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط ، فكان أسطول صقلية يغير على مراكب المسلمين المرسلة من مصر إلى إفريقية ، وأكثر من هذا، هاجموا طرابلس الغرب في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦م ، وكانت هي الأخرى قد استقلت عن نفوذ الفاطميين في مصر ، كما استولوا على المهدية – ميناء هام – من آل باديس في سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ، وقد تحالف مع النورمان على القضاء على نفوذ المسلمين في البحر لمتوسط دويلات قوية بدأت تظهر في إيطاليا مستقلة عن نفوذ بيزنطة ، التي ضعفت بغزو النورمان ، مثل بيزة وجنوة والبندقية[١] .

- الحركة الصليبية :

توضيح : إن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام ، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره ، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية ، وأن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٦-١٧.

تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد ، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (٤٨٨ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م) إلا أحد أطوارها وأحد ميادينها الجغرافية فقط ، وإن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل كثيرة ومعقدة ومتشابكة يستطيع الباحث يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة[١].

وكما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي (٤٨٨ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥-١٢٩١م) هو تحديد خاطئ لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة ، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءًا من تلك الحركة ، ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية ، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى[٢] ، ولهذا فإننا نؤكد على أن الحركة الصليبية التي امتدت خلال الفترة (٤٨٨ - ٦٩٠هـ/ ١٠٩٥ - ١٢٩١م) وخلال قرنين من الزمان ، ما هي إلا دور من أدوار الحرب الصليبية التي امتدت منذ بزوغ فجر الإسلام وإلى الآن ، وأن مقصدها الجغرافي الذي كان الشام ومصر وشمال إفريقية ، ما هو إلا ميدان من الميادين التي يتواجد فيها المسلمون على خارطة الكرة الأرضية ، وأينما تواجد المسلمون توجهت إليهم السهام الصليبية.

وأتى خطر الحركة الصليبية على المسلمين من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب في العصور الوسطى بالأرض الكبيرة ، وهي تمتد من شمال الأندلس إلى روما شرقًا ، فهذه القبائل والأمم كانت في أصل نشأتها عبارة عن قبائل وثنية عديدة ، وصفت بأنها ذات ألسن كثيرة ، وتعيش عيشة

---

(١) د/ ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري ، ص١٠ ، الصلابي ، دولة السلاجقة ، ص٤١٠.

(٢) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ١/ ٢٦.

القبائل الهمجية ، وكانت تهاجم الإمبراطورية الرومانية ، التي كانت تحمل مشعل الحضارة وقتئذ. ولما انتشرت المسيحية ووصلت روما ، كانت كنيستها سباقة إلى كسبهم إلى المسيحية ، فكان تحولهم إليها سببًا في تقويتها ، بحيث استطاعت هذه الكنيسة أن تقف ندًّا للكرسي البطريركي في القسطنطينية ، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب "البابا" بعد أن كان هذا اللقب لكرسي الإسكندرية ، وانفصلت عن كرسي القسطنطينية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، ولا سيما وأن اعتقاد رؤسائها يخالف اعتقاد بيزنطة. وحينما ضعفت بيزنطة كانت البابوية في روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة على جميع أمم فرنجة أوروبا ، بحيث أن من خالف البابا ، كان يعتبر خاطئًا عاصيًا، يستحق النفي والطرد والقتل ، ويحرم من حقوق المسيحي ، وأكله وشربه ، والزواج من النصرانيات ، فكان سلطان البابا قويًا لا يمكن لأحد مخالفته ، ومن ناحية أخرى كان تحول هذه الأمم إلى المسيحية مساعدًا على ظهور ممالك قوية في أوروبا ، صارت منافسة خطيرة لدولة الروم في ميدان الزعامة على المسيحيين[١].

ومع أن أغلب هذه الأمم من الفرنجة لم يكن الإسلام قد عاداها ، فيما عدا فرنسا ، التي أغار عليها المسلمون وهاجموا أراضيها وسواحلها ، في عهد الأمويين والعباسيين ، وهي البلاد التي جاورت بلادهم في الأندلس وعرفت لهم باسم أفرانسة أو أفرانجة العظمى ، لأنها كانت على الخصوص موطن أمم الفرنجة أو الفرنج ، إلا أنه حينما دعيت أوروبا إلى حرب المسلمين ، أصبحت أممها جميعًا من أشد أعداء الإسلام ، واتسع نطاق الصراع ، واتخذ شكل حرب عالمية ، وهي التي لم تنس غارات المسلمين على أراضيها وأنها هي التي دافعت عن المسيحية في الموقعة المعروفة عند العرب باسم بلاط الشهداء لكثرة ما وقع من شهداء من المسلمين بما فيهم القائد عبد الرحمن الغافقي في سنة

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠-٢١.

١١٤هـ/ ٧٣٢م ، ولذلك سنرى أن فرنسا ستكون أول الملبين لدعوة الحروب الصليبية ، وحينما دعيت أوروبا إلى حرب المسلمين أصبحت أممها جميعًا أشد أعداء الإسلام، واتسع نطاق الصراع واتخذ شكل حرب عالمية.

واتخذت أوربا من شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين ، فنجد أن البابا أريانوس الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) يكلف رجل الدين الفرنسي بطرس الراهب بالدعوة إلى الحروب الصليبية (الحرب المقدسة) ضد المسلمين لتخليص الأماكن المقدسة ، فعقد في كليرمونت فران - أكاريمونت - بجنوب فرنسا مؤتمرًا اجتمع فيه الفرنجة من كل أركان أوروبا ، خطب فيه كل من البابا وبطرس الراهب حاضين على حرب المسلمين ، ووجدت دعوتهما آذانًا صاغية ، فأخذ الفرنجة من كل مكان لقتال المسلمين وهم يعلقون الصليب على أكتافهم [١].

- **الحملة الصليبية الأولى:**

بعد خطبة الباب أوروبان - أوريانوس - الثاني في كليرمونت بفرنسا التي دعا فيها إلى الحروب الصليبية ، طلب إلى رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم ، كيما يبشروا بالحروب ، واجتهد رجال الكنيسة في ذلك ، وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائي الذي قام به البابا ومن وثق فيهم قيام الحملة الصليبية الأولى ، والتي انقسمت إلى قسمين : حملة العامة والتي اجتمعت في مايو ١٠٩٦م في خمسة جموع كبيرة تضم تشكيلة كبيرة متنوعة من المعدمين وقطاع الطرق والمجرمين وغيرهم وأخذوا يتجهون جميعًا نحو القسطنطينية في طريقهم إلى الأراضي المقدسة ، وقد فشلت ثلاثة جموع من هؤلاء العامة في الوصول إلى القسطنطينية وتبدد شملهم في الطريق نتيجة اصطدامهم بالمجرمين ، أما البقية الباقية فقد وصلت العاصمة البيزنطية بعد أن تناقصت أعدادهم وأصبحوا في

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٢٦.

حال يرثى لها من الإنهاك والبؤس ، وعلى الرغم من المعاملة الطيبة التي لقيها هؤلاء الصليبيون من الإمبراطور الكسيس كومنين في أول الأمر إلا أنهم أتوا في الإمبراطورية كثير من أعمال العنف والسلب والنهب حتى أنهم لم يتورعوا عن سلب ونهب الكنائس التي صادفوها ، وقد استاء الإمبراطور من هذا التصرف، وأخذ يفكر في التخلص بسرعة منهم ، حيث سهل لهم العبور إلى آسيا الصغرى حيث وقعوا فريسة في أيدي الأتراك السلاجقة فأجهزوا عليهم جميعًا.

أما القسم الثاني من الحملة الصليبية الأولى فكان حملة الأمراء ، وكانت أكثر تنظيمًا من حملة العامة ، حيث أخذوا يتجمعون منذ مارس ١٠٩٦م حتى تكونت منهم ثلاث مجموعات كبيرة : الأولى كانت بزعامة جود فري دي بوايون وأخيه بلدوين ، والثانية تألفت من فرسان إقليم بروفنسال تحت زعامة ريموند أمير تولوز بصحبة أدهمار المندوب البابوي ، أما المجموعة الثالثة فتألفت من الفرسان النورمان تحت زعامة بوهيمند وابن أخيه تنكرد(١) .

فلما جاء هذا الزحف الصليبي إلى آسيا الصغرى حاربوا السلاجقة ، فأول ما هاجموه فيها نيقية ، ولم يستطع السلاجقة استنقاذها إذ لم تنقطع الإمدادات الصليبية برًا وبحرًا ، وسلمت لملك بيزنطة سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م.

وبعد ذلك زحف الصليبيون نحو الجنوب باتجاه أنطاكية واستولوا عليها بعد حصار مرير ومقاومة عنيدة وشرسة من سكانها سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م ، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها المسلمين بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث ، وسلمت إلى بوهمند فأناب عليها أخيه تنكرد.

---

(١) د/ أسامة زكي زيد ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (عصر الحروب الصليبية) ، ص ١٨ ، دولة السلاجقة ، ص ٤٤١- ٤٤٢.



الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

وبعد هذا الانتصار في أنطاكية ، سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة واستولوا على مدن عديدة منها الرها وهي المدينة المسيحية الذائعة الصيت ، وهي المدينة الواقعة بين الموصل والشام ، وكان أغلب سكانها من الأرمن وليس بها من المسلمين إلا قليل ، وإن تمكن أتابكة السلاجقة من وقف تقدمهم إلى بغداد [١].

الاستيلاء على بيت المقدس:

واصل الصليبيون السير جنوبًا بحذاء الساحل ، وقد عمل الحكام المسلمين للموانئ الساحلية التي مر بها الصليبيون ومسالمتهم بأحسن الشروط الممكنة ، ومن ذلك أهل بيروت ، عندما أحسوا باقتراب الصليبيين منهم عرضوا عليهم إمدادهم بالتموين ومبلغ كبير من المال ، مقابل تعهد الصليبيين بعدم الاعتداء على البساتين ومزارع الكروم والغلال المملوكة لأهل المدينة ، أما أهل عكا فقاموا بتموين الصليبيين وكذلك كثير من مدن الساحل ، أما صيدا فكان موقف أهلها مختلف إذ اعتدت حاميتها على بعض الجند الصليبيين مما جعل هؤلاء يتلفون المزارع المجاورة للمدينة ، وظلوا هكذا حتى وصلوا أرسوف وبعدها تركوا الشاطئ وتوجهوا إلى الداخل في طريق بيت المقدس للاستيلاء عليه من الفاطميين.

وفي ٧ يونيو ١٠٩٩م وصل الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس وبدأوا حصارها ، وكان حاكم المدينة افتخار الدولة قد بدأ تنظيم صفوفه استعدادًا لقتال الصليبيين تعضده حامية قوية.

واشتد حصار الصليبيين لبيت المقدس وضربوه بالنار والحجارة والمنجنيقات، ودافع المصريون عن بيت المقدس ببسالة وشجاعة كبيرة ، فكانوا يفضلون الشهادة بإلقاء نفسهم من بروج الحوائط عن تسليم أنفسهم ، وكاد الحصار

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٢٩.

الصليبي لبيت المقدس أن يفشل بعد صمود المصريين لولا وصول السفن الإيطالية إلى ميناء يافا ، واستولت عليه بسهولة بعد أن هجرها أهلها المسلمون ، وقد أحضرت هذه السفن للصليبيين كثيرًا مما يحتاجون إليه من عدد الحصار ومواد التموين ، وهذا الأمر كان له أثر كبير في تدعيم مركز الصليبيين مما مكنهم من مواصلة الحصار والهجوم في الوقت الذي كانت فيه حامية المدينة محصورة داخل المدينة ومقطوعة عن العالم الخارجي تمامًا (١).

وبعد وصول حصار تمكن الصليبيون من السيطرة على بيت المقدس في شعبان ٤٩٢ هـ / يونيو ١٠٩٩م ، وبعد دخولهم بيت المقدس ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال ، وأحرقوا منهم من هرب إلى مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وأحدثوا بداخله مذابح وحشية ، حتى قيل أن الجنود المسيحيين كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين ، واستولى بذلك الصليبيون على المدينة المقدسة ، وكان المسلمون يعتقدون أنه مهما بلغ تعطش الصليبيين لسفك الدماء فلن يجرؤوا على اقتحام الأماكن المقدسة ، ولكن خاب ظنهم ، حيث لم يراع الفرنجة حرمة بيوت الله ، وحدث ما حدث ، ووقعت الفاجعة (٢).

وقد تبع احتلال بيت المقدس أن حولت جميع مساجده إلى كنائس ، بخاصة مسجد قبة الصخرة ، الذي كان عبد الملك بن مروان قد بناه على أساس المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب عليها ، والمسجد الأقصى الذي بناه الخليفة الوليد في ساحة مسجد قبة الصخرة ، وعرف لفخامته أيضًا ببلاط الوليد ، فبنوا على الصخرة المقدسة في المسجد كنيسة كانوا يعظمونها ويفتخرون بها ، وأقاموا على قبتها صليبًا من ذهب ، أما المسجد الأقصى فإنه أقيمت فيه كنيسة ونزل لفرسان الداوية ، وأصبح يعرف باسم معبد أو قصر سليمان ، وقد كان

(١) د/ أسامة ذكي ، العلاقات بين الشرق والغرب (زمن الحروب الصليبية) ، ص ٣٧.

(٢) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٣١.

التعصب الصليبي نحو مساجد المسلمين يناقض ما جبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى ، بحيث تركوها لهم بما فيها من ذخائر وتحف ، وحتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس ، ترك لهم كنوز الكنائس ليأخذوها معهم ، وأبقى على كنيسة القيامة لا يدخلها المسلمون[١] .

وبالإجمال فإن الحملة الصليبية الأولى نجحت في تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية : الأولى في أعالي الفرات وهي الرها ، والثانية في أعالى الشام وهي أنطاكية ، والثالثة على ساحل الشام وهي طرابلس ، أما الرابعة فكانت في قلب فلسطين وهي بيت المقدس ، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى هي : صيدا ويافا وعسقلان والخليل ، واثنى عشر إقطاعًا تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له ، وتتمثل في : أرسوف وحبرون ، الداروم، قيسارية ، نابلس ، بيسان ، حيفا ، تبنين ، بانياس ، كيفا ، العد ، بيروت[٢] .

أما بقية الحملات الصليبية فإننا سوف نرجع الحديث عنها إلى حين ، حيث سيتم بعون الله التعرض بالتفصيل أثناء الحديث عن مراحل تاريخ الدولة الأيوبية.

- حركة التفاف الصليبيين حول العالم الإسلامي :

ما لبثت أوروبا بعد سحق الوجود الإسلامي في أسبانيا أن بدأت – بقيادة أسبانيا والبرتغال ، ومن بعدهما بريطانيا وهولندا وفرنسا – عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على العالم الإسلامي عبر خطوطه الخلفية في إفريقيا وآسيا ، والتي كانت بمثابة حركة الاستعمار القديم التي ابتلي بها العالم الإسلامي فيما

---

(١) د/ عبد المنعم ، الناصر صلاح الدين ، ص٣٣.

(٢) د/ محمد مؤنس ، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب) ، ص ٧١ ، د/ الصلابي، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٦.

بعد ، والتي استمرت حتى العقود التي أعقبت سقوط الخلافة العثمانية ، حيث كان المماليك في مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء ، وكان اكتشاف الطريق البحري الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجه لتجارتهم – التي هي بمثابة العمود الفقري لمقدرتهم المادية – ضربة قاصمة ، أما العثمانيون فقد كان جهدهم منصبًا على اختراق أوروبا من الشرق ، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التي تمكنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك في بداياتها الأولى ، ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف ، ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية في المناطق التي ابتليت بالغزو دفاعًا مستميتًا ، وضربت مثلاً صلبًا في مقاومتها المتطاوعة للعدوان ، وألحقت بالغزاة الخسائر الفادحة على طول الجبهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطئ قدم.

وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي الأسباني الذي استهدف خنق التجارة الإسلامية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه ، سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ما عدا مراكش ، واستطاعوا مواجهة الأسبان في حوض البحر المتوسط وجزائره وسواحله ، ونالوا منهم ، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطئ البحر المتوسط للإسلام والمسلمين ، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق إفريقية وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر ، فأرهب ذلك الأوروبيين ، واستطاع أحمد بن سعيد ١٧٤٠م أن يقف في وجههم في عمان ، حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة ، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠هـ إلى ١٢٥٠ هـ ، وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج ، فإفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح ، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة ، وصار لهم أسطول ضخم

هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والإفريقية. ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا ، فعملوا على مدى ثمانين عامًا على إضعافها والقضاء عليها ، وضربها الأسطول البريطاني ومدنها بالقنابل[(١)].

- **الاستعمار :**

وجاءت الموجة الأوروبية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة لتصريف بضائعها ، والحصول على الخامات الضرورية ، وتسخير الطاقات البشرية الرخيصة المستعبدة في أفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما عرف بحركة تهجير العبيد التي كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء في تاريخ الصراع بين أوروبا والشرق ، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعوب الإسلامية في إفريقيا ، واستمرت هذه الموجة التي قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا إلى حد ما حتى العقود الأولى من القرن العشرين ، وكان العالم الإسلامي فريستها الأولى ، بل إنه كان فريستها الوحيدة ، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثرية غير إسلامية ، وكانت أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبرت عن نفسها في أكثر من واقعة ، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل . إن "جلاد ستون" رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف : "ما دام هذا في عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبدًا". وعندما دخل القائد البريطاني الصليبي القدس بعد الحرب العالمية متشيًا وحلفاء بريطانيا يستقبلونه بحفاوة وتكريم إلا إنه لم يخف حقده الصليبي على الإسلام والمسلمين ، وأظهر سروره وحبوره كقائد صليبي منتصر – فتح القدس وفلسطين ، وجعلها تحت الانتداب

---

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص٣٧ ، أنور الجندي ، الإسلام وحركة التاريخ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٨-١٩.

البريطاني الصليبي ، فقال : "الآن انتهت الحروب الصليبية " ، يزعم بهذه العبارة أن هدف الحروب الصليبية باحتلال القدس ، وفرض السيادة عليها وعلى فلسطين قد تحقق ، وهو بهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان ، واحتلت القدس وفلسطين سنة ٤٩٢هـ وحررها المسلمون سنة ٥٨٣ هـ لم يحقق هدفها ، أما الحرب العالمية الأولى فقد حققت الصليبية فيها هدفها ، واستولت على فلسطين والقدس ، وكانت السيادة لها ، وأما القائد الفرنسي فقد ذهب إلى قبر صلاح الدين في دمشق ، وقال عند القبر: "ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين" (١) ، واستمرت الحروب الصليبية ، فلم تتوقف، فقامت بريطانيا بإعطاء موطن لليهود على أرض فلسطين لإقامة دولة يهودية ، واتخذت من القرارات والإجراءات الإدارية والعسكرية ما يقيم به هذه الدولة ، وبتدريب اليهود على السلاح وفنون القتال ، وتوفير السلاح لهم ، بل إعطاء بعض أسلحة الجيش البريطاني لهم وبخاصة عندما أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨م ، بل سلمت كثيرًا من المدن والقرى الفلسطينية لليهود ليعلنوا إقامة دولة يهودية عليها ، وفي الوقت نفسه قد حرمت على الفلسطينيين المسلمين التدريب على السلاح واقتناءه ، وشنت عقوبات ظالمة على كل فلسطيني يقتني السلاح أو العتاد ، فكانت عقوبة الإعدام هي الشائعة ، ولقد علق من المجاهدين المسلمين على أعواد مشانق الصليبيين الإنجليز في تلك الفترة آلاف الشهداء ، وزج في غياهب السجون عشرات الآلاف. وهذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية وارتبطت عضويًا بحركة التبشير النصرانية بجانبيها الكاثوليكي والبروتستانتي ، والتي انتشرت مراكزها في أطول البلاد الإسلامية وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها المختلفة، وتفتح أمامه الطريق وتحظى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والمميزات ، إلا

---

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٤٠ ، ص ٤٣٤ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢٠.

أن هذا الهجوم الاستعماري الصليبي المضاد لم يمض بسلام ولم تركع الشعوب، بل شمروا عن ساعد الجد واستجاشوا قدرات الإيمان الدافقة ووازنوا بتضحياتهم وعشقهم للشهادة ، وصنعوا الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلت استمرارية حركتهم ، وألحقت بهم الهزائم والويلات ، وشهدنا حركات تحريرية جهادية قدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث عنها الغربيون أمثال حركات مقاومة : محمد عبد الكريم الخطابي بالمغرب ، وعبد القادر الجزائري ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الإبراهيمي ، وعمر المختار بليبيا ، وأمثالها الكثير . إن الحركة الصليبية لم تنته ولن تنتهي وما يحدث في أفغانستان والعراق وفلسطين دليل على ما نقول(١) .

- ثالثًا : الفاطميون :

أما العنصر الثالث فهم الفاطميون في مصر ، وكانوا في أشد حالات الضعف، وهذه الأسرة التي حكمت مصر منذ سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م ، غلبت عليها التسميات الآتية : الفاطميون نسبة إلى فاطمة ابنة النبي محمدﷺ وزوجة عليّ بن أبي طالب ، والعلوية ، والشيعية ، والإسماعيلية ، والعبيدية ، والروافض.

وكان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله المهدي ، الذي أعلن الخلافة وتلقب بالمهدي ، وتسمى بأمير المؤمنين في سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م ، وبعد ظهور هذه الخلافة في المغرب استولوا على مصر والشام ومعظم بلاد جزيرة العرب ، وكانت راغبة في محق سلطان العباسيين بالمشرق ، إلا أنهم لم يقوموا بذلك بسبب أن خلفاء العباسيين كان يسيطر عليهم البويهيون وهم شيعة مثلهم، وكان هؤلاء يعترفون بحق إمامتهم ، ولذلك ظهرت عداوتهم للعباسيين في شكل

---

(١) د/ عماد الدين ، هجمات مضادة في التاريخ الإسلامي ، ص ٤١ بتصرف ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢١.

صراع سياسي ومذهبي ، وقد تمكن الفاطميون بفضل الدعوة لهم في العراق من إثارة الدسائس ضد الخلافة العباسية ، بحيث طرد الخليفة العباسي القائم من بغداد ، وخطب للخليفة المستنصر الفاطمي فيها سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م ، وكان هذا أقصى ما وصلت إليه الخلافة الفاطمية من سيطرة في بلاد المسلمين[١] .

ولكن الخلافة الفاطمية ما لبثت أن ضعفت كما حدث للخلافة العباسية من قبل ، وكان السبب الرئيسي في ذلك هو استبداد الوزراء ، وهو نفس السبب الذي تسبب في ضعف الخلافة العباسية ، حينما استبد بها أمراء الأمراء ، ومن بعدهم بنو بويه ، ثم سلاطين السلاجقة ، فقد كان الخلفاء الفاطميون في المغرب، وفي أوائل حكمهم في مصر ، يعتمدون على أنفسهم في تصريف الأمور، وإن استخدموا في مصر الكاتب أو المدبر أو الوسيط أو السفير ، وهي تسميات تدل على الذي يتصرف بحسب رأي الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير، ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله ، اتخذوهم في أول الأمر ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ ، أي إنهم وزراء مدنيون ينفذون إرادتهم ، ولكن ظروف الخلافة في النصف الثاني من عهد الخليفة المستنصر بالله وما حدث فيها من مجاعات شديدة وفتن الجند ، أفقدت الخليفة ووزراءه المدنيين كل سلطة في البلاد ، بحيث كان وزراؤه يسقطون بسرعة وعين في أربع سنوات عشرين وزيرًا منهم[٢] .

ولما كان الخليفة الفاطمي عاجزًا عن قمع الفتن وتصريف أمور الدولة بنفسه، فإنه التجأ إلى واليه على عكا في الشام بدر الدين الجمالي – وهو من رجال الحرب المشهورين – سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م ، لينقذ سرير ملكه المهدد ، فأجاب بدر دعوته ، وجاءه في البحر الهائج في فصل الشتاء وأنقذ الخلافة من الثورات ،

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٨.

(٢) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٨-٣٩.

وصرف أمور الدول ، ففوض إليه المستنصر جميع أمور الملك لقاء ذلك ، فأصبح رئيس الدولة الفعلي ، أو ما عرف بوزير التفويض ، وقد حكم بدر للمستنصر حكمًا مطلقًا إلى وقت وفاته سنة ٤٨٧/ ١٠٩٤م ، فكان المستنصر معه كالمحجور عليه(١).

ومع استبداد وزراء التفويض اختلت أحوال الدولة الفاطمية وتدهورت، بحيث فقدت الدولة والخليفة الهيبة ، وازداد تسلط الوزراء العظام وتحكمهم في شئون الدولة والخلافة جميعًا ، وانتهى الأمر بمقتل كثير من الخلفاء الفاطميين ، فقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولاً سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن زريك والي الصعيد ، ولعله من أصل أرمني ، ولقب نفسه باسم الملك الصالح فارس المسلمين سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ، واستبد بالحكم ، وجعل الطفل الصغير الخليفة الفاطمي الفائز تحت وصايته ، ولم يكن له من الخلافة إلا لقبها ، وعندما توفي الفائز وهو في الحادية عشرة من عمره سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أقام الوزير بدلاً منه الخليفة العاضد الذي كان هو الآخر صغيرًا في السن مما مكن الوزير طلائع بن زريك من اللهو والعبث بالخلافة واستعراض المرشحين لها " استعراض الغنم" على حد قوله(٢).

ولم يلبث الخليفة العاضد أن أحس بثقل الكابوس ، فدبر مؤامرة مع بعض الأمراء لقتل ابن زريك ، ونجحت المؤامرة فعلاً سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م ، فخلف ابن زريك في منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد ، وحل محله في منصب الوزارة سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م ، ولكن شاور أمعن في الاستبداد وساءت سيرته ، فخرج عليه أحد أتباع زريك وهو ضرغام – وكان رئيسًا لفرقة جند طلائع الخاصة – وأتى من الصعيد إلى القاهرة ليثأر من قتل

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص ١٢.

زريك ، وتمكن من قتل ولد شاور الكبير ويهرب شاور – بعد أن خذله أهل القاهرة – إلى الشام ليستعين بالسلاجقة (الغز) ، ويتولى ضرغام وزارة العاضد ويتقلب بالملك المنصور ، وصار الصراع والتنافس مريرًا بين الرجلين[١].

وكان هروب شاور إلى الشام واستنجاده بالسلاجقة سببًا مباشرًا لربط تاريخ مصر – بعد الفاطميين – بسلاجقة الشام.

هذه هي العناصر الثلاثة التي شكلت الأرض الخصبة والمنبت الطبيعي لقيام دولة الأيوبيين ، حيث ستولد هذه الدولة من رحم هذا الضعف والتفرق الإسلامي ، فكلما اشتدت ظلمة الليل وادلهمت خطوبه كان ذلك بشيرًا بقرب الفجر المشرق ، لأن المنحة دائمًا تأتي من رحم المحنة ، فمن خلال دولة السلاجقة كانت بداية الأيوبيين ، ومن خلال الحروب الصليبية علا نجمهم، وعلى أنقاض الدولة الفاطمية في مصر قامت دولتهم.

(١) المرجع السابق نفسه.

الفصل الثاني

نشأة الدولة الأيوبية

نشأة الدولة الأيوبية :

إن الأسرة الأيوبية نشأت نشأة عادية ، فلم تجذب إليها أنظار المؤرخين ، ولم تحظ من عنايتهم في تاريخها الأول بمثل ما تحظى به الأسر الحاكمة ذات الملك الموروث والنفوذ الواسع ، وهذا هو السبب الرئيسي في اختلاف وجهات نظر المؤرخين في تاريخ وأصول نشأة هذه الأسرة الأيوبية.

وتتفق أغلب المصادر التاريخية على أن أصل الأسرة الأيوبية من الكرد، ولذلك أطلق على دولتهم فيما بعد : دولة الأكراد ، ولا يعرف على وجه التحديد من أين جاء الأكراد ، ولعلهم هجرة آرية قديمة أشبه بمجوس الفرس، وإن كانوا لما جاء الإسلام اعتنقوه منذ وقت مبكر.

وقد كان الكرد في أول الأمر يعيشون في قبائل متفرقة يحكمها أمراؤها ، ويبدو أنهم انتهزوا فتن الخلافة الإسلامية وانتشروا في أماكن عديدة ، حتى أنهم في وقت الحجاج عامل الخلافة الأموية على العراق ، كانوا قد غلبوا على عامة أرض فارس ، فوجه إلى حربهم القائد المعروف يزيد بن المهلب ، كذلك انتهزوا ضعف الخلافة العباسية واشتد ساعدهم ، بحيث أن البويهيين ، الذين سيطروا على هذه الخلافة حاربوهم في أماكن متعددة ، في سجستان وأذربيجان وديار بكر بالجزيرة العربية . ولكن مجيء السلاجقة إلى العراق ، قضى على نفوذ دويلاتهم وبخاصة في النواحي الغربية من بلاد الجبال الإيرانية ، التي أصبحت تعرف منذئذ بكردستان ، إذ أن سلاطين السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت منطقة الجبال في ملكه [1].

ومع ذلك رأى آخر ينسب أسرة صلاح الدين إلى أصل عربي ، حيث كانت قبائل العرب تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم ، وهذه الأسرة بالتخصيص من نسل المراونيين فرع بين أمية : فصلاح الدين هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن

---

[1] د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ص ٥١-٥٢.

شادي بن مروان الكردي ، ولعل ربط هذه الأسرة بمروان الكردي – كما يبدو – لا يقصد به اتصالها بجد حقيقي عرف بهذا الاسم ، أكثر مما يقصد به إلى إنها من سلالة مروان بن محمد آخر الأمويين الذي كانت أمه كردية(١) .

وعلى كل حال فالأسرة الأيوبية تنتسب كما هو ظاهر من تسميتها إلى أيوب، وهو أيوب بن مروان بن شادي ، وهنا ينتهي نسبها المعروف ، فإذا حاول البعض أن يرتفع بذلك النسب إلى عدنان أو آدم عليه السلام ، أو إذا حاول آخرون أن يدخلوا مروان في زمرة الأمويين ، فإن أمثال هذه المحاولات تريد أن تربط بين المجد الباذخ والأصول الملكية السامقة ، لحاجة في نفس أصحابها ، كما يقول المقريزي : أنها : " أقوال الفقهاء لهم ، ممن أرادوا الحظوة لديهم ، لـمَّا صار الملك إليهم "(٢) .

ومما يؤيد انتهاء نسب الأسرة المعروف عند ذلك الحد ما ذكره ابن خلكان بقوله : "إنه لا يعرف لهذه الأسرة حد بعد شادي " ، مع أنه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك أفرادها(٣) .

وقد قال ابن أبي طيء في حديثه عن نجم الدين أيوب: "وهو الأمير نجم الدين أيوب بن شادي . وحدثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين يزيد فيقول: شادي بن مروان ، وسمعت أنا من يقول : شادي بن مروان بن يعقوب، وقد ادعى (إسماعيل) بن سيف الإسلام (طغتكين بن أيوب) لما ملك اليمن أنهم من بني مروان من حمد الجعدي المعروف بالحمار ، يعني آخر خلفاء بني أمية، وقد نقبت عن ذلك ، فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا كذب ، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدًّا فوق شادي ، وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٥٢.

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٣/ ٣٧٨ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٥٦.

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢/ ٣٧٦ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر ، ص٥٧.

(صلاح الدين) رحمه الله"[١].

وحاصل الأمر أن الأسرة الأيوبية تنتمي إلى عائلة كردية كريمة الأصل ، عظيمة الشرف ، وتعد هذه القبيلة من أشراف الأكراد نسبًا وعشيرة ، وهذه العشيرة تعرف بالروادية ، ومسقط رأس هذه الأسرة بلدة دوين الواقعة عند آخر حدود أذربيجان بالقرب من مدينة تفليس في أرمينية الكبرى ، ولم يجر الرق على أحد من هذه الأسرة أبدًا[٢].

ونقطة البداية في مساهمة الأسرة الأيوبية في أحداث العالم الإسلامي بعد مفارقتهم موطنهم الأصلي بقرية دوين ، فقد كان شادي جد الأسرة الأيوبية له صاحب من تلك البلدة اسمه بهروز نشآ وشبًا معًا ، إلى أن اضطر بهروز ذات يوم – تحت ظرف من الظروف القاسية – أن يغادر دوين ويلتحق بخدمة أحد السلاطين السلاجقة ، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن ملك شاه ، وشاءت الأقدار أن يوفق بهروز في عمله وحياته الجديدة حتى أصبح مربيًا لأبناء مسعود ، فأحب أن يشرك صديقه القديم شادي فيما استقام له من النعم، ولذلك أرسل إليه يستدعيه من صديقه القديم ما تؤهله صداقته له من إعزاز وإكرام ، ثم زادت مكانة بهروز عند السلطان فجعله واليًا من قبله على بغداد سنة ١١٠٨م/ ٥٠٢ هـ ، ومنحه قلعة تكريت إقطاعًا له ، ثم جعل بهروز صديقه شادي حاكمًا على تلك القلعة ، واستمر شادي في وظيفته حتى توفي ، فولى بهروز مكانه ابنه أيوب[٣].

وهناك رأي آخر ، خلاصته أن أيوبًا خدم السلطان محمد بن ملكشاه (١١٠٤ – ١١١٧م) فرأى منه أمانة وعقلاً وسدادًا وحكمة ، فولاه قلعة تكريت ، فلما

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١٠ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٥٨.

(٢) ابن الأثير ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص٢١٣ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٥٩ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢١٣.

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١/ ٨٥ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٦٠.

آلت السلطنة إلى مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم صاحب شحنة بغداد ومتولى العراق ، فآثر بهروز الأمير نجم الدين أيوب في ولاية تكريت ، وقرر أمره عند السلطان مسعود[(١)] أي أن نجم الدين أيوب – وليس والده شادي – هو الذي فارق دوين موطنه الأصلي إلى تكريت.

وهناك رأي ثالث يقول أن أيوبًا وأخاه شيركوه غادرا موطنهما الأصلي في دوين إلى بغداد حيث خدما مجاهد الدين بهروز شحنة تلك المدينة – أي أنهما لم يخدما السلطان السلجوقي مباشرة – فعين بهروز أيوبًا مستحفظًا لقلعة تكريت ، وبعث معه أخاه أسد الدين شيركوه[(٢)] .

ولعل الرأي الأول – الذي يقول بأن شادي هو الذي رحل من دوين بابنيه أيوب وشيركوه – هو أقرب هذه الآراء إلى الصحة . ويرجح ذلك أن الآراء اجتمعت على أن أيوبًا عين على تكريت من قبل بهروز ولا بد أن يكون ذلك لمعرفة سابقة بين بهروز وبين الأسرة الأيوبية.

والراجح أن تكون تلك المعرفة قد وقعت بين بهروز وشادي . ويرجح هذا الرأي أيضًا ذلك الكتاب الذي أرسله بهروز إلى أيوب بعد أن قتل شيركوه أحد رجال بهروز بقلعة تكريت – مما سيجيء ذكره بعد قليل – وفيه يقول بهروز للأخوين : " لأبيكما عليّ حق ، وبيني وبينه مودة متأكدة ، ما يمكني أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر مني في حقكما ، ولكني أشتهي منكما أن تتركا خدمتي ، وتخرجا من بلدي ، وتطلبا الرزق حيث شئتما"[(٣)] .

على أن هناك نقطة أخرى غامضة تتعلق بالزمن الذي غادرت الأسرة فيه دوين، إذ لم يذكر المؤرخون عن ذلك شيئًا ، بل إنهم لم يذكروا عمر أيوب

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢١٠.

(٢) المقريزي ، الخطط ، ٣/ ٣٧٨ ، المقريزي ، السلوك ١/ ٤٢ ، ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ص٢١٣.

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١/ ٨٥ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٦١.

أو شيركوه عند وفاتهما – كما هي عادة المؤرخين العرب عند ذكر الوفيات – ولو أنهم فعلوا لسهل استنتاج المطلوب ، ومن هنا لم يعد أمام الباحث إلا تاريخ تولي بهروز الشحنة ببغداد لأول مرة سنة ١١٠٨م/ ٥٠٢ هـ ، فإن ما يمكن استنتاجه من ذلك أن شاديًا غادر دوين بابنيه أيوب وشيركوه قبيل ذلك التاريخ بقليل ، أي في بداية القرن الثاني عشر الميلادي – السادس الهجري[١] .

وخلاصة هذا كله أن نجم الدين أيوب أصبح حاكمًا على قلعة تكريت بعد أبيه شادي ، قبيل سنة ١١٣٠م / ٥٢٥ هـ ، وهذه هي النتيجة التي تنتهي إليها الآراء الثلاثة ، وهي الخطوة الأولى من خطوات الأسرة الأيوبية في حوادث الشرق الأدنى[٢] .

وفي الوقت الذي بدأت تظهر فيه بعض ملامح الدولة الأيوبية عبر نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه ، بدأت دولة السلاجقة في الانزواء وغروب شمسها وأخذت تلوح في الأفق دولة الأتابكة التي سوف يرتبط بها مصير الدولة الأيوبية.

فقد بدأت دولة السلاجقة في الضعف وأخذت في التحلل ، بعد ملوكها وسلاطينها العظام ، فقام السلطان ملكشاه – بناء على نصيحة وزيره المشهور نظام الملك ، الذي كان يسيطر على مملكته – بمنح آقسنقر التركي حلب ثم الموصل في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٨٧ ، ولكن بعد موت ملكشاه قام تتش أخو السلطان الذي كان يملك الشام بقتل آقسنقر ، وكان ابن آقسنقر الوحيد عماد الدين زنكي صغيرًا ، فلما كبر تمكن من استرجاع أملاك أبيه ، إذ أقطعه سلطان وقته محمود بن محمد بن ملكشاه بعض أراضي العراق كواسط والبصرة ، ثم ولاه الموصل وبلادًا أخرى في سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م ، وكان السلطان محمود قد سلم إليه ولديه : ألب أرسلان وفروخ شاه لتربيتهما ، ولهذا قيل لعماد الدين

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٦٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

زنكي أتابك ، لأن الأتابك هو الذي يربى أولاد الملوك ، كما عرفت أملاكه بالأتابكية[١] .

وأخذ عماد الدين زنكي يعمل لحسابه ، فأخذ يوسع في أملاكه على حساب بقية الأتابكة الآخرين في الجزيرة والشام ، وإن أظهر أن البلاد التي فتحها لأميره ألب أرسلان بن محمود ، وأنه نائبه فيها ، فاستولى على حلب وغيرها من مدن الجزيرة وبعض بلاد الأكراد ، وأكثر من هذا تدخل الأتابك عماد الدين زنكي في توليه في بغداد بعد موت محمود ، فانحاز إلى مسعود بن محمد بن ملكشاه ضد الخليفة المسترشد ، الذي كان يؤثر بالسلطنة غيره من أمراء السلاجقة[٢] .

وفي هذه الأثناء كان أيوب وأخوه شيركوه في حكم تكريت ، لا تتعرض لهم المراجع بشيء من الذكر أو الإيضاح ، إلى إن ارتبط تاريخهم بقاطرة الزنكيين واضطرتهما الظروف إلى المغامرة بمستقبلهما ومستقبل أسرتهما وترك حكم تكريت والاتصال بدولة عماد الدين زنكي ، وبيان ذلك أنه بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ١١٣٠م / ٥٢٥ هـ ، خلفه على السلطنة ابنه داود ، فنازعه عليها عمه مسعود ، وطلب مسعود من الخليفة العباسي المسترشد أن يخطب له ببغداد ، فلما عارض الخليفة ذلك عزم مسعود على أخذ السلطنة بالقوة وانحاز إليه وأيده في عزمه ذلك عماد الدين زنكي ، وهاجم الأتابك عماد الدين زنكي الخليفة العباسي المسترشد بالله ، ولكنه هزم على يد القائد قراجة الساقي على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة تكريت ، وجرح زنكي في المعركة ، واضطر إلى التقهقر من الميدان ، وكان لابد لسلامة ارتداده أن يسهل له حاكم قلعة تكريت عبور نهر دجلة ، وقد تقدم حاكم تلك القلعة وهو نجم الدين

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٥٤-٥٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

أيوب بأداء تلك المروءة لزنكي[١].

ولم تتوقف مخاطرة نجم الدين أيوب وأخوه شيركوه عند حد مساعدة الأتابك عماد الدين زنكي في الفرار ، بل لقد خدماه وضمدا جراحه وتقربا إليه طوال المدة التي قضاها بينهما ، ومقدارها خمسة عشر يومًا ، وعندما عزم زنكي على المسير إلى الموصل زوداه بكل ما قد يحتاج إليه في سفره من دواب لحمل متاعه حتى أنهما أعطياه جملة صالحة من البقر ، وكان من حسن الطالع أن زنكي لم ينس للأخوين تلك اليد البيضاء ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الصلة بين أيوب وزنكي ، إذ استمرت المراسلات بينهما ، وتبادل الهدايا[٢].

وفي الوقت الذي توطدت فيه الصلة بين أيوب وزنكي ، ساءت العلاقات من ناحية أخرى بين أيوب وبهروز ، حتى انتهى الأمر بأن أخرج بهروز أيوبًا عن تكريت سنة ١١٣٨م / ٥٣٢ هـ ، ولا يقتصر السبب في ذلك على أنه قدم مساعدته لثائر على الخليفة وعلى السلطان السلجوقي القائم ببغداد فحسب، فإن الفارق الزمني بين تلك الحادثة وبين رحيل أيوب عن تكريت يقدر بست سنوات ، وإنما المعقول أن تلك الحادثة قد غيرّت نفسية بهروز على أيوب وأخيه[٣] وأوجدت عنده الاستعداد الكافي للاستغناء عن خدماتهما ، وقد بلغ الأمر حده الحاسم عندما ترامت إلى مسامع بهروز الأقوال عن قوة الأخوين وتمكنهما من أهل تكريت ، وعن شجاعة شيركوه وجرأته ، وتعقل أيوب وحكمته ، الأمر الذي أصبح بهروز معه يخشى منهما ويتوجس خيفة على

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/ ٣٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٠١ ، ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ص ٢١٤ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٦٣.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١٠ ، ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ص٢١٤.

(٣) يقول ابن خلكان : وبلغ ذلك – أي بلغ بهروز ما فعله أيوب مع زنكي – فسير إليه وأنكر عليه وقال له : كيف ظفرت بعدونا وأحسنت إليه وأطلقته . ولكن ابن خلكان لم يذكر أنه طرده بسبب تلك الواقعة . راجع الوفيات ٢/ ٢٧٧.

إقطاعه ، وفي هذا الصدد يقول ابن أبي طيء : " وحضر عنده – أي بهروز– من خوفه جراءة أسد الدين (شيركوه) وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين (أيوبًا) قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه "[١].

وانتظر بهروز حتى حانت الفرصة الملائمة للاستغناء عن خدماتهما ، وهذه الفرصة يختلف المؤرخون على تفاصيلها ، ولكنها تلخص على كل حال في أن شيركوه قتل رجلاً ممن يتمون إلى بهروز لمساجلة جرت بينهما[٢].

وبالرغم من أن أيوبًا تصرف التصرف الحكيم بقبضه على أخيه ، وانتظار أمر مخدومه فيه ، فإن بهروز أرسل إلى أيوب كتابًا[٣] يأمره فيه بتسليم القلعة إلى نائبه الذي سيره صحبة الكتاب ، وقابل أيوب الأمر بالسمع والطاعة ، فأنزل أهله ومتاعه من القلعة ، واستعد للرحيل ، ومن إن علم أهل تكريت بالخبر حتى استعظموا خروج أيوب حاكمهم المحبوب من بين ظهرانيهم ، حتى إنهم خرجوا جميعًا لوداعه يوم رحيله عنهم – فلم يبق في المدينة رجل لم يخرج لتوديع أيوب عند رحيله[٤].

وإذن فالقول بأن السبب في إخراج بهروز للأخوين من تكريت هو أن شيركوه قتل رجلاً من أتباعه ، لا يخرج عن أن يكون سببًا ظاهريًا ، إذ ليس من المعقول أن يخرجهما لمثل هذا السبب بعد أن خدماه تلك المدة الطويلة لا سيما وهما ابنان لصديق عزيز عليه ، كما يعترف هو نفسه ، بل المعقول أن بهروز لاحظ ازدياد نفوذ أيوب وشيركوه في تكريت ، والتفاف الناس حولهما فخشى

---

(١) الوشامة ، الروضتين ، ١/ ٢١١.

(٢) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ص٢١٤.

(٣) يقول أبوشامة : " وأعظم على أهل تكريت خروج نجم الدين أيوب من بين أظهرهم ، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه ، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته". انظر : الروضتين ، ١/ ٢١١.

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١١.

أن يستقلا بالقلعة دونه . ولعل هذه هي النقطة الأولى التي توضح أن الأخوين كانا يسعيان منذ ذلك العهد الباكر من تاريخهما التكوين لنفسيهما.

ويلاحظ هنا قبل الانتقال مع أيوب في حياته الجديدة بعد تكريت أنه لم يحاول أن يرتبط بشخص معين ، بل ارتبط في كل أعماله بما تمليه عليه الظروف والمصلحة بدليل أنه سهل العبور لثائر على ولي نعمته ، وكان واجبه أن يقف مع زنكي عكس ذلك الموقف تمامًا – كما قال له بهروز – ولما كان نجم الدين زنكي في تلك الفترة قد بدأ يعلو ويرتفع حتى صار ندًّا للسلطان السلجوقي ، فالغالب أن أيوبًا أراد أن يربط مستقبله بتلك الشخصية ، وربما أنه أراد أن يخرج من عزلته في تكريت ، ليغامر مغامرة فعلية في حوادث الشرق الأدنى بخدمة زنكي حيث الحياة والنشاط والمستقبل المأمول . ومما يؤيد ذلك أن أيوبًا لم يقم بأي عمل إيجابي يستدل منه على أنه يريد البقاء في تكريت حتى ليخيل إلى الباحث أنه كان ينتظر تلك النتيجة وأنه كان يستعد لها.

ويلاحظ أيضًا أن أيوبًا لم يكن رجلاً عاديًا ، بل دل على أنه حاكم مستنير يعرف كيف يكسب قلوب أهل ولايته بحسن الإدارة وتوزيع العدل بين الناس، أما شيركوه فهو الرجل العسكري بعقليته ومزاجه أيضًا، يقدم على العمل ولا يبالي بعد ذلك مما يتلوه من نتائج ، بدليل أنه هو الذي قتل أحد مماليك بهروز ، وهو صاحب القلعة ، وفي يده إقراره عليها هو وأخوه أو إخراجهما منها ـ ولقد تصرف أيوب في تلك الحادثة بالذات بما يؤكد أنه كان رجلاً إداريًّا عميق الغور إذ قبض على أخيه وانتظر حكم سيده فيه ، مما قد يكون سببًا في تخفيف حدة ثورة بهروز عليه وعلى أخيه [1].

والذي يستشعره القارئ من سير هذه الوقائع هو أن أسرة بني أيوب قد رأت نفسها في طموح زنكي وسعيه للتوسع والسيطرة ، فربطت مستقبلها ومصيرها

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٦٦.

بقاطرة دولته ، فوقفت إلى جواره في ثورته على ولي نعمته ، وكانت مهام وظيفتهم – كحاكم لتكريت – أن يقوموا بنقيض فعلهم ، ولكنهم لما رأوا علو نجم الدين زنكي مع تراجع نفوذ وسلطة السلاجقة فأرادوا أن يعلوا مع موجته بدلاً من أن تعلوهم هي.

وقد حفظ زنكي لبني أيوب حسن صنيعهم وأراد مكافأتهم ، فبعث إليهم يستدعيهم سنة ١١٣٨م/ ٥٣٢هـ ، وفي ليلية الرحيل إلى زنكي ، ولد لنجم الدين أيوب طفل سماه يوسف ، وهو الذي عرف فيما بعد بصلاح الدين ، وقد تشاءم أيوب بمولوده الجديد صلاح الدين ، وقد همّ أيوب بقتل ولده عندما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة ، ولكن أحد أتباعه حذره من هذا العمل قائلاً : يا مولاي ، قد رأيت ما حدث عندك من الطيرة والتشاؤم بهذا الصبي ، وأي شيء له من الذنب؟ وبم استحق ذلك منك ، وهو لا ينفع ولا يضر ، ولا يغني شيئًا ، وهذا الذي جرى عليك قضاء الله سبحانه وقدر ، ثم ما يدريك أهذا الطفل يكون ملكًا عظيم الصيت ، جليل المقدار ، ولعل الله جاعل له شأنًا فاستبقه فهو طفل ، ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغم . ولقد أثرت هذه الكلمات في نفس أيوب ، وسرعان ما رجع إلى الحق وثاب إلى الرشد ، واتبع طريق الإسلام الصحيح[1] .

ولما هاجر الأخوان نجم الدين أيوب وأخوه شيركوه من تكريت إلى الموصل رحب بهم عماد الدين زنكي وأكرمهم وأمر المواكب بلقائهم خارج مدينة الموصل ، وأقطع الأخوين إقطاعات واسعة في شهرزور وفي غيرها ، واعتمد عليهما في تصريف شئون دولته الأتابكية ، وأشركهم في حروبه ، وبعد استيلائه على بعلبك بمساعدتهما سنة ١١٣٩/ ٥٣٤هـ ولى عليها نجم الدين أيوب نائبًا في

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢/ ٣٧٧ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٢ ، أبو شامة ، الروضتين، ١/ ٢١١ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢١٥.

حكمها[١]

من الأحداث السابقة نستخلص أن زنكي قد لمس في نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه من الفطنة السياسية والمهارة العسكرية فاستغلهما أحسن استغلال وأشركهما في خطوبه السياسية والعسكرية ، ولم يكن تقريبه لهما واعتماده عليهما في شئون دولته ليدهما البيضاء عليه فقط ، وإلا فكان من اليسير عليه أن يكافئهما بمال جزيل أو إقطاعية تعويضًا لهما عما ضاع منهما في تكريت وبذلك يكون قدر رد لهما جميلهما ، ولكنه أسند إلى نجم الدين أيوب ولاية هي أقصى ما وصل إليه في الجنوب أي في الجهة التي رغب في التوسع فيها ، وهذا فضلاً عما كان بينه وبين معين الدين إنر أمير دمشق من نزاع دائم على تلك المدينة ، مما يدل على الثقة الكبيرة التي وضعها زنكي في نجم الدين واعتقد أنه أهل لها.

وبالرغم من أنه لم يمر كثير من الأحداث إلا أن ملامح شخصية نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه بدأت تتضح ، فقد كان من حظ أيوب أن يكون الأشهر كما كان الأكبر ، على أنه يستحق لأنه شب عاقلاً رزينًا ، وأدق ما يوصف به أنه كان رجلاً نذر الكلام ، فلا يتكلم إلا عن ضرورة ، وله أسلوبه الخاص الذي يفرض على من حوله محبته والثقة في إخلاصه ، له المقدرة الكبيرة على قراءة وتفسير الأحداث السياسية والعسكرية وبناء مواقفه عليها، وليس أدل على ذلك من موقفه من عماد الدين زنكي ومد يد العون له في محنته وموقفه من أخيه أسد الدين شيركوه بعد مقتل مملوك سيده بهروز.

ويبدو أن عماد الدين زنكي قد رأى بعين الخبير والقائد الماهر هذه الخلال الحميدة فأحسن استغلالها وأشركه في أعماله العسكرية والإدارية وأسند إليه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٥١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١١ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٦٧.

حكم قلعة بعلبك على الرغم من الصراع المرير الذي كان يدور عليها بينه وبين معين الدين إنر أمير دمشق.

أما أسد الدين شيركوه ، فله من لقبه – أسد الدين – كثيرًا من الصلات التي تجعله مقربًا من القيادة العسكرية ، فكان كالفدائي الذي لا يفر من المعركة بل هو يطلبها ، وكان شيركوه ثابت الجنان ، خارق الذكاء ، بارع الحيلة لا يحيط به الكرب إلا اخترع ما ينجيه منه ، وقد وصف بالجرأة التي قد تصل إلى درجة التهور ، وهذا ما يدل عليه موقف من مملوك سيده بهروز.

وعلى الرغم من أنه يوجد اختلاف بين كلا الرجلين في التكوين النفسي والطباع ، ولكن هذا الاختلاف جعل من أحدهما مكملاً للآخر ، فكانا جناحا الدولة الأيوبية ، وقدماها التي سوف تبدأ بهما المسير قدمًا إلى الأمام ، وللحقيقة فإن ذلك الأمر كان أحد أهم عوامل قيام الدولة الأيوبية.

على كل حال أخذت أواصر العلاقة القوية تربط بين زنكي والأخوين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وبالرغم من أنه لا توجد معلومات كافية من أعمالهما في هذه الفترة إلا أنه من المحتمل أنهما كانا يشاطران عماد الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين أو ضد الأتابكة السلاجقة الآخرين .

وفي هذه المرحلة انفرد أسد الدين شيركوه بخدمة أحد أبناء عماد الدين زنكي هو نور الدين محمود ، فقربه وقدمه ، ورأى منه شجاعة يعجز عنها غيره، كما توطدت أواصر العلاقة الجيدة بين أسد الدين شيركوه وبين جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي وزير عماد الدين زنكي ، فاستطاع هذا الوزير أن يمهد للأخوين الطريق وأن يوطد نفوذهما ومركزهما عند زنكي ، فازادا منه قربًا، وأصبحا ركنًا أساسيًا في إدارة دولته إداريًا وعسكريًا(١) .

ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن إذ جاء اغتيال عماد الدين زنكي على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ١١/ ١٥٣ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٦٩.

يد أحد أتباعه سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م [1] ليعطل مؤقتًا مشروع الأخوين ، فكان عليهما الحفاظ على ما قد وصلا إليه وأن يعيدا ترتيب أوراقهما.

وفي حين ترك عماد الدين زنكي ملكه لأربعة من أبنائه هم : سيف الدين غازي ، نور الدين محمود ، وقطب الدين مودود ، ونصرة الدين أمير أميران، فقد ترك لهم فوق ذلك رجال عملوا منذ اللحظة الأولى على الدفاع عن أبناء سيدهم المتوفى وهم وزيره جمال الدين محمد بن علي وحاجبه صلاح الدين محمد الياغسياني ثم الأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه.

وقد اختص الأولان بغازي وعملا على إقرار الأمر له بالموصل وجاهدا حتى تمكنا من ذلك ، أما شيركوه ونجم الدين أيوب فقد أخذا يعملان لمصلحة نور الدين محمود ، حيث سارعا باصطحابه إلى حلب فدخلها بعد مقتل أبيه بأيام في ٧ ربيع الثاني ٥٤١هـ/١٦ سبتمبر سنة ١١٤٦م ، وحفظ نور الدين لشيركوه ذلك الجميل . كما حفظ أبوه زنكي من قبل له ولأخيه حسن صنيعهما في تكريت (فكان نور الدين يرى له – أي لشيركوه – ذلك وأسد الدين – شيركوه – يمن عليه بأنه كان السبب في توليته) [2].

وهكذا آل القسم الشرقي من دولة زنكي وعاصمته الموصل إلى ابنه سيف الدين غازي ، كما آل القسم الغربي منها إلى ابنه الثاني نور الدين محمود وعاصمته حلب . وعلى أساس ذلك التقسيم أصبحت مدينة بعلبك – وهي إقطاع أيوب – داخلة ضمن أملاك غازي ولعل هذا هو السبب الذي دعا نجم الدين إلى التريث انتظارًا لما ينجلي عنه الموقف.

وقد أصبح على نور الدين – حسب هذا التقسيم الجديد – إذا أراد أن

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٩٩ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ص٥٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤٧.

يتوسع وأن يحترم في نفس الوقت حدود أخيه ، أن يتجه نحو الغرب وإلى الجنوب ، أي صوب الأملاك الصليبية ، وبدا موقفه الجديد مساعدًا له على ذلك. إذ أن كثيرًا من المشاكل التي تعرض لها والده زنكي وإعاقته إلى حد كبير من التفرغ للصليبيين كالنزاع مع السلطان السلجوقي أو مع الخليفة العباسي أو الأكراد الضاربين في شمال العراق حول الموصل وديار بكر ، هذه المشاكل جميعها زالت الآن تمامًا من طريق نور الدين ، لبعده عن مصدرها ، ولارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالقسم الشرقي من دولة زنكي ، وهو الذي آل إلى سيف الدين غازي، ومن هنا كان في استطاعة نور الدين أن يركز أعماله الحربية ضد الصليبيين[١] .

إلا أن أعداء البيت الزنكي الأتابكي ، ظنوا أن وفاة زنكي فرصة طيبة لاسترجاع أملاكهم التي انتزعها منهم قبل وفاته ، فحاول جوسلين استرداد الرها التي ذهبت عنه ولايتها على يد زنكي ، ولكنه فشل ، وكان الدرس الذي لقيه أهلها على يد نور الدين محمود كافيًا لعدم التفكير في أية محاولة أخرى[٢] .

وكذلك حاول ريموند أمير أنطاكية أن ينال من أملاك المسلمين ، فأرسل جيوشه لتغير على حلب وحماة ، وقتل الجيش الصليبي وسلب وتمادى في العدوان ، فلما وصل الخبر بذلك إلى مسامع شيركوه ، خرج فيمن كان بحلب من الجنود ، وجدَّ في أثر الصليبيين حتى أدركهم ، واستخلص أسرى المسلمين من أيديهم ، ولم يكتف بذلك ، بل شن الغارة على أملاكهم وعاد إلى حلب مظفرًا[٣] .

ومن أولئك الانتهازيين أيضًا معين الدولة إنر أمير دمشق إذ قام لاسترداد

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٧١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥١ ، ابن خلدون ، العبرة ، ٥/ ٢٣٨ .

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤٨.

بعلبك وحاصرها ، وهي المدينة التي منحها زنكي لنجم الدين أيوب أقطاعًا لـه منذ أن استولى عليها سنة ١١٣٩م ، وقد صارت تلـك المدينـة داخلـة في مملكـة سيف الدين غازي ، كما صار أيوب تابعًا له بحكم تقسيم المملكـة الأتابكيـة إلى قسمين ، وقد قام أيوب بتسليم بعلبك إلى الأمير إنر سنة ١١٤٦م/ ٥٤١هـ دون قتال ، وذلك بعد وفاة زنكي بوقت قصير بل إنـه دخـل في خدمـة إنـر بعـد أن تعهد له بما طلبه من مال وإقطاع[1].

وقد قيل في تبرير ذلك: أن أيوبًا خشى أن يشب نزاع بين سيف الـدين ونـور الدين محمود ، فلا يجد سيف الدين الوقت الكافي لمساعدة بعلبك ، وقيل أيـضًا: أنه رأى أن الموصل – عاصمة أملاك سـيف الـدين ومقـره – بعيـده عنـه ، وأن دمشق قريبة ، وربما أخذت منه المدينة عنوة وقـسرًا ، ولـذلك سـلمها إلى إنـر . وربما يكون نجم الدين أيوب قد توقع أن سيف الدين غازي رجل لا يرجى منه. وقد دلت الحوادث التاريخية المستقبلية علـى ذلـك – ولم يعـول أيـوب كـثيرًا في الوقوف إلى جانبه ، والواقـع أن الشخـصيتين القـويتين بـين المـسلمين في ذلـك الوقت كانا نور الدين صاحب حلب وإنر أمير دمشق ، ويحتمل أن أيوبًا أراد أن يحتاط للمستقبل فانضم هو إلى ناحية إنر ، وترك أخاه حيث كان عند نور الدين محمود ليضمن مصالح أسرته من الناحيتين معًا . ولهذا السبب افترق أيوب عـن أخيه ، وهذا كله مجرد احتمال ؛ لأن النصوص التاريخية تقف صامتة عن تفـسير تلك الحوادث ، على أن ما يرجح ذلـك الاحتمـال أنـه كـان في اسـتطاعة نجـم الدين أيوب أن يسلك مسلكًا مختلفًا عما فعل. فقـد كـان في اسـتطاعته مـثلاً أن يقاوم حتى يصل إليـه المـدد مـن غـازي أو مـن نـور الـدين محمـود ، وكـان في استطاعته أيضًا أن يترك بعلبك إن هو فقد أي أمل في حمايتها ، ويتجه إلى حلـب حيث يعيش جنبًا إلى جنب مع أخيه شيركوه ، أما تسليمه بعلبـك وأخـذه نظـير

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٨٥ ، ابن خلدون ، العبرة ، ٥/ ٢٣٨ ، علـي بيـومي ، قيـام الدولة الأيوبية ، ص٧٢.

ذلك مالاً وإقطاعًا بالقرب من دمشق وانضواءه في خدمة إنر ، فهو سلوك غير مرضي وغير طبيعي ، والدليل أن نور الدين نفسه لم يعجبه ذلك المسلك، إذ كان ينتظر أن ينضم أيوب إليه ، ولذلك تغير فترة من الزمن على شيركوه كما يذكر أبو شامة[١] .

وهكذا افترق الأخوان - إلى حين - ليعملا في خدمة سيدين متنافسين[٢] . على أنه باسترجاع تاريخ نجم الدين أيوب نجد أن هذا الموقف لا يختلف كثيرًا عن موقف مشابه عندما أسدى خدمة جليلة لزنكي عند تكريت بعد هزيمته في معركته الحربية ضد الخليفة والسلطان ، ومغزى الموقفين ، ينم عن شخصية نجم الدين الذي كان يعمل دائمًا لمصلحته دون التقيد بسلطة أو الخضوع لحاكم أو أمير ، وفي إطار سعيه لتكوين ملكية أو إقطاعية له ولأسرته كان يتخذ مواقفه لا ما تمليه عليه مقتضيات السلطة والخضوع لغيره ، وهو في ذلك الموقف لا يختلف كثيرًا عن غيره من الطامحين والمغامرين من عصره ، لاسيما وأن المسرح السياسي والعسكري للعالم الإسلامي كان يسمح بذلك ، وكانت أرضه خصبة جيدة الإنبات لمثل هذه النماذج.

وعلى كل حال نجد الأخوين يشاركان الأتابكتين ، خطر الحملة الصليبية الثانية التي قامت من أوربا على إثر إستيلاء عماد الدين زنكي على إمارة الرها. وقد جاءت هذه الحملة الصليبية الثانية بقيادة ملك فرنسا لويس السابع ، وملك الألمان كونراد الثالث ، حيث اخترقت جنودهما بلاد وسط أوربا ، واتجهت نحو القسطنطينية ، ولكن الترك السلاجقة في آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما في سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ، وبالرغم من أن هدف الحملة الأساسي هو استرداد الرها التي استولى عليها عماد الدين زنكي سنة ١١٤٤م ، إلا أنها تحولت عن هدفها الأصلي ، وهاجمت دمشق وهي الإمارة

(١) الروضتين ، ١/ ٤٨.

(٢) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٧٣.

الإسلامية التي كانت حليفة لمملكة بيت المقدس اللاتينية منذ ١١٣٣م ، وكان ذلك التحول نتيجة حتمية للنزاع والتنافس بين إمارتي أنطاكية وبيت المقدس الصليبية . إذ رغب رايمند أمير أنطاكية أن تهاجم الحملة نور الدين ، وأن تحقق الغرض الأساسي من مجيئها وهو استرداد الرها ، إلا أن الحملة جنحت عن ذلك الغرض وهاجمت دمشق تلبية لرغبة مملكة بيت المقدس وتحقيقًا لمصالحها الخاصة ، وكان كونراد قد رسا في عكا منذ أبريل سنة ١١٤٨م/ ٥٤٣هـ ، فأحاط به منذ قدومه جماعة ينادون بمهاجمة دمشق ، أما لويس السابع فقد بقي في إنطاكية – حيث نزل منذ مجيئه – حتى شهر يونيه ، حيث غادرها ينضم إلى بقية الحملة ، وفي ٢٤ يوليه بدأ الصليبيون حصار دمشق ، وقد بذل إنر ما يستطيع من حيله للخروج من ذلك المأزق ، فعمل على إيقاع الفرقة بين الصليبيين ، فأرسل إلى كونراد يهدده بتسليم دمشق إلى سيف الدين غازي ، وأرسل إلى لويس في نفس الوقت يهدده بتسليم دمشق إلى الألمان ، كما أرسل يطلب المدد من نور الدين محمود وسيف الدين غازي، واشترك نجم الدين أيوب مع معين الدين إنر في صد الحملة الصليبية على دمشق ، ولم يظل الحصار طويلاً إذ خاف معين الدين إنر على ملكه من ولدي عماد الدين ، وأرسل إلى الصليبيين وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال(١).

وبالرغم من أن المصادر لا تذكر شيئًا كثيرًا عن مشاركة نجم الدين أيوب في حملة الدفاع عن دمشق ضد الحصار الصليبي ، إلا أنه من المرجح أن يكون قد لعب دورًا كبيرًا في الجهاد ضد صليبوا الحملة الصليبية الثانية بدليل أنه – أيوب – قد عُين قائدًا أعلى لجيوش دمشق بعد رفع الحصار عنها مباشرة ، فلابد وأن يكون هذا المنصب وهذه الترقية ، جاءت لتكليل جهوده ومكافأة له على دور بارز قام به في صد هذه الهجمة الصليبية على دمشق وهكذا انتهى المطاف بنجم

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٢٤١- ٢٤٢ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٦٠ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٧٤-٧٥.

الدين أيوب حاكم تكريت السابق إلى أن يصبح القائد الأعلى لجيوش أكبر مدن الشام أهمية في ذلك الوقت وهي دمشق ، أما أسد الدين شيركوه فقد نال في ميدانه نجاحًا لا يقل عن نجاح أخيه أيوب ، إذ بقى حيث هو في بلاط نور الدين محمود ، ولا غرابه في ذلك إذ ترجع الصلة بينهما إلى أيام زنكي نفسه ، وقد أخذ شيركوه يساهم منذ اللحظة الأولى في جميع أعمال نور الدين محمود الحربية بل هو صاحب الفضل في إنقاذ دولة نور الدين محمود الجديدة مما حاق بها من أخطار من ناحية الصليبيين منذ أواخر سنة ١١٤٦م إذ رد رايمند أمير أنطاكية عن حماة وحلب – كما سبق القول – ثم إن نور الدين قد وجه عنايته منذ سنة ١١٤٨م/ ٥٤٣ هـ إلى أنطاكية يريد أن يهدم تلك الإمارة اللاتينية الثانية ، كما هدم والده زنكي من قبل إمارة الرها ، ولكن رايمند فاجأ الجيش النوري عند فاميا وهزمه.

ثم التقى نور الدين ورايمند في عناب في يونيه من تلك السنة ، وانتصر نور الدين وأسر كثيرًا من الصليبيين ، وقتل رايمند في ميدان القتال ، والفضل في انتصاره يرجع إلى أسد الدين شيركوه حتى ليقال أنه هو الذي قتل رايمند بيديه[١].

ولم تلبث الحوادث بعد ذلك أن حفزت نور الدين إلى التعجيل بالاستيلاء على دمشق ، فبعد الحملة الصليبية الثانية ومصالحة معين الدين إنر للصليبيين وتسليمهم لبعض القلاع والمال ، وأصبح نور الدين أكبر الأتابكة الزنكيين ، بعد وفاة أخيه الأكبر غازي في الموصل سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م ، وتنازل أخيه الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام مقابل وراثته أملاك أخيه غازي في الجزيرة ، فبدأ يفكر جديًا في الاستيلاء على أتابكية دمشق ، وضمها لأملاكه، كما كان أبوه يريد من قبل ، والذي جعله يعجل بذلك أيضًا هو استيلاء الفرنجة

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤٨ ، ٥٥-٤٨ ، على بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٧٦.

على عسقلان أكبر معاقل المصريين في الشام سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣ ، وذلك الأمر قوى أملهم بعد ذلك في أخذ دمشق ، وتابعوا الغارة عليها ، وفي هذه الأثناء وفي ٢٩ أغسطس سنة ١١٤٩م -٢٣ ربيع الثاني ٥٤٤ هـ ، توفى معين الدين أنر وضعف خليفته مجير الدين صاحبها عن حماية أملاكه . ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك[١] .

وازدادت آمال نور الدين في الاستيلاء على أتابكية دمشق لاسيما وأن ذلك الأمر كان يحظى بمباركة الخليفة العباسي المقتفى لأمر الله ، حيث حث نور الدين على تحقيق هذه الأطماع ، فمنحه تقليدًا على البلاد الشامية وكذلك المصرية، التي كانت هي الأخرى تعاني الاضطرابات بسبب مقتل الخليفة الظاهر في سنة ٥٤٩هـ/ ١١٣٤م[٢] ويجب أن لا نغفل رغبة نور الدين في تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة التي قضى زنكي والده نحبه في تحقيقها وانتظر نور الدين محمود تحقيقها.

وبدأ نور الدين يهاجم دمشق بالفعل ، وكانت المحاولة الأولى في ربيع سنة ١١٥٠م ، ولم يفز منها بطائل ، اللهم إلا ذكر اسمه بالخطبة بعد اسم الخليفة والسلطان ، والمحاولة الثانية بعد ذلك بعام واحد أي في سنة ١١٥١م ، حيث وصل إلى ضواحيها في أبريل من تلك السنة ، وبقى هنالك حتى يوليه، ولكنه لم يصل إلى شيء تلك المرة أيضًا[٣] .

إلا أن نور الدين لم ييأس من الاستيلاء على دمشق فأعاد الكرة وهاجمها في أبريل سنة ١١٥٤/ المحرم سنة ٥٤٩هـ ، وجعل عليها أسد الدين شيركوه،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ٢/ ١٧ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٦٠.

(٣) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٧٧.

وأصبح على الأخوين شيركوه ونجم الدين أيوب أن يقفا وجهًا لوجه ، إلا أن نور الدين دبر الأمر بينه وبين نجم الدين في دمشق عن طريق أخيه شيركوه، حيث سهل لهما دخول المدينة والاستيلاء عليها [١]، ويقول المقريزي: "إن أيوبًا عمل كثيرًا في أخذ دمشق لنور الدين" [٢].

وبذلك تكون دمشق قد انتقلت إلى أملاك نور الدين محمود بعد طول صراع، حيث نقل إليها مركز حكمه بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق، فعين عليها نور الدين أيوبًا حاكمًا عليها ، وشيركوه نائبًا عنه وصلاح الدين لشرطة المدينة [٣].

ومن المحقق أن الأسرة الأيوبية قد تمكنت تمامًا من دولة نور الدين محمود ، وأن هذا هو أول ظهور سياسي لصلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث السياسية.

وموقف أيوب في فتح دمشق وتسهيل تلك المهمة أمام نور الدين يلقي ضوءًا جديدًا على مبادئه وسياسته ، ويؤكد مرة أخرى أنه إنما كان يعمل لمصلحته الخاصة، دون نظر إلى أي اعتبار آخر ، وحسب الباحث دليلاً على توفيق أيوب في تلك المغامرة أنه عين حاكمًا على دمشق من قبل نور الدين بالرغم من أن ماضيه بالنسبة إليه لم يكن يشجع على شيء من الثقة فيه ، على أن توفيقه لم يقف عند ذلك الحد ، بل تجمع المراجع على أن أيوبًا بلغ ما لم يبلغه أحد في بلاط نور الدين ، حتى إنه لم يكن يجلس في حضرته أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب ، إذ كان يجلس دون أن ينتظر إذنه [٤]، فإذا

---

(١)ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ٢١٤-٢١٥.

(٢)المقريزي ، الخطط ، ٣/ ٣٧٨.

(٣)ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣/ ٤٧٤ ، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٨ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٦١.

(٤)أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٣ ، ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ٢١٥ ، أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٦.

أضيف إلى ذلك أن نور الدين كان رجلاً مهابًا إلى أبعد حد ، وأن أيوبًا سبق لـه أن تخلى عن نصرة البيت الزنكي الأتابكي بتسليمه بعلبك إلى أعداء ذلك البيت وضح تمامًا إلى حد كان أيوب رجلاً قوي الشخصية قديرًا على أن يفرض محبتـه واحترامه والثقة فيه على المحيطين به جميعًا وليس عجبًا أن يرث عنه ابنـه صـلاح الدين يوسف كل هذه الصفات [1].

وقد حظى شيركوه عند نور الدين بالمركز الثاني بعد أخيه نجم الدين أيـوب، حتى قيل إن نور الدين لم يكن يعمل عملاً إلا بمشورته [2] ويؤيد ذلك مـا ذكـره ابن الأثير من أن شيركوه كان أكبر أمير مع نور الدين، وأن شأن شيركوه عظـيم وأن مكانته علت حتى صار كأنه شريك لـه في الملـك [3] والحقيقـة أن شـيركوه قدم لنور الدين خدمات جليلة كوفئ عليهـا بـأن أصبح مقـدم عـسكره ، هـذا فضلاً عن الإقطاعات الوافرة التي منحه نور الدين إياها [4].

أما صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب – وهو الشخصية الثالثة البارزة في الأسرة الأيوبية – فقد ولد بتكريـت سـنة ١١٣٨م/ ٥٣٢هـ في نفـس الليلـة التي غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك القلعة ، وقضى صلاح الدين عام طفولته الأول في الموصل ، وبعد ذلك بعام أصبح والده أيوب حاكمًا على بعلبـك الـتي أقطعها إياه عماد الدين زنكي عندما فتحهـا سـنة ١١٣٩م ، وفي بعلبـك قـضى صلاح الدين سنوات طفولته الباكرة ، وليس مـن شـك أنـه تلقـى هنـا مختلـف العلوم الإسلامية التي يتلقاها الطفل المسلم ، ولابد أيضًا أن يكون قد لقى عناية لا يتمتع بها أبناء الأوساط من النـاس بوصـفه ابـن حـاكم المدينـة ، فـدرس – بالضرورة – علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والأنساب والتـاريخ ، وغـير

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٧٩-٨٠.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٥.

(٣) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ٢١٥ ، ٣٠٥.

(٤) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ص ٢١٤.

ذلك من ضروب المعرفة الإسلامية.

فلما قتل زنكي سنة ١١٤٦م ، وارتحل أيوب عن بعلبك وانضوى في خدمة أنر كان صلاح الدين قد بلغ الثامنة من عمره ، وإذن فقد قضى الفترة التالية من حياته في دمشق حيث شهد حوادث الحملة الصليبية الثانية ، ومحاولاتها المختلفة للاستيلاء على تلك المدينة ، وليس من المعقول أن يكون صلاح الدين قد قام بشيء من أعمال الدفاع عنها ، لأن سنه لم تكن تزيد وقتذاك عن الحادية عشرة إذ أن المعروف أن حصار دمشق حصل سنة ١١٤٩م ، وبعد ذلك بخمس سنوات أي في سنة ١١٥٤ التقى الأخوان أيوب وشيركوه مرة أخرى في بلاط واحد وسيد واحد هو نور الدين محمود ، بعد أن سهل نجم الدين أيوب الاستيلاء على دمشق ، وتقلب صلاح الدين فترة السنوات العشر التالية في بلاط نور الدين محمود.

والمتواتر أن تلك الفترة من تاريخ صلاح الدين ليست من الوضوح في شيء، وليس معنى ذلك أن صلاح الدين نشأ شابًا خاملاً ، وليس معناه أيضًا أن نشأته كانت مجهولة إلى تلك الدرجة التي يصورها بعض المؤرخين ، ذلك لأن تنقلات صلاح الدين مع والده من تكريت إلى بعلبك إلى دمشق معروفة جيدًا وصفة قاطعة ، ومدة إقامته في كل مدينة من تلك المدن لا يجهلها باحث في تاريخه ، كما أن المناهج التعليمية التي تلقها معروفة كذلك بالقياس إلى التقاليد الإسلامية المتوارثة في التعليم ، تلك التقاليد التي ظلت سائدة في الشرق الأدنى إلى عهد ليس ببعيد[١].

وليس أدل على ذلك من قول ابن شداد في صلاح الدين : " ونشأ يوسف – صلاح الدين – وعليه لوائح السعادة وجالس مشايخ أهل العلم ، فجمع له الشيخ قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن محمد بن مسعود النيسابوري

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٨١-٨٢.

عقيدة قوى جميع ما يحتاج إليه ، فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده ويأخذها عليهم[١] .

وكان يوصف بأنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإذا كان المحدث ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن حضور مجالسهم سعى إليه بنفسه وسمع عليه ، فكان يتردد على الحافظ الأصفهاني بالأسكندرية ، وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن – يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته ، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضر في خلواته ويحضر شيئًا من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه[٢] هذه الحقائق تدل على تنشئة صلاح الدين الدينية والتي ساهمت بشكل كبير في تكوين شخصيته.

ونرى أن هذه التنشئة الدينية ساهمت بشكل كبير في التقريب بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي منذ فترة مبكرة من حياة صلاح الدين ، ولاسيما وأن الظروف قد جمعتهما في أكثر من موقف وفي أكثر من مناسبة ، وهذا ما دعى أبو شامة إلى القول : أن نور الدين شمل صلاح الدين بعنايته وأنه ألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[٣] .

أضف إلى ذلك أنه كانت هناك أشياء جمعت بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ساهمت في توثيق العلاقة بينهما ، حيث أن كلا الرجلين قد أوْلعا بلعب الكرة ، وقد ذكر المؤرخون لاسيما أبو شامة أكثر من موقف ومناسبة في لعب الكرة جمعت بين الرجلين ، فقد كان صلاح الدين شديد الإتقان لها ، وكان نور الدين أشد الناس شغفًا بها[٤] .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، ص ٧.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩.

(٣) الروضتين ، ١/ ١٠٠ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥.

(٤) أبو شامة ، الروضتين/ ١/ ١٠٠ ، ١٤٩-١٥١.

وهذا يدل على أنه كانت توجد قواسم مشتركة بين كلا الرجلين مما مكن لصلاح الدين في قلب وعقل نور الدين محمود ، هذا بخلاف شجاعة وإقدام صلاح الدين ومهارته العسكرية ، وأفاد كثيرًا من ملازمته لأبيه أيوب وعمه شيركوه ، فأخذ عن الأول الهدوء والتعقل ورصانة التفكير ، وأخذ على الثاني الشجاعة والبسالة وفنون الحرب ، وهذا فضلاً عن ملازمته لنور الدين نفسه، والإفادة من أساليبه في فنون الحرب والسياسة ، ومما لا شك فيه أن هذه المؤهلات التي تمتع بها صلاح الدين قد منحت نور الدين الثقة فيه والاعتماد عليه منذ وقت مبكر من شبابه ، وهو لا يزال في الثامنة عشرة من عمره ، فقد ذكر أبو شامة في حوادث سنة ١١٦٠م / ٥٥٥هـ ، أن نور الدين ولى صلاح الدين شحنة دمشق[١].

ومن المحتمل أن يكون نور الدين رأى من صلاح الدين ما يؤهله للقيام بأعباء هذا المنصب الهام ، ويدل على الثقة الكبيرة في صلاح الدين ، لأن هذه الوظيفة كان يشغلها قبل ذلك تورانشاه عم صلاح الدين ، فلو لم يجد نور الدين في صلاح الدين ما يؤهله لها ، لما عزل عمه وولاه بدلاً منه.

وخلاصة القول أن ثلاثي الأسرة الأيوبية نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي قد تمكن نفوذهم في الدولة النورية وتغلغل ، وبسطوا سيطرتهم على مراكز القوى فيها.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الأسرة الأيوبية كانت تعمل في سبيل تحقيق مصالحها الشخصية ، ويدل على ذلك كثرة انتقال أيوب من مدينة إلى مدينة ومن خدمة أمير إلى آخر وفقًا لمصالحه الشخصية ، واستشهد بموقفهم من نور الدين محمود في حلب سنة ٥٤٤هـ / ١١٥٨م ، حيث اشتد عليه المرض حتى توقع الناس موته ، فسلك شيركوه مسلكًا يدل تمام الدلالة على أنه أراد أن

---

(١) الروضتين ، ١/ ١٠٠.

يتخذ من تلك الظروف فرصة لتحقيق أطماع الأسرة ، إذ سارع – وكان في إقطاعه بحمص – بالمسير إلى دمشق يريد أن يستولى عليها ، ولكن أيوبًا – وكان لا يزال حاكمًا لتلك المدينة منذ ولاه نور الدين عليها عقب فتحها – أنكر على أخيه محاولته وقال له : أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيًا خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها[١].

وقد عمل شيركوه بنصيحة أخيه أيوب فعاد إلى حلب وخدم نور الدين حتى شفي ووضع حدًا لأطماع أخيه نصرة الدين الذي أراد أن يرث أملاك نور الدين وهو لا يزال على قيد الحياة.

وإذا كان المؤرخون محقون في وصفهم للأسرة الأيوبية بأنها كانت ذات أطماع ومصالح شخصية فالذي يمكن قوله أن المسرح السياسي والعسكري وقتذاك كان مناسبًا جدًا لظهور مثل هذه الشخصيات ، وكانت الأطماع الشخصية هي روح العصر الذي عاشت فيه هذه الأسرة ، ففي غمار الحوادث التي سادت الشرق الأدنى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كان المغامرون من المعاصرين كثيرين ، وراحوا يعملون جاهدين لأنفسهم ولأسرهم . ونجح من ساعدته مواهبه ووسائله واستعداده للنجاح ، وأخفق من عجزت وسائله وساء تدبيره.

وإذا سأل سائل : إذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان أيوب قد طمع حقًا في أن يؤسس لنفسه ولأسرته ملكية ، فلماذا لم تبد منه بادرة للدلالة على ما هو بصدده ، كما بدت من غيره كمجد الدين بن الداية مثلاً أحد رجال نور الدين محمود وكنصرة الدين أخي نور الدين نفسه ؟ ولماذا لم تتضح نوايا الأيوبيين – إذا كانت لهم نوايا في الملك حقًا – إلا بعد استقرار صلاح الدين في مصر؟

---

(١) ابن الأثير الكامل ١١٥/ ٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ٢٤٣-٢٤٤.

والجواب على ذلك واضح ، وهو أن نجم الدين أيوب لم يكن بالرجل القصير النظر ، فقد عاصر زنكي وابنه نور الدين وهما بطلا الجهاد ضد الصليبيين ، فلو أنه حاول أن يحقق أطماعه ، أو أن يكشف عنها قبل الأوان ، وفي الوقت غير الملائم لكان معنى ذلك اصطدامه معهما أو مع أحدهما ، وهما رجلان قويان لا بشخصيهما بل بسيادتهما التي سارا عليها ، وقد بينت الحوادث أن كل من وقف لزنكي أو ابنه نور الدين من المسلمين كان نصيبه الإخفاق ، والسياسي الماهر هو الذي يسير مع التيار ويجري مجراه حتى يستطيع تحويله لصالحه.

وعلى ذلك المبدأ – مبدأ الحرص والتأني والتفكير الطويل – سار أيوب وعلى أساسه ظل يعمل في خدمة زنكي ونور الدين ، وكانت النتيجة أن مر الوقت ومر معه عمر أيوب وشيركوه ، وكان ذلك من حسن حظ صلاح الدين بأن يكون طليعة تلك الأسرة ، ومن المحتمل أن يكون أبوه قد أدرك أن مجد الأسرة الأيوبية كان ينحصر فيه ، لأنه شاب مازال في مقتبل العمر ، ولما كان يبدو عليه – كما اتفق المؤرخون وكما هو واضح فيما أحرزه من نجاح فيما بعد – من سمات البلوغ والنبوغ والذكاء وقوة الشخصية وربما كانت قوة شخصية عماد الدين زنكي ونور الدين محمود قد أجبرت أفراد الأسرة الأيوبية على إخفاء أطماعهم – إن كانت لهم أطماع أصلاً – فكانت شخصيتهما يعمل ألف حساب لها ، ونور الدين على وجه الخصوص ، وهناك بعض العوامل التي ساعدت نور الدين على الانفراد بالساحة الإسلامية آنذاك ، فأخوه سيف الدين غازي توفى سنة ١١٤٩م / ٥٤٤ هـ ، وترك طفلاً صغيرًا سرعان ما توفى ، وأخوه الثاني نصرة الدين لما بدت منه بوادر الخيانة وقت مرضه ، عمل نور الدين على إبعاده عن الساحة(١).

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ٥/ ٢٣٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١١٠ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٨٩.

أما أخوه الآخر قطب الدين مودود فقد اكتفى بولايته في سنجار وعاش بعيدًا عن حوادث الشام ومشاكلها.

وأخذت الأحداث كلها تصب في مصلحة صلاح الدين الأيوبي كوريث للأسرة النورية والأيوبية معًا ، فلم يكن لنور الدين سوى طفل وطفلة صغيرين، وأخذ أيوب – فيما يبدو – يعد ابنه يوسف ويمهد له الطريق، لأنه كان مقتنعًا تمام الاقتناع بإمكانيات صلاح الدين وبأنه هو الأنسب والأصلح لاستكمال طموح هذه الأسرة ، وليس أدل على ذلك من أن صلاح الدين لم يكن هو الابن الوحيد لنجم الدين أيوب ، وهو ليس الابن الأكبر بل كان هناك أبناء آخرون يكبرون صلاح الدين سنًا ، ومع ذلك لم يقع الاختيار إلا على صلاح الدين ؛ لأن أباه ارتأى فيه مصلحة الأسرة ، إذ كانت المناصب لا توسد إلا لأهلها من الذين يصلحون لتوليها ، وهذا هو المبدأ الذي سارت عليه الدولة الأيوبية فيما بعد.

وخلاصة القول أن أفراد الأسرة الأيوبية قد تمكنوا من الدولة النورية ، وقد ثبتت جذورهم في الأرض الإسلامية ، وأخذوا ينتظرون الوقت المناسب لظهور دولتهم على الساحة ، والتي سوف تجيء على يد صلاح الدين في قادم الأحداث.

الفصل الثالث

استيلاء الأيوبيين على مصر باسم نور الدين محمود

استيلاء الأيوبيين على مصر باسم نور الدين محمود:

كانت مصر زمن الفاطميين الأواخر تعاني آلام الموت البطيء ، ولم تعد قادرة على التخلص من الآثار السلبية المدمرة للكارثة الاقتصادية التي حلت بها طوال خمسينيات ومنتصف ستينيات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، والتي عرفت باسم الشدة المستنصرية نسبة إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، الذي حدثت المجاعة والوباء والغلاء في عهده (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) ، ومنذ اغتيال الوزير الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م ، دخلت البلاد دوامة لا نهائية من العنف والمؤامرات والدماء ، ولم يجلس على العرش حاكم قوي يمكنه إدارة شؤون البلاد ، وأخذت البلاد تنزلق بسرعة نحو التدهور والانهيار ، وقد أدى هذا إلى إنعاش آمال الأعداء الذين كانوا يتوقون إلى الاستيلاء على مصر بمواردها البشرية وتنوع مصادرها لتكون لهم سندًا في حسم الصراع.

وفي سنة ١١٥٠ بدأ الملك الصليبي بلدوين الثالث – ملك مملكة بيت المقدس الصليبية – يستعد للهجوم على مصر ، وفي سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م تمكن الصليبيون من الاستيلاء على عسقلان التي كانت آخر المعاقل المصرية في فلسطين. وبذلك يكون قد تم إخضاع الساحل الفلسطيني كله لسيطرة الصليبيين بعد نصف قرن من نجاح الحملة الصليبية الأولى ، ومن ناحية أخرى كان هذا النصر الصليبي تعويضًا للهزائم الصليبية التي ألحقتها بهم قوات نور الدين محمود في الجبهة الشمالية[(١)].

وعندما مات بلدوين الثالث في ١٠ فبراير سنة ١١٦٣م ، كان واضحًا أن سياسته الخارجية التي كان محورها غزو مصر واحتلالها سوف تستمر ، فقد واصل خليفته أماريك الأول (١١٦٣ – ١١٧٤م) الذي تعرفه المصادر العربية

(١) د/ قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص١٧.

باسم "عموري" محاولاته لغزو مصر ، وكان المسرح السياسي في المنطقة العربية حافزًا له على مواصلة محاولاته الدؤوبة في هذا السبيل ، ذلك أن اتحاد محور الموصل – حلب دمشق تحت حكم نور الدين ، كان يشكل ضغطًا سياسيًا وعسكريًا هائلاً على الكيان الصليبي في الشمال من ناحية ، كما أن سقوط مصر في أيدي نور الدين محمود المفتوحتين كان يمثل خطرًا لا يمكن أن يحتمله الصليبيون في حالة حدوثه . إذ أدرك عموري أن امتداد حكم نور الدين إلى مصر سيضع الكيان الصليبي بين شقي رحى.

ولكن أماليك "عموري" لم يكن وحده الذي يفكر في هذا الاتجاه ، فلم يكن لرجل في مثل ذكاء نور الدين محمود أن يتجاهل تأثير التطورات السياسية الداخلية في مصر آنذاك على مجريات الصراع الصليبي الإسلامي ، وعليه فقد كان المسرح السياسي في المنطقة جاهزًا للسباق بين المسلمين بقيادة نور الدين محمود والصليبيين بقيادة أماليك "عموري" للاستيلاء على مصر[١].

توالت الأحداث الداخلية في مصر حتى انتهى الأمر بشاور إلى طلب المعونة من نور الدين محمود[٢] سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م ، واعدًا إياه بثلث خراج مصر ، وبمنح جنده الإقطاعيات ويقيمون في مصر ويكون متصرفًا تحت أمره ونهيه ، ليمده بقوة يستعين بها على ضرغام الذي ما لبث أن انتزع منه منصب الوزارة ، وقد تردد نور الدين محمود في أول الأمر في إجابة طلب شاور بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية إلا أنه قبل في نهاية الأمر ، ودوافع نور الدين محمود بقبول ذلك التدخل:

الدافع الأول : حالة الفوضى التي سادت مصر أواخر أيامها ، فقد أصبحت الدولة تعاني كثيرًا من مظاهر الانحلال والفساد حتى صار من الأمور الشائعة

---

(١) د/ قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص ١٧.

(٢) راجع نهاية الفصل الأول.

أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً ، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم ، أو بين الوزراء والخلفاء ، فقد قتل الظافر على يد وزيره ، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاؤون ، وقتل الوزراء بعضهم بعضًا ، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء : العادل بن رزيك ، وشاور وضرغام ، فضعفت الدولة ، وسادت الفوضى البلاد ، ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر بعد أن طرده ضرغام ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود ، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام ومصر(١) .

الدافع الثاني : إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين محمود على التفكير جديًا بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية ، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام ٥٤٩هـ ، شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر(٢) .

الدافع الثالث : من أقوى الأسباب التي أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية ، العامل العقدي ، فقد كانت دولة باطنية المعتقد ، إسماعيلية المذهب ، فرقت وحدة المسلمين ، وتآمرت مرارًا مع أعدائها ، فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها وشريعة في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة وبلاد الشام(٣) .

ويجب ألاَّ نغفل أن نور الدين أدرك أنه في حالة رفض طلب شاور فسيكون البديل هو الصليبيين ألد أعداء الدولة الإسلامية ، كما أنه رضخ أمام إلحاح

---

(١) محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص ١٩٥-١٩٦ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص ١٩٧-١٩٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٦٠.

شيركوه الذي كان يرغب بشدة في الذهاب إلى مصر على رأس الحملة[١].

وقد يكون الدافع وراء إلحاح شيركوه وتحريضه لنور الدين محمود أنه فكر في تأسيس ملك فيها لأسرته ، وكان هذا باتفاق مع أخيه نجم الدين أيوب بدليل اصطحاب صلاح الدين الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وعلى النقيض يظهر أن صلاح الدين لم يكن متحمسًا للمغامرة في مصر ، فيروى أنه قال : أخرجت مع عمي كارهًا وأنا كمن يقاد إلى المذابح[٢] ، ونفس المعنى هذا أورده ابن شداد[٣].

والحقيقة المؤكدة أنه لم تكن رغبة أسد الدين شيركوه وحدها هي التي دفعت نور الدين محمود إلى الولوج في قضايا مصر ومحاولة الاستيلاء عليها ، بل اجتمعت رغبة نور الدين ومصلحته مع رغبة أسد الدين شيركوه لتصب في مصلحة الأمة الإسلامية كلها.

والذي لا يمكن إغفاله أيضًا أن قبول نور الدين لطلب شاور راجع إلى الرغبة في استعلام حقيقة أحوال مصر التي كانت قد ضعفت ، وعلى الحصول ما يمكن الحصول عليه الفوائد بتقوية المسلمين إذا ما اتحدت معه قوى مصر الوافرة الثراء بالمال والرجال ضد الفرنجة ؛ إذ لا يبدو أنه كان يقصد وقتذاك فتحها وضمها إلى ملكه بالشام.

ويظهر أن شاور لم يكن يرغب في حضور شيركوه وصلاح الدين ، ولعله كان يظن أن نور الدين سوف يكل قيادة الحملة إليه ، ولكن أسقط في يده لما جهز نور الدين عسكره من الترك بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وهذا ما سوف تفصح عنه الأحداث لاحقًا.

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٩/ ٨٤-٨٥ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٦١.

(٢) ابن طباطب ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٧٢.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٣.

لمواجهة الموقف استنجد ضرغام – المنافس لشاور – بالصليبيين ، وتعهد لعموري الأول – مقابل مساعدته – بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين ، ولكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء الشرقية - رغم تقدم سنه - مكنته من أن يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ونجح في الوصول إلى القاهرة في بداية مايو سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام من كان حوله ؛ إذ كان الجند الفاطمي يكرهه لأمور منها قتله قوادهم وأمراءهم وأعيان البلاد ، إذ كان يأخذ بالظنة حتى بين أصحابه وأفراد أسرته ، مما جعلهم ينحرفون عنه ، مما دعا الخليفة العاضد بدوره إلى التخلي عن تأييده له ، فاستطاع شاور بمماليكه وعربانه أن يهزم ضرغام ، ويقتل أخاه ، وتولى بعدها شاور الوزارة للخليفة العاضد ثانية وتلقب بالملك المنصور ، وكتب له العاضد سجلاً بتفويض الوزارة(١) .

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة بمساعدة شيركوه ظهرت منه بوادر الغدر والخيانة ، ولم يرع العهود التي قطعها على نفسه لنور الدين محمود ، وأرسل إلى شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام ، فامتنع شيركوه وأسرع إلى بلبيس والشرقية واستولى عليها ، فعمل شاور على الاستعانة بالصليبيين لإخراج جيش نور الدين محمود من مصر ، وأرسل إلى عموري ملك بيت المقدس الصليبي يستنجده ، وأخذ يخوفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

- يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل البالغ عددها سبعًا وعشرين مرحلة.

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/٦، المقريزي، السلوك ٤٣/١.

- يمنح هدية لكل من يصحبه من الفرسان الاسبتارية الذين يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس الصليبية ، في محاولة منه لإغراء الفرسان بالاشتراك في الحملة.
- يتكفل بنفقات علف أفراسهم ، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر ، وكان يستهدف من وراء ذلك أن يستفيد من نزاعهما معًا للانفراد بالبلاد.

لم تكن قوات عموري لتتأخر عن المجيء إلى مصر ليس حبًا في شاور بقدر ما هي درءًا لخطر استيلاء نور الدين وانفراده بمصر ، لم يكن يهمه الخليف في مصر سواء أكان ضراغام أم أصبح شاور بل الذي يهمه هو دخول مصر ، ففي صيف سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م دخلت قوات الصليبيين مدينة فاقوس الحالية في محافظة الشرقية ، وفرضت القوات المشتركة – شاور والصليبيين – الحصار على قوات شيركوه في بلبيس لمدة ثلاثة شهور.

وأراد نور الدين أن يخفف الحصار عن شيركوه وقواته ويجبر الصليبيين على الجلاء عن مصر ، فأخذ يغير على الأطراف الشمالية من مملكة بيت المقدس ويهدد حدودها ، ودمر قوات الصليبيين في هزيمة ثقيلة في حارم ثم في بانياس، فأدرك عموري أن حملته مقضي عليها بالفشل في ظل امتناع شيركوه في بلبيس وفي ظل الضغط القوي الذي يمارسه نور الدين على ممتلكاته في الشمال، وكان موقف شيركوه صعبًا أيضًا ، فالمؤن بدأت في النفاذ فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد ، وأن الوضع ليس في صالحه لذلك رضي الطرفان – في ظل صعوبة موقفيهما – بالدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر . وفعلاً تم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة ، شهر تشرين الأول ، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم ،

وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بالجيش[١] .

كان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته ، فتخلص من الجيوش الإسلامية والصليبية على السواء ، كما تخلص من ضرغام ، وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكم في مقاليد البلاد.

ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر تحت تصرف نور الدين محمود ، وأصبحت مصر محور تفكيره وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره ، ولم تنقطع عن تبادل الآراء فيها مع أصدقائه الذين كانوا يزودونه بأخبارها ، أرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد ، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها ، وما شاهده وعاينه بنفسه ، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجعه على العودة إليها[٢] .

ولم يكن شيركوه وحده هو الذي يحدوه الأمل في العودة إلى مصر بل كان صلاح الدين نفسه يمنى نفسه بالعودة إلى مصر ، وكان قد بلغ مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة لدى عمه أسد الدين شيركوه (وكان لا يغفل أمرًا ولا يقرر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، وما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكر الصحيحة، واقترن النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبرًا لأمره ، مفكرًا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثًا بذلك ، مقررًا لقواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين[٣] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٧-٣٨ ، المقريزي ، السلوك ١/ ٤٣ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٦٤ ، د/ قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٢ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٦٣.

(٢) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل ، ص ٣٣١- ٣٣٢ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ١٦٣.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين الأيوبي ، ص٣٦-٣٧ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ، ص٢٦.

الحملة النورية الثانية :

كانت جيوش نور الدين محمود وعموري الأول قد أجبرتا على الخروج من مصر سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م ، إلا أن خروجهما جاء بعد أن كونا فكرة عميقة وواضحة عن مدى الثراء والقوة الاقتصادية التي تحفل بها البلاد ، وفي نفس الوقت الضعف الشديد الذي كانت عليه البلاد مما جعلها ثمرة يانعة تسقط في يد أول من تصل إليها يده ، وهذا ما جعل أسد الدين شيركوه يصفها بأنها : "بلاد بلا رجال"(١) .

وبالرغم من حرص نور الدين محمود الدائم على عدم تشتيت قواته في الوقت الذي كان يقف فيه أمام الصليبيين وجهًا لوجه إلا أنه كانت لديه رغبة أكيدة في الاستيلاء على مصر لعدة أسباب منها الثقل الاقتصادي الذي تتمتع به مصر ، وموقعها الجدي في محاصرة الصليبيين شمالاً وجنوبًا ، وحتى لا تسقط في أيديَ الصليبيين ، وكان هناك سبب آخر عقدي لا يمكن إغفاله ، ونعني به السبب المذهبي ، ذلك أن الخلافة الفاطمية – في مصر – كانت في نظره مصدرًا لفرقة العالم الإسلامي لأنها قسمت ولاء المسلمين في الشرق الأدنى بين خلافتين ومذهبين الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، ولذلك كان من الطبيعي أن يتجه نور الدين وهو الحاكم السني الحريص على دعم الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر ، وهي الخطوة التي كانت تحظى بمباركة الخليفة العباسي الذي كانت تحدوه الرغبة في القضاء على الخلافة الفاطمية هو الآخر(٢) .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٩ ، عبد المنعم ماجد ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٦٥.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٢٢.

وظل نور الدين محمود يتحين الفرصة التي يرد بها الصفعة لشاور الذي غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد عليه بالصليبيين ، ولم يلبث شاور أن عاد إلى سيرته الأولى ، يظلم ويقتل ويصادر أموال الناس ، بحيث لم يبق للخليفة العاضد الفاطمي معه أمر ولا نهي ، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلصه من شاور[1].

ولم يتردد نور الدين محمود في إرسال شيركوه على رأس حملة إلى القاهرة سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م ، حيث اصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين ، ويبدو أن شيركوه عمل حساب إلى استنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغار بقواته في القيام بهجوم على القاهرة واختار أن يعبر النيل إلى الجيزة ، حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية من النيل ، ولم يتوان شاور عن الاتصال بملك المقدس الصليبي والتفاوض معه موضحًا له الخطر الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر، ورحب عموري بدعوة شاور طمعًا في امتلاك مصر ، أو على الأقل إبعاد قوات نور الدين محمود عنها ، حتى يتمكن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود ، وقبل أن تستكمل الاستعدادات ، وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء ، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدم شيركوه نحو مصر ، غير أن هذا التدبير جاء متأخرًا ، بالرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه ، وكادت تقضي على أفراده ، فإنه وصل إلى برزخ السويس سالمًا ومنها إلى الفسطاط حيث عسكر هناك[2].

(١) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل ، ص٣٤٢.

(٢) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الزنكيين في الموصل ، ص ٣٤٣ -٣٤٤.

وأرسل شاور إلى عموري الأول يستعجل حضوره إلى مصر ، فأسرع عموري الأول ملك بيت المقدس إلى المجيء إلى مصر في أواخر سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ليغزوها بجيوشه للمرة الثالثة ، وعندما علم شاور بوصول حلفائه خف لاستقبالهم عند بلبيس واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل ، في حين كان شيركوه لا يزال رابضًا على الضفة الغربية في مواجهة الفسطاط ، وفي تلك المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم قبل أن يقدموا له العون في محاربة شيركوه ، وكان أن تعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدمًا ، ومن الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية ، لذلك تحمس لها الصليبيون ، وحرص عموري على إكسابها صفة رسمية ، فأرسل كلا من هيو سيد قيسارية، وجفري مقدم فرسان الداوية إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها ، فاستقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي ، وتم التصديق على المعاهدة(١) .

وكان أسد الدين شيركوه قد تقدم إلى الصعيد ، وتقدم الجيش الصليبي وقوات شاور لقتال قوات أسد الدين في الصعيد وعند قرية البابين التي تلاصق مدينة المنيا دارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الصليبيين سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧، حيث شارك صلاح الدين في هذه المعركة ، واضطر عموري الأول إلى الارتداد إلى معسكره على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط ، وغدت الفرصة سانحة أمام شيركوه لاحتلال القاهرة لو أنه سار في أثر عموري ، ولكنه آثر السلامة ولم يحاول تعقب عموري ، واتجه شمالاً على الضفة الغربية للنيل ليدخل الإسكندرية حيث تلقاه أهلها مرحبين به ومستنكرين فعل شاور واستنجاده

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، ص١٥ ، محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل ، ص٣٤٤.

بالصليبيين[١].

ويبقى صلاح الدين في الإسكندرية في حين عاد عمه إلى الصعيد ليسيطر عليه وترك شيركوه مع صلاح الدين حامية صغيرة خوفًا من أن تهاجمه القوات الصليبية ، وهو ما حدث بالفعل إذ سار جيش الصليبيين مع قوات شاور إلى الإسكندرية وهاجموا صلاح الدين وضربوا على المدينة الحصار ، فعان الأهالي صلاح الدين على الحصار وصبروا على الحصار وقلة الأقوات ، وأمام هذا الموقف المتأزم بدأت المراسلات بين الفرنج وأسد الدين شيركوه الذي كان قد أخذ طريق العودة من الصعيد إلى الإسكندرية لنجدة أهلها وصلاح الدين ، وتم الاتفاق على أن يرحل الطرفان من مصر وتبادل الأسرى[٢].

وتسلم شاور الإسكندرية في منتصف شهر شوال ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ، ثم رحل شيركوه وتبعه عموري ملك بيت المقدس الذي خرج شاور في وداعه حتى مدينة بلبيس ، ولكنه في هذه المرة اتفق مع الصليبيين على ترك حامية عسكرية في القاهرة وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عساكر إليها وأن يكون لهم من دخل الديار المصرية في السنة مائة ألف دينار ، ويتم تعيين مندوب يمثل الملك الصليبي في القاهرة بحيث يكون على مرأى ومسمع في شئون الحكم ، وقد قرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد الخليفة الفاطمي ولا مشاورته فإنه كان ممنوعًا من التصرف ، وشاور كان هو المستبد بأمور الدولة[٣].

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٧-٣٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/٦ ، سعيد عاشور ، الأيوبيين والمماليك ، ص١٦.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٧ - ٣٨ ، المقريزي ، السلوك ١/ ٤٣ ، قاسم عبده قاسم ، ص ٢٢-٢٣.

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ٣/ ٢٦٨ ، قاسم عبده قاسم ، تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٢٣.

الحملة النورية الثالثة على مصر:

إذا كان عموري قد غادر مصر مضطرًا سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ، فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها لاسيما أن تردد الصليبين على مصر في المرات السابقة أدى إلى أنهم اطلعوا على ثرواتها وطمعوا فيها، كما أن الحامية الصليبية التي تركها عموري في مصر جعلوا لأنفسهم شحنة في القاهرة ، وتسلموا أبوابها ، وحكموا المسلمين حكمًا جائرًا ، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم ، أرسلوا إلى ملكهم عموري في القدس يستدعونه ليملك مصر ، وهونوا عليه أمرها ، فتردد خوفًا من سوء العاقبة ، وقد أدرك عموري أنه في حاجة إلى مساعدة قوة خارجية تمكنه من الاستيلاء على مصر ، فتحالف مع امبراطور الروم – الإمبراطورية البيزنطية – وتم الاتفاق على أن تقوم قوات صليبية بيزنطية مشتركة بغزو مصر ، إلا أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كان مشغولاً في البلقان ، فطلب إمهاله بعض الوقت لينفذ اتفاقه مع عموري ضد مصر ، أما الملك عموري فلم يشأ الانتظار وانفرد بالهجوم على دلتا النيل، متذرعًا بأن شاور اضطر تحت ضغط العالم الإسلامي إلى أن يقلب سياسته رأسًا على عقب واتصل بنور الدين محمود طالبًا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية(١).

وعندما غزا عموري مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م لمس انقلابًا كبيرًا في موقف السلطة الحاكمة ، إذ قاومته بلبيس واضطر إلى استخدام العنف للاستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعًا صوب القاهرة ، أما شاور فقد أحس بحرج موقفه واستياء الناس من سياسته، فأحرق الفسطاط في نوفمبر٥٦٤هـ/ ١١٦٨م، وأخذ يعد العدة للدفاع عن القاهرة ، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة

(١) محمود حامد الناصرة ، الجهاد والتجديد ، ص ٢٠٢ ، سعيد عاشور ، الأيوبيين والمماليك ، ص١٩ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٦٩.

ألف دينار ، وكان أن انسحب الصليبيون إلى جهة سرياقوس، حيث ترامت إلى أسماعهم أخبار اقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه[١] .

وكان الخليفة الفاطمي العاضد عقيب حريق الفسطاط أرسل إلى نور الدين محمود يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين ثلث دخل مصر ، ومنح قادته الإقطاعات الضرورية ، أن يسمح لشيركوه وقادته بالبقاء في مصر[٢] .

وفي الوقت الذي بدأت قوات نور الدين محمود بقيادة شيركوه تتجه نحو مصر ، كان عموري قد وضع خطته على أساس مباغتة قوات شيركوه – وهي متعبة – وقبل أن تتحد قواته مع القوات الفاطمية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عموري أن شيركوه عبر الصحراء الشرقية إلى القاهرة حيث رحب به الأهالي والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين ، وهكذا لم يجد عموري في تلك المرة حليفًا يعتمد عليه في مصر ، إذ اتحد المسلمون جميعًا ضده ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب سريعًا عائدًا إلى فلسطين في يناير ١١٦٩م/ ٥٦٤ هـ ومعه رجاله خائبين مما أملوه[٣] .

---

(١) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٩ ، محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص٢٠٢.

(٢) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الفاطميين ، ص٥٠٤ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٦٩.

(٣) محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص٢٠٢ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٩.

أما شيركوه فقد خرج به أهل مصر واستقبلوه عند وصوله إلى القاهرة استقبال البطل المخلص ، وسرعان ما استدعاه الخليفة العاضد الفاطمي ، وخلع عليه خلعه الوزارة ، ولقبه بلقب "المنصور" وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والأوقاف الوافرة ، وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم. وكان من الطبيعي أن يشعر شاور بخطر شيركوه بعد أن رأى ترحيب العاضد به ، ولكنه لم يستطع فعل شيء لأنه رأى العساكر الكثيرة بظاهر البلد ورأى العاضد معهم من داخله ، لذلك أرسل شاور مرة أخرى للصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق دمياط ، بل إن شاور دبر مؤامرة للقضاء على شيركوه وأمرائه وقتلهم جميعًا أثناء وليمة يولمها لهم ، ولكن ابنه الكامل نهاه عن ذلك ، فقال له أبوه : والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعًا ، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسًا واحدًا ، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه(١) .

وأخيرًا اتفق بعض الأمراء مع صلاح الدين على التخلص من شاور هذا الخائن المراوغ ، فأسروه ، وسمع العاضد بذلك ، فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه ، وأذن أسد الدين بقتله فقتله ، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م وتم إنقاذ البلاد والعباد من فساده(٢) .

ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة ، وقصد قصر العاضد ، فخلع عليه الوزارة ولقبه الملك المنصور وأمير الجيوش ، غير أنه لم تطل وزارته حيث توفى

---

(١) محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص ٢٠٣.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٩.

شيركوه في الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٥٦٤هـ ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين [(١)].

عندما توفى أسد الدين شيركوه في الثالث والعشرين من مارس ١١٦٩م/ ٢٢ جمادي الآخر ٥٦٤ هـ ، لم يكن ابن أخيه صلاح الدين قد تجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، فثار نزاع حول من يتولى منصب الوزارة ليملأ مكان شيركوه ، وبدا النزاع ظاهرًا حينًا ومستترًا حينًا بين ثلاث قوى متباينة ، وهي العاضد ورجال قصره من جهة، وكبار القواد الذين أرسلهم نور الدين محمود في بداية الحملة الثالثة ؛ ليكونوا عونًا لشيركوه في الظاهر وعيونًا وأرصادًا عليه في حقيقة الأمر من جهة ثانية ، ثم الأسرة الأيوبية من جهة ثالثة.

أما العاضد فقد ذهبت الحوادث الأخيرة بصفوة رجاله وقواده ، فلم يبق إلى جانبه من رجاله البارزين سوى كبير الحصيان السود مؤتمن الخلافة نجاح، ولذلك لم يتطلع على ذلك المنصب مصري واحد منذ مقتل شاور ، ومضت أيام وزارة شيركوه التي دامت شهرين وخمسة أيام دون أن تبدو من المصريين بادرة من الثورة أو العصيان ، ولعل جمهور المصريين الذين كانوا يتوقون إلى الأمن والطمأنينة بعدما أصابهم من ألوان القلق والاضطراب ورأوا في حكم شيركوه الحازم ما حقق لهم تلك الرغبة النفسية الأساسية ، مما جنح بهم إلى السكينة والهدوء ، ولهذا كله لم يقم أحد من المصريين مطالبًا بالوزارة بعد شيركوه، وإن ظلت تلك الرغبة كامنة في نفوس رجال القصر وحزب العاضد بصفة عامة حتى ظهرت فيما بعد على شكل مؤامرة قام بها مؤتمن الخلافة نجاح وأنصار الخليفة العاضد من الجند السودانيين.

---

(١)سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٩ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٧١.

أما كبار القواد النوريين ، فلم يكن نور الدين موفقًا توفيقًا تامًا في اختيارهم كأداة معارضة لبني أيوب في مصر ، ذلك لأن الكثيرين منهم مالوا في النهاية إلى جانب بني أيوب ، إما بدافع الصداقة كالفقيه الهكاري الذي أخذ على عاتقه تمهيد الأمور لصلاح الدين ، والذي ظل يخدمه طوال حياته ، خدمات جليلة الأثر ، وإما بدافع القربى كالحارمي صهر أيوب وخال صلاح الدين ، وإما بدافع الجنس الكردي المشترك كالمينجي وابن المشطوب ، والنتيجة أنه لم يبق من أولئك القواد والنوريين من ظل مخلصًا إخلاصًا تامًا لنور الدين سوى القائد عين الدولة الياروقي ، حتى أنه لم يستطع البقاء في مصر في ظل وزارة صلاح الدين، فقفل راجعًا إلى الشام.

أما الأسرة الأيوبية فقد أصبح صلاح الدين الممثل البارز لها في مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، فبدت كفته في الواقع أرجح الكفات المتنازعة على الوزارة لعدة عوامل منها صلة القرابة التي تربط بينه وبين الوزير الراحل شيركوه ، وبخاصة وقد شهدت مصر في العهد الفاطمي المتأخر – أكثر من مرة – الابن وزيرًا بعد أبيه ، وكان منصبه بعض ما يورثه له ، فقد جاء بعد بدر الجمالي ابنه الأفضل ثم حفيده أحمد ، وجاء بعد طلائع بن زريك ابنه العادل، ومن بين تلك العوامل أن صلاح الدين قام بدور كبير – لا يقل أهمية عن دور عمه شيركوه – في فتح مصر ، حيث استفاد خلال تلك التجارب العملية ما أهله للقيام بأعباء منصب الوزارة ، ويضاف إلى ذلك أن كثير من أصدقاء الأسرة الأيوبية كعيسى الهكاري عملوا جاهدين لتكوين الوزارة لصلاح الدين بعد عمه ، ومن بين تلك العوامل أيضًا عامل هام رجح كفة صلاح الدين هو أن شيركوه ترك له ضمن ما ترك خمسمائة مملوك هم الأسرية وعلى رأسهم بهاء الدين قراقوش ، فلما مات سيدهم انحازوا – كما هو المنتظر – إلى جانب صلاح الدين ، ورغبوا أن تكون الوزارة له ، وتلك قوة لا يستهان بها وكان لها ولا شك أثرها البارز في إتمام ذلك الخيار.

وربما وقع اختيار الخليفة الفاطمي العاضد على صلاح الدين كوزير له ، لأنه كان شاب حدث السن قليل الخبرة السياسية . كما يتصوره وأنه ربما ظن أنه إذا أولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود إليه البلاد.

وبالرغم من ذلك كله فإن صلاح الدين قد بدا مترددًا وربما امتنع عن قبول المنصب بعد وفاة عمه ، فيقول أبو شامة[(١)]: فامتنع صلاح الدين ـ وضعفت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به وأخذ كارهًا . إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل!! فلما حضر إلى القصر خلع عليه الوزارة : الجبة والعمامة وغيرها ولقب بالناصر.

وكيفما كان الأمر فإن صلاح الدين انصرف عقب وفاة عمه مباشرة إلى عمل ما يقتضيه حادث الوفاة من واجبات العزاء ، فشيع جنازته وأقام له العزاء ثلاثة أيام ، وظل منصب الوزارة شاغرًا خلال تلك الأيام الثلاثة ، حتى يقع الاختيار على الوزير الجديد ، ذلك أنه لم يلبث أن النزاع والتنافس بين القواد النوريين على ذلك المنصب نتيجة لمصالحهم المتباينة ، وكاد ذلك الصراع أن ينتهي إلى نتيجة خطيرة ، إذ يذكر المؤرخ تقي الدين المقريزي[(٢)] ما نصه : "لما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولا خدموه ، فسعى الفقيه عيسى الهكاري في الإصلاح بينه وبينهم" . وبسرعة تمكن صلاح الدين من حل هذه المشكلة التي انتهت باتفاق والتفاف الغالبية حوله ، على حين رحل أمير واحد منهم برجاله إلى الشام.

ثم ذهب الهكاري إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين الأيوبي ،

---

(١) الروضتين ، ١/ ٤٠٦-٤٠٧.

(٢) اتعاظ الحنفا ، ٣/ ٣٠٩ ، د/ قاسم عبده قاسم ، الأيوبيين والمماليك ، ص٢٨.

فضرب له على وتر حساس هو صلة القرابة التي تربط بينه وبين صلاح الدين ، فهو ابن أخته ، وابن الأخت وما يملك ملك خاله ، وليس من الجائز أن يكون الخال أول من يسعى إلى هدم ابن أخته ، وإنه إن عكف على معارضته خرج الأمر من يديهما معًا ، وبتلك المقالة استطاع الهكاري أن يستميل الحارمي إلى صلاح الدين وأن يضمن تأييده له ، ولم يتركه حتى عاهده وحلف له ، ثم قصد الفقيه عيسى بعد ذلك إلى قطب الدين ينال من حسان المنيجي ، ولم يعدم معه هو الآخر وسيلة نفسية يخفف بها من حدة معارضته وسخطه وهي أنهما كرديان، وأنه ليس من الحكمة أن يتعارضا ويتنازعا فيخرج الأمر من الأكراد إلى الأتراك ، وكذلك قام الفقيه عيسى بإقناع غير هذين الأميرين بطريقته الماهرة(١).

وهكذا لبس الهكاري لكل حالة لبوسها متبعًا أدق قواعد الدهاء في إقناع المخاطب والاستحواذ على شعوره ووجدانه ، غير أن واحدًا من أولئك الأمراء النوريين لم تنفع فيه الدبلوماسية ولم تثنه المفاوضات والوعود عن معارضته صلاح الدين والكيد له ، وهو عين الدولة البارقي ، ولما وجد البارقي أن الميدان في مصر قد ضاق بمعارضته رحل إلى الشام ، لينفث هناك دسائسه وسمومه في بلاط نور الدين محمود ، فكان سببًا من أسباب ما حدث فيما بعد بين الرجلين.

وكان من نتيجة تلك المفاوضات التي جمعت كلمة النوريين على اختيار صلاح الدين للوزارة الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين وخلع عليه الوزارة، ولقبه بلقب الملك الناصر ، وهو اللقب الذي حمله شيركوه نفسه من قبل.

والمتواتر في كتب التاريخ سواء عربية أم أجنبية أن الذي حمل العاضد على

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٧٣ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٢/ ٣٨١ ، علي بيومي ، الأيوبيين والمماليك ، ص١٥٢.

اختيار صلاح الدين ما كان يظنه من ضعفه وهدوءه ورغبته في العزلة والابتعاد عن الناس ، وما كان يرجوه من وراء ذلك الاختيار أيضًا في حدوث الانقسام بين أفراد الجيش النوري واستغلاله لعله يؤدي إلى فرصة ليطردهم جميعًا من البلاد المصرية [١].

على أن ذلك التعليل لا يستند إلى كثير من الحقيقة ، فإنه لم يحدث في تاريخ العاضد أن اختار وزيرًا من وزرائه ، وإنما فرض أولئك الوزراء جميعًا سطوتهم وسلطتهم عليه ، ولم يقف هو منهم سوى موقف السميع المطيع ، بل إنه اختير للخلافة بناء على رغبة وزير من الوزراء وهو طلائع بن زريك ، فكيف انقلب ذلك الخليفة الضعيف هكذا بين عشية وضحاها إلى رجل قادر يستطيع أن يختار وأن يبني اختياره على أسباب ، وقد يقال: إن رجال القصر هم الذين اختاروا صلاح الدين ، ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا شيئًا مذكورًا بجانب أمراء الجيش النوري حتى يستطيعوا أن يفرضوا كلمتهم عليهم ، ولو كان أمر اختيار الوزراء بيد رجال القصر لما تم اختيار صلاح أو غيره من الأمراء النوريين ، ولأصبح واحد من رجال العاضد وزيرًا ، ثم إن السبب الذي قيل أن صلاح الدين قد اختير من أجله وهو ضعفه وهدوؤه ليس من الصواب في شيء ، فقد اشتهر صلاح الدين بالعزلة والاعتكاف عن الناس ، ولكن العزلة والهدوء ليس معناهما الضعف ، ثم إن إيثارة العزلة والاعتكاف كان وقت إقامته بالشام وقبل أن تلقى على عاتقه أعباء الأمرة ، فلما أرادت له الأسرة أن يصحب عمه شيركوه إلى مصر في الحملات الثلاث ليكمل على يديه دروسه في الحرب والحياة، ترك العزلة والاعتكاف ، وبدأ يشاطر في الحوادث الجارية بنصيب مرموق.

ومن ثم بدا صلاح الدين الساعد الأيمن لعمه في كل أعماله ، فساهم في

---

(١) إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص١٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٥٤ ، علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٥٣.

حصار بلبيس أيام الحملة الأولى ، وبرز في معركة البابين في الحملة الثانية حتى استدرج الأعداء ليلقى بهم إلى الهزيمة والفرار ، وقام بالإسكندرية أيام حصار الصليبيين لها مدة الحملة الثالثة ، يبث من روحه المعنوية في المحاصرين ، حتى جاءته النجدة من عمه شيركوه ، ثم إن صلاح الدين كان زعيم القائلين بفكرة القضاء على شاور ، وهو الذي أخرج هذه الفكرة الصائبة إلى نور وحيز التنفيذ، وقام بدور بارز في ضبط الأمور في مصر بعد القضاء على شاور ، حتى إن أبو شامة[(١)] ليذهب إلى عكس الرأي المتواتر تمامًا ، حيث يقول : " إن العاضد مال إلى صلاح الدين لما كان يبدو عليه من الحزم والعقل وسداد الرأي وخصوصًا عند مقتل شاور.

وبناء على ذلك كله لم يكن صلاح الدين في يوم من الأيام وهو في مصر مظنة اللين والسهولة ، ولم تكن مظنة اللين والسهولة أو غيرها من الأوصاف المتشابهة سببًا في اختياره للوزارة بل الراجح أن اختياره جاء نتيجة العوامل السالفة وبفعل القواد النوريين أنفسهم بعد اجتماعهم على اختياره لقب مفاوضات الهكاري ، واعتمادًا على هذه الفروض لم يعد اختيار العاضد له أن يكون اختيارًا اسميًا.

كما أنه يبدو أن الجانب المصري لم يساهم في ذلك الاختيار بشيء ، وقد ذكر المؤرخون أن قواد الجيش النوري بعد اتفاقهم على صلاح الدين اجتمعوا بعد اختلافهم : " لما فرغ صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين – شيركوه – اختلفت آراء كبار القواد ، واختلطت أهواؤهم ، وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم ، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والراية ، وأخلصوا له الولاء والولاية وقالوا: هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمة وألزموا صاحب القصر – العاضد –

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٦١ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٥٥.

بتوليته»[١].

وهذا النص من أوضح ما كتب عن تولية صلاح الدين الوزارة ، وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن العاضد لم يكن له شيء من الأمر في اختيار صلاح الدين للوزارة.

على أنه يجب من ناحية أخرى ، ألا يغرب عن البال أن المشكلة التي كانت تعترض الراغبين في الوزارة في مصر وقتذاك، لم تكن مشكلة الوصول إلى ذلك المنصب ، إذ كان الطريق إليه معروفًا ، وهو طريق القوة والعنف ، وإنما كانت المشكلة الكبرى هي كيف يحتفظون به ويلائمون به التيارات المختلفة في الدولة الفاطمية ، وعلى ذلك فقد ظن المعاصرون أن صلاح الدين سوف لا يختلف مصيره عن مصير غيره من الوزراء ذلك العهد الفاطمي المتأخر ، فتركوه يلقى مصيره الذي كانوا يظنونه محتومًا ، ولكن الحوادث التي تلت ذلك أثبتت أنهم كانوا مخطئين[٢].

(١)أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٦١ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٥٥.

(٢)علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، ١٥٤-١٥٥.

صلاح الدين والقضاء على الدولة الفاطمية :

بدأ صلاح الدين في توطيد أركان دولته الجديدة فشرع يوزع الإقطاعات إلى رجال دولته والأمراء النوريين وأفراد أسرته وعينهم في الوظائف العامة ليضمن ولاءهم ويكونوا له عيونًا ، ثم إنه اتخذ المال الذي تركه له شيركوه وسيلة لإرضاء الأهالي ، وألغى بعض المكوس وأزال كثيرًا من المظالم ، وسامح الناس في المتأخر عليهم من المال [(١)] .

كما تساهل مع الأقباط المصريين في كثير من المناسبات ، وكثيرًا ما أوصى صلاح الدين بالأساقفة والقساوسة خيرًا وكثيرًا ما سهل لهم أن يقيموا شعائرهم الدينية كما يريدون ، فمال الناس إليه وأحبوه [(٢)] .

وأخذ صلاح الدين يعمل على إضعاف الخليفة الفاطمي ، وشرع في نقض أركان دولته شيئًا فشيئًا فعمد إلى إنقاص إقطاعات رجال العاضد تمكينًا لدولته الناشئة وإضعافًا للدولة الفاطمية ورجالها ، ومن الأدلة على ذلك أنه أقطع إقليم الفيوم لبعض أفراد أسرته مثل أخيه نوري بن أيوب ، ومن بعده ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه [(٣)] .

كما عمل صلاح الدين على محاربة الدعوة والدعاة الفاطميين ، وساعده في ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معًا ، إذ كان من ألقابه كوزير تفويض للعاضد : كقاضي قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، مما أطلق يده، فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم ، وشرد الدعاة ، وألغى مجالس دعوتهم وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الآذان بحي على خير

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٧٤.

(٢) أبو صالح الأرمني ، تاريخ أبو صالح الأرمني ، ص ٧-٩.

(٣) أبو صالح الأرمني ، تاريخ أبو صالح الأرمني ، ص٧-٩ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، ص ١٦١.

العمل ، بدلاً من الآذان بحي على الفلاح ، والجهر بالبسملة في الصلاة ، ومنع صلاة الضحى والتراويح ، على أساس أن شهر رمضان ثلاثين يومًا ، بل حذف من النقش الديني على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية : "علي ولي الله".

ثم أخذ في إبراز أن نسب الفاطميين غير صحيح ، وأنهم من نسل المجوس أو اليهود ، وإن زعموا أنهم علويون ، حتى لا ينسبوا إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك منع صلاة الجمعة بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم ، حيث استمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين ، وأمر صلاح الدين ذلك أن تذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة وكذا اسم نور الدين بعد العاضد[1].

هذه كلها خطوات بطيئة ومثمرة في نفس الوقت ، ولابد أنها هيأت الأذهان شيئًا فشيئًا إلى قبول إسقاط الخلافة الفاطمية كليًّا.

والظاهرة التي تستحق التسجيل أن صلاح الدين في محاولاته البطيئة للقضاء على مظاهر الدولة الفاطمية ، أنه كان يتبع أسلوب التقرب إلى عامة الناس في تخفيف الأعباء المالية عنهم وإلغاء المظالم والمكوس وتمكين الطوائف الدينية من إقامة شعائرها ، هذا على عكس من سبقوه من الوزراء ، مما جعل صلاح الدين قريبًا إلى أفئدة عامة الناس والطبقات الشعبية التي يمكن إغواءها للقيام بالثورات، ومعنى ازدياد رصيد صلاح الدين لدى عامة الناس والطبقات الشعبية ، تناقص في رصيد الخليفة الفاطمي العاضد والدولة الفاطمية ككل.

هذه السياسة التي اتبعها صلاح الدين أقلقت مضجع الخليفة العاضد وحاشيته وخاصته الذين شعروا بأن البساط يسحب من تحت أقدامهم لاسيما

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٣٢ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٨٠-٨١ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٧٤.

وأن صلاح استبد بأمور الحكم ولم يترك شاردة ولا واردة للخليفة وأتباعه ، وعليه فقد بدأت تحاك في الظلام الدسائس والمؤامرات ضد صلاح الدين ، وكان زعيم المتآمرين هو مؤتمن الخلافة نجاح كبير الحصيان السود، حيث أرسل رسالة سرية إلى الصليبيين يحثهم فيها ويزين لهم غزو مصر ، بحيث يخرج صلاح الدين إليهم بجيشه ، فينتهز هو فرصة الفراغ السياسي والعسكري ويعمل على إذكاء التمرد في الصعيد ، وبذلك يوقعونه في موقف حرج ويضعونه بين شقى رحى ويتخلصون منه إلى الأبد.

ولم يكن الصليبيون ليدعوا مثل هذه الفرصة التي سنحت لهم من جديد ، وهم الذين لم تغب عن بالهم مصر ولا خيراتها ، ولم تمحوا الأيام ذكرى خروجهم منها يجرون أذيال الهزيمة على أيدي القوات النورية ، ومما زادهم تصميمًا على الموافقة في الاشتراك في هذه المؤامرة أنهم أصبحوا بين شقي رحى بعدما آلت مصر والشام إلى نور الدين محمود وتأثرت تجارتهم وطرق مواصلاتهم البحرية إلى أوروبا عبر دمياط والإسكندرية ، وعليه فقد سارع عموري – لضمان نجاح حملته على مصر – بالاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي للاشتراك معه في الهجوم على مصر.

ولكن لم يكتب النجاح لهذه المؤامرة إذ اكتشفها صلاح الدين ، وتم القبض على مؤتمن الخلافة وتم إعدامه وعين بدلاً منه بهاء الدين قراقوش(١).

ثم إن صلاح الدين لجأ إلى إبعاد جميع الحصيان والخدم السودانيين عن قصر الخلافة الفاطمية الأمر الذي استثارهم ، فتجمع منهم خمسون ألفًا وقاموا بثورة كبيرة في الفسطاط اعتراضًا على سياسة صلاح الدين معهم وثأرًا من مقتل زعيمهم مؤتمن الخلافة، واتجهت تلك الجموع الغفيرة إلى دار الوزارة – حيث

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ١٣ ٣١٢ ، محمد سهيل طقوش ، تاريخ الفاطميين ، ص ٥١٠ ، د/ قاسم عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص٣٠.

يسكن صلاح الدين – ودارت بين الفريقين معركة حامية فيما بين القصرين ، وقد اضطر صلاح الدين لإخماد هذه الثورة إلى إشعال النار في محلتهم التي اعتصموا بها ، حتى طلبوا الأمان في أواخر أغسطس سنة ١١٦٩م / ٥٦٤هـ ، وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية من النيل ، ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه تورانشاه في طائفة من العسكر حيث قضى عليهم(١) .

وما كاد صلاح الدين ينتهي من تمرد السودانيين حتى فاجأته الحشود الصليبية التي تستعد للإغارة على مصر ، وذلك هو الامتحان الأصعب لصلاح الدين في مصر ، إذ لم يلبث الصليبيون أن هاجموا دمياط في نوفمبر سنة ١١٦٩م/ صفر ٥٦٥هـ ، وما من شك أن نجاح قوات نور الدين محمود في السيطرة على مصر أثار فزع الصليبين بالشام بعد إحساسهم بالوقوع بين شقي رحى مصر في الجنوب والشام في الشمال ، كما أن سيطرة نور الدين محمود على القواعد البحرية شمال مصر لاسيما دمياط والإسكندرية قد عرض الأساطيل الصليبية إلى الخطر الجسيم.

ومع إحساس الصليبيين في بيت المقدس بالخطر خرجت النداءات لملوك أوربا للاشتراك في حملة صليبية ضد مصر ، ولكن لم يلق عموري ملك بيت المقدس استجابة إلا من الإمبراطورية البيزنطية ، حيث عقد مع إمبراطورها مانويل كونين عقدًا واتفاقًا للاشتراك في الحملة على مصر وغزوها برًا وبحرًا واقتسامها معًا.

واستعد صلاح الدين لتلك الحملة التي كانت أخطر الامتحانات التي قابلها في مصر ، وكانت أحد أهم المحطات في تاريخ الدولة الأيوبية ، وكشف صلاح

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٧٦- ١٧٨ ، د/ سعيد عاشور ، الأيوبيين والمماليك ، ص٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٧٦-١٧٨ ، د/ سعيد عاشور، الأيوبيين والمماليك ، ص٢١.

الدين عن ساعد الجد ، فسارع إلى تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن التي من المحتمل أن يهاجمها الصليبيون ، وأرسل إلى نور الدين يخبره بحقيقة الموقف ويطلب منه إرسال النجدات بسرعة ، فأرسل نور الدين إليه العساكر والنجدات تباعًا.

ولما توجهت الحملة الصليبية إلى دمياط – ولم يكن صلاح الدين يعمل لذلك حسابًا – سارع بإرسال النجدات وأقام الاستعدادات والتحصينات وأمدها بالمؤن والسلاح عن طريق النيل ، ولما ضرب الصليبيون الحصار على دمياط ، وكان صلاح الدين – عن طريق تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين – وكذلك خاله شهاب الدين محمود الحارمي – قد استعد لذلك الحصار ، وقاد صفوف الناس والحاميات لمواجهته.

ولما أطال أمد الحصار مع تحمل أهل دمياط المحاصرين ، بدأ ينفذ تمويل الأسطول البيزنطي ، وبدأ القلق يستبد بالملك عموري ملك بيت المقدس لاسيما بعد أن شدد نور الدين الخناق على الصليبيين في الشام ، وكثف من هجماته على ممالكهم ، فاضطر عموري إلى رفع الحصار عن دمياط وأخذ طريق العودة إلى عسقلان في أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩م / ٥٦٥هـ ، ولم يستطع الأسطول البيزنطي الصمود أمام قلة المؤن واشتداد الرياح ، فعادوا إلى بلادهم بخفي حنين هم أيضًا بعدما تكبدوا خسائر فادحة[١].

على إثر هذه النجاحات المتتالية التي حققها صلاح الدين في مصر فقد رسخت سلطته وطالت قامته السياسية والعسكرية في عيون معاصريه ، وغدا رمزًا وبطلاً في عيون المصريين ورأوا فيه الشخص القوي الذي يستطيع أن يحمي الدولة من أعاصير الفتن الداخلية والخارجية على حد سواء ، وشعروا بأنه

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤٧٥- ٤٥٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٧٥ ، د/ قاسم عبده قاسم ، الأيوبيين والمماليك ، ص ٣٣.

القائد الذي يستطيع أن يحقق لهم الحياة المستقرة الهادئة التي ينشدونها منذ زمن بعيد بعدما تحقق لهم أنه رجل الساعة وأنه بخلاف من سبقوه من وزراء سقطوا أمام أقل محنة من المحن التي واجهت صلاح الدين.

ولم تظهر عظمة صلاح الدين ورجاحة عقله في القضاء على تلك الفتن التي واجهته فقط ، بل ظهرت بصورة أوضح في طريقة استغلاله لها ونجاحه في تحويل نتائجها من ضرر ماحق إلى نفع مؤكد ، فقد اتخذ من المؤامرات التي حيكت ضده وهجوم الصليبيين على مصر سلمًا يستطيع به الوصول إلى ما كان صعب المنال.

وبعد نجاح صلاح الدين في التصدي للحملة الصليبية على مصر فقد طلب من نور الدين محمود إرسال والده إليه ، فوافق نور الدين على ذلك ، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر ، وحمله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي ، وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر ، فخشى نور الدين على القافلة من الفرنجة ، وسار بجيشه إلى الكرك وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق [١].

بدأ صلاح الدين ينفذ مشروعه في القضاء على الخلافة الفاطمية ، وكان قد بدأ بهجومه من التدابير ، فأضعف الخليفة الفاطمي العاضد بعد القضاء على السودانيين ، فلم يعد له نصير قوي ، وأقام على شئون القصر الفاطمي بدلاً من مؤتمن الخلافة من قبله رجلاً حازمًا قويًا هو بهاء الدين قراقوش ، وبذلك فقد حاصر الخليفة بنفوذه وأتباعه ووضعه في قبضته.

وأخذ صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية شيئًا فشيئًا ، حيث قام

---

(١) د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٧٩.

بالقبض على من يخشى شرهم من أنصار العاضد عقب مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح ، وأوهم العاضد أن مصلحته إنما هي في القبض عليهم لأنهم يعصونه ولا يطيعون أوامره ، وبذلك أبعد صلاح الدين أعوان الدولة الفاطمية والخليفة العاضد عن مركز الأحداث السياسية(١).

وبدأ يقلص في سلطة وسيطرة الخليفة العاضد فأخذ يطالبه بالأموال والعتاد بصورة مرهقة ، ووالي صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك ، حتى إن العاضد كان في بعض الأيام بالبستان الكافوري وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرسًا وهو راكب فقال ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ونزل عنه ، وشق خفيه ورمي بهما وسلم إلى القاصد الفرس ، وعاد إلى قصره ماشيًا ، ولم يعد بعدها يركب حتى مات ، ولم يبق للخليفة بعد ذلك سلطة ولا ذكر اللهم إلا الدعاء له في خطبة الجمعة(٢) .

وبعد أن قام صلاح الدين بالقضاء على معظم مظاهر وشعائر المذهب الشيعي – التي أسلفنا ذكرها – عمل على نشر معارف المذهب السني ومؤسساته تدريجيًا ، فأزال القضاء الشيعي من مصر سنة ١١٧٠م / ٥٦٦هـ ، وولى صدر الدين بن درباس الشافعي منصب قاضي القضاة بها ، كما استناب رجلاً من الشافعية في القضاء بجميع الأعمال وأحضر كبار العلماء السنيين وأنشأ لهم المدارس في القاهرة والإسكندرية لتدريس المذاهب الأربعة ، ومنها مدرسة للفقهاء الشافعية بجوار الجامع العتيق وأخرى للمالكية وهي التي عرفت باسم المدرسة القمحية ، وكذلك اشترى منازل الغز بمصر وعمرها مدرسة للشافعية ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما ، وكان نتيجة ذلك أن اختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية من نفوس المصريين ، ثم قضى

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٧٤.

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ٣/ ٣١٤ ، قاسم عبده قاسم ، تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٣١.

صلاح الدين على مجالس الدعوة ، وكانت من أقوى الوسائل في إذاعة المذهب الشيعي ونشروه بين الناس[١].

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أنه بالرغم من أن المذهب الشيعي قد اندثر وانمحىَ أثره في مصر بفضل خطوات صلاح الدين التي أتت ثمارها إلا أن صلاح الدين بدا متخوفًا من الإقدام على الخطوة الحاسمة في هذا المشروع ، وهي إلغاء الدعوة على المنابر للخليفة الفاطمي والدعوة للخليفة العباسي ، ولعل سبب تخوف صلاح الدين من الإقدام على هذه الخطوة هو عدم الاطمئنان إلى نوايا سيده نور الدين محمود لأنه بدأ يشعر بتغير نفسية نور الدين محمود نحوه ، وأن نور الدين بدأ يحسب خطوات صلاح الدين وما حققه من مكانة في مصر وبدأ يتوجس خيفة من ازدياد نفوذه بطريقة أصبحت تهدد مصالحه هو شخصيًا ، ولذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الهشة الضعيفة ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سيده نور الدين إذا تأزم الموقف بين كلا الرجلين ، وعليه فقد رأينا صلاح الدين يماطل في الاستجابة لرغبة سيده نور الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية تحقيقًا للوحدة المذهبية في العالم الإسلامي، وأخذ يتعلل بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين[٢]. والحقيقة أن موقف صلاح الدين كان موقفًا شاذًا شائكًا محوطًا بكثير من المصائب والعقبات ، إذ أصبح منذ توليته الوزارة يمثل جبهتين متعارضتين مختلفتين فهو نائب لنور الدين محمود السني ووزير العاضد الفاطمي ، ومن هنا بات موقفه يملي عليه أن يقوم بما تتطلبه هاتين الجبهتين من واجبات ، وأن ينفذ ما يصدره إليه

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/١٩٦ ، المقريزي ، الخطط ، ٢/٢٤٣ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص١٨ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ١٧٥ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٧.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٦.

كل منهما من أوامر متعارضة متناقضة . حقيقة أنه كان باستطاعة صلاح الـدين أن يتغاضى عن رغبات العاضد ورجاله وأن يقتصر على تنفيذ أوامر نور الـدين ولكن ذلك معناه أن يسيء صلاح الـدين إلى العاضـد ورجالـه وأن يـثير حزبـه عليه ، فيعرض بذلك نفسه للخطر. وخلاصة القول: أن صلاح كـان في موقـف شائك شديد الصعوبة . ويبدأ نور الدين يلح علـى صـلاح الـدين ويطلـب منـه سرعة إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية وإعلان تبعيـة مـصر للخلافـة العباسـية السنية في بغداد ، والدعوة على المنابر للخليفة العباسي المستضيء(١).

واسـتجاب صـلاح الـدين لرغبـة نـور الـدين محمـود وتم إسـقاط الخلافـة الفاطميــة، وتم الــدعاء في أول جمعــة مــن عــام ٥١٧هــ/ سـبتمبر ١١٧١م ، الانقلاب والتغيير في هدوء وبدون عاصفة ولا مشاكل(٢).

ولعل حدوث هذا الانقلاب الخطير دون أدنى اعتراض من جانب المصريين، وعلى حد قول المؤرخ ابن الأثير: "دون أن ينتطح فيه عنزان" (٣)يـدل علـى أن المذهب الشيعي لم يكن مذهبًا أصيلاً في مصر بالرغم من الطـول الـزمني النـسبي لحكم الفاطميين في مصر ، وأن المصريين أنفسهم لم يكونوا على استعداد للدفاع عن المذهب الشيعي لعدم استجابتهم له أولاً ، وثانيًا: لأنهم لم يكن لهـم نـصيب في الحكم والإدارة ، ولذلك لم يحزنـوا علـى سـقوط الدولـة الفاطميـة ، كمـا لم يسعدوا بوجودها من قبل ، كمـا أن الـشعب المـصري قـد تعـود – منـذ مجـيء صلاح الدين – على ألا يسمع الدعاء للخليفة الفاطمي وحده ، كما أن صلاح الدين قد أبطل رسوم المـذهب الـشيعي شـيئًا فـشيئًا ، حتـى أصـبحت الخلافـة الفاطمية والمذهب الشيعي اسمًا ليس له محل مـن الوجـود ، ولـذلك كـان مـن السهل على المصريين تقبل الوضع الجديد ، وكأنهم توقعوا حدوثه بين عشية أو

---

(١)ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٠٠ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٦.

(٢)ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٦.

(٣)المرجع السابق نفسه.

ضحاها ، وكأنهم في انتظاره، كما أن هناك عـاملاً سـاعد علـى سـهولة إسـقاط الخلافة الفاطمية الشيعية تمثل في الخلاف الحاد بين أتباع الـشيعة ، فكـان رجـال المذهب الإسماعيلي منقسمين على أنفسهم وأصبحوا جماعات متناحرة متنافسة، فالطيبية كانوا يرجون زوال الدولة الفاطمية وكذلك النزارية ، ومما لا شـك فيـه أن تلك الانقسامات المذهبية كانت أحـد أهـم عوامـل نجاح صـلاح الـدين في القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر(١) .

وقد شاءت الأقدار أن يأتي المسمار الأخير في نعش الخلافة الفاطمية سريعًا، فبعد إلغاء الخطبة باسم الخليفة العاضـد علـى منـابر القـاهرة واسـتبدالها باسـم الخليفـة العباسـي المستـضيء ، جـاءت وفـاة العاضـد يـوم ١١ المحـرم سـنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٠م ، دون أن يعرف أنه آخر الخلفاء الفاطميين، ولا بمـا وقـع مـن أحداث ، ويقال: أن صلاح الدين لما علم بمـرض الخليفـة العاضـد أمـر بإخفـاء الخبر عنه حتى يرحل في هدوء دون أن يزداد كمدًا وحزنًا قبل موته ، وإن طـال به العمر فسوف يعلم(٢) .

وبموت العاضد سقط آخر رمز للفاطميين ، ثم أخذ صلاح الدين يزيل بعض البقايا الشيعية التي تذكر الناس بالخلافـة الفاطميـة ، فـأمر بـأن تـضرب العملـة باسم المستضيء وباسم نور الدين فنقش اسـم كـل منهمـا في وجـه ، كمـا أمـر بإزالة المناطق الفضية عما ريب جوامع القاهرة ، وتلك المناطق التي كانت تحوي أسماء الخلفاء الفاطميين(٣) .

كما عمل صلاح الـدين علـى فـتح خـزائن الكتـب الفاطميـة وأبقـى علـى

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٧٩.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤٩٣-٥١٨ ، د/ قاسم عبده قاسم ،الأيوبيين والمماليك ، ص٣٥ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٨٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٥ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٨٠

الصالح منها وما يتوافق مع المذهب السني ثم أتلف الباقي[١] وأخرج أبناء العاضد وأقاربه من القصر وأسكنهم دارًا أخرى تسعهم ووضعهم قيد الإقامة الجبرية حيث منعوا من الاتصال ببعضهم وبغيرهم من المصريين ووضعهم تحت حراسة بهاء الدين قراقوش[٢] .

ونصبت الأعلام السوداء على منابر الجوامع المصرية ولبس الخطباء الثياب السوداء أيضًا تلك التي أرسلت خصيصًا من بغداد[٣] .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر هذه أفراح بالغة عمت أوساط المذهب السني في الشرق الأدنى كله ، وسارت البشائر بتلك المناسبة الهامة ، وبذلك تكون مصر قد كسرت الطوق الشيعي الذي كان يعزلها عن المذهب السني ؛ ليستعيد العالم الإسلامي وحدته المذهبية ، وتستعيد الخلافة العباسية وجودها في مصر ، ويحتفظ معظم العالم الإسلامي بولائه الروحي لها ، وقد سُر الخليفة العباسي المستضيء بنبأ سقوط الخلافة الفاطمية ، وأقام الاحتفالات في بغداد وبادر بإرسال الهدايا والخلع إلى نور الدين محمود وإلى صلاح الدين[٤] .

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢/ ٢٥.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٣٢ ، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٨٨.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٥ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٧٩، د/ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص٨٩.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٩٧-١٩٨، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص١٧٨ ، د/ سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٧.

الفصل الرابع

تأسيس الدولة الأيوبية في مصر

تأسيس الدولة الأيوبية في مصر

فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين محمود :

بعد نجاح صلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية وإقامة دولة نور الدين محمود السنية في مصر كان عليه أن يوطد نفوذ هذه الدولة الناشئة بالاستيلاء على بعض الملحقات الجغرافية الطبيعية التي تتبع مصر مباشرة لضمان استقرار الأوضاع فيها.

ففي منتصف عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس ، باستثناء المهدية وسفاقس وقفصة وتونس[(١)] .

ثم خرج صلاح الدين إلى جهة الرملة ، وعسقلان وغزة للقيام بهجمات محدودة على الصليبيين ، حتى يشعرهم بقوة الدولة النورية التي نشأت في مصر بعد زوال شمس الخلافة الفاطمية ، كما فتح قلعة أيلة وأسر من فيها من الصليبيين[(٢)] .

وفي أواخر سبتمبر ١١٧١م / ٥٦٧هـ ، كتب نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية ، ثم سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك "جنوب الكرك" ، فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ، ولكنه تلقى رسالة منه قبيل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ٤٨/١ ، محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ، ص٤٦.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١٩٨/١-١٩٩ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٣٠.

وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها ، ولابد من العودة إليها لضبط الأمور ، وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين [1].

وعلى ما يبدو أن هذا التصرف من صلاح الدين قد أغضب نور الدين محمود وبدأت نفسيته تتغير ، وعزم على المسير إلى مصر ، ولما أحس صلاح الدين بنية نور الدين محمود جمع أهله في مصر ، وفيهم والده أيوب وخاله الحارمي وأخبرهم بما ذاع عن عزم نور الدين على قصد مصر ، فقام أحد أفراد الأسرة الأيوبية وهو تقي الدين عمر واقترح قتال نور الدين إن هو قصد مصر، ووافق تقي الدين بعض الحاضرين من الشباب الأيوبي المتحمس ، إلا أن نجم الدين لم يوافق على ذلك الرأي ونهر ابنه وحفيده ، وشتم أولئك المتهورين ثم نظر إلى ابنه صلاح الدين وقال : "والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين محمود لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن أراد سمعنا وأطعنا ، والرأي أن تكتب كتابًا مع نجاب تقول فيه : "بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلي هذا ، يرسل المولى نجابًا يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك ، وما هناهنا يمتنع عليك" ، وقال للجماعة كلهم : "قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده ، ويفعل بنا ما يريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد،

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٢١ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٠٠.

ولو قصدك لم تر معك من هذا المعسكر أحدًا ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى ، وتقول : أي حاجة إلي قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو عنده"[١] . وكان نجم الدين أيوب شديد الجد والولاء والطاعة لنور الدين محمود ، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن مقصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين أيوب[٢] .

وفي جمادى الآخرة عام ٥٦٨/ يناير ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه تورانشاه إلى بلاد النوبة ، ففتح ابزلم وسبى وغنم ثم عاد إلى قوص[٣] .

وفي عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م ، وبعد عودة نور الدين محمود من أذربيجان وأرمينية تسلم منشورًا من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر ، وفي شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها ، وأعلم نور الدين في دمشق بدوره ليلقاه ، فلما وصل إلى الرقيم في وسط الأردن تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض ، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها ، وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[٤] .

ولما علم نور الدين بذلك قال : "إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره"[٥] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ١/ ٤٩ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٥١٨ – ٥٢٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٢٢-٢٢٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المقريزي ، السلوك ١/ ٥٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٧٣.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٣٠.

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، نقلاً عن الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٠١.

ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين ، فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر ، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمن ، وبقية أنصار المذهب الشيعي.

وفي العام ١١٧٤ / ٥٧٠م ، وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدين تورانشاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زيد فامتلكها، ولما سار إلى عدن وامتلكها ، ومنع الجيش من نهبها وقال : " ما جئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها وملكها ، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها ، واستوثق له ملك اليمن بجذافيره ، وخطب للخليفة العباسي وقتل الدعي المسمى عبد النبي ، وصفت اليمن من أكدارها ، وعادت إلى سابق مضمارها[١] وكتب شمس الدين إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره بما فتح عليه وأحسن إليه ، فكتب الملك صلاح الدين إلى نور الدين ، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة له بها[٢].

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٣٧ – ٢٤٣ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٣٦-٣٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون القدامى والمحدثون عن علاقة صلاح الدين بنور الدين محمود، ووصفها البعض - لأغراض في أنفسهم - بأنها علاقة عدائية ، وأن كل منهما كان يخاف الآخر ، وأفاض البعض منهم غمز ولمز صلاح الدين وأساؤوا تفسير بعض المواقف لتشويه صورته ، وحاول البعض تشويه صورة الرجلين على خلاف الحقيقة ، وأشاروا إلى أن صلاح الدين كان - يماطل - في الاستجابة لرغبة سيده نور الدين محمود في إسقاط الخلافة الفاطمية تحقيقًا للوحدة المذهبية في العالم الإسلامي وأخذ - يتعلل - بالخوف من وثوب أهل مصر واقتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى الشيعة ، وزعم هؤلاء أن صلاح الدين كان يهدف من وراء ذلك إلى إبقاء الخلافة الفاطمية على حالتها الضعيفة الهشة ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سيده نور الدين إذا تأزم الموقف بين كلا الرجلين ، وأشاروا إلى أن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيده نور الدين ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين ، ورأى هؤلاء المؤرخين أن فتوحات صلاح الدين - التي كانت باسم نور الدين - إنما كانت محاولة منه للبحث عن ملجأ يهرب إليه هو وأسرته في حالة قيام النزاع مع نور الدين محمود ، وساق هؤلاء المؤرخين بعض الأدلة التي نذكرها.

فقد ذُكر أن نور الدين لم يسترح من الأساس لتولية صلاح الدين منصب الوزارة وهو نفس الشعور الذي أبداه عندما وصلته الأخبار بأن أسد الدين شيركوه قد تولى الوزارة للخليفة العاضد ، بل إنه - كما يذكر ابن طيء-(١) أعظم ذلك وأنكره ، وغضب لأن صلاح الدين لم يستشره في ذلك الموضوع، وكتب إليه في ذلك المعنى عدة رسائل لم يلتفت إليها ، وإن لم يخرج عن طاعة سيده نور الدين محمود وأمره ، وكان نور الدين محمود كثيرًا ما يقول : "ملك

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٦١.

بني أيوب "(١) .

كما ذكر أن نور الدين محمود كان يؤنب نفسه على إرسال شيركوه – أسد الدين – على رأس الحملة إلى مصر بعدما رأى ميله إليها ، فكان يقول: "ما أخطأت إلا في إنفاذي أسد الدين – شيركوه – إلى مصر ، بعد علمي برغبته فيها "(٢) .

كما ذكر هؤلاء – تأييدًا لرأيهم – أنه بعد وفاة شيركوه دأب نور الدين – على مخاطبة صلاح الدين بأن كان يجمعه – في رسائله – مع غيره من أمراء جيشه دون أن يخصه بالمخاطبة ، وذلك بقوله : "إلى صلاح الدين وجميع الأمراء بالبلاد المصرية "(٣)

لله ثم للتاريخ :

وبالرغم من أن البعض كان يتصيد الكلمات وينتقي العبارات التي تؤكد الوحشة التي تصل إلى درجة العداء بل تتعداها إلى درجة البغضاء ، إلا أن ذلك خلاف الواقع ، لأن هؤلاء – يأخذهم من التاريخ ما يؤيد رأيهم وترك – ما يعارض ذلك – كمن يتعمد لي ذراع المعلومة ، ولابد أن نعلم أن مصدرنا عن الحديث عن الوحشة هو ابن أبي طيئ وابن الأثير .

وقد نقل معظم المؤرخين تفاصيل الوحشة عن ابن أبي طيء وابن الأثير لا سيما أبو شامة.

فأما ابن أبي طيئ: فكان شديد التحامل على نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، وذلك راجع لأنه شيعي ، وكان نور الدين قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم ، وقوى السنة ، وكان والد أبي طيئ من رؤوس

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٦١.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٧٣.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٥٤.

الشيعة، فنفاه من حلب ، ولذلك نجد أن ابن أبي طيئ كثير التحامل على نور الدين ، ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه الملفقة ، وقد اتهمه أبو شامة بالتحامل على نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي واتهمه بالدس والكذب والطعن في العلاقة بين الرجلين ، ويعلق أبو شامة على ذلك فيقول : "هذا كله مما تقتضيه الطبائع البشرية والجبلة الآدمية ، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصمه الله ، ومن أنصف عذر ومن عرف صبر" [1].

وأما ابن الأثير :فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين ، فهو يلتمس المناسبات أحيانًا لنقد صلاح الدين وتجريحه ، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين محمود ، فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه الكامل في التاريخ ، والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ، فقد نقل الآراء في كتابيه عن صلاح الدين والتي تظهر صلاح الدين بأنه لم يكن وفيًا لأستاذه نور الدين ، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه بمصر إلى الاستقلال عنه ومزاحمته السيادة ببلاد الشام ، واتهم صلاح الدين بالسعي لضم ممتلكات سيده نور الدين بعد وفاته إلى ممتلكاته في مصر، وكلها كتبت بعد وفاة صلاح الدين . وخلاصة القول أن ابن الأثير كان شديد التحامل على صلاح الدين في آرائه وكتاباته [2]، وسوف نعرض لبعض الملاحظات التي تدل على ذلك:

يقول الدكتور محمد عبد الله الحمدان : بالرغم من المزايا المتعددة في كتاب الكامل إلا أنه في الواقع هناك ثمة انتقادات يمكن أن توجه إليه ، فيؤخذ على ابن الأثير أنه لم يكن منصفًا في نظرته إلى بعض الشخصيات المعاصرة له ، فقد بالغ في تمجيد الزنكيين وأسرف في الإشادة بهم وإضفاء هالة براقة على أعمالهم

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٦١.

(٢) عباس العزاوي ، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، ص ٣٨-٤٩ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢٠٥-٢٠٦.

وذلك اعترافًا منه بفضلهم عليه وعلى بيته وأسرته ، وربما دفعه الولاء إلى التغاضي عن بعض أخطائهم وعيوبهم مكتفيًا بذكر محاسنهم ومآثرهم[(١)] .

ولم يستطع ابن الأثير بجانب محبته للزنكيين أن يخفي تحامله على صلاح الدين، فحاول أن يشوه بعض أعماله ، ويسيء تفسير بعض تصرفاته ، ولم يترك فرصة دون أن يغمز صلاح الدين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بل بلغ الأمر أن اتهم صلاح الدين بالأنانية ، واغتصاب السلطة من أصحابها الشرعيين ، والتخلص من خصومه عن طريق الاغتيال[(٢)] .

ومأخذ آخر قال به محقق كتاب الباهر من ملاحظاته على الكتاب منها أن ابن الأثير لم يدون أخبار الصراع بين الزنكيين – خلفاء نور الدين محمود – وبين صلاح الدين وخلفائه ، وسبب ذلك أن أخبار الصراع تظهر مدى ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم في حروبهم معهم، كذلك تثبت أخبار الصراع خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعًا تامًا ، فتجنب ابن الأثير إثبات هذه الأخبار التي تجرح أصحابها لئلا تخدش كبرياء الملك القاهر ، الذي ألف له الكتاب واكتفى بإحالة القارئ إلى كتابه الكبير الكامل في التاريخ[(٣)] والمواقف والعبارات التي تحامل فيها ابن الأثير على صلاح الدين كثيرة ومتعددة نأتي ببعضها ضربًا على ما ذكرنا من قبل.

فقد كان يرى ابن الأثير قوة طمع صلاح الدين في ملك الزنكيين ، وقد أشار في أكثر من موقع لهذه العبارات ، فقال في حصار صلاح الدين لماردين : "فلم ير لطمعه وجهًا" ، وقال في رغبته بأخذ الموصل بعد حبس مجاهد الدين قايماز:

(١) محمد عبد الله الحمدان ، بنو الأثير ، الفرسان الثلاثة ، ص ٧٣-٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) عبد القادر أحمد طليمات ، مقدمة كتاب التاريخ الباهر للدولة الأتابكية ، ط دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات.

" وقوى طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين "[١].

وكثرت إشارات ابن الأثير إلى أنه لم يحفظ للزنكيين فضلهم عليه وأنهم أرباب نعمته فأسهب في خطبة الصالح إسماعيل لأهل حلب عندما حاصرها صلاح الدين ، حيث قام الصالح خطيبًا في أهل حلب وهو صبي عمره اثنتي عشرة سنة ، وقال لهم : " قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم ، وأنا يتيمكم ، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق " ، وقال من هذا كثيرًا فبكى وأبكى الناس ، فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده[٢].

ومن الأمور التي انتقدها ابن الأثير وأخذها على صلاح الدين بذل الأموال لتأليف القلوب ، فيقول : " فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد، ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن – حصن كيفا "[٣].

ومنذ نزول صلاح الدين مصر في عهد نور الدين محمود وابن الأثير يأخذ عليه هذه السياسة بل من الممكن أن يكون مقصده أن لولا بذل الأموال ما ألف صلاح الدين قلوب الرجال واستمالهم بعيدًا عن الزنكيين وولائهم ، فقد أشار إلى ذلك عندما تولى الوزارة العاضد الفاطمي بقوله : " واستمال صلاح الدين قلوب الناس ، وبذل الأموال فمالوا إليه وأحبوه ، وضعف أمر العاضد ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله ، فأرسلهم

(١) الكامل ، ١١/ ٤٩٢ ، ٥٠١.

(٢) الكامل ، ٩/ ١٣٢ .

(٣) الكامل ، ١١/ ٤٨٣.

إليه ، وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته ، وكلهم فعل ذلك ، وأخذ – صلاح الدين – إقطاعات المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه ، وزادهم فازدادوا حبًا وطاعة[١]. وكأن ابن الأثير يريد أن يقول أن صلاح الدين قوي أمره بأموال مصر.

ولم تتغير نفسية ابن الأثير وتجنح إلى الإنصاف مع صلاح الدين إلا بعد معركة حطين حيث صحب صلاح الدين منذ ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م أثناء نزوله "تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي ، وكنت معه حينئذ" [٢] ومنذ ذلك الوقت تغيرت لهجة ابن الأثير في حديثه عن صلاح الدين ، حيث بدأ يخاطب صلاح الدين بلفظ "السلطان" ولم يكن يذكره بها من قبل ، في حين كان يلقب به ملوك الموصل قبل سيف الدين غازي وغيره وملوك السلاجقة ، وهذا التغير حدث بعد معركة حطين فقط[٣].

أما حقيقة فتوحات صلاح الدين الأيوبي باسم نور الدين محمود ، فقد كانت لها أهميتها القصوى وحقيقة أمرها أنها كانت بأمر مباشر من نور الدين محمود وبإشرافه وعلمه وأن أهميتها كبيرة جدًا أكبر مما ذكره المؤرخون من كونها ملجأ للهرب يبحث عنه صلاح الدين الأيوبي في حال النزاع – المزعوم – مع نور الدين محمود.

برقة والمغرب الأدنى : فقد كان توجه صلاح الدين إليها لتأمين حدود مصر حتى لا تؤخذ على حين غرة ، كما أن شمال إفريقية كانت منذ الفتوحات الإسلامية الأولى لها وهي مرتبطة عضويًا وجغرافيًا وإداريًا وعسكريًا بمصر، فلا غرابة في أن يقوم صلاح الدين بالتوجه إليها إذن.

---

(١) الكامل ، ١١/ ٣٤٤.

(٢) الكامل ، ٩/ ١٩٠.

(٣) د/ نهلة أنيس محمد مصطفى ، الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير وأبي شامة ، ص٨٨.

اليمن : أما اليمن فكان يدخل ضمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي[١] ، وقد كانت أسباب توجه صلاح إلى اليمن الآتي:

١- التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعيًا رافضًا ينتمي إلى خليفة مصر الفاطمي.

٢- تأمين حدود مصر الجنوبية ، لأن ضم اليمن الذي يعد مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبين الذين كانوا يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالنصرانية ، حتى لا تقع مصر بين فكي كماشة صليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال ، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب[٢] .

٣- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار ، تتنازعها الأهواء السياسية والدينية والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء ، كما ظهر دعّي زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي بن مهدي ، وتغلب على اليمن ، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين ، وتسمى بالإمام وبنى على قبر أبيه قبة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة[٣] .

٤- أراد صلاح الدين أن يضع حدًا للتجاوزات والمساوى التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم[٤] .

---

(١) د/ محمد عبده السروري ، تاريخ اليمن الإسلامي ، ص٢١١ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٠٣.

(٢) د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢٠٤.

(٣) المرجع السابق نفسه.محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ، ص ٤٩ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٠٤.

(٤) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ، ص ٤٩ ، د/ الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٠٤.

النوبة : أما النوبة فقد كانت مملكة نصرانية وعاصمتها دنقلة ، تقع أعالي النيل ، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامي ، ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدي عليها من ناحية الجنوب ، ولما فتحها دخل الإسلام إلى مناطق لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل ، وكان هذا الفتح سببًا في إزالة الحواجز التي كانت تحول دون انتشار الإسلام فيها[١] .

وقد أشار بعض المؤرخين واتبعه الكثير من اللاحقين أن نور الدين لم يسترح لتولية أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر ولم يرض لخلافة صلاح الدين له في المنصب ذاته بعد وفاة أسد الدين شيركوه ، وهذا الرأي يناقضه أشياء كثيرة.

أولاً : العلاقة القوية التي تربط أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي بنور الدين محمود ، فمنذ بدايتها – هذه العلاقة – وقد تعدت كونها مجرد علاقة قائد بتابعه أو أمير بسيده ، فقد تربى نور الدين محمود في كنف أسد الدين شيركوه ، كما أن شيركوه كان له الدور الأكبر في إقرار الحكم لنور الدين محمود بعد مقتل أبيه المفاجئ عماد الدين زنكي ، ولما تعرض نور الدين محمود لمرض شديد وحاول أخوه نصرة الدين أن يستولى على أملاك نور الدين لم يجد من يقف في وجهه إلا أسد الدين شيركوه ، فالعلاقة بين الرجلين قد تعدت إلى درجة وصفها المؤرخون بالقول : إن نور الدين لم يكن يعمل عملاً إلا بمشورته – شيركوه[٢] ، حتى لقد قال ابن الأثير : أن شيركوه كان أكبر أمير مع نور الدين محمود ، وأن شأن شيركوه عظم وأن مكانته علت حتى صار كأنه شريك له في الملك[٣] .

---

(١) د/ فرست مرعي ، جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول ، ص٥٢.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٥.

(٣) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ، ٢١٥ ، ٣٠٥.

أما علاقة نور الدين محمود بصلاح الدين ، فالمتأمل يرى فيها قربًا وعلاقة وثيقة بين الرجلين تجعل من الصعوبة بمكان الوثوق بالآراء التي تقول أن علاقتهما كان يشوبها البغض والدسائس والشك والريبة ، كما أن المتأمل في شخصية كل منهما وسيرتهما وشيمة الصلاح والتقوى التي اتصفا بها يجد صعوبة في تصور هذه الآراء [(١)] .

وإذا كان فعلاً أن نور الدين محمود قد غضب غضبًا شديدًا من تولي شيركوه منصب الوزارة في مصر ، كما غضب أكثر عندما خلفه صلاح الدين في نفس المنصب ، وإذا كان فعلاً نور الدين محمود قد رأى طمع بني أيوب في مصر ، فلماذا إذن يوافق لصلاح الدين ويرسل له أباه وبقية أسرته إلى مصر، بل يصحبه خوفًا عليه من الصليبيين ، وكان صلاح الدين قد طلب من نور الدين إرسال والده إليه ، فوافق نور الدين على ذلك ، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر ، وحمله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسي وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر فخشى نور الدين على القافلة من الفرنجة . وسار بجيشه إلى الكرك ، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر ، فتركها وعاد إلى دمشق [(٢)] .

فكان الأولى بنور الدين إن كانت لديه شكوك في حقيقة نية صلاح الدين ، أو إن كان قد غضب من تولية صلاح الدين ، فالأولى ألا يرسل إليه والده وأسرته وألا يبعث معهما أرباب التجارة والمصالح، لأن ذلك وإن كانت لدى صلاح الدين أطماع – سوف يقوي ساعد صلاح الدين ويدفعه إلى معارضة نور الدين محمود.

---

(١)انظر لذلك الفصل الثاني.

(٢)ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٨٣.

ولا بد وأن نذكر بعض الحقائق التي تجب الآراء القائلة بالعداء بين صلاح الدين ونور الدين محمود.

كان صلاح الدين سميعًا مطيعًا لسيده نور الدين محمود ، وكان لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوي الأمين ، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين[١].

وكان فتوحات صلاح الدين باسم نور الدين محمود وبإذن مباشر منه ، فلم يكن صلاح الدين يقدم على أي عمل خارجي أو عظيم إلا بإذن نور الدين ، والدليل على ذلك اليمن.

ولما قضي صلاح الدين على الخلافة الفاطمية والدعوة الشيعية والإسماعيلية كانت بأمر مباشر من نور الدين محمود ، ولم تتم إلا بعد مجيء نجم الدين أيوب إلى مصر محملاً برسالة من نور الدين بهذا المعنى ، وليشرف بنفسه على القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية[٢].

وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين ، وكونه نائبًا عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد ، وإثر نقل الخطبة للعباسيين كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة ، وقررت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين ، فنقش اسم كل منهم في وجه[٣] .

ولقد أدركت الخلافة العباسية هذه الحقيقة الجوهرية ، فميزت بوضوح بين الخلع الخليفية لنور الدين ، وبين الخلع الخليفية لصلاح الدين ، وجعلت خلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين ، في حين قلدت نور الدين بالسيفين ؛

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٥٠٣ ، نقلاً عن سعد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٢٩.

(٢) انظر ما سبق .

(٣) المقريزي ، السلوك ١/ ٤٥.

إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر ، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خلع سيرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر تأكيدًا لتبعيتهم المباشرة له[(١)] .

كما أن صلاح الدين كان يراعى التأدب في رسوم الملك ، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين ، فقد أرسل الرسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع ، وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قرر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[(٢)] .

كما أن صلاح الدين كان يحرص في مراسلاته لنور الدين على إظهار تبعيته وولائه الذي يبدو فيه وكأنه مجرد عبد لسيده ، وليس أدل على ذلك من موقفه عندما علم بنية نور الدين أن يقصده ، ولم يكن هو وحده بل أبيه نجم الدين الذي كان شديد الخضوع والانقياد لنور الدين محمود ونقل هذا الشعور لابنه صلاح الدين[(٣)] .

وكان فتوحات صلاح الدين دائمًا تحظى بمباركة نور الدين محمود ودائمًا ما كان يظهر السعادة من أفعال وفتوحات صلاح الدين في النوبة والمغرب الأدنى واليمن ، فأرسل نور الدين بنفسه إلى الخليفة العباسي يبشره بذلك الفتح ويبشره أيضًا بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس ، فكتب إلى الخليفة العباسي يقول : "وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام ، ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ، ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة والوصول إلى مواضع منها ، لم تطرقها سنابك الخيل

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢١٩ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٢٠٧.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٧ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٢٠٧.

(٣) انظر ما سبق.

الإسلامية في العصور الحالية ـ وكذلك استولى عسكر مصر أيضًا على برقة وحصونها حتى بلغوا حدود المغرب" (١).

وقد عمد أبو شامة إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين ، وفي رأي أبي شامة ، أن نور الدين لم ينتقد صلاح الدين لإسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته ، ويؤكد أبو شامة رأيه بوثيقة وقف عليها بنفسه ، بخط نور الدين ، يقر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي تولى القضاء له بالشام ، ثم لصلاح الدين بمصر ، وإعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل (٢).

ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر ، حتى وفاة نور الدين محمود، وصلاح الدين يداوم على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين محمود رمزًا للولاء والتبعية ، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل كبيرة وصغيرة داخل مصر ، فنجده مثلاً يرسل إليه كتابًا يتضمن ثورة بقايا الفاطميين والتي كان من ضمنها عمارة اليمني ، وليس أدل على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين وتفاهمهما الاستراتيجي في قتال الفرنج ، فيذكر أبو شامة أنه في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ، تولى السلطانان نور الدين في الشام ، وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين ، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ"جهاد السلطانين للفرنج" وهذا ما أكده صلاح الدين في كتابه للخليفة العباسي بقوله : "إنه كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله ، في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام ، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره بره وبحره،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٣٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٢٠٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، نقلاً عن الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٢٠٩.

ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[١].

وأما ما قيل من أن نور الدين قد حنق على صلاح الدين فأرسل إليه سنة ١١٧٣م / ٥٦٩ خالد القسيراني ليكشف عن موارد الدولة ويقدر عليه مالاً سنويًا يدفع إلى نور الدين[٢].

ونريد أن نقول : إن مجيء خالد القيسراني إلى صلاح الدين لكشف البلاد وارتفاعها ، ومراجعة حساباتها لتقرير المال السنوي الذي يدفعه إلى نور الدين ، حقيقة ، وليس لمحاسبة صلاح الدين أو الحنق عليه ، ومجيء نائب نور الدين القيسراني أمرًا طبيعيًا يؤكد تبعية صلاح الدين لنور الدين محمود ، بل إن صلاح الدين قال للقيسراني : " نحن مماليك نور الدين ، افعل ما أمرك به " ، بل أرسل معه كثيرًا من الهدايا لنور الدين محمود[٣].

ولما توفي نور الدين محمود أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين ، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل ، وضرب السكة باسمه ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين[٤].

وعلى كل حال، لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء، ولا مسوغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر بعض الكتاب والمؤرخين.

وإذا كان هناك حقًا خلاف بين الرجلين ، فهذا خلاف يرجع إلى رؤية كل منهما إلى أولويات وحقائق العمل السياسي والعسكري في المنطقة العربية والإسلامية ، وفي مواجهة الكيان الصليبي الموجود بالشام ، ولا ينبغي أن يتعداه

(١) الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٢٠٨.

(٢) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢١.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥١-٥٢.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥٥.

– كما يصوره البعض – إلى درجة العداء والبغضاء.

فنور الدين يرى أن الشام هي بؤرة الصراع ومركز الثقل السياسي والعسكري في مواجهة الحملات الصليبية ، وأن الاستيلاء على مصر لدعم الصمود في مواجهة الصليبيين ، وكان يتوقع أن تنطلق بكل قواها وقدراتها في تدعيم مركز الشام في مواجهة الصليبيين ، وهذا ما عبر عنه نور الدين محمود عندما أرسل إليه صلاح الدين بعض ذخائر قصور الفاطميين ، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ وقال : "والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال ، فهو – صلاح الدين – يعلم أننا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر ، لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى الإمداد بالمال والرجال والمعونة لقلع الكفار من بلاد الشام"[١] .

وبالرغم من معرفة صلاح الدين بهذه الحاجة التي أبداها نور الدين لمصر وأنها مصدر الطاقة البشرية ، إلا أن صلاح الدين كان أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج ، فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي يستطيع السيطرة على مصر ، ورأى أن تثبيت أركان وكيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمشاكل الشام في هذه المرحلة ، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك ، حيث قال : "حفظ مصر أهم عندنا من غيرها"[٢] .

أما صلاح الدين فقد أدرك ما أدركه الصليبيون فيما بعد من أن مصر هي مفتاح المنطقة العربية ، وهي بؤرة الصراع مع الصليبيين ، وهي مركز الثقل السياسي والعسكري ، وأدرك الحقيقة التي تقول أن مفتاح بيت المقدس والشام

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٠٦.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ،٢/ ٢٢٨.

في مصر، ولذلك حولت الحملات الصليبية منذ الحملة الصليبية الثالثة وجهتها نحو مصر، كما أن قادة الغرب الصليبي أمثال ريتشارد قلب الأسد وفيليب الفرنسي كانوا ينصحون دائمًا – بعد تجربتهم – بأن يكون مقصد الحملات الصليبية هو مصر وليس الشام ، ولذلك رأينا صلاح الدين يعمل جاهدًا على استتباب الأوضاع في مصر ، وفي ضمان أمنها واستقرارها ، وحرص على ضم ملحقاتها الجغرافية أولاً قبل الانطلاق بكليته نحو الشام ، وهذا يدل على مدى الأفق السياسي البعيد لصلاح الدين.

وخلاصة القول: أن الخلاف بين صلاح الدين ونور الدين هو خلاف حول أولويات العمل السياسي والعسكري في المنطقة ، ففي حين كان نور الدين يرى أولوية مقارعة الصليبيين وإخراجهم من الشام بعد السيطرة على مصر مباشرة وانتظر أن تدخل مصر المعركة معه بكل قواها وقدراتها ، أما صلاح الدين فرأى ضرورة أمن واستبداد واستقرار الأوضاع في مصر قبل الخروج منها إلى الشام؛ لأن الأوضاع في مصر بعد إسقاط الخلافة الفاطمية لم تكن مستقرة كليًا ، ولا يمكن الاطمئنان إلى أذناب الدولة الفاطمية والخروج من مصر.

كما أن الخلاف بين الرجلين كان في حدود رسوم الملك والسلطان والتبعية والولاء لنور الدين محمود ، وفي إطار من قبول الأعذار وحسن النية ، ولم تكن عداء ولا بغضاء بينهما كما صورها البعض.

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين:

لم يكن معنى القضاء على قوة السودان ، ثم سقوط الخلافة الفاطمية، ووفاة العاضد ، أن نفوذ صلاح الدين قد استقر نهائيًا في مصر . ذلك أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتًا صامتًا في ظاهر الأمر ، إلا أن الوضع الجديد لم يرض عنه بقايا الشيعة المخلصين ، فضلاً عن أتباع النظام القديم والمستفيدين منه ، وجلهم من أصحاب المصالح الذين عز عليهم أن ينقضي زمن الفوضى وأن يسيطر على البلاد رجل قوي مثل صلاح الدين.

فقد دبرت مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين اشترك فيها جمع كبير من أتباع الخلافة الفاطمية البائدة والمستفيدين من وجودها ، فقام بهذه المؤامرة أقطاب الخلافة الفاطمية السابقين ، حيث كان على رأس المتآمرين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م ابن عبد القوي المعروف بالجليس الذي كان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية أبًا عن جد ، والعوريس المشرف على مالية الفاطميين (متولي ديوان النظر) وابن كامل القاضي والقشة أحد القواد المصريين للفاطميين ، والشاعر عمارة اليمني ، والذي كان من أنصار الفاطميين وأتى مصر منذ عهد الخليفة الفائز ، واستمر يمدح الفاطميين ويرثيهم حتى بعد زوالهم. واتفق هؤلاء المتآمرين على تولية ابن العاضد الأكبر ولقبوه بالحامد لله ، ووزعوا فيما بينهم المناصب[1] .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم لن يقدروا على تنفيذ هذه المؤامرة بمفردهم، وأنهم بحاجة إلى قوى خارجية تعينهم على تنفيذها ، اتصلوا بكل من له مصلحة في القضاء على صلاح الدين ومن ساءهم وجوده ، فاتصلوا بالصليبيين واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر ، وفي نفس الوقت

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ١/ ٢٤٣ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٧٤.

يشعلون هم نار الثورة في القاهرة وفي الفسطاط حتى يقع صلاح الدين بين نارين ، يضاف إلى ذلك أنهم اتصلوا بوليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم أسطوله الإسكندرية ، في الوقت الذي يدهم فيه الصليبيون مصر من ناحية الشرق ، وإمعانًا في دقة التخطيط لضمان نجاح المؤامرة أرسلوا صاحب وزعيم الإسماعيلية الحشيشية في شامل الشام رشيد الدين شفاف بن سليمان ، وكان يلقب بشيخ الجبل ، وطلبوا منه أن يرسل إليهم أحد رجاله لتدبير مكيدة لاغتيال صلاح الدين ، وقالوا له : "إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة ، وإنه بين أهلها خلاف إلا فيما لا نفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود على نصرة" [(١)] ، وهكذا أحكم المتآمرون حلقات المؤامرة ضد صلاح الدين ، ووضعوا جميع الترتيبات ، ولم يبق إلا التنفيذ.

وقد انتظر المتآمرون حتى خرج تورانشاه بقسم كبير من جيش صلاح الدين إلى اليمن ، وذلك ضمانًا لإنجاح مؤامراتهم ، وحتى لا يخلف أخاه صلاح الدين بعد نجاح مؤامراتهم ، وبالفعل أعد الملك وليم الثاني ملك صقلية أسطولاً ضخمًا مكونًا من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، وبدأ هذا الأسطول يتحرك صوب الإسكندرية في الموعد المحدد [(٢)].

ولكن نجح صلاح الدين في القضاء على هذه المؤامرة في مهدها ؛ إذ وصل إليه خبرها على يد أحد أعوانه وهو ابن نجا الذي دسه بينهم ، فقبض على ابن العاضد وسجنه ، وأحضر المتآمرين واعترفوا له ، فصلب زعمائهم الشاعر عمارة بن الحسن اليمني ، وعبد الصمد ، والعوريس القاضي ، وتم ذلك في أبريل سنة ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ [(٣)].

(١)أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٢١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٤٤.

(٢)ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨٠.

(٣)المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٢٠-٢٢١.

(١)

(٢)

(١)

(٢)

مؤامرة كنز الدولة :

(١)

على قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم
وتـأتي علـى قـدر الكـرام المكـارم

وتعظـم في عـين الـصغير صـغيرها
وتـصغر في عـين العظـيم العظـائم

على الدولة الجديدة – دولة نور الدين ومن بعده صلاح الدين – وقطعها لأرزاقهم ومناصبهم ، وقد عبر رئيس المؤامرة عمارة اليمني عن ذلك أحسن تعبير في بيت شعر يقول فيه:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها
فلا تشبعوا منها ونحن جياع

فهو يحث بني أيوب :- وقد صارت لهم الدنيا – فلا ينبغي أن يشبعوا منها ويتركوهم جياع ، مع ملاحظة أن الشاعر عمارة اليمني – وهو أحد زعماء التمرد- لم يكن على مذهب الفاطميين ، إنما كان شافعيًا سنيًا ، ولكن عندما قدم على الفاطميين من اليمن أحسنوا إليه وخولوه ، فرعى لهم ذلك : أي حفظ لهم الجميل عند انقضاء دولتهم[١].

والواضح : أن هؤلاء الثائرين إنما كانوا طلاب مناصب قبل أن يكونوا دعاة مبادئ ، ولا ينسى أن هؤلاء المتمردين إنما وزعوا أولاً وقبل كل شيء مناصب الدولة فيما بينهم ، أي أنهم أرادوا أن يطمئنوا إلى مناصبهم قبل أن يطمئنوا إلى قيام الدولة ، وفي معنى آخر أن صوت مصالحهم الشخصية كان يعلو أي صوت آخر وإن كان لإحياء الدولة الفاطمية وقد وصفت عماد الأصفهاني هؤلاء

---

(١) لم يكن عمارة اليمني شيعيًا في يوم من الأيام ، بل لقد عرض عليه الفاطميون أكثر من مرة أن يعتنق مذهبهم فكان يرفض رفضًا قاطعًا ، ولقد مدح الشاعر وزراء العاضد جميعًا دون استثناء، ونال هباتهم وجوائزهم جميعًا ، بالرغم من تناحر أولئك الوزراء ومجيئهم الواحد منهم على أنقاض الآخر ، فلما جاء صلاح الدين ظن عمارة أنه باستطاعته الاحتفاظ بمركزه عند صلاح الدين ، وحاول أن يستعطف صلاح الدين ويتقرب إليه بدون طائل ، وهو يؤمل الحصول على عطفه ولكن دون جدوى ، فأخذ يستعطفه بذكر غلمانه ونسوته وديونه، فلما بلغ به اليأس مبلغًا عظيمًا ساءت نفسه وحقد على صلاح الدين وود لو عادت الدولة الفاطمية ، وعادت معها مكانته وجوائزه وحظوته ، ومن ثم اضطر إلى القيام بتلك المؤامرة .
انظر: المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٢ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٦٤–١٩٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص ١٩٠–١٩١.

المتآمرين بقوله : " واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصبة المتشددة المتصلبة ، وتوازروا فيما بينهم خفية وخيفة ، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منية ، وعينوا الخليفة والوزير ، وأحكموا الرأي والتدبير ، وبينوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل"[١] .

ثم إنه باستعراض أسماء المتآمرين نجد أنهم جميعًا كانوا من أرباب المناصب في الدولة الفاطمية ، فهم جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين ، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني زريك وبني شاور ، وأنهم قاموا بمؤامراتهم لاستعادة مناصبهم المسلوبة ، فمثلاً كان على رأس المتآمرين الشاعر عمارة اليمني ، وكان عند القاطميين المتأخرين بمنزلة الوزير ، ومن أعضائها البارزين داعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل ، وقاضي القضاة ابن الكامل ، والكاتب عبد الصمد، وجماعة من بني زريك وآخرين من أسرة شاور والعوديس ناظر الديوان[٢] .

أما بعض المؤرخين الذين يحاولون الربط بين محاولات التآمر وبين المذهب الشيعي ، على أساس أن المذهب الشيعي قد تغلغل بين المصريين لدرجة أنهم قد ساءهم ذهاب الدولة الفاطمية الشيعية وقيام الدولة الأيوبية السنية ، ولهذا قاموا بهذه المؤامرات ، وللحقيقة فإن هذا التفسير عار جدًا من الصحة ، لأن المصريين لم يكن لهم تعلق في يوم من الأيام بالمذهب الشيعي ، بل أنهم تركوه يذهب غير مأسوفًا عليه ، ولم يتعلقوا به أبدًا ولا بمن حاول إعادته إلى مصر ، بدليل أنه لما استغل بعض المأجورين فرصة غياب صلاح الدين عن مصر وانشغاله بالحرب مع الصليبيين في سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م ، وحاولوا إعادة المذهب الشيعي للبلاد وخرجوا إلى شوارع القاهرة ينادون بشعار العلويين منادين على المصريين : " يا آل علي يا آل علي " ظنًا منهم أن المصريين سوف يلبون دعوتهم ويثورون على الدولة الأيوبية ، إلا أن أهل القاهرة لم يهتموا بهم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ٢٤٤-٢٤٥.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

الفصل الخامس

صلاح الدين وتحقيق الدولة الإسلامية

صلاح الدين وتحقيق الوحدة الإسلامية :

الصالح إسماعيل لم يلبث أن نقل إلى حلب بعد قليل[١].

وبعد وفاة نور الدين محمود بشهرين توفي الملك الصليبي أماليريك الأول (عموري) ملك بين المقدس في ١١ يوليو ١٧٤٤م ، وكان وريثه طفلاً في الثالثة عشرة من عمره ، وكان مريضًا بمرض عضال هو الجزام ، وكان هذا نذير شؤم لمملكة بيت المقدس الصليبية ومستقبلها في وسط محيطها الإسلامي ، ومن ناحية أخرى لم يكن هناك حليف يمكن أن يعتمد عليه الصليبيون في مواجهة صلاح الدين الأيوبي بعد فشل الحملة الصقلية/ الصليبية على الإسكندرية بسبب يقظة ونشاط صلاح الدين ونقص الإمدادات الفرنجية ، فضلاً عن استيلاء السلاجقة على الأناضول بعد معركة ميريو سعالم التي قلمت أظافر البيزنطيين ، جعلتهم عاجزين عن أي مساعدة للصليبيين ، وهذه المعركة حسمت مصير الكيان الصليبي في مواجهة المسلمين ، وما لم يتلق الصليبيون مساعدة من غرب أوربا فإن عليهم أن يقفوا وحدهم في مواجهة الجبهة العربية الإسلامية المتحدة والتي سوف يقودها صلاح الدين[٢].

على أية حال فإنه بعد وفاة نور الدين محمود وعموري فقد خلت الساحة أمام صلاح الدين وطالت قامته السياسة وأصبحت الظروف السياسية على المستويين الداخلي والخارجي مواتية تمامًا لتحقيق صلاح الدين لمشروع الوحدة الإسلامية وإحياء المشروع الجهادي.

وقد تريث صلاح الدين في الجهر برغبته في خلافة نور الدين محمود وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وأعلن ولاؤه للسلطان الصالح إسماعيل وخطب له على المنابر وضرب العملة باسمه وأرسل إليه يعزيه في وفاة والده ، ويهنئه بالملك ، وأرسل إليه دنانير مصرية منقوش عليها اسم الصالح – دليلاً على ولائه – كما

---

(١) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٣٩.

(٢) د/ قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٣٩.

أعلن صلاح الدين أنه مقيم على الولاء لإسماعيل كما كان الحال أيام أبيه[١].

وقد أغضب صلاح الدين كثيرًا انفراد شمس الدين محمد بن المقدم أكبر أمراء دمشق بالوصاية إلى الصالح إسماعيل ، كما أغضب ابن الداية – أمير حلب – أما صلاح الدين فقد أرسل إلى ابن المقدم – عقب سماعه بوصايته – يقول له : لو علم نور الدين أن فيكم من تقدم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته إليّ لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولايته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري[٢].

ويبدو أن ابن المقدم أراد أن يقطع على صلاح الدين خط الرجعة ويستغل غضب صلاح الدين وحرصه على تربية ابن سيده وحفظه وحاول أن يظهره أمام الرأي العام المسلم بمظهر الطامع في ملك سيده ، فكتب إليه يقول : لا يقال عنك أنك طمعت في بيت من غرسك ، ورباك وأسسك ، وأصفى مشربك ، وأضفى ملبسك ، وأجل سكونك لملك مصر وفي دسته أجلسك[٣].

بقي صلاح الدين يراقب الأقوال في الشام والعراق ، وحين سمع أخبارها وهو في مصر ، وأخذ يراسل ابن المقدم وغيره من أمراء نور الدين محمود يؤكد لهم ويوضح لهم رؤيته في محاولة إقامة الوحدة الإسلامية ويؤكد لهم فيها أنه لا يريد إلا خيرًا للإسلام ويأمل في جمع الشمل حول البيت الزنكي حماية للصف الإسلامي[٤].

ثم بعث برسالة أخرى إلى الصالح إسماعيل بها عبارات الحب والولاء

(١) العيني ، عقد الجمان ، ١/ ٥٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٦٣- ١٨٢.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢٥/ ٧.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٤ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢٢ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٢٠٣.

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٤.

(١)

(٢)

(٣)

(١)

(٢)

(٣)

(١)

(١)

الأطماع الشخصية عن تغليب المصلحة العامة ، فبدلاً من أن يجدوا السبيل المناسب للحفاظ على وحدة الصف الإسلامي التي أجهد نور الدين محمود ومن قبله عماد زنكي نفسه في تحقيقها بل أفنوا عمرهما في سبيل تحقيق هذه الوحدة وفي مواجهة جرثومة الكيان الصليبي في الشام ، ولكنهم انطلقوا يقتطعون ما استطاعت أيديهم الوصول إليه من دولة نور الدين محمود ، حتى سلالة البيت الزنكي نفسه وكبيرها غازي – ابن أخي نور الدين محمود – لم يستطيعوا أن يفرقوا بين مصالحهم الشخصية ومصالح الأسرة الزنكية والأمة الإسلامية ، وبدلاً من أن ينادي غازي ببقاء دولة عمه نور الدين محمود موحدة ويدافع عن حصاد السنين الذي كونه عمه ، إلا أنه هو الآخر انطلق يقتطع من جسد تلك الدولة ، فاستولى على نصيبين في الخابور وحران والرها والرقة وغيرها من أملاك نور الدين في الجزيرة[١].

وحاصل الأمر أن الأطماع الشخصية وضيق الأفق السياسي للقادة والأمراء الذين كشفت عنهما وفاة نور الدين محمود قد أعاد الشرق الأدنى الإسلامي خطوات إلى الوراء ، وبات على مشارف التفكك والانحلال بسبب تنازع الأمراء وإيثارهم المنافع الخاصة على صالح المجموع ، وكان لابد وأن يلفظهم التاريخ لأنهم نهجوا سياسة خاطئة لا تلائم روح العصر الذي يعيشونه ، وكان رصيدهم لدى عامة الناس في انحدار يقابله صعود مطرد في شعبية صلاح الدين، لأنه كان يسير على مبدأ الوحدة الإسلامية الذي تهفو إليه أفئدة المسلمين في كل مكان وزمان.

وكان نور الدين قد أوصى قبل وفاته بأن تكون إقامة ابنه إسماعيل بعد وفاته في حلب[٢] لشدة وثوقه في إخلاص أمراء تلك المدينة له ولابنه من بعده ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٨٢ – ١٨٣.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ١٧٤ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٢٠٦.

لأن ابن الداية أمير حلب كان من الأمراء المقربين إلى نور الدين والسبب في ذلك أن أخاه الأكبر أبا بكر بن الداية أخو رضاع لنور الدين محمود ، وقد تربى معه ولزمه منذ بداية أمره ، فوثق فيه نور الدين محمود وفي إخوته ، فولاه على حلب ، كما ولى أخاه عليًا قلعة شيراز ، حتى إذا توفى أبو بكر انتقل هذا الأخ الثاني إلى ولاية حلب ، فبقى عليها متمتعًا بثقة نور الدين طوال عهده، وكان الواضح أن تلك الأسرة موضع الحظوة لدى نور الدين طوال عهده ، إذ كانت ولاية جعبر وتل باشر بيد أخ ثالث هو سابق الدين عثمان ، كما كانت مدينة حارم بيد أخ رابع هو بدر الدين حسن[١] ، وكان ابن الداية يظن أنه الأحق بالوصاية على الصالح إسماعيل بناء على وصية نور الدين ، ولكنه عند وفاة نور الدين كان مريضًا وتأخر لذلك السبب عن الوصول إلى دمشق عند تولية الصالح إسماعيل السلطان الجديد وإعلان وصاية ابن المقدم[٢] ، فبالتالي لم يستطع أن يقوم بعمل إيجابي حاسم ، كأن يتنقل مثلاً إلى دمشق ليكون وابنه وقت تنصيبه مكان أبيه[٣] .

وفي ذلك الوقت كان كمشتكين – وهو الذي عينه نور الدين قبل وفاته على قلعة الموصل – قد فر عند سماعه بوفاة سيده نور الدين وحضر إلى حلب فأرسله ابن الداية إلى دمشق في بعثة لإقناع إسماعيل بوجوب الانتقال إلى حلب، ولكن ابن المقدم كان قد أخذ حذره فلم يستطع كمشتكين أن يدخل دمشق ، وعاد بعد أن نهبت أثقاله ، إلا أن ابن الداية لم يفقد الأمل وأرسل كمشتكين إلى دمشق مرة ثانية ، حيث نجح تلك المرة في أن يدخل دمشق وأن يجتمع هناك بالسلطان إسماعيل ووافق الأمراء ومن بينهم ابن المقدم على ذلك

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٨٣.

(٣) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٢٠٥.

(١)

(٢)

(٣)

(١)

(٢)

(٣)

(١)

(٢)

(٣)

(١)

(٢)

(٣)

الإسلامية، وربما أراد أن يتوجه إلى الشام بصفة رسمية ، على أن تكون له دعوة رسمية من الصالح إسماعيل للتدخل في الأمور.

وفي تلك الأثناء شاءت الأقدار أن يتوفى عموري ملك بيت المقدس تحديدًا في ١١ يوليو ١١٧٤م ، فكان المصاب أليمًا بين الصليبيين لفقد عموري ليس لشخصيته القوية التي استطاعت أن تحافظ على مملكة بيت المقدس في وسط محيطها الإسلامي الغريبة عنه ، بل أيضًا لأنه لم يترك سوى ابنه بلدوين الرابع وهو طفل في الرابعة عشرة من عمره ، على أن صغر سن ذلك الوريث لم يكن وحده موضع الضعف في شخصيته ، إذ كان فوق ذلك مريضًا لا يرجى شفاؤه، لذلك اختير للوصاية عليه رايمند الثالث أمير طرابلس ، وهو صليبي مكث في أسر المسلمين ما يقرب من عشر سنوات ولم يطلق سراحه إلا قبيل وفاة نور الدين ، غير أن ذلك الوصي لم يكن كفء للقيام بما ألقى عليه من أعباء ، بل إن إخلاصه للحرب الصليبية كان موضع الشك ،ويقال: أن آراءه في حرب المسلمين لم تكن خالصة ، وإنما كان يشوبهما الحرص على مصالحه الخاصة في طرابلس، ذلك أن رايمند الثالث رأى أن ما يمكن أن يناله بالمفاوضات أكثر فعلاً مما يستطيع أن يحصل عليه بالسيف ولهذا لم يشأ – بل لعله لم يستطع – أن يستغل ما حدث في صفوف المسلمين من اضطراب لصالح الصليبيين. ويتفرع من هذه المشكلة مشكلة أخرى وهي أن بلدوين الرابع بن عموري كان ميؤوسًا من ذريته إذا تزوج فاستقر الرأي على أن تتزوج أخته الأميرة سيبلا من وليم منفرات ، غير أن ذلك الزواج الذي تم في نوفمبر ١١٧٦م لم يحل المشكلة بل زادها تعقيدًا، إذ توفى وليم منفرات بعد سنة واحدة من زواجه بعد أن أعقب طفلاً صغيرًا. ويكفي بأن صفوف الصليبيين قد خلت بعد عموري ممن يستطيع أن يحل محله في زعامة الصليبيين ، فكان ذلك عاملاً هامًا من عوامل نجاح صلاح الدين ومن عطايا السماء له.

وهكذا فإن الأمور أصبحت مهيأة تمامًا لقيام صلاح الدين بترميم ما تصدع

من جدار الوحدة الإسلامية واستعادة الحقوق العربية المسلوبة في الشام ، إذ توفى نور الدين محمود وعموري ، وأعقب كل منهما طفلاً لا يرجى منه ، أما المحيطين بهذين الطفلين لم يكن صلاح الدين ليعبأ بهم كثيرًا بعد أن جرب أمثالهم أواخر الدولة الفاطمية ، وإن كان صلاح الدين لم يتسرع في الدخول لجهاد الصليبيين ، وإنما أراد أولاً أن يجهز المسرح تجهيزًا حسنًا ويقيم الجبهة الإسلامية الموحدة حتى إذا بدأ حروبه لم تكن غايتها مجرد مبادلة الهزيمة والنصر إنما طرد الصليبيين نهائيًا من أرض الشام ، الواقع أنه إن لم يتدخل صلاح الدين في أمور الشام لضاعت جهود نور الدين هباءً منثورًا ، وتحولت الجبهة الإسلامية التي أقامها إلى إقطاعات صغيرة ولعجز الشرق الأدنى عجزًا تامًا عن مقاومة الصليبيين وهذا هو الاتجاه الذي بدا واضحًا بعد وفاة نور الدين محمود.

وخلاصة القول: أن الظروف أصبحت مهيأة لتحقيق صلاح هدفه وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وكان لزامًا عليه الاشتراك في أحداث الشام وإزالة العقبة الكؤود – أمراء الدولة الأتابكية – في طريق إعادة الوحدة الإسلامية في مواجهة الكيان الصليبي ، وإحقاقًا للحق فإن صلاح الدين كان مخلصًا في دعواه توحيد الجبهة الإسلامية وإخراج الصليبيين من الشام ، وهذا ما ردده صلاح الدين كثيرًا في رسائله للخليفة العباسي والصالح إسماعيل عندما برر خروجه إلى الشام بما آلت إليه الدولة النورية من تشعب الآراء وتشتت الأمور وطمع أمراء نور الدين فيما تحت أيديهم من أملاك ، تلك الحالة التي تزيد من أطماع الصليبيين في أرض الإسلام ، واتخذ من القبض على كبار أمراء الدولة النورية في حلب ومنهم ابن الداية وأخوته وكانوا من أخلص الناس لفكرة الوحدة الإسلامية التي سعى لها نور الدين محمود ، كما اتخذ من اتصال أمراء دمشق بالصليبيين سببًا آخر لتحركه إلى الشام ، والذي لا يمكن أن ينكره أحد أنه لا يمكن لصلاح الدين أن يواجه الصليبيين إذا ظل بعيدًا عن الشام وأحداثها ، وما دامت الشام منفصلة عن مصر.

(١)

(٢)

(١)

(٢)

هو مدى التأييد والتفاف الناس حول صلاح الدين ، فأشفقوا على أنفسهم من أن يلقى نفس التأييد في حلب ، فاستبقوا الأحداث وأرسلوا إلى صلاح الدين يتهددوه ويتوعدوه لإشعاره بمدى قوتهم في محاولة منهم لإثنائه عن عزمه ، فكتبوا إليه : إن السيوف التي ملكته مصر بأيديهم ، والرماح التي حوى بها قصور المصريين على أكتافهم ، هي التي ستصده وترده من حلب وترجعه إلى طوره وحده[١] والمعنى الذي تدل عليه هذه الرسالة ليست قوة أمراء حلب وإنما تحمل معنى آخر لصلاح الدين ، حيث تذكره بأنه ما نال ما وصل إليه إلا باسم الدولة النورية التي يريد أن يقضي عليها وعلى ملكها ووريثها الصالح إسماعيل، وهذا هو السلاح الذي يريد الأمراء الحلبيون أن يحاربوا به صلاح الدين ، حيث يرغبون من وراء ذلك إلى تشويه صورة صلاح الدين أمام الرأي العام المسلم بإظهاره بمظهر الطامع في ملك سيده ، وعلى ما يبدو أن الذي دفعهم إلى تشويه صورة صلاح الدين هو الخوف من تأييد أهل حلب له وانفضاضهم من حول أمراء حلب كما حدث في دمشق.

ولم يكن هذا المعنى ولا الهدف من الرسالة ليغيب عن صلاح الدين ولذا رد ردًا يخلي ساحته من أية اتهامات بالطمع في ملك سيده ، بل أكد أنه ما خرج من مصر إلا لجمع الكلمة وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور ، وسد الثغور وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين[٢] .

هذا الرد كان كفيلاً بإشعال نار الغضب في قادة حلب؛ لأنهم رأوا التصميم في عزم صلاح الدين على جمع الكلمة واستخلاص الصالح إسماعيل من براثنهم ، وهذا يعني طردهم من حوله وترك ما كانوا يستولون عليه باسمه من أملاك ونفود وإقطاعيات ، ولذلك أعلنوا الحرب عليه ، واستغلوا أن الصالح

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٧-٢٤٠ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٢٢.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٨ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢٢.

في قبضتهم فبدءوا يحاربون صلاح الدين به ، فأذاعوا بين الناس أن صلاح الدين إنما خرج ليستولي على حلب كما استولى على غيرها من أملاك نور الدين ، وحاولوا أن يظهروه بمظهر الطامع في أملاك سيده الساعي لقتل الصالح إسماعيل .

بدأ صلاح الدين في التحرك صوب حمص ، ونجح في الاستيلاء عليها في ١١ جمادي الأولى سنة ٥٧٠هـ/ ديسمبر ١١٧٤ م ، ثم تحرك نحو حماة فسلمها له حاكمها عز الدين جرديك – وكان مصاحبًا لصلاح الدين في القبض على شاور وقتله – في أواخر ديسمبر من نفس العام [١].

شعر كمشتكين ومن معه من أمراء حلب بقدوم صلاح الدين باتجاههم ، فتملكهم الرعب وأخذوا يستعدون لملاقاته ، فلما فرض صلاح الدين الحصار على حلب في ٣٠ ديسمبر ١١٧٤م / ٣٠ جمادي الأولى ٥٧٠هـ ، فأخذ كمشتكين يعمل على كسر هذا الحصار ورد صلاح الدين عن المدينة فاتخذ ثلاث خطوات الأولى : أنه بدأ يستنفر أهل حلب وحرص على إظهار صلاح الدين أمامهم بمظهر الطامع في ملك سيده الجاحد بفضل نور الدين عليه حتى يضمن عدم الترحيب به ولا الالتفاف حوله كما حدث في دمشق ، واستغل في ذلك الصالح إسماعيل الذي قام خطيبًا في أهل حلب فخطبهم خطبة بليغة أظهر فيها صلاح كأنه معتد آثم يجب عليهم مدافعته [٢] والواقع أن صلاح وقف على نوايا كمشتكين وغاياته فكان يراسل الملك الصالح لتوضيح الأمر له وإبداء النصح منعًا لتردي العلاقات بينهما [٣] ويبدو أن الملك الصالح لم يكن راضيًا عن تصرفات أمرائه إلا أنه كان ضعيفًا لا يستطيع أن يتصرف معهم أي

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨٥.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٨٩ .

(٣) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ، ص٥٧.

(١)

(٢)

(١)

(٢)

(١)

(٢)

(٣)

(١)
(٢)
(٣)

قد يبدو أن كمشكتين قد نجح في إجبار صلاح الدين على فك الحصار والرحيل عن حلب ، ولكن الحقيقة أن تراجع صلاح عن حلب جاء ليعيد ترتيب أوراقه ، وهذا التراجع مازاده إلا تصميمًا على رأب جدار الوحدة الذي تصدع بوفاة نور الدين وما تلاه من أطماع قادته وآل بيته ، فاستغل فرصة العودة إلى حمص ليتمكن من السيطرة على قلعة حمص التي كانت قد استعصت عليه وأسند حكمها والمدينة إلى ابن عمه محمد بن شيركوه ثم استولى على قلعة بعلبك التي كانت من أشد المعارضين لصلاح الدين والمؤيدين لقادة حلب[١] .

ولما يئس صلاح الدين من قادة حلب وأدرك أنهم وأمثالهم من البيت الزنكي يقفون عقبة كنود في سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية بدأ يعمل منفردًا بعيدًا عن هؤلاء فأرسل إلى الخليفة العباسي رسالة طويلة ذكر له فيها جهاده هو وأسرته في سبيل تحقيق وحدة المسلمين ونصرة الإسلام ويطلب في ختامها تقليدًا جامعًا لمصر واليمن والمغرب والشام وجميع ما اشتملت عليه المملكة النورية وكل ما يفتحه بسيفه ، وطلب أيضًا أن يكون التقليد يشمل من يجيء بعده من بني أيوب، وهذه الرسالة توضح مدى يأس صلاح الدين من أعضاء البيت الزنكي والحلبيين ، ومدى يأسه في أن يكون لدى هؤلاء أي نية للعمل الجماعي أو الاتحاد في وجه الصليبيين.

وجاء في هذه الرسالة : " كان أول أمرنا أن كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدو كسر أو مصاف للإسلام معه ضرب. فما يجهل أحد صفنا ولا يجحد عدونا إننا نصطلي الجمرة ونملك الكرة ونتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة ونذير التعبئة إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ولا يفيدنا أن يكون لغيرنا ذكرها " .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ٥٩/١ ، علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٢٢٣.

هذا القسم من الرسالة يوضح جزء كبير من حياة صلاح الدين وأسرته وجهادهم واقتحامهم المعارك المختلفة ويظهر إخلاصهم لفكرة العمل الإسلامي الموحد ، ولم يكن لهم مأرب يذكر ولا أن ينسب لهم عمل.

وعن دور الأسرة الأيوبية في إسقاط الخلافة الفاطمية واستخلاص مصر من الشيعة يقول : " وكانت أخبار مصر تأتينا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبمادولتها عليه من غلبة صغير على كبير .. فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ونسترجع للإسلام شاردها وتعيد على الدين ضالته.. فسرنا إليها في عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال انتهكت الموجود وبلغت منها المجهود وأنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا ومن أساري الفرنج الواقعين في قبضتنا"[١] .

وحاول صلاح الدين أن يتقرب إلى البيت الزنكي وأن يضمهم إلى الجبهة الإسلامية في محاولة لعدم ازدياد الفرقة فأرسل إلى زنكي أخو غازي يحاول أن يستميله إليه[٢] .

معركة قرون حماه :

كان سيف الدين غازي الثاني ، صاحب الموصل يراقب توسعات صلاح الدين في الشام ، وضايقه انتزاعه دمشق وحمص وحماه وبعلبك ، وأثار غضبه حصاره لحلب في محاولة لضمها إلى أملاكه ، ثم بدت له الصورة واضحة ، فيما إذا استمر صلاح الدين في تقدمه ونجح في ضم حلب ، فإن ذلك يشكل تهديدًا – خطيرًا للموصل التي تصبح – بعد ذلك هدفًا سهلاً له ، من هنا أدرك سيف الدين غازي الثاني ضرورة الارتباط مع حلب في حلف دفاعي ضده ، وحدث آنذاك أن تعرض الصالح إسماعيل لضغط صلاح الدين ، فاستنجد بابن عمه

---

(١) انظر نص الرسالة الكاملة ، بالروضتين ١/ ٢٤١-٢٤٣ ، كما في السلوك للمقريزي ١/ ٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل، ١١/ ١٩٠.

(١)

(١)

(١)

(٢)

(١)

(٢)

حكمه[١].

وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب مثل بزاعة ومنبج وعزاز ليقطع الصلة بين حلب والموصل ، وكان من نتيجة هذه العمليات الحربية التي قام بها صلاح الدين أن أدرك السلطان إسماعيل وابن عمه غازي الثاني أنهم لا قبل لهم للحرب مع صلاح الدين ، وأن الصلح معه خير لهم وأبقى ، فأرسلوا إليه يطلبون الصلح وعقد الهدنة ، حيث انتهت المراسلات بالاتفاق بأن يكون لصلاح الدين ما بيده من بلاد الشام وللحلفاء الزنكيين ما بأيديهم ، وأن تضاف لأملاك صلاح الدين بعض الأراضي الواقعة شمال حماة مثل المعرة وكفر طاب ، وما أن تم الاتفاق على بنود الصلح ورحل صلاح الدين عن حلب إلى دمشق حتى جاءت رسل الخليفة العباسي المستضيء ومعهم التشريفات والأعلام والتوقيعات من الديوان العباسي ببغداد بسلطنة صلاح الدين على مصر وبلاد الشام وغيرها ، ودعى له على منابرها ، كما سك نقودًا ذهبية باسمه[٢].

والواقع أن صلاح الدين كان صادق النية في التعامل الإيجابي مع الملك الصالح إسماعيل ، وحاول إقناعه بأنه على استعداد لخدمته بإخلاص، مع أنه كان واضحًا أنه لن يسمح لخصومه بالتقرب منه ، وعدَّ الصالح من جهته هذه الخدمة بأنها حقيقة السيادة وهي واجبة عليه ، وبهذا الرفض الإيجابي لكل محاولة للتفاهم لم يكن أمام صلاح الدين إلا أن يتحلل من هذا الولاء وفي هذه الظروف لم يجد مبررًا لعدم الإقدام على أن يتلقب بلقب ملك أو سلطان[٣].

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٠ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٤٥ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٣٩٥-٣٩٦.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١١، ٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٠.

(٣) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ، ص٦١.

وبذلك يكون صلاح الدين قد نال الشرعية الرسمية أمام العالم الإسلامي بعد أن أقر أعضاء البيت الزنكي بالضعف أمام قوته وبعد تقليد الخليفة العباسي بسلطنته على مصر والشام وما تحت يده من البلاد ، كما أن هذه الأحداث تدل على مدى دراية صلاح الدين بأحداث الشام ، فقد نجح في إيقاع الفرقة بين أعضاء البيت الزنكي ، فدب النزاع بين غازي وأخيه زنكي ، وهذا النزاع اضطر غازي إلى عدم الحضور إلى ساحة المعركة خوفًا من أن يهاجم أخيه أملاكه ، وأناب على جيشه قائده زلفندار قليل الخبرة الذي كان أحد أهم أسباب الهزيمة في المعركة حيث يقول ابن الأثير عنه : "كان جاهلاً بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه ، إلا أنه رزق سعادة وقبولاً في سيف الدين غازي"(١). كما أن صلاح الدين عمل على استمالة قادة الجيش الزنكي حتى أفقده توازنه ، كما لا يغيب عن الذهن حسن معاملة صلاح الدين إلى من وقع في يده من الأسرى حيث أكرم وفادتهم مما جعلهم يصبحون رعاة له ومن أكبر المؤمنين بأفكاره الوحدوية والجهادية ، كما أنه لم يواصل الحرب ضد أفراد البيت الزنكي بعد انتصاره عليهم في قرون حماه ، واستجاب لطلبهم – وهو في الجانب الأقوى- الصلح وعقد الهدنة ، مما قربه من أفئدة عامة الناس وخاصتهم.

محاولة اغتيال صلاح الدين مرة ثانية :

أحس الباطنية أن صلاح الدين أصبح خطرًا على وجودهم ، ولم يتوقف رشيد الدين زعيم الباطنية عن محاولات اغتيال صلاح الدين رغم فشل المحاولة الأولى بل زاد تصميمه ، فأرسل في ذي القعدة ٥٧١ هـ/ مايو ١١٧٦م جماعة من أتباعه يتنكرون في زي الجنود ، فدخلوا المعسكر الأيوبي أثناء حصار قلعة عزاز وباشروا الحرب مع الجنود ، واختلطوا بهم يتحينون الفرصة لاغتيال صلاح الدين ، وفيما كان الجند مشغولين بحصار القلعة مر صلاح الدين بخيمة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٩٠.

الأمير جادلي الأسدي لتشجيع الجند على مواصلة القتال ، فهجم عليه أحد الإسماعيلية وضربه بسكينة على رأسه ، إلا أن صلاح الدين كان يلبس خوذته الحديدية فوق رأسه ، فعاد الرجل وضربه على خده فجرحه، فأمسكه صلاح الدين بيده وحاول تعطيله وهو مستمر في هجومه وضربه ، إلى أن أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله ، ثم هجم فدائي ثاني على صلاح الدين فتصدى له داود بن منكلان وقتله ، ثم هجم فدائي ثالث لتنفيذ المهمة ، فاعترضه الأمير علي أبو الفوارس ، وطعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه وقتله وخرج رابع من الخيمة هاربًا ، فطارده الجند وقتلوه ، وقد تسبب هذا الحادث المفاجئ في اضطراب صلاح الدين ، حتى أنه فحص جنوده جميعًا ، فمن أنكره أبعده ، ومن عرفه أقره ، وحرص حرصًا شديدًا واتخذ تدابير احترازية صارمة، وبالطبع فقد كان للحادث أثر في نفوس الجند ، حتى أنهم توقفوا عن القتال أمام عزاز ، خاصة عندما أشيع أن صلاح الدين قد قتل.

وصمم صلاح الدين على أن يضع حدًا لهذه المعركة التي وضح خطرها في بلاد الشام ، وجهز حملة عسكرية في شهر محرم عام ٥٧٢هـ/ يوليو ١١٧٦م ، فحاصر حصونهم ونصب المجانيق الكبار عليها وأوسعهم قتلاً وأسرًا وساق أبقارهم وضرب ديارهم ، وهدم إعمارهم وهتك أستارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماه ، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه ، فرحل عنهم ، وقد انتقم منهم ودمر قوتهم[1].

وقد اضطر الحشاشون إلى التفاهم مع صلاح الدين بعد فشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله ، وعدم قدرتهم على التصدي لقواته ، لذلك فضلوا وقوفه على الحياد على أن يكون عدوًا مباشرًا لهم ، ومهما يكن من أمر تم نشر المصادر التاريخية بعد إبرام الصلح إلى أي احتكاك بين الطرفين.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٠ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٤٦، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤١٤-٤١٥.

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعًا ضد صلاح الدين في ذلك الدور ، ليحولوا دون تحقيق وحدة إسلامية بين مصر وبلاد الشام وشمال العراق ، وهي الوحدة التي كانت تنذر بالقضاء على الحلفاء الثلاثة.

ويلاحظ على ذلك الدور من أدوار تاريخ الدولة الأيوبية أن جهود صلاح الدين كانت موزعة بين ثلاث جبهات : فهو يعمل ضد الانفصاليين من أمراء البيت الزنكي في شمال العراق والشام ، وفي الوقت نفسه يضطر إلى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد القوى الصليبية ، إما لإرهابهم أو صد عدوانهم ، لاسيما وأن الزنكيين لم يحجموا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين ، وأخيرًا فقد كان على صلاح الدين دائمًا أن ينظر بعين إلى مصر وبالعين الأخرى إلى الشام ، فحرص في تلك الأثناء على متابعة الأحوال في مصر حتى يعود إلى الشام ليبدأ الدورة من جديد[١].

معركة تل السلطان والمحاولة الأخيرة لطرد صلاح الدين من الشام :

والواقع أن الخلاف بين الأيوبيين والزنكيين لم ينته بانتصار صلاح الدين في "قرون حماة" ذلك أن سيف الدين غازي الثاني لم ييأس ، فعندما تنامى إلى أسماعه أخبار الهزيمة ، أثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة العباسي بحكم مصر وبلاد الشام وغيرها من البلاد ، بالإضافة إلى سك النقود باسمه مما دفعه إلى التفكير في الانتقام ووضع خطة عسكرية تتيح له تطويعه ، وتضمن له الانتصار وتصرف على أربعة محاور:

- أرسل إلى أمراء حلب يعتب عليهم ويلومهم على تسرعهم في إبرام الصلح ويحرضهم على نقضه والتعاون معه في خوض المعركة المقبلة.

أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس ، والوصي على عرش

---

(١) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٤٦-٤٧.

مملكة بيت المقدس ، يطلب منه التحالف معه ، ويطلب مساندته ضد صلاح الدين الأيوبي.

- حاول الوقوف على نوايا صلاح الدين ، فأرسل إليه رسولاً بحجة طلب الموادعة ، وأخذ العهد له ، أما المهمة الحقيقية فهي التضليل وكشف ما عنده من نوايا ، لكن الرسول أخطأ حين أخرج كتاب سيف الدين غازي الثاني إلى أمراء حلب ، فقرأه صلاح الدين ، وعرف ما يبيته آل زنكي مدركًا في الوقت نفسه أن أمراء حلب قد نقضوا العهد الذي ارتبطوا به معه وأنهم يستعدون لاستئناف القتال[١] .

استقطب كل من صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما من الأمراء التركمان ، كما أبدى أخوه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار استعداده للتعاون معه[٢] .

والواضح أن صلاح الدين لم يكن بعيدًا عن هذا المناخ العدائي ، فاستغل سقطة البيت الزنكي وأرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بنقض البيت الزنكي لسابق اتفاقهم معه وما نتج عن ذلك من تمزق للجبهة الإسلامية ، وأخذ عليهم استعانتهم بالفرنجة على المسلمين ، ثم طلب من الخليفة العباسي أن يصدر الأوامر إلى ملوك الأطراف ليرسلوا إلى صلاح الدين بالإمدادات ليستطيع بها مجابهة الخطر الصليبي والخطر الزنكي[٣] .

ثم عمل صلاح الدين على إفشال التحالف الزنكي الصليبي ، فعرض على أمير طرابلس الصليبي سلمه وصداقته إذا وقف على الحياد ، وأطلق سراح من

---

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ، ص٦٢ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٣٩٧.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٩٧.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٥٤ ، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢٣.

عنده من أسرى الصليبيين كدليل على حسن النية[١].

حشد سيف الدين غازي الثاني أعدادًا كثيرة من الجند سار بهم إلى نصيبين في شهر ربيع الأول عام ٥٧١هـ / شهر أيلول سبتمبر عام ١١٧٥م وأقام فيها حتى نهاية فصل الشتاء ، ثم عبر الفرات من البيرة ، وكتب إلى سعد الدين كمشتكين ، والملك الصالح إسماعيل لمساندته ، وفعلاً تم الاتفاق على أن يتقدم صاحب الموصل نحو حلب ، ويجتمع بابن أخيه ليقررا معًا الخطوة التالية، واجتمع الطرفان في مكان يعرف بـ"عين المباركة" ، وتقرر انضمام جيش حلب إلى جيش الموصل ، فبلغ أفراد الجيشين عشرين ألف مقاتل ، وتحرك هذا الجيش الضخم باتجاه دمشق في شهر رمضان عام ٥٧١هـ/ آذار مارس عام ١١٧٦م ، وتوقف في تل السلطان على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب من حلب ، وقرر كمشتكين في هذا الوقت التعاون مع الصليبيين لإجبار صلاح الدين على القتال على جبهتين حتى يضعف قوته ، لذلك أطلق سراح الأسرى الصليبيين في حلب، وبخاصة رينولد شايتون صاحب الكرك ، وجوسلين صاحب الرها كبادرة حسن نية.

وتحرك صلاح الدين باتجاه خصومه ، بعد أن تلقى إمدادات مصر ، فعبر العاصي عند شيراز في شهر شوال / نسيان ، ومر بقرون حماة ، حتى وصل إلى تل السلطان ، ولم تمض عشرة أيام حتى فاجأه سيف الدين غازي الثاني بعساكره ، وقد تفرق عسكره وهم يوردون أفراسهم الماء ، حين تردد حاكم الموصل في الهجوم ، وقرر التأجيل إلى اليوم التالي.

ولما عبأ عساكره في صبيحة اليوم التالي في ١٠ شوال/ ١٢ أبريل ، لشن هجوم على معسكر صلاح الدين كان الوقت قد فات ، واشتبك الطرفان في

---

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ، ص ٦٣ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٣٩٧.

رحى معركة شديدة ، وكاد أول هجوم للقوات الزنكية أن يتكلل بالنجاح، غير أن صلاح الدين قاد ما لديه من قوات احتياطية لرد الهجوم ، فحطم خطوط خصومه ، ولم يحل المساء حتى أضحى سيد الموقف ، ومنى الزنكيون بخسارة فادحة ، ووقع بعض قادتهم في الأسر، ولكن صلاح الدين منَّ عليهم وأطلقهم، مظهرًا مرونة في التفكير السياسي ، ويبدو أنه كان يهدف إلى استقطاب هؤلاء ، وخاصة أنه كان بينهم أصحاب مراكز وتأثير، وقنع سيف الدين غازي الثاني بهذه الهزيمة ، وقرر العودة إلى بلاده ، ولم يكسب سوى عداء صلاح الدين ، وما خلفه من أموال في معسكره عند انسحابه بذلها صلاح الدين لرجاله على سبيل المكافأة[١].

وبهذا الانتصار الحاسم تمهد السبيل أمام صلاح الدين لضم حلب ونواحيها، وتحرك بالجيش صوب حلب لفرض الحصار عليها للمرة الثانية ، لأنه لم يعد يثق بأمرائها ولا بعهودهم ومواثيقهم لسابق نقضهم إياها ، وقام صلاح الدين بشن الغارات على أملاك خصومه في المنطقة ، وهاجم وحاصر القلاع والحصون المحيطة بحلب مثل براعة ومنيج وعزاز ، وإن كان قد ترك حصن عزاز للصالح إسماعيل بعد أخته خاتون ابنة نور الدين محمود لديه ، ثم فرض الحصار على حلب ، ثم جرت المراسلات ، ودخل الطرفان في مفاوضات من أجل إحلال السلام ، لقطع الطريق على الصليبيين من الاستفادة من هذا الوضع ، وخدمة لمصلحة المسلمين العامة ، ولذلك قدم كل طرف بعض التنازلات ، واستقر الرأي على الصيغة التالية:-

- أن يكون الجميع يدًا واحدة ضد الصليبيين.
- لا يجوز لأحد الأطراف نقض العهد.
- إذا نقض أحد الأطراف العهد أو خالفه ، فالباقون يدًا واحدة عليه حتى

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٤٣.

يرجع إلى الوفاق.

- يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز للملك الصالح.
- وعقدت الهدنة في شهر المحرم عام ٥٧٢هـ/ يوليو عام ١١٧٦م[1].

وبذلك يكون صلاح الدين قد أصبح ملكًا مستقلاً على مصر والشام وذلك باعتراف الخلافة العباسية الغطاء السياسي والرسمي للشرق الإسلامي آنذاك، وكذلك باعتراف الصالح إسماعيل الوريث الشرعي لدولة نور الدين محمود ، وفي ذات الوقت أصبح صلاح الدين أقوى حاكم مسلم لأقوى دولتين في الشرق.

الغارة الصليبية على أملاك صلاح الدين:

انتهز الصليبيون فرصة انشغال صلاح الدين بالقتال مع سيف الدين غازي والصالح إسماعيل ونقض الهدنة المعقودة بينهم وبين صلاح الدين ، فهاجموا الأراضي التي يسيطر عليها ، حيث أغار ريموند الثالث أمير طرابلس على إقليم البقاع ، في حين زحف الجيش الملكي من الجنوب بقيادة الملك همفري أمير تبنين ، وعلى ما يبدو أن ريموند الثالث تعرض للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك ، غير أن الجيشين الصليبيين اجتمعا سويًا ، واصطدما بشمس الدولة توران شاه أخي صلاح الدين ونائبه في دمشق ، عند بلدة عنجر في البقاع ، وكان قد خرج لنجدة بعلبك ، غير أن اللقاء لم يكن حاسمًا ، ولم يكد صلاح الدين يقدم من الشمال حتى انسحب الصليبيون من المنطقة ، ولم يشأ أن يتعقبهم ، وإنما فضل العودة إلى مصر تاركًا أخاه توران شاه في دمشق[2].

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٥٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٩٥ ، محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص٦٥.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ١٩٧ ، محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص ١١٩.

وقبل أن يتوجه صلاح الدين إلى القاهرة تزوج من أرملة نور الدين محمود[1].

صلاح الدين وتحصين مصر :

في سابق الأحداث نجح صلاح الدين في تكوين جبهة قوية ودولة مركزية في مصر والشام ، وتوطدت فيها أقدامه ـ ولم يعد له منافسين أقوياء يعتد بهم أو يخاف على نفسه من تهديداتهم ، كما أن أحوال الصليبيين أصبحت في تدهور مستمر ، ولم يكن هناك أمل أن يغالبوا مشكلاتهم الداخلية الناجمة عن وجود ملك مريض على عرش مملكة بيت المقدس وهو الملك بلدوين الرابع ، وعن وجود وصي على العرش لا يتفق عليه الجميع وهو ريموند كونت طرابلس ، الذي لم يمكث في منصب الوصاية أكثر من ثلاث سنوات ، ومن ناحية أخرى لم يجد الصليبيون من يساندهم في الغرب المشغول بمشكلاته ، كما أن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين كان في وضع حرج ، ففي سنة ١١٧٦م ألحق السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني هزيمة فادحة بالإمبراطور البيزنطي فقضت على الجيش الذي كانت أسرته قد بنته على مدى عدة أجيال في مريو سيفالون ، التي يقارنها المؤرخون بهزيمة ملاذكرت قبل مائة سنة ، وكانت كارثة لكل من البيزنطيين والصليبيين على حد سواء[2] .

استغل صلاح الدين هذا التوقف الاضراري للأعمال العسكرية بين جميع الأطراف في تقوية جبهته العسكرية في مصر ، لسابق علمه أن مصر قبل مجيئه إليها لم يكن لها قلعة تحميها ولا حصون قوية تسترها عن هجمات الصليبيين ، ولم ينس صلاح الدين قيام عموري الأول ملك بيت المقدس بالهجوم المباغت على مصر ، ولم يجد ما يمنعه لعدم وجود حصون أو قلاع ، وقد نما إلى علم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٣ ، قاسم عبده ، تاريخ الأيوبيين ، ص٤٣.

(٢) د/ قاسم عبده ، الأيوبيين والمماليك ، ص ٤٥.

صلاح الدين محاولات واتصالات حادة دارت سنة ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة غزو مصر – وإن كانت قد فشلت المحاولة- إلا أنه كان على صلاح الدين أن يقف على أهبة الاستعداد لمثل تلك المحاولات ، فكان عليه أن يعيد تحصين مصر من جديد.

وفي الحقيقة: أن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر لم يكن وليد اللحظة بل سبق ذلك بسنوات ومنذ مجيئه على مصر ، ومنذ وزارته للعاضد الفاطمي ، فكان لديه خطط كبيرة لإعادة تحصين مصر وشرع بالفعل في ترميم سور القاهرة وإصلاح ما قد تهدم منه سنة ١١٧١م / ٥٧٦هـ[1].

وتوقف صلاح الدين ولم يستطع استكمال مشروع تحصين البلاد لأن مركزه لم يكن بالقوة التي أصبح فيها ، فلم يكن يعدو كونه وزيرًا للعاضد ، وفي نفس الوقت نائبًا عن نور الدين محمود ، وهذا في حد ذاته عقبة كؤود لأن أي مشروع أو قرار يريد أن يتخذه لابد وأن يسبقه إذن من ملاك البلاد الحقيقيين نور الدين محمود والعاضد الفاطمي ، وإذا أضيف إلى ذلك أن صلاح الدين كان في بداية مشواره السياسي والعسكري ، وكان بحاجة إلى كثير من الخبرة والتمرس، ولم يكن يُطلب منه في هذه المرحلة أكثر مما فعل.

أما وإن الأمور قد آلت إلى ما آلت إليه وأقبلت الدنيا على صلاح الدين فشرع في تحصين مصر ، فبدأ ببناء القلعة بعد عودته من الشام مباشرة سنة ١١٧٦م/ ٥٧٢هـ ، ولكن بناءها لم يتم في حياته ، والذي تم منها هو هيكلها والبئر الحلزوني الذي حفر في الصخرة داخلها ، ويجب الإشارة هنا إلى أن مباني صلاح الدين تختلف عما كان موجودًا قبلها ، إذ أن تلك المباني القديمة كانت في الغالب على النمط البيزنطي لاختلاط العرب بالدولة البيزنطية وأخذهم عنها ، بينما كانت مباني صلاح الدين على النمط الفرنجي ، والسبب في هذا

(١) سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٥٠.

واضح ، وهو أن صلاح الدين نشأ في الشام وقضى شبابه في محاربة الصليبيين وعرف أساليب دفاعهم وهم في حصونهم فبنى على نمطها ، وربما يرجع ذلك أيضًا إلى أنه استخدم البنائين من الصليبيين في تصميمها وبنائها ، فكان لهم نصيب من ذلك التصميم وطريقة البناء.

كذلك بني صلاح الدين قلعة المقس ، وهي برج كبير على النيل وبنيت بالقرب منها أبراج أخرى كلها على النمط الفرنجي ، فلما تمت تلك الأعمال أمر صلاح الدين بأن يقام سور يحيط بمصر والقاهرة ، وهذا السور ثالث الأسوار التي تقام حول القاهرة وأولها بناه جوهر الصقلي ، وثانيها بناه بدر الجمالي ، وقد بني الاثنان من اللبن(١).

وبعد أن أتم صلاح الدين تحصين القاهرة بالسور والقلاع الحصينة سنة ٥٧٢هـ ، خرج في شعبان من نفس العام من القاهرة ، ليتفقد موانئ البلاد الرئيسية دمياط والأسكندرية ، وكان بصحبته والده الأفضل علي والعزيز عثمان ، فتفقد تحصينات دمياط أولاً واطمأن على حالة الأسطول ثم رحل إلى الإسكندرية حيث تفقد سورها الدائري وفحص التحصينات والزيادات التي كان قد أمر بإنشائها غداة وصوله إلى الحكم ، ثم أمر ببناء سفن جديدة للأسطول ، ولم يترك الإسكندرية حتى اطمأن على تحصيناتها وأتم بناء الأسطول(٢).

ومن ناحية أخرى أجرى صلاح الدين إصلاحًا اقتصاديًا واجتماعيًا ، فقد اعتنى اعتناءً كبيرًا بالزراعة ووسائل الري ، لتنبت الأرض أطيب الثمر وتنتج من كل زوج بهيج ، كما عني صلاح الدين بالتجارة عناية كبيرة ، فكانت مصر في عهده حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، وقد انتعشت مدن كثيرة أوروبية

---

(١) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٢٣٦ ، د/ محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، ص ٢١٤-٢١٦.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٦٨ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص٥٢.

بسبب هذه التجارة مثل مدن "البندقية وبيزا" الإيطاليتين ، وأولى صلاح الدين الأسواق التجارية كل اعتنائه واهتمامه حتى يزدهر الاقتصاد ويزداد الإنتاج في دولته ، كما اهتم صلاح الدين بصناعة المنسوجات والأقمشة والملابس الحريرية المزركشة وسروج الخيل ، وصناعة السلاح وصناعة الزجاج ، كما انتشرت في عهده صناعة الخزف والسفن والأساطيل إلى غير ذلك مما يزهر الاقتصاد ويضاعف الإنتاج ويمكن للدولة أسباب القوة(١).

كما ألغى صلاح الدين المكوس وأبقى على الموارد الشرعية ، فألغى ما كان يؤخذ من رسوم على الحج على المغاربة وألغى المكوس على تجار اليمن والضرائبَ المماثلة في دمشق حين فتحها وفي حلب وسنجار والرقة ، وتظهر سياسته المالية في المنشور الذي نشره عند إسقاط مكوس الرقة : " إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق ، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق ، ومن ترك لله شيئًا عوضه ، ومن أقرض الله قرضًا حسنًا وفاه "(٢).

وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة التي كان الفاطميون قد ألغوها وإيذانا بعودة مذهب أهل السنة ، وجعلها البديل على المكوس والرسوم غير الشرعية واهتم بجمعها وأقام لها ديوانًا تسلمه "متولي الزكاة" ، وكذلك كانت ضريبة الخراج تجبى بنظامها وأوقاتها في مصر ، ودفع أهل الذمة الجزية ويعفى منها الصبية والنساء والرهبان ، وكانت معظم واردات الدولة تنفق على الحرب والحصون والأسوار والقلاع والمدارس والمساجد والأربطة ، وخانات في الطرق وزوايا ، ورواتب للعاملين في الدولة ...إلخ(٣).

كما أقام صلاح الدين مجموعة من البيمارستانات (المستشفيات) لعلاج

---

(١) عبد الله علوان ، صلاح الدين الأيوبية ، ص ١٧٥-١٧٦.

(٢) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الأيوبي الفارس المجاهد والملك الزاهد ، ص٣٨٨.

(٣) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ، ص٣٨٩.

المرضى مثل المستشفي الناصري في القاهرة والبيمارستان الإسكندري ، والبيمارستان الصلاحي بالقدس[١] ، وكان يقام في هذه البيمارستانات مدارس لدراسة الطب ثم ينساب الطلاب بعد المحاضرة لمعاينة الأمراض ومعالجة المرضى[٢].

وقد أنشأ صلاح الدين مجموعة من المدارس كانت بمثابة دور للعلم يدرس فيها الجميع الشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة ، وقد بدأ صلاح الدين في إنشاء هذه المدارس منذ أيام وزارته للعاضد كالمدرسة الناصرية التي أسست سنة ١١٧٠م / ٥٥٦ هـ بجوار جامع عمرو بن العاص ، وقصرت على الشافعية والمدرسة القمحية بالقرب منها وكانت خاصة بالمالكية ، والمدرسة الحنفية التي بنيت سنة ١١٧٦م / ٥٧٢ هـ في دار الوزير البطائحي ، والمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي ، والغرض من بناء المدارس معروف هو نشر المذهب السني في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعي[٣].

وهكذا يكون صلاح الدين قد أتم كثير من الإصلاحات الاقتصادية والعسكرية في مصر والشام حتى يأمن من عادية الصليبيين ، كما أن صلاح الدين قد أعد طبقة متوسطة من المتعلمين والمثقفين من خريجي المدارس الدينية التي أنشأها ، هذه الطبقة سوف تقوم بدور هام جدًا في الحروب الصليبية ، إذ سيقع عليها توعية الناس بمخاطر الاعتداءات الصليبية ، كما يناط بها شحن معنويات الناس وتعبئتها للإسهام بالنفس أو المال في الجهاد ضد الصليبيين. وبذلك يكون صلاح الدين قد رمم جبهته الداخلية وحصنها كما قد نجح في تقوية حصون وثغور البلاد حتى ينطلق كليًا لمواجهة الصليبيين وهو مطمئن البال قرير العين على أحواله الداخلية.

---

(١) عبد الله عبد الرازق ، المستشفيات الإسلامية ، ص ٢٣٦- ٢٣٨ ، ٢٥٠.

(٢) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ، ص٢١٤ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٣) علي بيومي ، قيام الدولة الأيوبية ، ص٢٣٨.

سمات ومميزات صلاح الدين في تحقيق الوحدة:

كان لصلاح الدين فلسفة خاصة وسمات مميزة في أثناء تحقيقه للوحدة الإسلامية ومنها :

١-الكرم بالمال واحتقاره : ويظهر ذلك في كثرة ما وهب وأعطى لأتباعه وللوافدين عليه أو المستسلمين لحكمه أو الموعودين منه بالعطاء ، ومسامحته لجميع البلاد التي فتحها بديوان الضرائب السابقة ، وإلغاء المكوس والمظالم عدا الجبايات الشرعية ، ولا شك أن ذلك لعب دوره في اجتذاب الناس إلى صفوفه وفي إسكات خصومه.

٢-خلقه السمح : فكان يحارب المعادين لقيام الجبهة الموحدة ، فإذا هزمهم لم يسمح باللحاق بهم ولا بقتل جرحاهم ، ويطلق أسراهم ويتسامح أحيانًا مع من يعرف أنهم أعداؤه ولا يظهر ذلك بل يغض على بصيرة ، لأنه يريدهم أن يكونوا بعد الخصومة حلفاء له.

٣-إيمانه الإسلامي العميق : الذي كان يتمثل لا في العبادات فقط ، ولكن في الإيمان بأن الجهاد فريضة عليه أولاً وعلى الآخرين ، فهو لا يرضى إلا بحملهم عليه.

٤-ترك الأمراء لإماراتهم أو إطعامها لقواده والمقربين أو للأعداء أحيانًا، لأنه لا يريد بعد ملك مصر جندًا يقدمون له القوة اللازمة عند الطلب ، وهذا ما يفسر تنازلاته ومفاوضاته الدبلوماسية ومنحه الإيمان ليعاديه.

٥-لم يظهر في البيت النوري خاصة ولا في أمراء نور الدين الآخرين شخصية سواه قوية قادرة على أن تحقق المبادئ التي يعمل عليها نور الدين وأبوه من قبله.

٦- محاولته - بجانب كسب الجمهور الإسلامي - كسب رضا الخليفة العباسي ، الذي ظل يؤمن أنه مصدر الشرعية الروحية لجميع المسلمين ، فكان يواليه بالكتب تباعًا بمختلف المواقف يفسرها أحيانًا، ويتهم خصومه أحيانًا أخرى ، يستأذن ثالثة ويُيسر رابعة دون انقطاع ، وتخلص من كل ذلك إلى أن قوة صلاح الدين إنما كانت بالتلاحم بينه وبين الجماهير الإسلامية من خلال أعماله وجهاده ، وبوقوفه للدفاع عن مطالب الجماهير المتمثلة في حماية دينها وعقيدتها والتصدي للغزاة ، وإذا حارب صلاح الدين بعض حكام المسلمين فإنما حارب فيهم مصالحهم الشخصية الخاصة وسيادتهم وأنانيتهم الصغيرة التي تدمر أحلام الناس وآمالهم لا أشخاصهم ، وقد قضى في إقامة الجبهة الإسلامية الموحدة اثنتي عشرة سنة (٥٧٠- ٥٨٢هـ ١١٧٤-١١٨٦م) وكانت طموحاته خلالها أضخم بكثير من قوى جسمه وأمراضه فهو عملاق حربي وكتلة أمراض جسدية ، وكان حبه للجهاد هو الذي ينسيه آلامه ويجعله يتجاوزها[1] .

تكامل شخصيتين في التوحيد والتحرير :

ما تحدثنا به الأحداث والوقائع ندرك بسهولة ويسر أن شخصية نور الدين وشخصية صلاح الدين قد تكاملت جهودهما في توحيد الأمة على الجهاد والتحرير ، وقد وفقهما الله لذلك وجاء صلاح الدين رحمه الله هو قائد من قادة نور الدين وأمير من أمرائه ليكمل مسيرة نور الدين محمود في توحيد الأمة الإسلامية ، وجمعها على الإيمان ، والولاء لله ولرسوله والذين آمنوا ، والبراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين وقتال الصليبيين وطردهم من بلاد المسلمين

---

(١) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ، ص٢٣٢ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٣٧.

ونهض بالأمة علميًا وشرعيًا وجهاديًا ، فأقام الحدود والقصاص والتعزير وقضي على الظلم والفساد ، ثم انطلق بعد أن هيأ الأمة الموحدة للجهاد في الشام ومصر والحجاز والعراق واليمن ليغزو الفرنجة ويطردهم من بلاد المسلمين ، وكان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله يعلن أنه أخذ كثيرًا من أخلاق نور الدين وخاصة عدله في الحكم وجهاده ، وقال رحمه الله في عدل نور الدين وأخذه عنه – تعقيبًا على عدل نور الدين مع من أساء إليه: " هذا هو الحق وكل ما ترى فينا من عدله فمنه تعلمناه" [1]. وقال أبو شامة في تكامل الشخصيتين : "فلله درهما من ملكين قد تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة ، وهما حنفي وشافعي ، شفى الله بهما كل عي ، نور الدين أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وهيبته في جميع بلاده ، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد ما استعين به على مداومة الجهاد ، فهان على من بعده على الحقيقة سلوك تلك الطريقة ، لكن صلاح الدين أكثر جهادًا وأعم بلادًا ، صبر وصابر ورابط وثابر ، وذخر الله له من الفتوح أنفسه ، وهو فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنهما أحقهما بقول الشاعر كم ترك الأول للآخر"[2]. وقال عماد الدين الكاتب في نور الدين وصلاح الدين : " فهما جددا الإسلام بعد دروسه، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه ، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين"[3].

توحيد الأمة عن طريق القوة :

إن الوقائع والأحدث جاءت بأن المسلمين عند بدء الحروب الصليبية كانوا متفككين ، وكانوا دولاً متنازعة ، وإمارات متحاربة ، فجاء نور الدين زنكي

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٤١ ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٣٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢٦ -٢٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٣٨.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩٣ ، أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص١٣٢.

يجمع الأمة على الجهاد ويوحدها بمخاطبتها بالدليل الشرعي في الوحدة والاعتصام بحبل الله ، والاجتماع على قتال الصليبيين لتطهير المقدسات ، وقد بينت الأحداث أن توحيد الأمة لا يقف عند أمنية الناس والشعوب ، ولا عند رغبتهم فيها ، بل يتعداها إلى وجود حكام مخلصين مؤمنين موحدين يرغبون من كل قلوبهم بتوحيد الأمة ، ويترجم هذه الرغبة جهود عملية مضنية من هؤلاء الحكام ، جهاد مستمر ، تبذل فيه الأنفس والأموال ، بل ويتعدى ذلك إلى استخدام أسلوب القوة والحرب مع دعاة الانفصال والتمزق والتفرقة ، وبغير هذا لا يقوم توحيد ولا وحدة ، فلا غرو بعد هذه المقدمة الموجزة أن نجد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وأسرة زنكي إجمالاً ، وكذلك الأسرة الأيوبية وفي مقدمتها صلاح الدين الأيوبي قد حملوا راية التوحيد ، توحيد الأمة لتكون صفًا في وجوه أعدائها الغازين ، ووحدوها على الجهاد في سبيل الله ، وحزموا كل الحزم في سبيل توحيدها فقاتلوا قتالاً مريرًا ، وحاربوا حروبًا كثيرة حتى فتحوا البلاد وطوعوها وطوعوا أمراءها للوحدة ، كان الخطاب لهؤلاء الأمراء واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار وكان حازمًا كل الحزم ، لا هوادة فيه ولا تراجع ، إما الاستجابة للوحدة وإما العزل عن الحكم والإمارة(١) . وقد وجه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٠هـ قبل حطين وقبل تحرير القدس خطابًا إلى زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك بإربل وما يجري معها من البلاد والقلاع ، وجاء فيه : "إن الله مكن لنا في الأرض ، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره ولأداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد في سبيل الله ، فنوضح سبيله ، ونقبل على أعداء الدين وتبصر قبيله ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه ، ونجمع كلمتهم في رفع العليا في أرضه على استنزال نصره في سمائه ، فمن ساعدنا على هذه الفريضة واقتناء

---

(١) أبو فارس ، تأملات في الحروب الصليبية ، ص١٣٦ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٣٨.

هذه الفضيلة يحظى من عوارفنا الجزيلة بحسن الصنيعة ونجح الوسيلة ، ومن أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأعرض عن حق دينه بالإقبال على باطل دنياه فإن تاب ورجع قبلناه وإن أصر على غوايته أزلنا يده وعزلناه[١].

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه ، فالمسلمون ليسوا أمة واحدة وليس لهم دولة واحدة تحكمهم وتدبر أمور حياتهم ولكنهم فرق تفرقوا شذر ومذر ، قد آلت الأحوال بهم إلى أسوأ مما كانت عليه في الحروب الصليبية التي نتحدث عنها وأصبحت بلادهم نهبة لأعدائهم وخيراتهم ليست لهم ، بل وفرضت عليهم مناهج الأعداء وقوانينهم.

إن الإسلام يوجب على دعاة الوحدة أن يجاهدوا دعاة التفرقة ويحملوهم على ذلك إلى أن يذهب بهم ويؤتى بغيرهم والله غني عن العالمين[٢].

الوحدة مطلب شعبي عام لا يقف أمامه حاكم انفصالي:

لما رفض حاكم دمشق استقبال صلاح الدين كارهًا للوحدة والجهاد ضد الصليبيين لم يقبل أهل دمشق منه هذا التخاذل ، واستقبلوا صلاح الدين وجيش صلاح الدين ، وأصبح النفوذ والحكم لصلاح الدين المجاهد ومن معه ، وها هو ذا المملوك سرخس حاكم قلعة حارم من أعمال حلب قد امتنع عن تسليمها لصلاح الدين الأيوبي وقد راسله في ذلك توحيدًا لقوة المسلمين في جهاد الصليبيين فأبى وراسل الصليبيين ليحتمي بهم ضد صلاح الدين ، فسمع من حوله من الأجناد أنه يراسل الصليبيين فخافوا أن يسلمها إليهم وقبضوه وحبسوه ، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإقدام ، فأجابهم إلى ما

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٣٢-٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٦٣-١٦٤ ، الصلابي، صلاح الدين ، ص٤٣٩.

(٢) أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص ١٣٧ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٣٩.

طلبوا ، وسلموا إليه الحصن[١].

أهمية الوحدة بين مصر والشام:

إن الاتحاد بين مصر والشام له أثره الحسن على المسلمين ، فهذا يشكل جبهة حربية وقاعدة شعبية عريضة وقوية في التصدي للصليبيين إذا أرادوا غزو أي بلد من البلاد في مصر والشام ، فكان إذا اعتدى على أي بلد في مصر هبت جيوش الشام بمساعدة المعتدى عليهم في مصر ، وذلك إما بإرسال الجيش الشامي للقتال جانب المسلمين في مصر أو بقيام الجيش الشامي بفتح جبهة أخرى ضد الصليبيين لتفريق قوتهم وتخفيف الضغط على إخوانهم ، وهكذا إذا حدث العدوان على أي بلد من بلاد الشام ، يهب الجيش المصري بنجدة إخوانهم على أرض الشام ، وسيرة صلاح الدين أوضحت كيف كان يتعاون الجيش المصري مع الجيش الشامي للتصدي للصليبيين وخاصة في فتح عسقلان والمدن الساحلية أو الدفاع عنها[٢] ، وقد تمكن صلاح الدين من تحقيق الوحدة أحيانا بالدبلوماسية وبالتهديد والترهيب أحيانًا أخرى ، وبالعمل العسكري المحدود في بعض الأوقات ، لتحقيق وحدة مصر وبلاد الشام والقسم الأكبر من بلاد شرق الفرات تحت سيادته وقيادته ، وإلزام بقية القوى حتى حدود بلاد العجم بالمشاركة في الجهاد ضد الصليبيين ، وأتم ذلك دون تعطيل الجهاد ، إذ استمرت العمليات العسكرية الهجومية بقيادته هو بنفسه أو بقيادة أمرائه من القاعدة الرئيسية في دمشق[٣].

---

(١) أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص ١٣٨.

(٢) د/ مصطفى الحباري ، صلاح الدين القائد ، وعصره ، ص٢٠٣ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٤٠.

(٣) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٤٠.

الفصل السادس

صلاح الدين والجهاد ضد الصليبيين

صلاح الدين والجهاد ضد الصليبيين :

كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في عقلية وفكرة صلاح الدين عن الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين ، كان أولها التنشئة الدينية البحتة ، ومحافظته على أركان الإسلام وفروضه مما أثقل إيمانه وساعد على تبلور فكرة الجهاد لديه، فيصفه ابن شداد – معاصره ورفيقه وصديقه – بقوله : " كان صلاح الدين حسن العقيدة ، كثيرًا لذكر الله تعالى ، قد أخذ عقيدته بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء "(١) ، ويقول المقريزي : " ونشأ يوسف – صلاح الدين – وعليه لوائح السعادة وجالس مشايخ العلم "(٢).

أما عن مواظبته على الصلاة ، فيقول ابن شداد : "كان يواظب على الصلاة مع الجماعة ، حتى قال لي يومًا : لي سنين ما صليت إلا في جماعة . وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده وصلى خلفه ، وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له ركعات يصليها – إن استيقظ – بوقت من الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه ، ولقد رأيته – قدس الله روحه – يصلي في مرضه الذي مات فيه قائمًا وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى "(٣).

ومات صلاح الدين ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل فقد استنفذت جميع ما ملكه من المال ، فإنه ملك ما ملك ومات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصريًا ودينارًا واحدًا من الذهب ، ولم يترك ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا بستانًا ولا قرية ولا مزرعة ولا

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٧.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٢ -٤٣.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٧-٨ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٤٣.

شيئًا من الأملاك[(١)].

ولم يكن صلاح الدين يركب فرس إلا وهو موهوب ولا جاءه قول إلا وهو مطلوب ، وما كان يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف ، وكانت مجالسه منزه عن الهزء والهزل ، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل ، ويؤثر سماع الحديث ، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطانًا لتواضعه، وكان محافظًا على الصلوات في أوقاتها لا يصلي إلا في جماعة . وكان لا يلتفت إلى قول منجم. وإذا عزم على أمر توكل على الله[(٢)].

كما أن صلاح الدين كان محبًا للحديث يجله عند سماعه ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له [(٣)] وأشيع عنه أنه كان يحب سماع القرآن الكريم ويستحسن من يقرأ له[(٤)].

هذه النشأة والثقافة الدينية التي نالها صلاح الدين إلى جانب فطرته النقية وسريرته الصافية جعلته شغوفًا بالجهاد في سبيل الله عامة ، فلقد كان الجهاد حبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمًا ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وولده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في البرج وإلا قتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئًا من أخبار الجهاد.

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢١٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٨-٩.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٩.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٩.

ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد ، وكان ابن شداد ممن ألف لـه كتابًا جمـع فيـه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي في فـضله ، وشـرح فيـه غريبهـا ، فكان صلاح الدين يتطلع فيه ، وورثه بعده لابنه الأفضل(١).

وثاني العوامل التي بلـورت فكـر وعقـل صـلاح الـدين عـن الجهـاد نـشأته وترعرعه في ميدان الجهاد ضد الصليبيين ، فكانت مصر والشام وشمال العـراق بمثابة المسرح الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين ، وشب أثناء اشـتداد قيـام حركة الجهاد ، وترعرع بين أناس لا شغل لهم إلا الحرب والـدفاع عـن العقيـدة والأرض والتـضحية بـالروح والـدم في سـبيل الحفـاظ علـى الـدين والعـرض والأرض ، وتربى على وقع صوت السلاح ، وانتقل بين البلـد والأخـرى يـرى بأم عينه حال المسلمين وهجمـات الـصليبيين ، كـل ذلـك صـاغ فكـر وعقيـدة صلاح الدين عن الجهاد في سبيل الله.

والملاحظ في مؤشر صعود صلاح الدين إلى هرم السلطة في دولة نـور الـدين تدخل القدر أكثر من مرة لمساعدته ، فأتاح له الفرصة إلى المجيء إلى مصر ثـلاث مرات بصحبة عمه أسد الدين شيركوه ، وعلى أرض مصر احتك صلاح الدين بالصليبيين واكتسب خبرة واسعة في شؤون الحرب والسياسة جميعًا. ثم أتاح لـه القدر فرصة الظهور على سطح الأحـداث عنـدما تـوفى عمـه شـيركوه ووقـع اختيار الخليفة الفاطمي العاضد عليه دون غيره من أمراء الجيش النوري – ليلى منصب الوزارة ، وللمرة الثانية يتدخل القدر ليـنجح صـلاح الـدين في الخطـوة الجريئة التي خطاها نحو إلغاء الخلافة الفاطمية وإسقاطها ، وهي الخطوة التي شاء القدر أن تصحبها وفاة الخليفة الفاطمي العاضد ، مما جعـل مـن صـلاح الـدين الزعيم الأوحد الذي لا ينافسه منافس في مصر ، وإذا كانت تلك التطورات قـد تمت في ظروف صعبة بالنسبة لصلاح الـدين نتيجـة للثـورات والفـتن الداخليـة

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٢١.

والهجمات والضغوط الخارجية ، فإن القدر شاء أن يقف إلى جانب صلاح الدين ليحقق له النصر بعد الآخر على كافة خصومه في الداخل والخارج، وعندما تأزم الموقف بين صلاح الدين وسيده نور الدين محمود ، وهم الأخير بغزو مصر لتنحية صلاح الدين ، توفى نور الدين محمود فجأة ، فكان حكم القدر هذا ليجعل من صلاح الدين الرجل الأول ليس في مصر وحدها بل في دولة نور الدين محمود كلها ، التي امتدت من النيل إلى الفرات ، ولا ندري ماذا كان سيحدث لو أمهل القدر نور الدين محمود ليصل إلى مصر على رأس جيشه، ولكن ما نستطيع أن نؤكده أن تاريخ صلاح الدين كان سيقف عند تلك المرحلة ، لأنه كان من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – على رجل واحد من رجال صلاح الدين في مصر ، بل كان من المتعذر على صلاح الدين نفسه أن يرفع سيفه في وجه سيده الشرعي نور الدين محمود ولي نعمته الذي طبق ذكره الأرض ، لذا نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجيء صلاح الدين إلى مصر نقطة التحول الأولى في حياة ذلك البطل ، فإن وفاة نور الدين محمود في مايو ١١٧٤م/ ٥٦٩هـ تمثل نقطة التحول الكبرى في حياته . ذلك أن وفاة نور الدين محمود المفاجئة تركت المسرح الإسلامي في الشرق الأدنى وليس عليه شخصية كبرى تستطيع أن تسد الفراغ الذي تركه ذلك البطل ، وعندئذ ظهر صلاح الدين على المسرح السياسي والعسكري ليكمل مسيرة من سبقه من أبطال حركة الجهاد ، ويكمل مسيرة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود[١] .

الحملة الصليبية الفلمنكية ٥٧٣هـ/١١٧٧م :

وصلت إلى الشام حملة صليبية سنة ٥٧٣هـ / ١٧٧م بقيادة فيليب الالزاس كونت فلاندرز ، لدعم القوات الصليبية ضد صلاح الدين ، وكان عماد هذه الحملة الفرسان الفلمنكيين ، ولما سمع الإمبراطور البيزنطي بهذه الحملة أرسل

(١) د/ سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص ٥٦-٥٧.

سفاره إلى بيت المقدس لتعرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فكرة التحالف بين الإمبراطور البيزنطي والصليبيين للقيام بحملة مشتركة لغز مصر ، ولكي يثبت الإمبراطور صدقه في هذا العرض أرسل إلى عكا أسطولاً من سفن حربية تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادًا لغزو مصر والانتقام من صلاح الدين.

ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي أراد أن يقوم بعمل حربي ضد صلاح الدين يعوضه الهزيمة القاسية التي أنزلها به السلاجقة الروم في العام السابق – سبتمبر ١١٧٦م – والتي قضت على هيبة الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى فضلاً عن الشام.

ولكن ولما كان بلدوين الرابع مريضًا لا يستطيع إدارة الحرب الصليبية بنفسه والاشتراك مع القوات البيزنطية في الهجوم على مصر فقد عرض على فيليب الالزاسي تعيينه وصيًا على مملكة بيت المقدس إذا هو قبل قيادة القوات الصليبية المشتركة في تلك الحملة ، ولكن فيليب رفض ذلك العرض مدعيًا أنه إنما حضر إلى الأرض المقدسة للحج وتزويج الأميرتين سيبل وإيزابيلا من بعض أفضاله لا لتحمل مسئولية القيام بحرب ضد مصر ، ولما طال أمد الأخذ والرد في هذا الموضوع ورئيس الإمبراطور البيزنطي من قدرة بلدوين الرابع على الاشتراك في غزو مصر ولضعفه وخوفه من القيام بذلك منفردًا انسحب الأسطول من عكا عائدًا إلى البسفور[١] .

ولا شك أن الصليبيين أضاعوا من بين أيديهم فرصة ذهبية لا تعوض لطعن صلاح الدين في مصر في الوقت الذي لم يثبت أقدامه في الشام بعد ثم إن الظروف كانت مواتية كلها للصليبيين بعد أن وضع الإمبراطور مانويل كومنين إمكانات قواته البرية والبحرية لمشاركة الصليبيين غزو مصر ، وقد أثبتت الأيام

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٤ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص٦٩.

أن تلك الفرصة لم تتح للصليبيين بعد ذلك ، إذ توفى مانويل كومنين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وخلفه على العرش أباطرة غير أكفاء ، نظروا إلى الصليبيين في الشام على أنهم أعداء لا حلفاء . وهكذا ترك صلاح الدين وشأنه ليدعم سلطانه في مصر ويثبت أقدامه في الشام ، ثم ليعصف بالصليبيين جميعًا بعد ذلك[١] ، وفي تقديري المتواضع أن ذلك كله من تصاريف مقدر الأقدار حتى يقيض لهذه الأمة من يأخذ بيدها لتقوم من عثرتها وتسترد عافيتها على يديه، وحتى تستطيع أن تسترد حقوقها المسلوبة وأرضها المغصوبة.

وإذا كان المشرع الصليبي البيزنطي على مصر سنة ١١٧٧م قد فشل لتردد الصليبيين كثيرًا في قبول العرض البيزنطي السخي ، إلا أن ذلك لم يمنع الصليبيين في الشام من الاستفادة من الحملة الفلمنكية في القيام ببعض الأعمال الحربية ضد المسلمين على الحدود الشرقية لإمارتي أنطاكية وطرابلس مستغلين في ذلك انشغال صلاح الدين بتحصين مصر والإشراف على شئونها ، وبعد أن أمد بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فيليب الإلزاسي بقوة من الفرسان والمشاة، اتجه فيليب في أواخر أكتوبر سنة ١١٧٧م نحو طرابلس لتنفيذ مشاريع أميرها ريموند الثالث ضد المسلمين ، وكان أن أغار الصليبيون على أقاليم حماة وحمص، ثم اتجهوا بعد ذلك لمحاصرة حماة في منتصف نوفمبر سنة ١١٧٧م ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها ، وارتدوا عنها خائبين بعد حصار دام أربعة أيام[٢] .

وعلى ما يبدو أن قادة الحملة الصليبية الفلمنكية الصليبية المشتركة كانوا يعانون من العمى السياسية ، وكان أفقهم السياسي محدودًا ، ولم يكن يهمهم سوى تحقيق انتصار على المسلمين ، فبعد فشلهم السابق استجابوا لطلب أمير أنطاكية بوهيمند الثالث وقدموا له المساعدة في حصار قلعة حارم شرقي نهر

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٩٣.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٤ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص٦٩.

العاصي ، وهي التي تقع ضمن أملاك الزنكيين ، وكان حريًا بالصليبيين أن يبتعدوا عن أملاك الزنكيين حلفاؤهم ضد صلاح الدين ؛ لأن مهاجمة أملاك الزنكيين سوف تدفع بهم في أحضان صلاح الدين ويزداد الموقف الصليبي سوءًا إضافة إلى ما يعانونه أصلاً من تدهور وانهيار ، فكان الأجدر بهم أن يحافظوا على علاقة الود مع أفراد البيت الزنكي بدلاً من المجازفة بمستقبلهم السياسي والوقوف في وجه صلاح الدين منفردين.

وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد ظنوا أن الطريق إلى حارم سوف يكون ممهدًا لأن علاقته بأمراء حلب لم تكن على ما يرام ، كما أن صلاح الدين – في ذلك الوقت – كان منشغلاً في مصر ، غير أن ظنهم قد خاب لأن أهل حارم وحاميته قد استماتوا في الدفاع عنه ، ولم ينهكهم الحصار الذي طال أمده إلى أربعة شهور ، كما أن الحلبيين أخذوا يهاجمون أملاك الصليبيين حتى يخففوا من وطأة الحصار عن قلعة حارم ، ثم إن صلاح الدين بدأ في التحرك بقواته صوب مملكة بيت المقدس ، فلم يجد الصليبيون بدًا من رفع الحصار عن حارم والإسراع بالتوجه نحو بيت المقدس لنجدتها ، فلما تركوا قلعة حارم هاجمها جيش الصالح إسماعيل ولم يستطع أهل حارم هذه المرة الصمود في مواجهة الحصار بعد أن بلغ الجهد منهم لحصار الفرنج ، وصار وكأنهم طلائع ، فتمكنت قوات الملك الصالح إسماعيل من الاستيلاء على حارم فاستناب عليها أحد مماليكه[(١)].

وبعد فشل الحملة الفلمنكية في تحقيق شيء يذكر في الحرب مع المسلمين ، فقد رحلت غير مأسوف عليها ، إذ تبددت آمال الصليبيين في استرداد سيطرتهم على حوض العاصي ، فضلاً عن أن فشل تلك الحملة لم يلبث أن انعكس على مملكة بيت المقدس فيما بعد ، أما فيليب الإلزاسي دي فلاندرز فقد عاد بعد

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٥ ، سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٩٤.

ذلك إلى بيت المقدس ومن هناك اتجه إلى اللاذقية ، ثم سلك طريق البحر إلى القسطنطينية[١] .

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس :

بعد فشل الحملات الفلمنكية تأكد صلاح الدين من ضعف مملكة بيت المقدس وأدرك أن الكرة أصبحت في ملعبه لمهاجمة الصليبيين ، فخرج من القاهرة يوم الجمعة ثالث جمادي الأول ، وأسرع بقواته لقطع المسافة بين القاهرة وفلسطين ، وهاجم الصليبيين في الداروم وغزة في أواخر العام ١١٧٧م ، فأسرع الصليبيون إلى نجدة المراكز الصليبية على شاطئ فلسطين الجنوبي ولاسيما غزة ، فاتجه صلاح الدين بقواته نحو عسقلان ، وجمع هناك من كان معه من الأسرى ، وتفرق العسكر وأخذ يغير على ما حوله من القلاع والحصون ، وحينما رأوا أن الصليبيين لا حول لهم ولا قوة انبسطوا واسترسلوا وتوسط صلاح الدين وسط البلاد ، ولكن بلدوين الرابع أعاد حشد قواته من جديد مستغلاً حالة الاسترخاء التي كان عليها جيش صلاح الدين ، ودخل بلدوين الرابع مدينة عسقلان ، ومن ثم أصبحت مملكة بيت المقدس في خطر بسبب حصار بلدوين الرابع وقواته داخل عسقلان ، وكان المسلمون قد حصروا ملك بيت المقدس داخل عسقلان ، وكان الذي حدث أن صلاح الدين أفرط في الثقة في قواته ، وضعف قوات الصليبيين وسمح لقواته بالتحلل من النظام الصارم الذي وضعه لها ، وفي جمادى الآخرة ٥٧٣هـ / ٢٥ نوفمبر ١١٧٧ م فاجأتهم القوات الصليبية بقيادة أرناط – وكان أسيرًا بحلب منذ أيام نور الدين ثم أطلقه الحلبيون – عند تل صافية ، قرب مدينة الرملة بفلسطين حيث لحقت الهزيمة بجيش صلاح الدين ، واستطاع بلدوين الرابع أن يشق طريقه خارج عسقلان بعد أن تأكد من ابتعاد صلاح الدين ، وسرعان ما اجتمعت حول ملك بيت المقدس فلول

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٩٥.

الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة ، وقاموا بالهجوم على صلاح الدين بغتة وحلت الهزيمة بالمسلمين ، ونجا صلاح الدين بأعجوبة وعاد إلى مصر في حالة سيئة فوصل القاهرة في ديسمبر ١١٧٧م ، وأقسم ألا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج[١].

أسباب الهزيمة في تل الصافية والرملة :

- مباغتة الصليبيين للجيش الأيوبي أثناء تفرق أفراده قبل أن يرتبوا أنفسهم في الوقت المناسب.

- هذه المباغتة أدت إلى حدوث خلل في صفوف وأجنحة الجيش الأيوبي وتفرق قادة الجيش ، ولجوئهم إلى أسلوب المبارزة الفردية الذي لم يجد نفعًا في مثل هذه الحالة.

- اختفاء صلاح الدين عن الأنظار حتى ظن أنه قتل.

- ابتعاد الجيش الأيوبي عن خطوط التموين والإمداد وانقطاع الزاد والماء عن الجيش[٢].

ومما يؤكد فداحة الخسارة التي لحقت بالجيش الأيوبي في هذه الموقعة قول المؤرخين أن الهزيمة كانت وهنًا لم يجبره الله إلا بوقعة حطين[٣] ، وقد قتل في هذه المعركة وجرح وأسر معظم من كان مع صلاح الدين ، وخرج هو من وسط المعركة بأعجوبة ، فبعد أن تمت الهزيمة حمل أحد الصليبيين عليه ، فقاربه حتى كاد يصل إليه فقتل الصليبي بين يديه ، وتكاثر الفرنج على صلاح الدين فمضى منهزمًا يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك طريق

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٥٩-٦١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٢٤٢- ٢٤٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٧.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٠-٦١ ، محسن محمد ، الجيش الأيوبي ، ص٤١٣.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٥٣ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٢٩.

البرية ومضى في نفر يسير إلى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة ، وقل عليهم القوت والماء ، وهلكت دوابهم جوعًا وعطشًا وسرعة سير ، وفي الطريق إلى مصر اختفى صلاح الدين عن الأنظار ، فأوقع ذلك الرعب في الصفوف ، فخرج القاضي الفاضل مع بعض رفاقه يلتمس مكانه ، وبثهم وسط الصحراء حتى اهتدوا إلى مكانه[١] .

كانت معركة الرملة تجربة قاسية لصلاح الدين تعلم منها الكثير في مواجهاته التالية ، كما كانت أول هزيمة كبرى له ولقواته وآخرها أمام قواد الصليبيين ، ومن ناحية أخرى فقد تحقق صلاح الدين من حقيقة أخرى تتعلق بهذه الجبهة مع الصليبيين ، وهي طول خطوط الإمدادات والتموين بين مركزه في القاهرة وبين سهول فلسطين وصعوبتها وقلة الماء والعشب فيها. وهذه الحقيقة كانت معروفة لديه ولدى أمرائه والقاضي الفاضل ، إذ ضُمّنت في الكتاب الذي وجهه إلى دار الخلافة قبل هذه المعركة بثلاث سنوات طالبًا التقليد على كل الشام إضافة إلى مصر . وإنا لا نتمكن بمصر منه (العدو) مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والعزوة ممكنة ، والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة[٢] فجاءت معركة الرملة لتثبت صحة هذا التفكير ، ومنذ ذلك الوقت قرر صلاح الدين نقل مركزه الدائم – بعد إعادة بناء قواته العسكرية والسياسية – إلى دمشق التي كانت لقوتها العسكرية – التي ورث بعضها عن نور الدين وأمرائها وأمرائه – خبرة أطول في مواجهة قوات الصليبيين ومعرفة أفضل بجغرافيتها، إضافة إلى قصر خطوط مواصلاتها وتموينها وطول هذه الخطوط بالنسبة للعدو.

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٢ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٢٩.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ١/ ٢١٣.

وإذا كان الهدف الأساسي من عملياته العسكرية في المستقبل هو تحرير القدس واستعادة الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون ، فإن دمشق هي القاعدة الأساسية الأكثر مناسبة لمثل هذه العمليات ، ولذلك جعلها صلاح الدين مركزه الدائم ولا يغادرها إلى مصر إلا لتفقد أحوالها[١] .

وبعد هذا الانتصار الذي حققه بلدوين الرابع ، فإن مركزه قد تم تدعيمه بين منافسيه ومعاصريه وأعطته دفعة معنوية كبيرة ، ولاسيما أنه استقبل استقبال الفاتحين عند عودته إلى بيت المقدس ، فأخذ يهاجم المراكز الإسلامية في شمال الشام ، وقد ذكر المؤرخون أن القوات الصليبية هاجمت حماه وفرضت عليها الحصار ، وكادت المدينة أن تسقط في أيديهم لولا تدخل شهاب الدين الحارمي – خال صلاح الدين – وطائفة من الجند الأيوبية الذين دخلوا المدينة وعاونوا حاميتها واشترك معهم الأهالي في الدفاع عن المدينة واستطاعوا أن يكسروا الحصار الذي دام أربعة أيام ، فخرج الصليبيون إلى حارم وهاجموه[٢] .

وقد استغل الصليبيون هزيمة صلاح الدين في الرملة – أو موقعة تل الصافية – وانشغاله بمصر وتدبير أمورها في مهاجمة المراكز الإسلامية في شمال الشام ، كما أنهم اغتنموا فرصة وجود شمس الدولة أيوب الذي كان ينوب عن صلاح الدين بدمشق ، ولم يكن معه من الجنود الكثيرة ، كما أنه كان منهمكًا في اللذات والمتاع وليس عنده من الشجاعة والإقدام ما يتناسب وطبيعة منصبه ولا المرحلة التي يعيشها ، إضافة إلى الروح المعنوية والثقة الكبيرة التي سرت في عروق الصليبيين بعد إيقاعهم بصلاح الدين ، والتي لم تكن تعبر تعبيرًا حقيقيًا عن حقيقة قوى الفريقين الأيوبي والصليبي.

---

(١) مصطفى الحباري ، صلاح الدين القائدة وعصره ، ص٢١٣ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٣٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٤٤.

عودة صلاح الدين إلى الشام :

أحس الصليبيون بالنشوة بعد الرملة – تل الصافية – ، فانطلق بلدوين الرابع يقيم التحصينات حول مملكته – بيت المقدس – ، وربما توقعًا منه لانتقام صلاح الدين ، وانتظارًا للجولة الحاسمة مع صلاح الدين ، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس ، بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، وهي القلعة التي صار اسمها نهاية القرن الثالث عشر الميلادي باسم جسر بنات يعقوب ، ويقع هذا الحصن على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ، ودمشق من ناحية أخرى ، وشرع الصليبيون في بناء هذا الحصن في أكتوبر سنة ١١٧٨م ، واهتموا بإقامة التحصينات الشديدة ، وبلغ عرض حائطه ما يزيد عن عشرة أذرع ، « وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها وعدتها يزيد على عشرين ألف حجر »، وقد أقلقت هذه التحصينات قادة صلاح الدين وأمرائه وأعربوا له عن خوفهم من أن هذا الحصن يعتبر نذير خطر على بقية الثغور الإسلامية المحيطة به ، غير أن صلاح الدين كان ثابت الجنان فرد عليهم بقوله : "إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس"، وبعد أن أتم الصليبيون بناء هذا الحصن عهد بلدوين الرابع إلى فرسان الداوية بالدفاع عن هذا الحصن واتخاذه مركزًا لقطع الطريق أمام قوافل المسلمين ، وعندما أدرك صلاح الدين مدى الخطر الذي حاق بالمسلمين نتيجة لبناء ذلك الحصن طلب من الصليبيين هدمه ولكنهم طلبوا النفقات التي بذلوها في تشييده ، وعندئذ عرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه ، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار ولكنهم رفضوا ذلك العرض[١] .

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٧٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٩٧ ، محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين ، ص ١٢٧.

ولم يكن حصن بيت الأحزان الحصن الوحيد الذي شيده الصليبيون في ذلك الوقت ، بل شيدوا حصنًا آخر سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م إلى الشمال الغربي من بحيرة الحولة على جبل هونين الذي يتحكم في منابع نهر الأردن وسهوله العليا في مواجهة بانياس ، وظهرت خطورة هذا الحصن عندما هاجم الصليبيون في أبريل سنة ١١٧٩م/ ذي القعدة ٥٧٤هـ بعض الدماشقة الذين خرجوا لرعي ماشيتهم في المراعي القريبة من بانياس ، مما أدى إلى اشتباك بين الصليبين بقيادة بلدوين الرابع وشاركه هفري دي تورون سيد تبنين ، والقوات الإسلامية بقيادة عز الدين فروخ شاه ، وهب صلاح الدين – الذي كان بدمشق – لنجدة القوات الإسلامية ، فدارت معركة عنيفة انتصرت فيها القوات الإسلامية ونجا الملك الصليبي بصعوبة بعد أن أصيب إصابات خطيرة ، في حين أصيب همفري دي تورون إصابة أودت بحياته بعد عدة أيام في حصنه ، وكانت وفاته خسارة كبيرة للصليبيين[١].

بدأت القوات الصليبية بعد ذلك تترنح وتسير بلا هدى ، ففي شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م سارت قوات الصليبيين إلى مدينة حماة ، وكثر جمعهم من الفرسان والرحالة بغرض الإغارة والسلب والنهب ، وهاجموا القرى والبلدات المحيطة بمدينة حماة فنهبوا وأحرقوا وخربوا وأسروا وقتلوا الكثير من المسلمين الأبرياء ، فخرجت إليهم الحاميات العسكرية من حماة واشتبكت معهم – على قلة عددهم وعدتهم – وكان النصر حليفهم ، وكثر القتل والأسر في صفوف الصليبيين وحملت الغنائم والأسرى إلى صلاح الدين في حمص[٢].

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٧٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٧.

(٢) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص ١٢٨ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٣١.

موقعة مرج عيون:

وكان صلاح الدين قد خرج من دمشق عندما علم بنبأ الانتصار لحصار حصن بيت الأحزان ، لكنه اكتفى بمهاجمة حاميته ، إذ بلغت استحكاماته الدفاعية من المتانة ما دفعه إلى الارتداد بعد مضي بضعة أيام ، فعسكر عند تل القاضي في سهل مرج عيون غربي بانياس ، وأرسل العساكر للإغارة على الجليل ولبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت . وأثارت هذه الغارت حفيظة بلدوين الرابع ، الذي رأى أنه لابد من وضع حد لها ، فجمع قواته وخرج للتصدي للمسلمين ، ودعا ريموند الثالث أمير طرابلس لمساعدته ، وعلم أن فروخشاه عائد من الساحل بغنيمة كبيرة ، فتحرك بقواته نحو الشمال لاعتراضه في وادي مرجعيون بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن ، غير أن صلاح الدين شاهد تحركه ، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الصليبي يشتبك مع فروخشاه كان ريموند الثالث والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن ، وعند مدخل الوادي فاجؤوا صلاح الدين ، فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور ، وصمد صلاح الدين في المعركة ، وبفضل ما طبقه في المعركة من خطط عسكرية أتاح له أن يقوم بهجوم مضاد ، وتحقيقه الانتصار وولى الصليبيون الأدبار لا يلوون على شيء ، واضطروا إلى الارتداد ، ثم لاذوا بالفرار ، ووقع كثير منهم في الأسر ، كان من بينهم أودو سانت أماند مقدم الداوية وبلدوين سيد الرملة ، وهيو صاحب الجليل ، وقد حدثت المعركة في أوائل عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م[١] .

ولم يستثمر صلاح الدين انتصاره هذا بمهاجمة بيت المقدس ؛لأنه اعتقد أن

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٧٦-٧٧ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٠-١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٥٦.

باستطاعة الملك الصليبي ، الذي مازال طليقًا استدعاء العساكر من مختلف المناطق فيلتفون حوله ، مما جعل مهمته صعبة وبخاصة أنه وصلت إلى المملكة آنذاك مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج برئاسة هنري الثاني دي شامبانيا ، مما أنعش آمال الصليبيين ورفع معنوياتهم ، ولا تنس الحالة الاقتصادية السيئة التي كان عليها الظهير الحربي للقوات الإسلامية المتمثلة في حالة المجاعة والقحط التي ضربت الشام والعراق ، فلم يشأ صلاح الدين على ما يبدو أن يحمل الناس أكثر مما يطيقون – في هذه المرحلة على الأقل– [١].

واستعاض صلاح الدين عن مهاجمة بيت المقدس بمهاجمة حصن بيت الأحزان في ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ / أغسطس ١١٧٩م ، واستطاع بعد حصار دام خمسة أيام من اقتحامه وتدميره عن آخره وسواه بالأرض ، وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا به ، ثم قام صلاح الدين بإحراق الحصن وعلت فيه ألسنة اللهب حتى رآها من كان بطبرية ، وبلغت غنائم المسلمين من هذا الحصن سبعمائة أسير ومائة ألف قطعة حديد من مختلف أنواع الأسلحة ، والكثير من المؤن والأقوات[٢].

كما أغار صلاح الدين على المناطق الساحلية : صور وصيدا وبيروت وهاجم أسطوله البحري في سنة ٥٧٥هـ / أكتوبر ١١٧٩م مدينة عكا ودمر السفن الراسية فيها ، ومدينة عكا تعتبر من أمنع الحصون وأكثرها تحصينًا بين الحصون الصليبية ، ولذا أطلق عليها المؤرخون العرب قسطنطينية الفرنج[٣].

وتميزت أعمال صلاح الدين الحربية ضد الصليبيين في هذه المرحلة بالسرعة

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٥٩٩ ، محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٢٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٠-١٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٦٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٨٠-٨٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٥٦-٤٥٧.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٥٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣.

الفائقة والدقة المتناهية ، مما أعجز الصليبيين عن مجاراته والاستعداد له فضلاً عن ضعفهم عن مواجهته ، ولم يكن بوسع الصليبيين التصدي لهجمات صلاح الدين ، فأرسل بلدوين الرابع ملك بيت المقدس إلى صلاح الدين يطلب منه عقد الهدنة معه ، فوافق صلاح الدين في مايو ١١٨٠م / ذي الحجة ٥٧٥ هـ[١].

وبالرغم من أن صلاح الدين كان موقفه أقوى ، وكان يمكنه مواصلة الأعمال العسكرية ضد الصليبيين في الشام مستغلاً حالة الضعف التي بدوا عليها وانهيار معنوياتهم بسبب الضربات الموجعة والمتلاحقة التي وجهها لهم ، إلا أنه وافق على عقد الهدنة ، وهذا يدل على مدى الذكاء الذي كان يتمتع به صلاح الدين ، لأن المزيد من الضربات لمملكة بيت المقدس وملكها المريض قد تدفع صليبيو الغرب الأوربي إلى تقديم المعونات لإعادة مملكة بيت المقدس إلى قوتها ، وقد تدفع إلى تحالفها مع بيزنطة ، ولم يكن صلاح الدين يريد هذا ولا ذاك لاسيما وأنه لم يكن قد استكمل حتى الآن الجبهة الإسلامية الموحدة ، كما أن الهدنة مع بلدوين الرابع لم تكن تشمل ممتلكات الصليبيين في شمال الشام ، وعليه فكان صلاح الدين في حل من مهاجمتها ، وهو ما حدث بالفعل إذ أنه كان يريد مهاجمة ممتلكاتهم في شمال الشام لاسيما طرابلس ، وفي محرم سنة ٥٧٧هـ / ١١٨٠م تعرضت انطرسوس لهجمات الأسطول المصري وأنزل بها كثيرًا من الخسائر لدرجة رفعت ريموند الثالث أمير طرابلس إلى طلب عقد الهدنة مع صلاح الدين لضمان عدم الاعتداء على حدود مملكته أسوة بالاتفاق مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس[٢].

كما ذكر المؤرخون أن مملكة بيت المقدس كانت على اتصال مع مانويل كومنين الإمبراطور البيزنطي ، فخشى صلاح الدين أن استمرار الحرب سوف

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠-٧١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠-٧١.

تدفع بهما إلى التحالف ضده لذلك وافق على عقد الهدنة[١] .

كما أن صلاح الدين كان يزمع القيام بحملة على أرمينية ، وأن يقوم بتحديد علاقته مع قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم وأن يبني معه علاقة قوية تضمن انضمامه إلى معسكر المسلمين أو على الأقل الوقوف على الحياد أثناء الحرب مع الصليبيين[٢] .

كما أن الحرب مع الصليبيين لم تشغل صلاح الدين عن تطورات الموقف في حلب والموصل لاسيما وأنه لم يكن يأمن جانبهما ، ويخشى أن يهاجموه أثناء الانشغال بالحرب مع الصليبيين ويسقط هو بين فكي كماشة ، فرأى أن الهدنة مع الصليبيين جاءت في وقتها حتى يتفرغ لمتابعة تطورات وأحداث حلب والموصل ، لبناء الصفوف الإسلامية وتوجيهها[٣] .

صلاح الدين وجبهة الموصل وحلب :

كانت أحداث الموصل وحلب هي الباعث الأكبر على موافقة صلاح الدين على عقد الهدنة مع الصليبيين ، ففي صفر ٥٧٦هـ / أواخر يونيو ١١٨٠م توفي سيف الدين غازي بن مودود زنكي أتابك الموصل وديار الجزيرة ، وكان لما اشتد عليه المرض أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان عمره حينئذ اثني عشر عامًا ، ولكنه خشي من قوة وبأس صلاح الدين الذي تمكن آنذاك من الشام ومصر ، فأشار عليه أمراؤه وكبار رجال دولته بأن يجعل الأمر من بعده لابن أخيه عز الدين مسعود بن مودود؛ لأنه الأقدر على الوقوف في وجه محاولات صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية ، كما أنه له سابق خبرة وتجربة ، فوافق على ذلك ، وأعطى لأولاده بعض الولايات ،

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٠.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٣٢.

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٠.

وجعل من عمهم عز الدين مسعود وصيًا عليهم[(١)].

وبعد وفاة سيف الدين غازي بقليل لحق به الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وبالتحديد في ٢٥ رجب ٥٧٧ هـ / أوائل ديسمبر ١١٨٠م، ولم يكن الصالح إسماعيل لديه الرغبة في أن يؤول حكم ما كان بيده إلى صلاح الدين ولذلك أوصى قبل وفاته بحكم حلب إلى عز الدين مسعود بن مودود زنكي صاحب الموصل، وذلك لرغبته أن تتكون من حلب والموصل جبهة قوية ضد محاولات صلاح الدين إقامة الجبهة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين، ومن شدة حرص الصالح إسماعيل على ألاَّ يتمكن صلاح الدين من حلب أنه لما ابتدأ به المرض أغلق باب قلعة حلب واستدعى الأمراء واحدًا واحدًا وأخذ منهم العهود والمواثيق لعز الدين مسعود ابن عمه من بعده، ورفض أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم فدخل حلب في أبهة عظيمة وكان يومًا مشهودًا، وذلك في عشرين من شعبان فتسلم خزائنها وحواصلها وما فيها من السلاح[(٢)].

والمتأمل في هذه الأحداث يرى أن أمراء البيت الزنكي قد أعماهم المصالح الشخصية والمحافظة على ممتلكاتهم وممالكهم والوقوف في وجه صلاح الدين غير مبالين بما يحدث هذا الموقف من تصدع للجبهة الإسلامية وشق للصف الإسلامي في مواجهة الصليبيين الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر، بل أنهم عملوا على إحياء النعرات الشخصية على حساب الوحدة الإسلامية، بما

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٤٦٢-٤٦٣، محمد سهيل، تاريخ الأيوبيين، ص٦٦، فايد محمد عاشور، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٨١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/١٠٨، ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٤٦٢-٤٦٣، ٤٧٢-٤٧٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/٦٠١.

أعلنوه من إعادة الولاء للزنكيين من جديد.

وقد لاقت هذه الدعوة قبولاً بين الناس ، فثار أهل منبج وحماة ورفعوا شعار الولاء للزنكيين عندما اقترب منهم عز الدين مسعود – وهو في طريقه إلى حلب من الموصل – وأشار عليه الحلبيون بأن يسير نحو دمشق ليأخذها مستغلاً التعاطف الكبير الذي يلقاه من الناس واستجابتهم لإعادة الولاء للزنكيين ولكنه لم يفعل وقال : " بيننا يمين لا نغدر به " ، وأقام بحلب شهور ثم سار عنها إلى الرقة(١) .

ولم يلبث عز الدين مسعود أن التقى بأخيه عماد الدين زنكي الثاني في الرقة، بل كان مسيره إليها باتفاق بينهما ، حيث تنازل مسعود لأخيه عماد الدين عن حلب مقابل سنجار ، وصحبه إلى حلب وسلمها له ثم عاد إلى الموصل بعد هذا الاتفاق(٢) .

لم يكن أحد من أمراء البيت الزنكي يصلح لأن يقود قافلة العالم الإسلامي في مواجهة الصليبيين ، بل إنهم كانوا معول هدم في جدار الوحدة الإسلامية الذي أفنى عمره في تشييده عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، ويحاول صلاح الدين ترميمه ، وبالرغم من أن الفرصة قد تهيأت لعز الدين مسعود في استخلاص الشام من أيدي صلاح الدين بعد أن آل إليه حكم الموصل وحلب وبعد أن تعالت الأصوات بعودة الحكم الزنكي إلى دمشق وحماه ، وغيرها ، ولكنه لم يكن رجل الساعة ، ولم تكن لديه مؤهلات القيادة ، بل إنه لم يستطع حتى أن يحافظ على وحدة الموصل وحلب طويلاً وسرعان ما أعاد هذه الوحدة – المستعارة – إلى نقطة الصفر بتسليمه حلب إلى أخيه عماد الدين.

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/١٠٨ ، ابن الأثير ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٥٥-٥٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٧٧٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/١٠٨-١٠٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٧٤-٤٧٥، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/٢٨-٢٩.

والملاحظ أن هناك بعض الآراء التي تقول بأن موقف الزنكيين في إخضاع حلب والموصل تحت حكم عز الدين مسعود كان نابعًا من الولاء للزنكيين وبهدف توحيد ممتلكاتهم ، في مواجهة صلاح الدين ، والحقيقة أن هذا الرأي محل شك كبير ، لأن الولاء للبيت الزنكي لم يكن إلا ستارًا يخفي وراءه الكثير من الأطماع للأمراء والقادة الزنكيين ، الذين أقلقهم خضوع الشام لصلاح الدين ، وإن كان سبب قلقهم وخوفهم ليس نابعًا من محاولة الحفاظ على أملاك ووحدة الزنكيين بقدر الخوف على مراكزهم وإقطاعاتهم التي كانوا يحظون بها في ظل البيت الزنكي ، وإن مواقفهم كانت مبينة على هذا الأساس بدليل أنهم كانوا يمنون على عز الدين مسعود أنهم قد ولوه حلب وطلبوا منه أموالاً وإقطاعات كثيرة أعجزته كثرتها عن الوفاء بها[١] .

كما أن رجال البيت الزنكي لم تخل العلاقة بينهم من المساومات السياسية والعسكرية لتحقيق أكبر قدر من المكاسب والأطماع ، ومن ذلك ما جرى بين عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي ، إذ طلب عماد من أخيه أن يسلمه حلب مقابل سنجار ، فلما تردد عز الدين مسعود ولم يقبل التنازل عن حلب ، ساومه عماد الدين وقال له : "إن سلمتم إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين" ، فخشى عز الدين مسعود أن يسلم سنجار إلى صلاح الدين وتكون شوكة في ظهره فأسلم له حلب مقابل سنجار[٢] .

كان خلفاء البيت الزنكي يعملون لمصالحهم الشخصية – وإن شئت قل : أطماعهم الشخصية – ، لا يهمهم في ذلك شق جدار الوحدة الإسلامية ، ولا تعريضَ المسلمين للوهن ، ولا حتى الحفاظ على وحدة البيت الزنكي أو الولاء

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٧٤ ، فايد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٨٣.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٠٩-١١٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٧٥ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٨-٢٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٥٥.

له ، فلا مانع – في سبيل ذلك – في الاستعانة بأعداء الإسلام والمسلمين ، فلا غرو أنْ نراهم يدخلون في مفاوضات مع الصليبيين ومراسلة الباطنية لإقامة تحالف ضد صلاح الدين الأيوبي(١).

لم تغب هذه الأحداث والتطورات عن صلاح الدين ، بل كان يراقبها عن كثب، فعظم عليه الخطب وشعر أن أعضاء البيت الزنكي بدؤوا في نقض جدار الوحدة الذي أقامه في مصر والشام ، فبدأ يستعد لما كان ينتظره من خطوب واستعد للتوجه للشام لمواجهة الأحداث الجديدة هناك ، وأرسل إلى الخليفة العباسي يطلعه على تطورات الأحداث في الشام ويطلب منه أن يفوض له حكم جميع البلاد في الشام ومصر حتى يقوي مركزه في مواجهة الزنكيين ، فأرسل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله رسالة حملها الشيخ صدر الدين عبد الرّحيم شيخ الشيوخ ونصت على : " ... قد عرفنا اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد وامتدت إليه منا في إقامة الدعوة الهادية في مصر واليمن والمغرب بما لم تمتد إليه يد ،وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعياء وأخلفناهم للردى حيث دعوا بلسان الغواية خلفًا ، ولا خفاء أن إقليم مصر إقليم عظيم وبلد كريم وبقيت مائتين وخمسين سنة مضمية وعانت كل هضيمة ، وعاينت كل عظيمة ، حتى أنقذها الله بنا من بني عبيد ، وأطلقها بمطلقات أعشتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأموني الشر إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم ، والفرنج من البر والبحر بها مطيفة ، فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل – والعياذ بالله – بها فتق لا عضل رتقه ، واتسع على الراتق خرقه ، وأصبحنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها ، وله مدة خمس سنين في بيكارها منتقمًا من كفارها ، محتملاً لمشاقها على غلاء أسعارها ، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٧٤.

الثغر قد اقتطعت عنه وعساكرها أخذت منه»[١] .

فأدرك الخليفة العباسي صعوبة الموقف وحقيقة أطماع الزنكيين ، وأرسل إلى صلاح الدين الخلع والتفويض بحكم جميع البلاد الشامية في رجب ٥٧٦هـ/ يناير ١١٨١م ، حيث دعم ذلك مركز صلاح الدين الزعيم في مواجهة الزنكيين[٢] .

وفي تلك الأثناء وقع الشقاق بين الأرمن وقلج أرسلان ومرد ذلك هو قيام ابن لاون ملك الأرمن استمالة أقوامًا من التركمان وبذل لهم الأمان وأذن لهم دخول أرمينية ورعى مواشيهم في بلاده ثم غدر بهم وصادر أموالهم ومواشيهم واستباح سبي نسائهم وأسر رجالهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة[٣] .

ولما عجز قلج أرسلان عن مواجهة الأرمن أرسل إلى صلاح الدين يستعين به عليهم ، وما كان صلاح الدين ليتأخر عن نجدة المسلمين التركمان ، فسار بقواته سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م نحو الأرمن لتأديبهم وكف عاديتهم عن المسلمين، فأوغل في بلادهم وأحرق للأرمن عددًا من الحصون والقلاع الرئيسية ببلادهم ، واستولى على عدد كبير من الأموال والغنائم ، وفك أسرى المسلمين من أيديهم، ولم يترك أرمينية حتى أعلن ملكها الخضوع لسلطانه[٤] .

يبدو أن حرص صلاح الدين على الاستجابة لطلب قلج أرسلان ومد يد العون له في الهجوم على أرمينية كان نابعًا من حرصه على دفع البلاء عن ديار

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٩٤-٩٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٩٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبين ، ص٨٥.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٩٨-٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٦٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠-٧١.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٦٦-٤٦٧ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٠ -٧١ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبين ، ص ٨٥-٨٦.

المسلمين والمسارعة إلى تلبية نداء الجهاد في سبيل الله في أي مكان يتاح له ، وهذه هي إحدى سمات صلاح الدين التي جعلت منه رمزًا للأمة الإسلامية ونبراسًا يقتدى به في سبيل الله ، كما أن مثل هذه المواقف تجعل منه بطلاً ورمزًا في أعين الأمة الإسلامية ، وتزيد من رصيده لدى عامة الناس وخاصتهم.

وبدأ صلاح الدين من جديد في ترميم جدار الوحدة ، حتى يستطيع الانطلاق كليًا إلى الحرب مع الصليبيين وهو قرير البال حيال مصر ، فقام في العام ٥٧٧هـ/ ١١٨١ م بالاستيلاء على أملاك وغلات بعض عربان الشرقية ونقلهم إلى غيرها من البلاد ، ذلك لأن قبائل جذام وثعلبة ، قد دأبت على توريد الغلال إلى الصليبيين وما يحتاجونه[١].

وكان تصرف صلاح الدين مع هؤلاء العربان لضمان عدم تعاونهم مع الصليبيين ، وحتى لا يكونوا شوكة في ظهره حينما يتقابل مع الصليبيين ، وهذا الأمر وإن كان فيه قسوة فهذا من الجائز ، لأنه كان في حالة حرب مع الصليبيين، فلا يجوز إذن أن تكون البلاد في حالة حرب ومن أهلها من يتعاون مع الأعداء.

وفي نفس العام قدمت رسل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الثاني إلى القاهرة تطلب من صلاح الدين الصلح وعقد الهدنة ، فوافق صلاح الدين على طلبهم وطلب منهم إطلاق سراح عدد من الأسرى لدى بيزنطة[٢].

وقد وافق صلاح الدين على عقد الصلح مع بيزنطة حتى يستكمل استعداداته لمواجهة أعضاء البيت الزنكي في حلب والموصل ، وحتى لا يعطى الفرصة لقيام التحالف بين البزنطين والصليبيين من جهة أخرى ، كما أن

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧١-٧٢ ، فايد محمد عاشور ،الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص ٨٦.

صلاح الدين في تلك الأثناء قد شرع في ترميم وتحصين المدن الساحلية المصرية في مواجهة تهديدات القراصنة الصليبيين ، فأراد أن يتم ما بدأه من عمل ، فقبل إجراء الصلح مع بيزنطة.

وبدأ صلاح الدين في إجراء التحصينات اللازمة للموانئ المصرية ، فأمر بعمل الترتيبات في دمياط للدفاع عن البلاد ضد أي هجوم يقوم به الصليبيين، وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على الأبراج وسد مراكب السلسلة ، وتسييرها ليقاتل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها[١] .

كما أمر صلاح الدين ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارسًا ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشب للصليبيين ، كما طلب من الجنود المتقاعدين العودة إلى الخدمة وأنفق فيهم أموالاً كثيرة ووزعهم على الثغور ، وبذل الأموال الكثيرة في رجال الأسطول ، كما أمر بتسيير مراكب لحراسة القوافل التجارية أمام السواحل المصرية ، لحمايتها من هجمات القراصنة الذين اعتادوا على مهاجمة هذه السفن[٢] .

ولم يقتصر اهتمام صلاح الدين على تحصين مصر وتقوية جانبها بل شمل أيضًا الاهتمام بجميع الأطراف سواء أكان ذلك في اليمن أو المغرب ، فقد جرد العساكر إلى اليمن لحفظها ، وأجرى بينها وبين مصر الأسطول في البحر الأحمر ، وأمدها بالمؤن والسلاح[٣] .

هذا يظهر مدى اهتمام صلاح الدين بأطراف دولته وإلمامه بالوضع الذي يعيشه المسلمون ، فقد أدرك بفطرته الأطماع الصليبية في اليمن ومحاولاتهم

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٣.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٤ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص ٨٦- ٨٧.

دخول البحر الأحمر وعرقلة تجارته الإسلامية ، لاسيما التجارة بين مصر واليمن وبلاد الحجاز ، كما أن هذه التجارة مرتبطة بتجارة البحر المتوسط أيضًا ، وقد صدق حدس صلاح الدين حيث حاول الصليبيون سنة ٥٧٧هـ مهاجمة سيناء وحاولوا الوصول إلى البحر الأحمر ، مما جعل صلاح الدين يقوم بزيادة تحصينات البحر الأحمر[١].

اضطراب أحوال الصليبيين :

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يستعد في مصر سياسيًا وحربيًا للمعركة الكبرى والفاصلة بينه وبين الصليبيين ، كانت أحوال الصليبيين الداخلية تزداد سوءًا يومًا بعد يوم ، ففي مملكة بيت المقدس تفاقم مرض بلدوين الرابع ، وأخذ يتشكك في كل من حوله ، من ذلك أن بوهيمند الثالث أمير أنطاكية اشترك مع ريموند الثالث أمير طرابلس في زيارة بيت المقدس سنة ١١٨٠م دون موعد سابق ، فتشكك بلدوين الرابع في أمرهما ، وربط بين تلك الزيارة ومرضه ، وظن أنهما يتآمران على عرش المملكة ، واتهمهما أنهما يسعيان إلى أن يرثانه في حياته ، وعندئذ أسرع الأميران إلى العودة من حيث أتيا.

ولم يلبث ذلك الأمر أن أدى إلى إثارة مشكلة وراثة العرش في مملكة بيت المقدس الصليبية من جديد ، إذ كان لابد من البحث عن عريس جديد آخر مناسب للأميرة سيبل شقيقة الملك الكبرى ، بعد أن توفى زوجها الأول وليم دي مونفرات كما سبق وأن ذكرنا ، وقد مرت مسألة زواج الأميرة سيبل في أدوار طويلة ، ومراحل معقدة حتى استطاع جاي لوزجنان أن يغزو قلب الأميرة بعد أن حضر خصيصًا من فرنسا سنة ١١٨٠م ليتزوجها.

وبدا حرص الملك بلدوين الرابع على الاحتفاظ لأسرته بعرش بيت المقدس في أنه زوج أخته الصغرى إيزابيل من الأمير همفري الرابع دي تورون في

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٤ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٨٧.

أكتوبر سنة ١١٨٠م . وبعد ذلك أخذت صحة بلدوين الرابع تسوء بسرعة ، حتى عجز عن تصريف أمور المملكة ، مما ترتب عليه ازدياد نفوذ أمه الملكة الوالدة آجني دي كورتناي وخاله - أخو آجني - جوسلين الثالث دي كورتناي[١] .

وهكذا تدهورت أحوال مملكة بيت المقدس تدهورًا سريعًا ، مما مهد للكارثة التي حلت بها على يد صلاح الدين بعد سنوات.

أما إمارة أنطاكية فلم تكن أحوالها عندئذ أقل اضطرابًا بسبب استسلام أميرها بوهيمند الثالث لشهواته وأهوائه ، ومن ذلك أن بوهيمند الثالث لم يقنع بزوجته البيزنطية الحسناء الأميرة تيودورا كومينسن ، وإنما تزوج سرًا بامرأة أخرى اسمها أورجليز ، ثم أعلن زواجه منها عقب طلاق الأميرة تيودورا البيزنطية سنة ١١٦٨م ، ولم يلبث بوهيمند الثالث أن هجر زوجته الثانية كذلك سنة ١١٨٣م ، ليعيش بين أحضان امرأة ثالثة اسمها سيبل عرفت بسوء السيرة والخلق ولم تتورع عن خيانة بوهيمند الثالث - بل والصليبيين عمومًا - بإفشاء أسرار المملكة ، حتى روى أنها كانت تتصل بصلاح الدين وتنقل له أسرار المملكة وتحركات جيش الصليبيين[٢] ، فيقول أبو شامة[٣] : "وكانت امرأة إبرنس أنطاكية ، وتعرف بدام (مدام) سيبل ، في موالاة السلطان ، عينًا له على العدو ، وتهاديه وتنصحه ، وتطلعه على أسرارهم ، والسلطان يكرمها لذلك ويرسل لها أنفس الهدايا".

وكذلك أوقعت سيبل بزوجها بوهيمند عند الملك ليون الثاني الأرمني ، حتى انتهى الأمر بوقوع بوهيمند أسيرًا في أيدي الأرمن سنة ١١٦٤م ، ورغم ذلك

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٣.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٣.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣١.

كله ظل أمير أنطاكية متعلقا بها ورفض أن يتخلى عنها ، مما جعل البطرق ايمري دي ليموج يوقع عليه قرار الحرمان بتهمة الزواج من امرأتين أو ثلاثة ، وقد أدى ذلك إلى ثورة بوهيمند ضد الكنيسة ورجالها ، فحدث انشقاق خطير في أنطاكية تطور إلى حرب أهلية مما أضعف مراكز الصليبيين في شمال الشام ، في الوقت الذي أخذ صلاح الدين ينتقل من نصر إلى نصر ، سواء في توحيد جبهة المسلمين أو تقليم أظافر الصليبيين(١).

وفي الوقت الذي تعرض الصليبيون في الشام وبيت المقدس لتلك الأزمات الداخلية والخارجية إذ بهم يفقدون حليفًا قويًا في شخص الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذي توفى سنة ١١٨٠م ، وكان مانويل كومنين قد حاول أن يقضي قضاءًا نهائيًا على الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى سنة ١١٧٦م ، ولكن السلطان قلج أرسلان الثاني أنزل به هزيمة ساحقة في تلك السنة تكاد تعادل في قسوتها وشدتها واقعة مانزكرت ، بحيث لم ينج الإمبراطور من الأسر إلا في صعوبة بعد أن تحطم الجيش البيزنطي بأكمله ، ويبدو أن تلك الكارثة أثرت في مانويل كومنين تأثيرًا بالغًا ، حيث مات بعدها بأربع سنوات حزينًا مكسور الجناح ، وبموته خسر الصليبيون دعامة كبرى لطالما استعانوا بها كلما ألمت بهم أزمة أو حاق بهم خطر ، ولم يلبث الإمبراطور الكسيوس كومنين الثاني أن أرسل إلى القاهرة مبعوثًا سنة ١١٨٠-١١٨١م لعقد الصلح مع صلاح الدين فتم ذلك ، وأطلق الإمبراطور الجديد سراح مائة وثمانين من أسرى المسلمين كانوا عنده ، مما يدل على التغيير الواضح الذي طرأ على سياسة الإمبراطور البيزنطي تجاه الصليبيين بالشام(٢).

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٢-٦٠٣.

(٢) المرجع السابق ، ٢/ ٦٠٣-٦٠٤.

صلاح الدين وأرناط :

وفي هذه الأثناء بدأت تطفو على مسرح الأحداث شخصية رينو دي شايتون، والذي يعرف عند العرب بالأمير أرناط ، ولم يكن أرناط من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على مبادئ الفروسية والتمسك بالشرف ، إنما عرف عنه التهور مما أدى – في بداية حياته – إلى اصطدامه مع الإمبراطورية البيزنطية ، نتيجة لإغاراته الغاشمة على جزيرة قبرص سنة ١١٥٦م ، كما أدت تلك السياسية نفسها إلى إثارة بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، وقد وقع أرناط في أسر المسلمين ، وقضى فيها حينًا من عمره في الأسر في حلب منذ سنة ١١٦٠م حتى عام ١١٧٦م ، حتى أطلق سراحه ، وبعد خروجه تزوج من أتنيت دي ميلي وريثة صاحب الأردن ، مما مكن لأرناط أن يقوم بدور بارز في الحروب الصليبية في فلسطين ، ذلك أن أرناط لم يتزوج تلك الأميرة لشبابها أو جمالها ، فقد كانت أرملة سبق أن تزوجت رجلين ثالثهما أرناط ، وإنما تزوجها لأقطاعها ، إذ ورثت عن أبيها الأردن وحصني الشوبك والكرك ، وهذان الحصنان كانا لا يتحكمان في طريق الحجاج المسلمين إلى الحرمين فحسب ، بل في الطريق البري الرئيسي بين شطري دولة صلاح الدين في مصر والشام.

وقد عرف أرناط بالفارس اللص حتى عند الفرنج ، إذ لم يكن من الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية ، بل كان لا يصلح إلا للسلب والنهب والغدر وشن الإغارات على الأبرياء المسلمين ، وقد وصفه بعض المؤرخين الأوربيين بأنه نموذج " للفارس اللص في عصره" فقد اتصف بالجشع والغدر والوحشية والتعصب الأعمى ، ولم تفلح الخمسة عشرة سنة التي قضاها أسيرًا في حلب لتعديل سلوكه أو تهذيبه(١) .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/٦٠٦.

وقد فاض قلب أرناط بالحقد والتعصب ضد المسلمين ، وعلى ما يبدو أن السنوات التي قضاها في أسر المسلمين لم تغير من هذا الحقد والتعصب بل أججها في قلبه بحيث لم يكن له رادع من دين ولا إنسانية ، وكثيرًا ما حاول الاعتداء على المسلمين والحجاج والقوافل التجارية بل أنه كان يأمل في طعن المسلمين في أقدس مقدساتهم بالحجاز.

وقد تناسى أرناط أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وفي صيف سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م نقض أرناط الهدنة المعقودة ، وخرج على رأس قواته وتوغل في صحراء العرب حتى تيماء وكان تيماء عبارة عن واحة لها أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة ، وكان أرناط يهدف إلى الزحف على المدينة المنورة بعد تيماء ، ولكن فروخشاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق أسرع إلى غزو الأردن وتخريب أعمال الكرك ونهبها مما جعل أرناط يعجل بالعودة إلى إمارته للدفاع عنها ، وفي الطريق إليها اعترض قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة(١) .

وقد أفزعت هذه الغارة جميع المسلمين؛ لأنها كانت تريد أن تضربهم في أحب البقاع وأقدسها لديهم ، وإن كانت جموع المسلمين قد صبرت على تهديد الصليبيين لبعض البلدان والأراضي الإسلامية في العراق والشام ومصر ، فإنهم لا يمكن أن يصبروا بأي حال من الأحوال على تهديد مهوى أفئدتهم ، لذلك غضب صلاح الدين غضبًا شديدًا وغضبته تعني ثورة رجل عنده حمية وعصبية لدينه ووطنه ، وغضبته تعني ثورة رجل قوي جمع في قبضته بين دمشق والقاهرة بمواردهما المالية والبشرية وموقعهما الاستراتيجي الذي جعل منهما ما يشبه

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣.

فكي الكماشة التي يمكن أن تطبق على مملكة بيت المقدس الصليبية في أية لحظة. وهكذا كان باستطاعة صلاح الدين أن يوجه تلك الطاقة الضخمة ضد شراذم الصليبيين الذين أخذوا في الانحلال والتفكك بعد أن ضعفت حماستهم واضطربت أمورهم الداخلية(١).

وقد فزعت مملكة بيت المقدس هي الأخرى من غارة أرناط لأنها عكرت صفو السلم مع صلاح الدين في وقت كانت مملكة بيت المقدس الصليبية أحوج ما تكون إلى السلم.

ولما أرسل صلاح الدين إلى ملك بيت المقدس يوبخه على ما حدث ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ، ويطلب منه أن يأمر أرناط برد المسلوبات التي استولى عليها من المسلمين ، والواقع أن بلدوين الرابع كان مستاءً من فعلة أرناط ، فأرسل إلى أرناط يلومه على فعلته ويطلب منه الإسراع برد كل ما سلبه من المسلمين من أموالهم وأسراهم إلى صلاح الدين ، ولكن أرناط هزأ من سيده بلدوين الرابع – الملك المريض – ورفض الإصغاء لتعاليمه ونصحه وأعلن أنه لن يرد شيئًا من أسرى المسلمين وأموالهم(٢).

وحدث في تلك الأثناء أن قذفت الأمواج العاتية ببعض السفن الصليبية تحمل نحوًا من ألفين وخمسمائة نفس كانوا في طريقهم إلى بيت المقدس ، ألقتهم إلى ثغر دمياط ، وعندئذ وجد صلاح الدين الفرصة مواتية لاستنقاذ أسرى المسلمين وممتلكاتهم لدى أرناط ، وأعلن أنه لن يطلق سراح أولئك الأسرى من الصليبيين إلا إذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين ، ولكن أرناط لم يكن يعنيه الأسرى الصليبيين ولا المسلمين ، ولم يكن يرى إلا نفسه ومصالحه

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، بتصرف ، ٢/ ٦٠٥.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٦ ، محمد حامد الناصر ، الجهاد والتجديد ، ص٢٣١.

الشخصية ، وإن كانت على جثث الضحايا ، فرفض ذلك العرض من صلاح الدين ، فما كان من صلاح الدين إلا أن احتفظ بهؤلاء الصليبيين إلى حين[(١)].

كانت حملات أرناط غير موفقة من حيث توقيتها ، فهي جاءت في وقت كانت فيه قوة صلاح الدين تتعاظم في حين أن مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى تعاني من مشكلات داخلية عصية على الحل ، فبذور الشك أصبحت متزايدة بين حاكم مملكة بيت المقدس بلدوين الرابع وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وريموند الثالث أمير طرابلس ، كما جاءت في وقت تعاني فيه مملكة بيت المقدس من مشاكل حول صحة بلدوين الرابع ومشكلة وراثة العرش، وعلى الصعيد الخارجي كانت علاقات صلاح الدين تتوثق مع المدن الإيطالية ومع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الثاني ، يضاف إلى ذلك أن حملات أرناط جاءت لتؤكد فشل مملكة بيت المقدس في السيطرة على المناطق التابعة لها ، إذ أن أرناط الذي يفترض أنه تابع لمملكة بيت المقدس لم يلتزم بالهدنة الموقعة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس إضافة إلى أن حملات أرناط وما حملته من تهديد للأماكن المقدسة قد عاد بأثر إيجابي على الجبهة الإسلامية ، حيث أن هذه التصرفات من قبل أرناط جعلت القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة تقف إلى جانب صلاح الدين[(٢)] .

أدرك صلاح الدين حتمية تواجده في الشام في تلك المرحلة ، فخرج من مصر في مايو ١١٨٢م. وكان آخر عهده بها – إلى الشام ، حيث سيقضي ما تبقى له من عمره فيها مجاهدًا للصليبيين[(٣)] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٣-١١٤.

(٢) د/ نعمان محمود جبران ، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٩٦ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٣٤.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨.

وجاءت أنباء تحركات صلاح الدين إلى الشام أقلقت مضاجع الصليبيين، فعقد بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مجلس حرب دعا إليه زعماء وأمراء الصليبيين لبحث سبل الوقوف في وجه صلاح الدين ومنعه من الوصول إلى دمشق ، واستقر الرأي على أن يقيموا معسكراتهم عند الكرك لسد الطريق في وجهه والحيلولة دون دخوله إلى الشام والوصول إلى دمشق ، إلا أن خطتهم فشلت ، إذ عمل صلاح الدين على الاتجاه من أيلة إلى الشوبك ، وسير الضعفاء والأثقال مع أخيه بوري إلى دمشق وبقي هو في العساكر والمقاتلة ، وأخذ يشن الغارات والهجمات على أطراف الممالك الصليبية التي عجزت عن الوقوف أمامه أو مواجهته ، فواصل مسيره إلى دمشق حيث وصلها في حادي عشر من صفرة السنة ٥٧٨هـ ، بعد أن دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين[١].

ولعل من أهم أسباب فشل الحشود الصليبية في الوقوف في وجه صلاح الدين ومنعه من الوصول إلى الشام ، الاختلافات في صفوف الصليبيين أنفسهم والتشكك في نواياهم تجاه بعضهم البعض ، فبينما كانت الحشود تتجه لمواجهة صلاح الدين عند الكرك تشكك أرناط أمير الكرك في نواياهم وخشى أن يكون هو الهدف وليس صلاح الدين[٢] كما أن التنسيق بين صلاح الدين ونائبه في دمشق فروخشاه وابن أخي صلاح الدين كان له الأثر الأكبر ، إذ انتهز فروخشاه فرصة انتقال الحشود الصليبية إلى الأردن وأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنون وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم، وبعد ذلك انتقل إلى الضفة الشرقية للأردن – شرقي بحيرة طبرية – فأغار على السواد

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨ -٢٩ ، ٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٧٨-٤٧٩ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ٧٧-٧٨ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٩١.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٠٨.

حيث كان يوجد للصليبيين حصن حبيس جلدك ، فاستولى عليه بعد حصار خمسة أيام رغم حصانته ، وأسكنه المسلمين ، فبقي عينًا على الفرنج بعدما كان لهم(١) .

أدرك الصليبيون مدى الخطأ الفادح الذي وقعوا فيه ، إذ أنهم بإسراعهم لمواجهة صلاح الدين تركوا ظهورهم مكشوفة لنائبه على دمشق فروخشاه، فأسرعوا إلى التراجع للخلف واكتفوا بمراقبة تحركات صلاح الدين ، في وقت كان فروخشاه لا يزال يهاجم المراكز والحصون الصليبية في إقليم الغور حول بيسان ، حيث دخل بيسان عنوة وغنم ما فيها ، وقتل وسبى ، في الوقت الذي تتابعت فيه إغارات قبائل الأعراب على جنين واللجون وسهول يافا حتى قاربوا مرج عكا(٢) .

وأتى صلاح الدين بقواته وانضم إلى قوات فروخشاه وشرع الاثنين في مهاجمة حصن كوكب الذي يشرف على إقليم الغور والطريق المؤدي إلى الناصرة، ولكن القوات الصليبية أسرعت لمواجهته عند كفر بلا ، ودارت معركة بين الطرفين ، استشهد فيها جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الإسلام ، وأدرك بعدها صلاح الدين عدم جدوى المعارك الجانبية التي يتبادل فيها مع الصليبيين النصر والهزيمة ، ورغب في توفير جهده لمعركة فاصلة ضد الصليبيين فعاد إلى دمشق لإعادة ترتيب صفوفه(٣) .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٤-١١٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٨١ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص ٩٢.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨-٢٩ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ٧٨.

محاولة صلاح الدين الاستيلاء على بيروت:

وقع اختيار صلاح الدين على بيروت للاستيلاء عليها – رغم حصانتها وقوتها – لأن الاستيلاء عليها سوف يفصم عرى الاتصال بين مملكة بيت المقدس من ناحية وبين إمارتي طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى ، وهذا يعني سهولة المواجهة مع الصليبيين ، لأنه – إذا استولى على بيروت – سيواجههم فرادى ، وهذا يسهل الحرب معهم ، ولذلك أحاط هذا المشروع بسرية كبيرة ، بل إنه أشاع أنه سيتجه نحو حلب والموصل وذلك إمعانًا في تضليل الصليبيين ، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر يطلب إرسال أسطول حربي ، فأرسل الملك العادل أسطولاً من دمياط والإسكندرية مكون من ثلاثين سفينة حربية لمهاجمة بيروت من ناحية البحر ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل العادل بعض قواته من مصر لمهاجمة الداروم وغزة وعسقلان حتى يشغل مملكة بيت المقدس عن مساعدة بيروت، ويهدد قوة الصليبيين ، قاد صلاح الدين قواته سنة ١١٨٢م واتجه نحو جنوبي البقاع ، وفي أول أغسطس ظهر الأسطول المصري في مياه بيروت ، في الوقت الذي هاجم صلاح الدين المدينة من ناحية البر بكامل جيوشه ، ولذلك تعرضت بيروت لحصار محكم من ناحيتي البر والبحر.

وفي الأثناء التي أحكم فيها صلاح الدين الحصار حول بيروت ، كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس يعكسر عند صفورية ، فأدرك مدى الخطر الذي يمثله سقوط بيروت في يد صلاح الدين فأسرع بإرسال النجدات لها ، كما أمر بتجهيز الأسطول الصليبي وسرعة إرساله إلى بيروت لفك حصارها ، وبالرغم من أن صلاح الدين قد شدد من هجماته على بيروت ، إلا أن المدينة كان بها من التحصينات والقوة ما جعلها تمتنع عن صلاح الدين ، بالرغم من استيلاء على كثير من الغنائم والأسلاب ، ولما رأى صلاح الدين أن أمد الحصار سيطول وعناد المدينة يزداد ، أمر برفع الحصار والعودة إلى دمشق ، وأمر الأسطول بالعودة إلى مصر.

صلاح الدين وضم حلب :

لم يكن صلاح الدين مختارًا عندما توقف عن الحرب مع الصليبيين ، إذ أن المعلومات تواردت إليه أن خلفاء البيت الزنكي في الموصل راسلوا وكاتبوا الصليبيين وزينوا لهم مهاجمة الثغور الإسلامية ، فاضطر إلى العودة أدراجه ، لأن قيام التحالف بين الزنكيين والصليبيين يجعله بين فكي كماشة ، فكان لزامًا عليه أن يتوجه إليهم أولاً ، كما أن الذي شجع صلاح الدين على اتخاذ هذه الخطوة- مهاجمة الزنكيين – هو عدم اتحادهم وانقسام دولتهم بين الأخوين عز الدين مسعود الأول صاحب الموصل (١١٧٦-١١٩٣م) وعماد الدين زنكي الثاني صاحب حلب (١١٨٢م – ١١٨٣م) ، فأراد صلاح الدين أن يبدأ خطته بالاستيلاء على حلب إلا أنه عدل عنها ومال إلى التحرك نحو الموصل ، وغزا إقليم الجزيرة واستولى على الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين في سبتمبر وأكتوبر سنة ١١٨٢م ، ثم شرع في محاصرة الموصل ذاتها في أوائل ديسمبر من نفس العام ، وقاتلها أشد قتال ، إلا أن الموصل قد استعدت وأخذت حذرها واستعد القائمون على أمرها أشد الاستعداد وكدسوا بها العساكر والأجناد وأنواع السلاح وآلات الحرب ، وأقاموا بها الغلات والمؤن استعدادًا للحصار ، وأيقن صلاح الدين صعوبة الأمر وعدم القدرة على اقتحام المدينة ومن ثم لجأ إلى الحيلة ، فعرض على صاحبها الصلح مقابل أن يتركه يستولي على حلب دون تدخل منه ، ولكن عز الدين مسعود رفض هذا العرض وقال: " هو أخي وله العهد والمواثيق ولا يسعني نكثها" ، فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضًا ، ولا يحصل على غير العناد والتعب ولى وجهه صوب سنجار لأن من بها من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه ، ونجح فعلاً في الاستيلاء عليها[1].

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/٤٨٦ – ٤٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٩-١٢٣، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣-٣٤ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٩٥.

كتب صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٥٦٢/ ١١٨٠-١٢٢٥م) يشرح فيها بلاءه في الإسلام وجهاده ، وما قدمه من أعمال جليلة للخلافة العباسية ، وأوضح دوره في إسقاط الخلافة الفاطمية ، وإعادة النفوذ العباسي إلى مصر ، موضحًا له سوء الأحوال في بلاد الشام وتعرض حارم لهجوم الصليبيين وغدر صاحب الموصل ، واعتداء عسكر حلب على أملاكه ، واستنجادهم بالصليبيين ، ومراسلاتهم الحشيشية بهدف التعاون معهم ضد مشروع الوحدة الإسلامية الذي يسعى جاهدًا لتحقيقه ، وذكره بأن الخليفة المستضيء بأمر الله قلده حلب وأعمالها ، وأنه لم يتركها إلا من أجل ابن نور الدين محمود ، ولا يسعه الآن إلا أن يطالب بحقه ، وعبر عن ذلك بقوله: والآن فليرجع كل ذي حق إلى حقه ، ليقنع برزقه[١] .

ومن ناحية أخرى فإن أتابك الموصل رد بأن استعان ببعض الأمراء المسلمين المجاورين له مثل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ، وشاه أرمن سقمان صاحب خلاط ، وبالفعل اشتبك معهم صلاح الدين قبل أن يعود إلى الشام[٢] .

إن موقف الزنكيين في الموصل وحلب ضد صلاح الدين شكل عقبة كبيرة وخطيرة في وجه حركة الجهاد التي بدأها صلاح الدين ضد الصليبيين ، فهم لا ينازعونه السلطة في بلاد الشام فقط ، وإنما أعماهم المصالح الشخصية والرغبة في السيطرة على بلاد الشام أن يطلبوا من الصليبيين أعداء الإسلام أن يتحالفوا معهم ضد صلاح الدين ، فأرسلوا إلى ملك بيت المقدس يعرضون عليه معاهدة تحالف ضد صلاح الدين ، فعرضوا على ملك بيت المقدس أن يدفعوا جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار إلى الصليبيين وتسليمهم حصن بانياس وحصن

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٣١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ٢/ ٧٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٨-٢٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٩٥-٩٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٢.

حبيس جلدك ، هذا بالإضافة إلى التعهد بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين الذين هم في أسر المسلمين في مقابل أن يقوم هؤلاء الصليبيين بطرد صلاح الدين من دمشق[١].

وجد الصليبيون الفرصة السانحة بعد اتفاقهم مع الأتابكة الزنكيين في الهجوم على دمشق والاستيلاء عليها ، لاسيما بعد وفاة فروخشاه – نائب صلاح الدين على دمشق– فخرج بلدوين الرابع بقواته صوب دمشق حاملاً معه صليب الصلبوت وبصحبته البطريق ، وأغاروا على المناطق الواقعة جنوب دمشق، كما أغاروا على منطقة بصرى في إقليم حوران وواصلوا إلى داريا في سبتمبر ١١٨٢م/ ٥٧٨هـ ، وقد اتصفت غارات الصليبيين – كما هو المعتاد – على تلك الجهات بالعنف والوحشية ، فدمروا كل ما صادفوه من زرع وضرع ، مما اضطر صلاح الدين إلى العودة إلى الشام ، وترك حصار الموصل ، ليكون على مقربة من العدو الصليبي[٢].

على ما يبدو أن صلاح الدين قد أعاد التفكير في الاستيلاء على حلب ووجد أن الاستيلاء عليها أسهل بكثير ، وقد لا يكلفه الجهد الكثير؛ لأن حاكمها عماد الدين زنكي الثاني كان يختلف عن شخصية أخيه عز الدين أتابك الموصل ، فكان يفتقر إلى الدهاء السياسي والخبرة العسكرية والشجاعة الميدانية التي تمكنه من الوقوف في وجه صلاح الدين ، فلم يكد صلاح الدين يفرض الحصار على حلب حتى خارت قواه وأسقط في يده ، ومال إلى التسليم والتنازل عن حلب ، ولم يستعن بأخيه عز الدين أتابك الموصل أو الصليبيين ، وأرسل إلى صلاح الدين يعرض عليه تسليمه حلب مقابل أن يستأثر هو بحكم سنجار – بلدهِ القديم – التي في قبضة صلاح الدين ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣–٢٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٢.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٣٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١١٨ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٩٩.

وزاده الخابور ونصيبين وسروج ، وتمت المبادلة ، ودخل صلاح الدين حلب في ١٢ يونيو١١٨٣م ، أما قلعة حارم التي كانت تتبع حلب ، فقد امتنع حاكمها عند التسليم في بداية الأمر ، وفرض عليه صلاح الدين أن يقطعه بعض الإقطاعيات مقابل تسليم حارم ، فاشتط في طلباته ، وتبادلت الرسائل بين الرجلين إلا أن صاحب حارم قد عدل عن تسليمها وأرسل إلى الصليبيين يستنجد بهم ، فلما علم من معه من الأجناد بذلك ، وأشفقوا أن يسلمها للصليبيين وثبوا عليه ، وقبضوا عليه وحبسوه وأرسلوا إلى صلاح الدين يعرضون عليه تسليم القلعة مقابل الأمان والإنعام ، فأجابهم إلى ما طلبوه ، فدخلها صلاح الدين في ٢٤ يوليو ١١٨٣م / ٥٧٩هـ[1] .

نتائج استيلاء صلاح الدين على حلب :

إن استيلاء صلاح الدين على حلب وأعمالها في شهر واحد إضعافًا لمركز الأتابكة الزنكيين من ناحية وتدعيمًا للوحدة الإسلامية من جهة أخرى ، وغدا القوة الإسلامية الكبرى التي تزداد قوة واتساعًا يومًا بعد يوم ، كما أن استيلاء صلاح الدين على حلب يعد ضربة قوية وموجعة للصليبيين ، ذلك أن حصوله على حلب جعله أقوى حاكم معاصر في الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت أثر زعامته من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوبًا ، وجاء استيلاء صلاح الدين على حلب وحارم ليهدد إمارة أنطاكية لأنها الظهير الجغرافي لحلب وحارم ، فلا غرز أن نجدها "ترتجف رعبًا" على حد قول أبو شامة ، بل إن أميرها بادر إلى استرضاء صلاح الدين وأرسل إليه جماعة من أسارى المسلمين الذين كانوا بحوزته[2] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٤٢-١٤٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٤٢-٤٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٩٨-١٩٩ ، المقريزي ، السلوك ١/ ٨١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٩ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٠٠-١٠١.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٤٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٤.

كما تمكن الرعب من قلب بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وملك بيت المقدس بلدوين الرابع ، فعقد اجتماعًا في بيت المقدس لبحث الوضع الناجم عن سيطرة صلاح الدين على حلب ، ولم يسعهم إلا طلب الهدنة مع صلاح الدين ضمانًا لهم حتى لا يقوم بمهاجمة أنطاكية ، وكان هذا أقصى ما يمكن فعله مع صلاح الدين(١) .

استتبت الأمور لصلاح الدين في حلب ، فأقام عليها ولده الظاهر غازي ، وترك في معاونته الأمير سيف الدين يازكج ، وأخذ طريق العودة إلى دمشق ليستعد لأهم مراحل الحرب مع الصليبيين(٢) .

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٤٢-٤٧ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص ١٠٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨١.

الفصل السابع

معركة حطين

معركة حطين :

غدت الأمور السياسية والعسكرية في منطقة الشرق الأدنى في مصلحة صلاح الدين الأيوبي والوحدة الإسلامية ، فامتدت دولة صلاح الدين من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوبًا ، ومن برقة غربًا إلى الفرات شرقًا ، وما يعنى ذلك من قوة ونفوذ ، وموارد اقتصادية وعسكرية تمكنه من الدخول في أي حرب والاستغراق فيها ، وسيطرته على المراكز القوية مثل القاهرة ودمشق وحلب ، جعله يتحكم في الطرق الرئيسية المتحكمة في دفة الحرب مع الصليبيين ، وفي المقابل لم يكن له من معاصريه ملك أو أمير أو حاكم يهاب جانبه ، بل إن الإمارات والممالك التي تنافسه كانت تعيش أسوأ فترات تاريخها، فالخليفة العباسي يؤيده ويسعى لمرضاته ، وسلطان سلاجقة الروم يخطب وده، والإمبراطورية البيزنطية تصالحه وإن لم يكن ذلك فقد غدت جسدًا عاجزًا بفعل الأحداث والمنازعات السياسية الداخلية ، وإن كانت الموصل هي التي تخرج من الصف الإسلامي الذي أقامه صلاح الدين ، فلم يعد صلاح الدين يقيم لها وزنًا، بل إن حاكمها هو الذي يعمل لصلاح الدين ألف حساب.

وبالإجمال فإن الظروف قد أصبحت مهيأة لقيام صلاح الدين بملحمة العمل الجهادي والعسكري لاسترداد بيت المقدس من الصليبيين ، وفي الوقت الذي أخذ يتأهب فيه للتحرك ضد الصليبيين كانت أحوالهم تزداد سوءًا وتعقيدًا، فقد اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس الصليبي ، حتى بلغ به العجز عن الحركة في فراشه ، وكان أن انعقد مجلس في الناصرة حول فراش الملك المريض ، اشتركت فيه الملكة الوالدة ، والبطريق هرقل ، وصاحب يافا وعسقلان جاي لوزجنان زوج أخت الملك ، وفي ذلك المجلس فوض الملك صهره جاي لوزجنان في الوصاية على المملكة ، أي : ينوب عنه في تدبير أمورها، فاحتفظ بلدوين الرابع بمملكة بيت المقدس وحدها ، وخصص له مرتب قدره عشرة آلاف بيزانت ، وعدا ذلك لم يبق له من الملكية إلا اسمها ، في

حين صار الحاكم الفعلي للمملكة هو جاي لوزجنان[١].

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن موفقًا لما هو معروف عن جاي لوزجنان من ضعف الشخصية والبلادة حتى اتهمه المؤرخ وليم الصوري بأنه لم يتحمل بشيء من صفات الفروسية والحكمة في معالجة الأمور ، وقد ظهر ذلك بوضوح في الأزمة التي لم تلبث أن واجهت مملكة بيت المقدس في خريف سنة ١١٨٣م عندما شرع صلاح الدين في مهاجمة الجليل والغور[٢].

لم يلبث صلاح الدين أن خرج من دمشق وعبر نهر الأردن متجهًا نحو المراكز الصليبية القريبة منه ، وكانت أول تلك المراكز الصليبية بيسان ، حيث فرت منها حاميتها هاربة إلى طبرية ، فاستولى عليها صلاح الدين في سهولة ، واستولى على ما كان بها من غنائم صليبية[٣].

ثم عسكر صلاح الدين بقواته عند عين جالوت وأخذ يرسل الفرق من جيشه لمهاجمة القوافل الصليبية القريبة من معسكر جيشه ، وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يقوم بهذه الأعمال ، كانت قوات الصليبيين الرئيسية لمملكة بيت المقدس تعسكر عند صفورية شمال الناصرة بقيادة جاي لوزجنان ، وعندما قرر مواجهة صلاح الدين ، وتحرك بقواته وعسكر عن قرية الفولة الفلسطينية بالقرب من عين جالوت ، هالته كثرة الجموع في جيش صلاح الدين ، فآثر السلامة لنفسه ولجيشه ووقف بحزاء جيش صلاح الدين ، ولم يجسر على مهاجمته ، بل تراجع للخلف ، وأسند ظهره للجبل ، وخندق على جيشه ، ولم تفلح محاولات صلاح الدين لإجبارهم على منازعته في معركة فاصلة ، فتراجع إلى الخلف أملاً أن يطمعوا في منازلته ، وأن يتحركوا من أماكنهم ، فما كان من

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٥.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٥.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٠٠.

الصليبيين إلا أن ولوا هاربين[(١)].

لم يجد صلاح الدين بدًّا – بعد فرار الصليبيين إلى صفورية – من العودة إلى دمشق في منتصف أكتوبر ١١٨٣م ، ولكن بعد أن قتل وأسر كثيرًا من الصليبيين وخرب لهم حصون بيسان وعفربلا وزرعين[(٢)].

هجوم الصليبيين على الحجاز سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م:

كان حصن الكرك – شرقي البحر الميت – من المواقع الصليبية الهامة ، ويقع منه ضرر عظيم على المسلمين ، لأنه كان من السهل على من يستولى عليه أن يهدد القوافل بين مصر والشام ، ولم تكن القوافل التجارية الإسلامية لا تعبر من ذاك الحصن إلا بحراسة مشددة في ظل تواجد عسكري كثيف خوفًا من تعرضها للهجوم[(٣)] وكان يحكم هذا الحصن أرناط الذي عرف بشدة التعصب ضد المسلمين ، وهو شخص سفاك للدماء محب للغصب والسلب والنهب ، عكس ما عرف من أخلاق الفرسان ، ولذا وصفه أبو شامة ، بقوله : "أغدر الفرنجة وأخبثها ، وأفصحها عن الردي والرداءة وأخبثها ، وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة ، وأنكثها وأخنثها[(٤)] ولم يكن هذا وصف المؤرخين المسلمين وحدهم ، بل أن معظم المؤرخين الأوربيين المنصفين يشتركون مع غيرهم من المؤرخين المسلمين في هذا الوصف ، فوصف أنه نموذج للفارس اللص في عصره ، اتصف بالجشع وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمى ، ولم تفلح الخمس عشرة سنة التي قضاها أسيرًا في حلب في تهذيب

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/١٤٨– ١٥١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ١٠١-١٠٢.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/١٤٨ -١٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٠١-٥٠٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨١.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٠٣.

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٥.

سلوكه وتعديله ، بل خرج أكثر تعطشًا لسفك الدماء وأكثر شراهة للسلب والنهب وشن الإغارات[1].

وعلى ما يبدو أن عقل أرناط قد توقف عند حدود الزمن الذي دخل فيه أسر المسلمين سنة ١١٦٠م ، ولم يخرج إلا في سنة ١١٧٦م ، وظن أن العالم ظل كما هو ولم يتغير عندما كان المسلمون في تشرذم وضعف شديد ، وعندما كانت الصراعات بين أمراء وملوك العالم الإسلامي هي القاسم المشترك ، في الوقت الذي كان الصليبيون يعيشون أزهى عصورهم من القوة والاتحاد ، ولم يدرك أرناط أن موازين القوى قد اختلفت ، وأن المواقف قد تبدلت ، وانقلب ضعف المسلمين وتفرقهم إلى قوة ووحدة واتحاد ، في حين نبتة الصليبيين الشيطانية التي زرعت في غير أرضها تذبل وتسقط أوراقها على أرض الإسلام ، ولم يبق إلا أن يأخذها صلاح الدين وما يلقى بها إلى البحر.

وقد اختمرت في ذهن أرناط فكرة شيطانية تقضي بمهاجمة البحر الأحمر وضرب المسلمين في قلوبهم والوصول إلى قبلتهم ، ولتنفيذ تلك الفكرة الشيطانية كان لابد له من السيطرة على ميناء أيلة الذي كان الصليبيون قد استولوا عليه سنة ١١١٦م ، ثم استرده صلاح الدين سنة ١١٧٠م ، وشرع في بناء أسطول من عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة بحيث يفترق الأسطول إلى فرقتين الأولى تحاصر أيلة وتحاول الاستيلاء عليها ، والفرقة الثانية تتجه نحو الموانئ في البحر الأحمر وتحاول دخول مكة والمدينة ، وتم تنفيذ هذا المخطط ، حيث فرض الحصار على أيلة وضيقوا على من به من المسلمين ، حيث أصابتهم شدة شديدة وضيق عظيم ، وأغاروا على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر الأمر الذي أثار رعب أهاليها ودهشتهم لعدم رؤيتهم سفن أفرنجية قبل ذلك في موانئ البحر الأحمر ، فأغار

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٧

الصليبيون على ميناء عيذاب المواجه لميناء جده ونهبوا بعض السفن التجارية الوافدة من جدة واليمن وعدن والهند[١].

وواصل الصليبيون غيهم وجرأتهم ، فنقلوا نشاطهم إلى غرب البحر الأحمر – شاطئ الحجاز – فعظم البلاء وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة المنورة منهم على خطر عظيم[٢] فقد اقترب الصليبيون من المدينة المنورة ، وأصبحوا على مسيرة يوم واحد ، ونزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع حيث أغاروا على القوافل واستخدموا بعض الخونة من الأعراب في إرشادهم إلى داخل البلاد[٣].

هذه الهجمة التي قام بها أرناط ، وبالرغم من أنها قد أفجعت وأفزعت المسلمين في شتى بقاع الأرض ، لأنها كادت تطول رمز وحدتهم ومهوى قلوبهم وأحب البقاع إلى نفوسهم فإن بها من الفوائد ما يفوق الخسائر ، وبالعكس بالنسبة للصليبيين ، فقد أيقظت الوعي الإسلامي من ثباته ، وأيقن أن المسألة ليست مجرد صراع حدود ، بل هو صراع وجود ، وأن الصليبيين ليست لهم عهود ولا مواثيق وليست عندهم محاذير ولا وازع من دين أو إنسانية، ولا يقيمون أية اعتبارات لأي مقدسات والحرب عندهم تطول كل شيء ، وليس أدل على أن هذه الهجمة كانت تهدف إلى ضرب المسلمين في مقدساتهم فقط ، هو أن بلاد الحجاز آنذاك لم تكن تشكل خطرًا عسكريًا على الوجود الصليبي في بلاد الشام من ناحية ، ولم تكن موردًا بشريًا يزود الجيوش الإسلامية المجاهدة ضد الصليبيين من ناحية أخرى ، هذا بالإضافة إلى أن بلاد

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٩٠ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٦٦.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٢٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦١٩.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٢٧ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ٧٩.

الجزيرة لم تكن موردًا اقتصاديًا يثير شهية الطامعين ، ومن ثم لم يبق إلا التأكيد على التعصب الديني عند الصليبيين ومحاولتهم طعن المسلمين في قبلتهم ومهوى أفئدتهم وتدمير الحرمين الشريفين.

كما أن هذه الهجمة أفقدت الصليبيين حلفاءهم السابقين أمثال أتابكة الموصل ، كما أفقدتهم أي حليف في المستقبل من المسلمين ، لأن الاقتراب من الصليبيين – بعد هذه الهجمة – هو اقتراب من النار ، وأي تحالف معهم هو تحالف مع الشيطان ، لأن المسلمين لم يعودوا يقبلون بأي حال من الأحوال بمثل هذه التحالفات ، ومن يهادنهم أو يعاونهم في حكم الإسلام والمسلمين فهو خائن ، وبالإجمال فإن خسائر الصليبيين كانت تفوق مكاسبهم من هذه الهجمة ، وسوف تزداد بسبب ردة الفعل في العالم الإسلامي.

ووصل الخبر كالصاعقة على مصر ، فأسرع الملك العادل أخو صلاح الدين إلى إعداد أسطول قوي في البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ متولي الأسطول بديار مصر ، وقد بدأ لؤلؤ بحصار أيلة فانقض عليه انقضاض الصقر على صيده ، وقاتل الصليبيين قتالاً شديدًا حيث ظفر بعدد من المراكب الصليبية فأحرقها بعد أن أسر من كان فيها ، ثم تحول إلى ميناء عيذاب متعقبًا سفن الصليبيين ، ثم انطلق نحو شاطئ الحجاز حيث الجزء الأكبر من الأسطول الصليبي فدمر معظم هذا الأسطول واستولى على ما كان فيه وأطلق منه الأسرى المسلمون ، ثم سار يقتفي أثر الفارين من الصليبيين فأدركهم بساحل الجوزاء فأوقع بهم هناك ، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض الجبال ، فنزول لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال ، وأخذ خيلاً من الأعراب هناك وقاتلهم فرسانًا ورجالة وظفر بهم فقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى [١] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٩٠-٤٩١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٢٨ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ٧٩.

وبعد أن أنهى حسام الدين لؤلؤ مهمته عاد إلى مصر وبصحبته الأسرى الصليبيين حيث طيف بالكثير منهم في شوارع القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الكبرى ، ثم جرى قتلهم جميعًا جزاءًا وفاقًا ، وكان موسم الحج قد أزف فتم إرسال أسيرين من الصليبيين على منى حيث تم نحرهم كما تنحر البدن(١) وذلك حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه الاعتداء على بلاد الحجاز أو الكيد للإسلام وأهله.

أما أرناط فله شأن آخر ، إذ أقسم صلاح الدين ألا يغفر له ذلته ونذر دمه وأخذ يستعد لمهاجمة حصن الكرك(٢) ، ولم يكن ذلك حمية للإسلام فقط ، بل لما يمثله هذا الحصن من خطر ، إذ يقف غصة في حلق القوافل التجارية والتي تخرج للحج ، فهو مصدر قلق للمسلمين جميعًا ، فخرج صلاح الدين من دمشق في سبتمبر ١١٨٣م ، بهدف حصار الكرك والاستيلاء عليه ، وأعانه في ذلك أخاه العادل الذي جاء من مصر بعساكرها ، في الوقت الذي اجتمعت فيه مجموعة كبيرة من أمراء الصليبيين وأعيانهم للاحتفال بزواج الأميرة إيزابيلا أخت سيبل، ولم يستطع أرناط فعل شيء سوى الهروب داخل القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه(٣) .

وكان حصن الكرك شديد التحصين ، ولم يستطيع صلاح الدين أن ينال منه شيء ، بل إن الصليبيين أسرعوا إلى إرسال النجدات إلى من فيه من الملوك والأمراء ، مما جعل صلاح الدين ينسحب عائدًا إلى دمشق في أوائل سبتمبر ١١٨٣م بعد أن تكونت لديه القناعة أن أمر حصار الكرك قد يطول(٤) .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٧٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٢٧-١٢٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٥٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨٣.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨١-٨٣.

وعلى ما يبدو أن فشل صلاح الدين في اقتحام حصن الكرك والاستيلاء عليه قد أدار رأس أرناط وازداد عنادًا وإصرارًا على مواصلة مسلكه المتطرف والمغتصب ضد المسلمين ، فما كاد صلاح الدين يصل إلى دمشق بقواته حتى عاد أرناط إلى مهاجمة القوافل الإسلامية والاستيلاء عليها لاسيما القوافل التي كانت تربط بين مصر ودمشق والحجاز ، ولذلك خرج صلاح الدين عن دمشق في صيف العام ١١٨٤م باتجاه الكرك لفرض الحصار عليه ، وشاركه في الحصار على رأس الجيش المصري ابن أخيه المظفر تقي الدين ، الذي حل محل أخيه العادل في حكم مصر ، كذلك شارك صلاح الدين الهجوم على الكرك تلك المرة نور الدين بن قرا أرسلان الأتقى صاحب حصن كيفا وآمد في ديار بكر ، فضلاً عن الملك العادل الذي أتى على رأس العسكر الحلبي ، وبالرغم من أن صلاح الدين قد أتم الاستعداد للاستيلاء على ذلك الحصن ، إلا أن الإمدادات الصليبية التي أتت من بيت المقدس كانت أسرع وأكثر عددًا وعدة ، مما أجهض خطة صلاح الدين ، واضطره إلى الانسحاب عن حصن الكرك ، إلا أن ذلك لم يمنع من الإغارة على بعض الحصون والقلاع الصليبية مثل نابلس وسبسطية وجنين[١] .

تنظيم البيت الأيوبي :

بالرغم من أن صلاح الدين كان مهتمًا بالحرب مع الصليبيين والعلاقات السياسية مع معاصريه ، إلا أن ذلك لم يمنع ولم يشغله عن تنظيم أمور البيت الأيوبي ، حتى يضمن الولاء الكامل من جميع أفراده لاسيما وهو منشغل بالأمور العسكرية والسياسية مع الصليبيين وأتابكة الموصل ، وهو ليس بحاجة إلى ما يعوقه عن مشروعاته الجهادية ، كما أنه أراد أن يطمئن إلى جبهته الداخلية

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٥٥-٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٥١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٠٨ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨٤.

قبل المرحلة الفاصلة في الحرب ضد الصليبيين ـ فقام بعدد من الإجراءات التنظيمية الداخلية حيث نقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب ، وأحل محله في مصر المظفر تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، والأفضل علي بن صلاح الدين ، ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من انشقاق البيت الأيوبي ، فأرسل إلى مصر ابنه الثاني العزيز عثمان ، واستدعى تقي الدين إليه ، وذلك في صيف عام ١١٨٦م ، وقد تمنع تقي الدين عمر في بداية الأمر بتنفيذ هذا الأمر ، ومازال به صلاح الدين حتى استجاب وولاه بعض البلاد مثل حماه ومنبج ومعرة النعمان وكفر طاب ، وجبل جور ، أما العادل أخو صلاح الدين – أقوى شخصية في البيت الأيوبي بعد صلاح الدين – فقد أخرجه من حلب وأعطاها لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي ، وأعطى العادل إقطاعات في بلاد النهرين ليشمل الرها وحران وميافارقين(١).

ويلاحظ أن صلاح الدين كان بارعًا في تسوياته الرضائية وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع ، وكان يفوض غيره في أمر الإدارة وينشغل كليًا بالمهمات الحربية ، ولذلك كان عليه أن يسند الأمور إلى أهلها ويشترط على نوابه وحكامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد ، والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دومًا للقتال ، وكان يهتم بالولاء المخلص من أتباعه ، وكانت الأسرة الأيوبية هي سنده وشغله الشاغل في وقت واحد ، وكانت مطامع أفرادها متفقة على مفاهيم عصرها ، لكنها لا تتفق مع طموحات صلاح الدين ومفهومه للدولة ، كانوا جديدين على عمليات الحكم، يفهمونه على أنه امتلاك لأراضي الناس ورقابهم ، لا على أنه إدارة لشئونهم وتسيير لرعية هم مسئولون عنها ، ومفهومه أتاه من تتلمذه على يد نور الدين محمود الشهيد ، أما أسرته فكان مفهومها مستقي من واقع ما يجري في العصر ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩١-٩٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٢.

وقد عانى صلاح الدين من تباين الحالين وعبر عن هذا التباين يوم قال لأخيه العادل – وهو يطلب عقد تملك لحلب مقابل ١٥٠ ألف دينار اقترضها صلاح الدين منه – : "أظننت أن البلاد تباع وتشترى أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها ، ونحن خزنة للمسلمين ورعاة للدين وحراس لأموالهم ؟ "(١) وقد انتهى الأمر بعدد من التغييرات والمبادلات في سنة ٥٨٢هـ كما يلي :

- أعيد تعيين أخيه الملك العادل في مصر لا في ملكية قلعة ولا إقطاع كامل، ولكن بصفة وصي على العزيز عثمان بن صلاح الدين.
- عين ابن أخيه تقي الدين عمر لإقطاع ميافارقين وديار بكر بعد أن تمرد في مصر أو كاد يخرج عن الطاعة وعن مصر ، وقد أقنعه القاضي الفاضل بعدم التهور .
- وتم إعادة الظاهر غازي بن صلاح الدين إلى حلب.
- بقي شيركوه بن ناصر الدين محمد في إقطاعه بحمص ولم يتغير(٢).

وكانت هناك خطوة لابد لصلاح الدين أن يخطوها قبل الولوج مع الصليبيين في معركة فاصلة ، ألا وهي تسوية الأمور مع بعض الأمراء المسلمين الذين يظهرون العداء لصلاح الدين ومن هؤلاء حكام الموصل وآمد وشاه أرمن صاحب خلاط ، ولذلك أسرع صلاح الدين بالتحرك وندب نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان للهجوم على آمد في سابع ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/ ١٣ أبريل سنة ١١٨٣م ، وكان المتولي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان ، وشدد نور الدين الحصار والقتال فاضطر حاكم آمد إلى التسليم ، ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهي من أعمال حلب،

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٥٢، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٦٨.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩١-٩٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣١ ، شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهر، ص٢٥٥.

فحاصرها ورماها بالمجانيق فنزل أهلها وطلبوا الأمان ، فأمنهم وتسلمها في المحرم سنة ٥٧٩هـ/ مايو ١١٨٣م ، ولم يبق أمامه من المواضع الخطرة سوى الموصل[١] .

وفي أواخر العام ٥٨٠هـ شرع صلاح الدين في المسير نحو البلاد الشرقية واستقر في حماة ، إلى أن دخلت سنة ٥٨١هـ ، ثم سار منها إلى حلب ، حيث اجتمعت العساكر بها ، وتقدم صلاح الدين من حلب إلى الفرات حيث أقام هناك ثلاثة أيام حتى عبر الجنود الفرات ، ثم وصل إلى حران وصاحبها مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين على كوجك ، وكان قد خرج لمقابلة صلاح الدين وكان يراسله ويشير عليه بأخذ الموصل ويقوي عزمه على هذا الأمر ، حتى أنه بذل له خمسين ألف دينار وأن يقوم بكل ما يحتاج إليه من النفقات والغرامات ، فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم له بما بذل من المال ، فأنكر صلاح الدين وارتاب به وظن ميله إلى أصحاب الموصل[٢] وقبض عليه صلاح الدين لتبين أمره وشاور فيه أصحابه ، فأشار بعضهم بإتلافه وبعضهم باستبقائه ثم استقر الرأي على أن يعفو عنه على أن يسلم له قلعتي الرها وحران ثم أعيدتا إليه بعد أن تبينت براءته[٣] .

ثم رحل صلاح الدين من حران في الثاني من ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ/ يونيه ١١٨٤م إلى رأس عين ثم قدم عليه في ذلك رسول قلج أرسلان بن مسعود – صاحب سلاجقة الروم – يخبره أن ملوك الشرق كلهم قد اتفقت كلمتهم على قصده إن لم يعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك ولكن السلطان صلاح الدين أصر على مهاجمة الموصل وأخذها[٤] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٤٩٣-٤٩٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٣٤-١٣٩، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١١٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٦٥.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٦٥.

(٤) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٦٧-٦٨.

وقبل أن يتم صلاح الدين طريقه إلى الموصل أرسل إلى الخليفة العباسي رسالة يخبره فيها السبب والهدف من وراء هجومه على الموصل وذكر في رسالته أن أهل الموصل : "يخطبون لسلطان العجم وينقشون السكة باسمه وأنهم يراسلون الفرنج ويغرونهم على قصد المسلمين ، وأنه لم يأت لأجل الازدياد في الملك ، ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله ، وإنما مقصوده ردهم على طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، وردهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم وقطعهم عن مواصلة العجم وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم"[(١)] .

وقد بدا واضحًا إصرار صلاح الدين على الاستيلاء على الموصل أو على الأقل تحييدها ، وبالرغم من مرضه الشديد أثناء حصارها ، إلا أنه أمر بمواصلة الحصار حتى يظفر المسلمون منها بغرضهم ، فلما أيس المواصلة من أن ينصرف عنهم صلاح الدين أرسلوا يستنجدون بالخليفة العباسي لم يجبهم إلى شيء ، فأرسلوا يستنجدون بسلاجقة الروم فلم يحصل منهم على شيء ، ولما وجد عز الدين أتابك الموصل أنه لا قبل له بمواجهة صلاح الدين ولا ناصر له في الحرب معه ، جرت المراسلات بين الجانبين ، وتقرر الصلح بينهما على أن يخطب لصلاح الدين في جميع بلاد الموصل وقطعت الخطبة باسم سلاجقة الروم ، كما خطب له بديار بكر ، وجميع البلاد الأرتقية وضربت السكة باسمه ، ولما تم الصلح أراد صلاح الدين أن يزيل ما في نفس المواصلة من كدر الشقاق والخلاف فأهداهم أنفس الهدايا وأجزل لهم في عطاء الأموال حتى طابت نفوسهم به ، حتى يتفرغ للحرب مع الصليبيين بلا منغصات ولا قلق من جانب المواصلة ، وعاد إلى دمشق في الثاني من صفر سنة ٥٨٢هـ ، أواخر مايو ١١٨٦م[(٢)] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/١٦٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/٥١٦-٥١٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٧٠-٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٧٠-١٧٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٨٩-٩١ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١١٣.

أثر وفاة بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية :

كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تشكل قوة رئيسية للصليبيين في بلاد الشرق الإسلامي ، ولكن مرض ملكها بلدوين الرابع جعله يضعف أمام ضغوط الشخصيات الصليبية في مملكته ، فأبعد جاي لوزجنان زوج أخته الأميرة سيبل عن الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس ، ثم أعلن بلدوين الخامس ملكًا على مملكة بيت المقدس وشريكًا للملك بلدوين الرابع في الحكم ووريثًا له بعد وفاته ، وكان هدف بلدوين الرابع من هذا الإجراء إبعاد جاي لوزجنان عن البلاد وعدم إتاحة الفرصة له بتولي السلطة في المملكة الصليبية ، ولما شعر جاي لوزجنان بهذا العداء من قبل بلدوين الرابع ورجال مملكته اعتصم بولايته في عسقلان ويافا وأظهر العصيان والثورة على خصومه ، ولم يكتف بلدوين الرابع بإبعاد جاي لوزجنان ، وإنما تحرك إلى ناحية عسقلان ليطرد جاي لوزجنان منها ولكنه استعصم بها ، فاضطر بلدوين الرابع إلى دخول يافا ، وهناك أعلن عزل جاي لوزجنان ، كما تقرر اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصيًا على بلدوين الرابع وذلك في ١٢/ ١٢/ ٥٨٠هـ ، ١٦/ ٣/ ١١٨٥م ، ثم أعلن بلدوين الخامس ابن الأميرة سيبل من زوجها الأول وليم دي مونتفرات ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية وتحت وصاية الأمير ريموند الثالث أمير أمارة طرابلس ، وإزاء هذا الموقف في المملكة الصليبية وخشية الصليبيين من صلاح الدين الذي اشتد ساعده ، وزادت قوته ، فكر أمير طرابلس في طريقة يمكنه بها تجنب الصدام مع صلاح الدين حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ويدعم قواته العسكرية ، فعقد مع صلاح الدين من أجل هذا الغرض هدنة لمدة أربع سنوات من (٥٨١ – ٥٨٥هـ/ ١١٨٥-١١٨٩م) [١].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٢٦-٥٢٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٤ – ١٨٥، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٣.

ويبدو أن أمير طرابلس كان يريد الاستفادة من المهادنة في تجنب الصدام المسلح مع صلاح الدين من ناحية وتقوية دولته من ناحية ثانية ، والاستعانة به ضد خصومه من ناحية ثالثة ، في حين كان صلاح الدين يهدف إلى إثارة الانقسام في صفوف الصليبيين وضربهم بأنفسهم أكثر ، وإيقاع الوهن في نفوسهم ، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير[١] عند الحديث عن سبب قبول صلاح الدين لمثل هذه المهادنة ، وهو في أوج قوته ، في حين كانت مملكة بيت المقدس الصليبية في حال تدهور وانحطاط.

وغدت الأمور الداخلية الصليبية تنتقل من سيء إلى أسوأ إذ توفى الملك بلدوين الخامس في مدينة عكا في أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٢هـ ، أواخر شهر أغسطس ١١٨٦م ، وأدى هذا الموقف إلى اشتداد الصراع حول وراثة العرش في مملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ سبق بلدوين الخامس بلدوين الرابع في الوفاة في الرابع من مارس سنة ١١٨٥م ، وكان أن تغلبت سيبلا – إيزابيلا- ابنه عموري الأول بمناورة بارعة على ريمون وفريقه في سبتمبر ١١٨٦م فيما يشبه الانقلاب[٢] وصار زوجها جاي لوزجنان ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية والموانئ الساحلية[٣].

(١) الكامل ، ١١/ ٥٢٧.

(٢) وقد بدأت أولى حلقات الانقلاب بين ريموند وجوسلين دي كورتناي الذين كانا على مقربة من الملك الصغير عند وفاته في عكا ، فأقنع جوسلين زميله بالذهاب إلى طبرية لدعوة أمراء المملكة للاجتماع هناك بعيدًا عن مؤامرات ومناورات هرقل بطرق بيت المقدس ، في حين تعهد جوسلين بنقل رفات بلدوين الخامس إلى بيت المقدس لدفنها ، ثم اللحاق ببقية الأمراء في طبرية لتنفيذ وصايا بلدوين الرابع بشأن مستقبل المملكة ، ولم يكد ريموند يرحل حتى انكشفت خيوط المؤامرة ، فأرسل جوسلين بعض القوات لاحتلال صور وبيروت في حين بقي هو في عكا ، وأعلن سيبل – أخت بلدوين الرابع وزوجة جاي لوزجنان – ملكة ، وسرعان ما سيطرت سيبل وزجها جاي على بيت المقدس والموانئ الساحلية وذلك بمساعدة جوسلين من جهة وهرقل بطرق بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك من جهة أخرى . انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٥.

(٣) قاسم عبده ، الأيوبيون والمماليك ، ص٥٦.

وبذلك أصبح على الساحة الصليبية معسكران : الملكة والملك زوجها ومعهما عدد من الصقور الصليبية ، مثل هرقل بطرق بيت المقدس ، وأرناط صاحب حصن الكرك ، وكان هذا الفريق يرى أن الحرب والعنف هي الوسيلة الوحيدة للتعامل مع المسلمين ، أما المعسكر الثاني فكان يضم عددًا من الأمراء يتزعمهم ريموند سانجيل كونت طرابلس ويرون أن الأفضل هو مهادنة المسلمين ما دامت الظروف لا تسمح بقتالهم[١] .

هذا الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين جعلهم على مرمى حجر من السقوط في أيدي صلاح الدين ، إذ لم يجد ريموند أمير طرابلس بد من التقرب إلى صلاح الدين بعد أن خدعه وخزله بقية الأمراء الصليبيين ، وهو في الأصل وقبل أن يحدث هذا الانشقاق يتقرب إلى صلاح الدين ويناصحه[٢] حتى إذا توج جاي لوزجنان ملكًا أرسل ريموند إلى صلاح الدين يطلب معونته وينتمي إليه ، واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنجة ، ففرح صلاح الدين بذلك ووعده النصر ، وتبادلت الرسائل بين الجانبين ، ريموند يطلب المساعدة ، وصلاح الدين يعده النصر والتأييد ، ولا شك أن ذلك الانشقاق في صفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة بالنسبة لصلاح الدين حتى اعتبره بعض المؤرخين المسلمين من أسباب نصرة الإسلام[٣] .

---

(١) قاسم عبده ، الأيوبيون والمماليك ، ص٥٦.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٢.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٤-٧٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٥ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٦.

موقعة حطين:

بعد إغارة أرناط الفاشلة على البحر الأحمر ، فقد عقدت هدنة بين الصليبيين وأرناط من جهة وصلاح الدين من جهة أخرى ، ووفق هذه الهدنة أخذت قوافل الحج والتجارة تمر بصحراء الأردن بعد أن أمنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول حتى يمكن الذاهب والجائي [(١)] .

وبديهيًا لم يكن هذا المرور الآمن مجاني بل كان يقابله دفع ضرائب ومكوس كثيرة يحصلها أرناط وإمارة الكرك ، وبالتالي كان يحقق مكاسب كبيرة من وراء هذه الهدنة.

ولم يكن أرناط ذلك الفارس اللص ليحيا بدون نهب وسلب ، فقد عرف عنه حبه لسفك الدماء وانتهاك حرمات المسلمين ، وعلى ما يبدو أنه لم يتعلم من حملته الفاشلة على البحر الأحمر ، ولم يدرك مدى الضعف الذي تعيشه الممالك الصليبية ، وحالة الانقسام الذي يعيشه الصليبيون بشكل عام ، فأظهر طيشه ونزقه المعهود ، ولم يستطع أن يتمالك شهواته فانقض على قافلة كبيرة للمسلمين كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق في أواخر سنة ١١٨٦م وأوائل سنة ١١٨٧م/ ٥٨٢هـ ، وسال لعاب أرناط أمام الثروة الضخمة التي تحملها القافلة فنصب لها كمينًا واستولى على ما كانت تحمله من ثروة وبضائع ، وأما رجال القافلة والمسافرون في صحبتها فقد سلبهم أرناط كل ما معهم من مال وسلاح وأنعام وألقى بهم أسارى في حصن الكرك حيث سامهم الشد والشدة [(٢)] .

تمالك صلاح الدين نفسه وأرسل إلى أرناط وقبح فعله وطلب منه إطلاق

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٦.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٢٧هـ- ٥٢٨ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٥.

الأسرى ورد ما أخذ من المسلمين ، ولكن لم يستطع أرناط أن يقاوم شهواته ، فرفض طلب صلاح الدين ، بل وأصر على موقفه ، ولم يكتف بذلك بل واصل غيه وطغيانه وأصر على استفزاز مشاعر صلاح الدين والمسلمين جميعًا ، وقال لرسل صلاح الدين : "قولوا لمحمد يخلصكم". فغضب صلاح الدين وأقسم أن يقتله بنفسه إن ظفر به[١].

وأراد صلاح الدين أن يستنفذ أولاً جميع الوسائل السياسية قبل الرد العسكري ، فأرسل إلى جاي لوزجنان يخبره بما وقع من أرناط ويطالبه بسرعة إرسال الأسرى والمنهوبات الإسلامية ، فما كان من جاي لوزجنان إلا أن أرسل إلى أرناط يطالبه بإعادة الأسرى والمنهوبات إلى صلاح الدين، ولكن أرناط لم يتحرك عن موقفه المتصلب قيد أنملة ورفض طلب خليفة ملك بيت المقدس وأصر على موقفه ، ويبدو أن أرناط كان يشعر بأنه صاحب فضل على جاي لوزجنان لمساعدته في الوصول إلى العرش ومساندته ضد خصومه ، مما جعله يستخف بملك بيت المقدس وأمره، في الوقت الذي لم يستطع أن يفرض رأيه على أرناط[٢].

بدأت نذر الحرب تلوح في الأفق ، حيث بدأ صلاح الدين حركة تحرير كبرى ضد البثور الصليبية في المنطقة العربية والإسلامية تنتهي باجتثاث آخر المعاقل الصليبية في القَرن الثالث عشر، فكتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفرهم للجهادِ في سبيل الله ، ثم خرج في أواخر شهر المحرم سنة ٥٨٣هـ / أبريل ١١٨٧م ومعه عساكر دمشق ، وأخذت تتوافد عليه العساكر الشامية ، فأمر ابنه الأفضل بالتواجد عند مكان رأس الماء – إلى الشمال الغربي من حوران – ليستقبل العساكر ويعيد تنظيمها ، وانطلق بمن معه من الجيش إلى بصرى لحماية

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩٤.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٢٨.

قافلة الحجاج الآتية من الحرمين خوفًا عليها من غدر أرناط[١].

لما علم أرناط بتحركات صلاح الدين لزم حصنه ولم يغادره، فسار صلاح الدين إلى الكرك وشرع في مهاجمته وضيق عليه الخناق، وقطع أشجاره، ثم قصد الشوبك وفعل به مثل ما فعل في الكرك[٢].

وقد حاول أرناط قطع الصلة بين جيش صلاح الدين والإمدادات الآتية إليه من مصر ومنعهم من الوصول إليه، ولكن صلاح الدين أجهض هذه المحاولة بأن تقدم لمقابلة هذه الإمدادات والتحق بها قبل وصول أرناط، مما جعل أرناط يلزم حصن الكرك مرتعد الفرائص، وسائر الممالك الصليبية مشغولة بنفسها وتتحدث عن علاقتها بصلاح الدين في الوقت الذي كانت تتوافد الإمدادات لصلاح الدين من بقاع دولته[٣].

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يقوم بتجميع قواته وقوته للمواجهة الحاسمة، كانت أحوال الصليبيين لا تبشر بخير، إذ لم يقتصر الأمر على عدم التعاون بين جاي لوزجنان من ناحية وأمير طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى، وإنما تعدى ذلك إلى ما أنذر بالصدام بين جاي لوزجنان وريموند ذلك أن ريموند أمير طرابلس كان يمتلك مدينة طبرية بوصفه أميرًا على إقليم الجليل فاعتصم بها عقب تتويج جاي لوزجنان، وعندئذ اتفق فرسان الداوية مع لوزجنان على محاصرة طبرية وانتزاعها من ريموند، مما جعل الأخير يلقي بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالبًا مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداوية، وكان أن لبى صلاح الدين نداء حليفه ريموند فأمده بالمعونة اللازمة، ثم اتجه صلاح الدين

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ١٨٦، أبو شامة، الروضتين، ٢/ ٧٥، ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٥٢٩-٥٣٠، المقريزي، السلوك، ١/ ٩٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٩٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/ ٩٣، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٦٢٩.

بعد ذلك إلى بانياس ، على بعد بضعة كيلومترات من طبرية لمراقبة الموقف[١].

وفي ذلك الوقت جمع الملك جاي لوزجنان جيوشه في الناصرة لمهاجمة طبرية – المدينة الصليبية التابعة لأمير صليبي – بدلاً من أن يوجه جهوده ضد تجمعات صلاح الدين وحشود المسلمين ، على أن بعض أمراء الصليبيين تدخلوا في اللحظة الأخيرة لإفهام الملك الصليبي جاي لوزجنان حقيقة الأمر وأقنعوه بإرسال مبعوث إلى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين ، وفي الوقت نفسه حثوه على توجيه جهود الصليبيين ضد صلاح الدين والمسلمين[٢].

وقد رأى صلاح الدين في ربيع سنة ١١٨٧م أن يرسل قوة استطلاعية من بضعة آلاف من الجنود بقيادة مظفر الدين كوكبوري صاحب حران والرها ، وبدر الدين دلدرم الياروقي أمير عسكر حلب ، وصارم الدين قايماز النجمي أمير عسكر الدماشقة لتقوم هذه القوة بالإغارة على إقليم عكا[٣] على أنه لكي تصل تلك القوة من بانياس إلى عكا كان لابد لها من اختراق إقليم الجليل، فاستأذن صلاح الدين أمير الجليل الأمير ريموند الثالث – الذي كان عندئذ بطبرية – وهنا وجد ريموند نفسه في موقف لا يحسد عليه ، لأنه بحكم تحالفه مع صلاح الدين مضطر إلى خيانة الصليبيين والسماح لقوات المسلمين بالمرور ، ولم يجد ريموند مفرًا من السماح للمسلمين بالمرور ، ولكن بعد أن أعطى تعليماته لكافة المدن الصليبية الواقعة في إقليم الجليل – مثل طبرية والناصرة – بإغلاق أبوابها حتى لا تعطي المسلمين فرصة الاستيلاء عليها[٤].

على أنه لما علم مقدم الداوية جيرار دي ريد فورت بأن بعض قوات صلاح

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٤.

(٢) سعيد عاشور ، ٢/ ٦٣٠.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣١.

(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣١.

الدين ستمر بإقليم الجليل أسرع إلى تجميع بضع مئات من الصليبيين ، وحاول أن يتصدى للمسلمين عند صفورية، وهناك دارت معركة رهيبة في أوائل شهر مايو سنة ١١٨٧م سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى ، وكان من جملة القتلى مقدم الاسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم في حين لم ينج من الخمسمائة صليبي سوى عدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من بينهم مقدم الداوية ، وعندما أسرعت قوة من الصليبيين إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت ، فأسر المسلمون تلك النجدة ، وعادوا بها سالمين غانمين وهم يحملون رؤوس أعدائهم على أسنة الرماح [١].

أنكر الصليبيون على ريموند الثالث محالفته لصلاح الدين ومساعدته على الفتك بفرسان الصليبين ، وأرسلوا إليه القسوس والبطرك والرهبان ، وأنكروا عليه انتماءه لصلاح الدين، وقالوا له : "لا شك أنك أسلمت ، وإلا لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاسبتارية ، ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر هذا ولا تمنع عنه" ، ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس ، وتهدده البطرك أنه يحرمه ويفسخ نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد ، فأسرع ريموند الثالث أمير طرابلس إلى الاعتذار والتنصل والتوبة وأعلن الدخول في طاعة الملك جاي لوزجنان ورضي أن يسير تحت رايته لمحاربة المسلمين [٢].

وكان صلاح الدين يراقب تحركات الصليبيين ويرصد مناوراتهم ، ولاحظ أنهم يواصلون غاراتهم على جبهة حلب ، فطلب من ابن أخيه تقي الدين أن يهادن الصليبيين بضعًا من الوقت في تلك الجهة حتى يستجمع بقية الجيوش قبل

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٧ ، فايد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ، ص١٢٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣١-٥٣٢ ، العماد الكاتب ، الفتح القس ، ٦٧-٧٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ٧١.

أن ينازلهم ، ففعل تقي الدين ما أمره به صلاح الدين ، وسار بمن معه من الجنود إلى صلاح الدين وتبعه العساكر من الموصل وماردين ، وقام صلاح الدين بتجميع هذه الجموع بالقرب من طبرية ، على بعد ثلاثة أميال منها ، في الوقت الذي تجمعت فيه قوات الصليبيين وانتقلوا من عكا وعسكروا عند صفورية وهم يقدمون قدمًا ويؤخرون أخرى وقد ملئت قلوبهم رعبًا(١).

وبعد أن أتم صلاح الدين استعداداته لملاقاة الصليبيين كان عليه أن يسرع من تحركاته ضدهم، أولاً لمعاقبة ريموند على نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، وثانيًا : التعرف على مستوى القوى العسكرية الصليبية حتى يكون على أهبة الاستعداد لمواجهتها ، فسار صلاح الدين بقواته في أوائل يوليو سنة ١١٨٧م نحو طبرية حيث اقتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها ، ولم تستطع قواته الاستيلاء على قلعة المدينة التي استعصت عليهم حيث اعتصمت بها أشيفا أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث(٢).

وعلى ما يبدو أن هدف صلاح الدين من الاستيلاء على طبرية هو إجبار الصليبيين على ترك مراكزهم التي يتحصنون فيها في صفورية والمسير إليه ، وحتى يصلون إليه هناك مسافة طويلة ، تلفحهم فيها حرارة الشمس فيصلون إليه متعبين وقد أنهكم الحر والعطش وطول المسافة ، بينما هو يكون قد ادخر جهده ووفره للمعركة الفاصلة ، وهو ما حدث بالفعل إذ ثارت ثائرة الصليبيين بعد استيلائه على طبرية ، فعقد زعماء الصليبيين مجلسًا للحرب ضم بين جنباته زعماء ورؤساء وأمراء الصليبيين حيث عقد الاجتماع في عكا ، وتم تداول السبل المناسبة لمواجهة صلاح الدين ، وانقسموا إلى فريقين : الأول يتزعمه

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٧-١٨٨ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٧٥، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣١ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٣.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٨ ، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ، ص ٧٦، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣١.

ريموند الثالث أمير طرابلس ، وهذا الفريق ينادي بالتريث في مواجهة صلاح الدين ، وقال لهم ريموند : "إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقى القلعة وفيها زوجتي ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود ، فو الله لقد رأيت عساكر الإسلام قديمًا وحديثًا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه البقاء فيها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا لتجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان على أوطانهم وأهليهم ، فيضطر إلى تركها ، ونفتد من أسر منا"[١] .

إلا أن ذلك الرأي لم يعجب كثيرًا من صقور الصليبيين المتهورين أمثال أرناط أمير الكرك، الذي اتهم ريموند – رغم صحة رأيه – بالضعف والخوف وقال له: "قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم ، وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا ، أما قولك: أنهم كثير ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب" ، فتراجع ريموند عن رأيه السابق وسار على رأيهم وقال: "أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت ، وسترون ما يكون"[٢] .

وبذلك أجمع الصليبيون على الزحف نحو طبرية في أوائل يوليو ١١٨٧م ، وكان اليوم قائظ، ساكن الهواء ، وتركوا صفورية ذات الحدائق الخضراء والمياه الوفيرة ، وقطعوا مسافة ستة عشر ميلاً في حرارة الشمس اللاهبة والعطش يقطع أكبادهم ، وروحهم المعنوية في الحضيض ، وجزء كبير منهم سار مكرهًا ، وبينما كان الجنود الصليبيون يعانون الأمرين في الطريق إلى حطين، زادت شدتهم شدة ، إذ لم تنقطع إغارات المسلمين عليهم ، كما أن المسلمين قد دمروا صهاريج المياه التي في طريق الصليبيين نحو حطين مما زاد الوضع سوءًا.

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٣-٥٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٨-١٨٩.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٣-٥٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٨-١٨٩ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص١٢٤.

وفي الوقت الذي كان الصليبيون يعانون حرارة الشمس ومرارة العطش ووعورة الطريق ، كان صلاح الدين ورجاله منعمين قد أدخروا جهدهم لساعة الفصل ، منعمين بالماء الوفير والظل الظليل، لذلك لا عجب أن أظهر صلاح الدين سروره وارتياحه عندما علم بزحف الصليبيين إليه وقال: "جاءنا ما نريد"(١).

وصل الصليبيون يوم الثالث من يوليو – وكان يوم شديد الحر ، ساكن الهواء – سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين ، وهي هضبة ترتفع على سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر ، ولها قمتان ، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين ، وتجمع في هذا الموضع من الصليبين أكبر جيش جمعوه في تاريخ الكيان الصليبي على الإطلاق ، إذ وصل عدد الجيش الصليبي إلى حوالي ثمانية عشر ألفًا من الفرسان والمشاة ، عدد الفرسان ذوو التسليح الثقيل ألفًا ومائتين ، معهم أربعة آلاف من الفرسان خفيفة التسليح ، والباقي من المشاة ، وكانت هذه الأعداد الضخمة تعاني الإنهاك وشدة العطش ، وكانت المياه قريبة منهم ، إذ في أسفل الهضبة التي يعسكرون عليها قرية حطين وبحيرة طبرية بمائها الوفير ، ولكن صلاح الدين وجيشه يحول بينهم وبين الوصول إلى الماء ، وقد أقعدهم التعب عن مواصلة السير ، واستقر الرأي بهم على قضاء الليل فوق الهضبة بعيدًا عن خطر المسلمين ، وهذا ما كان يريده صلاح الدين بالضبط إذ قضي الصليبيون ليلة مرعبة ، زاد من سوئها العطش الذي فتق أكبادهم جميعًا والتهبت عيونهم من الدخان المنبعث من النيران التي أشعلها المسلمون في الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين ، وكانت الريح على الفرنج ، فحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان، وقد حاول البعض منهم التسلل ليلاً لبحيرة طبرية لمحاولة قتل ظمأه فتخطفهم أيد

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٩٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣٣.

المسلمين قتلا ، وعاش الصليبيون ليلة شديدة مرعبة من جراء أصوات التكبير والتهليل التي أرعدت فرائضهم[١].

وبدأ القتال يوم الخميس ٢٢/ ٤/ ٥٨٣هـ ، حيث حمل المسلمون على الصليبيين حملة شديدة ضعضعوا فيها صفوفهم ، وقتلوا منهم الكثير ، حتى إذا حل الظلام مال كل فريق إلى فئته ثم تقاتلا يوم الجمعة حتى حال الظلام بينهما، وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يوليو ، وجد الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستار الظلام ليحيط بهم "إحاطة الدائرة بقطرها" وبدأ المسلمون الهجوم الشديد على الصليبين ، وكانت أول بشائر النصر أن أدرك ريموند الثالث – بعد شدة القتال – أن لا طاقة للصليبيين بالمسلمين ، ففر من أرض المعركة مع جماعة من أتباعه، واستمات المسلمون في القتال وشددوا من هجماتهم على الأعداء ، ولم يستطع الصليبيون الصمود طويلاً وهم على تلك الدرجة من الإنهاك والعطش ، فأخذتهم سهام وسيوف المسلمين وكثر فيهم الجراح وقوي الحر وسلبهم العطش القرار ، وقام بعض المجاهدين من المسلمين بإشعال النار في تلك الأرض ، وكان الحشيش كثير فاحترق ، وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال" [٢].

فلما تضايق الصليبيون ، وشاهدوا انهزام ريموند الثالث وانسحابه فانسحبوا إلى جبل حطين ، فأحاط المسلمون الجبل ، وظلوا يطاردونهم من أسفل والصليبيون يتراجعون أمامهم في اتجاه قرون حطين ، وفي ذلك الوقت سقط أسقف عكا قتيلاً ووقع من يده صليب الصلبوت فاستولى

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٦-٧٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣٤، قاسم عبده، الأيوبيون والمماليك ، ص٥٩.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٥ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٧٧ ، ابن العماد ، الفتح القس ، ص٧٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ٧١.

عليه المسلمون ، وكان ذلك من أعظم المصايب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، وظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ، حتى بقى ملك بيت المقدس وما حوله مائة وخمسون من الفرسان فقبض عليهم المسلمون جميعًا وهم يتساقطون على الأرض لا يستطيعون الحركة من الإنهاك والعطش والخوف ، وقد "امتلأت الأرض بالقتلى والأسرى".

وسيق الأسرى من الأمراء والملوك الصليبيين إلى خيمة صلاح الدين ، وبعد أن صلى صلاح الدين صلاة الشكر على هذه النعمة ، أمر بإحضار ملك الفرنجة وأمرائهم فاستقبلهم استقبالاً حسنًا، وأجلس الملك إلى جانبه " وقد أهلكه العطش" ، وقد بادر صلاح الدين إلى تقديم إناء به ماء مثلج للملك جاي لوزجنان ، فشرب منه وأعطى الباقي لأرناط فشرب ، وعندئذ غضب صلاح الدين وقال: "إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينا له أماني" وذكره بغدره ومكره ، وقال له: "كم تحنث وتنكث؟" فقال : " قد جرت بذلك عادة الملوك" ، وكان صلاح الدين قد نذر إن ظفر به أن يقتله وذلك بعد أن حاول الاعتداء على بلاد الحجاز ، ثم هاجم قافلة إسلامية وغدر بها أثناء مسيرها من القاهرة إلى بلاد الشام ، وكان أرناط عندما غدر بالقافلة الإسلامية زيادة في إذلال الأسرى المسلمين في هذه القافلة قال: "قولوا لمحمد يخلصكم" ، فقال له صلاح الدين بعد أن أسره: "ها أنا أنتصر لمحمدﷺ " ، ثم سل صلاح الدين خنجرًا فقتله به ، "وعجل الله بروحه إلى النار" ، فلما رأى الملك جاي لوزجنان ذلك لم يشك أنه مقتول ، فخاف وارتاع فطيب صلاح الدين خاطره وهدأ من روعه ، وقال له : " لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فتجاوز حده فجرى عليه ما جرى" [1] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩١ -١٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٦-٥٣٧، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٤-٣٥ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٢٨.

أما باقي الأسرى ، فقد جمعهم صلاح الدين ، وكانوا كثيرين "وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم – حبال الخيم – لقيده وشده ، ولقد رأيت في حبل واحد وثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس"[١] .

وأحضر صلاح الدين أسرى الداوية والاسبتارية ، وعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله وقد بين المؤرخون سبب مقتلهم أن صلاح الدين قال: "أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين ، فما جرت عاداتهما بالمفاداة ، ولا يقطعان عن المعاداة ، ولا يخدمان في الأسر وهما أخبث أهل الكفر[٢] .

ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين قد تنكروا للمبادئ التي كرسوا حياتهم لخدمتها ، فخلعوا زيهم الديني الأسود واتشحوا بالوشاح الأبيض العسكري والشارة الصليبية الحمراء ، وأصبحوا في زمرة المحاربين ، وامتلك كل منهم ثلاثة من الخيل ، وغلامًا يتبعه ، وصار منهم قادة يحملون الألقاب والرتب العسكرية ، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين ونقض العهود والمواثيق ، وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول الأسمى طعن الإسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلف ذلك من ثمن[٣] .

وكان عدد الداوية والاستبارية حوالي ثلاثمائة وستين رجلاً والأمر المؤكد أن دورهم الحربي السابق ضد المسلمين كان دافعًا لقتلهم ، خاصة أنه عرف

---

(١) العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٨٣.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٧٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٧٧ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ٩٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩٦ – ١٩٧ ، ابن الأثير ، الكامل، ١١/ ٥٣٨.

(٣) حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص١٨٦ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٦٤.

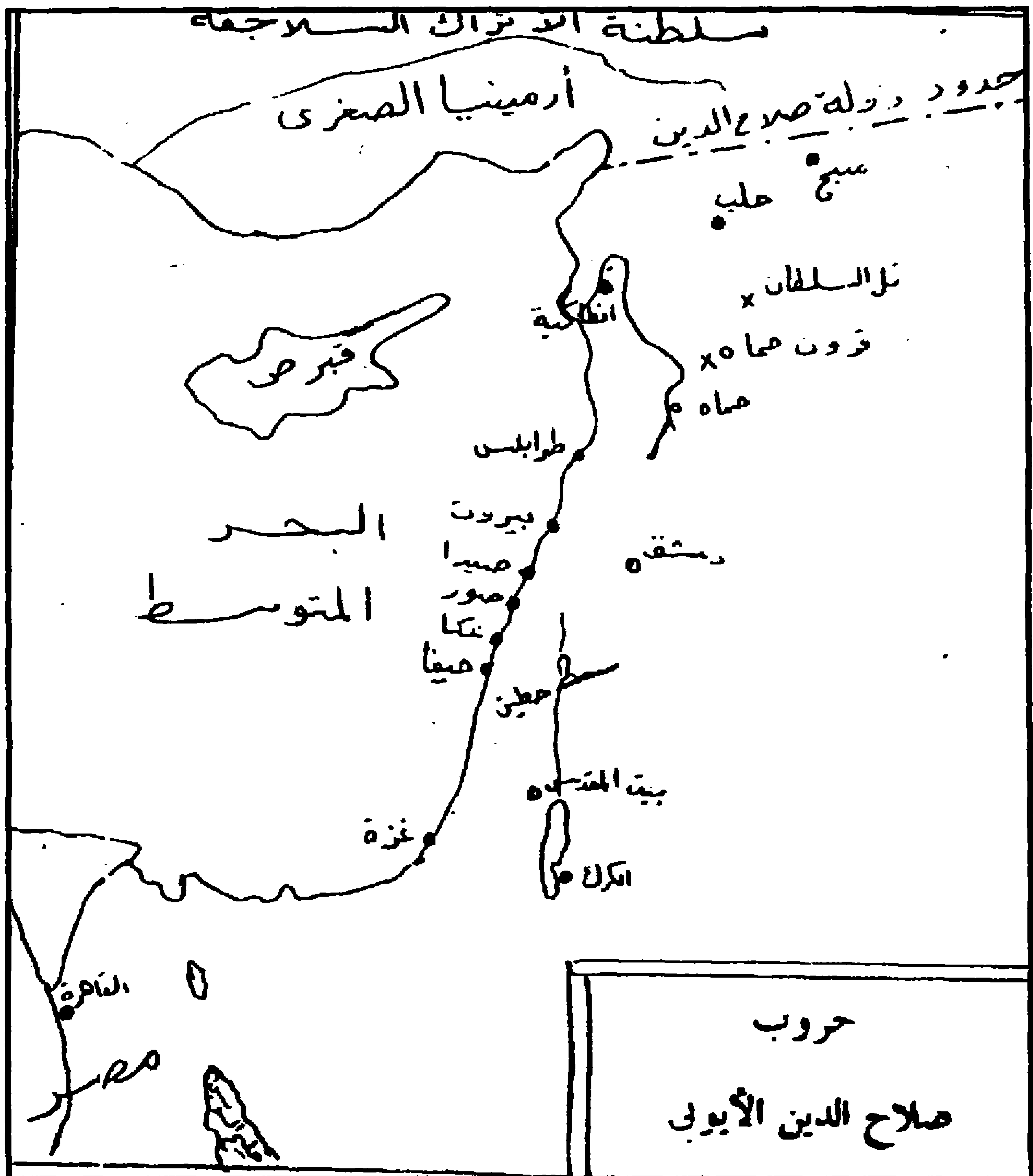
عنهم عدم احترام العهود والمواثيق ، كما أنه أدرك أنه في حالة إطلاق سراحهم سيعودون لقتال المسلمين بصورة أشرس من ذي قبل، كما لا نغفل أن منهم من شارك في حملة أرناط الآثمة على الحجاز ، وأمام تلك الاعتبارات لم يتردد صلاح الدين في الفتك بأولئك الأسرى من الصليبيين ، وقد تعرض للهجوم من جانب عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين الذين نسوا أو تناسوا ما فعله الصليبيون من مذابح فتكوا بها بالآلاف المؤلفة من المسلمين ، وليس هذا بجديد على العقلية الغربية التي نجدها كثيرًا ما تكيل بمكيالين ، وتبيح لنفسها ما تحرمه على غيرها ، ولا نغفل أن ذلك الأسلوب من صلاح الدين جاء استثناء لسياسة متسامحةٍ بصفة عامة تجاه أعدائه[١].

وبعد ذلك الانتصار المبين ، انصرف صلاح الدين من حطين ، وسيق الأسرى إلى دمشق ، حيث حبس الأمراء وبيع عامة الفرسان الجند في أسواق الرقيق ، ولقد بلغ من كثرة الأسرى أن الأسير كان يباع في دمشق بثلاثة دنانير وكان "يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة ! "بالجملة" وقد بلغ سعر الجملة للأسرة المؤلفة من الصليبي وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه ثمانين دينارًا[٢].

---

(١) د/ محمد مؤنس ، الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢١٩، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٦٤.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٨٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣٧.


سلطنة الأتراك السلاجقة
أرمينيا الصغرى
حدود دولة صلاح الدين
حلب
تل السلطان
حماه
قبرص
انطاكية
طرابلس
البحر
المتوسط
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
دمشق
حطين
بيت المقدس
غزة
الكرك
القاهرة
مصر
حروب
صلاح الدين الأيوبي

صحيح أن كوارث سابقة لحقت بالصليبيين في المنطقة العربية قبل حطين ، فقد لقى عدد من زعمائهم حتفهم بسيوف المسلمين ، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم أسرى في السجون العربية، ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة ولكن ما حدث في حطين كان أبعد من مجرد هزيمة عسكرية على الرغم من أن المسلمين بقيادة صلاح الدين تمكنوا من تدمير أكبر جيش أمكن تجميعه منذ قيام الكيان الصليبي على أرض فلسطين ، ذلك أن حطين كانت بمثابة علامة تشير إلى الطريق الصحيح لهزيمة العدو ، وهو توحيد الجهود السياسية والعسكرية في المنطقة العربية ضد الكيان الصليبي ، وكانت جهود التوحيد قد بدأت منذ عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود ، وواصل صلاح الدين جهوده في هذا السبيل ، فلا غرو أن تكون حطين تتويجًا لهذه الجهود.

ومن هنا جاءت أهمية معركة حطين تاريخيًا ، كما كان وقعها على الصليبيين وعلى أوربا الكاثوليكية قاسيًا[1] .

يقول الدكتور سعيد عاشور : " كانت حطين أعظم من مجرد نصر حربي أحرزه المسلمون. لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرًا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى " .

ومن ناحية أخرى فإن حطين كانت أفدح من مجرد كارثة حربية حلت بالصليبيين لأنه لم ينتج عنها أسر جاي لوزجنان ملك بيت المقدس وضياع هيبة مملكته وسلطتها الفعلية إلى الأبد فحسب، وإنما نتج عنها أيضًا نقص ملموس في الفرسان والمحاربين بعد أن سقطت بين قتلى وأسرى في حطين، فمن شاهد القتلى قال ما هنا له أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل!.

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص ٦٠.

وليس بخاف علينا أن الإمارات الصليبية التي خلقت خلقًا ضعيفًا في أواخر القرن الحادي عشر ، وظلت منذ ذلك الوقت تعاني نقصًا شديدًا في المحاربين والسكان الغربيين ، كانت لا تستطيع أن تتحمل الكارثة التي نزلت بها في حطين. حقيقة أنها استطاعت الصمود قرابة قرن من الزمان، ولكن بقاءها طوال تلك المدة لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان نتيجة ضعف القوة الإسلامية وتفككها في منطقة الشرق الأدنى وبخاصة في مصر والشام[١] .

أسباب الانتصار في معركة حطين :

- الإعداد الجيد وسنة الأخذ بالأسباب :

لقد استطاع صلاح الدين – رحمه الله – أن يوحد الأمة ويجمعها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والجهاد في سبيل الله ، وتحرير البلاد الإسلامية ، فأصبحت الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق تحت إمرته ، وحشد لهذه المهمة العلماء والفقهاء والجيوش والآلاف من المجاهدين وفي مقدمتهم العلماء والفقهاء ، يحرضون المقاتلين على القتال ، وكون جيشًا بريًا قويًا ، وأنشأ أسطولاً بحريًا مصريًا ، وأنفق عليه أموالاً طائلة[٢] .

لقد كان الإعداد والاستعداد فقد اختار الرماة ، وزودهم بالنبال الكافية ، الكثيرة ، فملأ حياتهم بها ، وقد بلغ ما فرقه على الرماة من نبال أربعمائة جمل، ورصد حمولة سبعين ناقة في ساحة القتال وميدان المعركة ، وجعل هذه النوق المحملة بالسهام لمن تنفذ سهامه أن يأخذ منها ما يحتاج ضمانًا لاستمرار القتال والرمي وعدم التوقف فيه حتى يتنزل النصر بإذن الله سبحانه وتعالى[٣] .

وقد خاض صلاح الدين المعركة بجيش قوي ومهارة حربية منقطعة النظير ،

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣٧.

(٢) عبد الله علوان ، صلاح الدين الأيوبي ، ص١٢١.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٨٠.

فضلاً عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها ، فيقول ابن شداد : "إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس بها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهاد والاجتهاد من إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ ورتبهم واندفع بهم قاصدًا نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة .. وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة"[١] .

كما أن صلاح الدين يختار بعناية موقع المعركة حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلاً بين العدو وبين الماء ، كما أعلن جهاده في شهر يوليو الذي يعد أشد شهور السنة حرارة وأقلها ماء في الصهاريج والغدران ، حتى أصبح العطش أقوى الأسلحة بين يديه[٢] .

- سنة التدرج وحدة الأمة :

فقد قام أمراء السلاجقة الكثير من أجل دحر الصليبيين ، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازًا عظيمًا بوضعه لمشروع رائد ، ربما رأى الكثيرين – في ذلك الوقت – استحالة تحقيقه على بساطته ، وهو مشروع الوحدوي التحريري ، والذي حقق ابنه نور الدين جُزءه الأول وحقق صلاح الدين قسمًا مهمًا من جزئه الثاني ، ولذلك نرى أن انتصار صلاح الدين في حطين تتويجًا لمشروع عماد الدين زنكي الوحدوي التحرري ، فلولا متابعته نور الدين لخطى والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر والشام ، لما تحقق هذا النصر[٣] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين الأيوبي ، ص٧٥ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي، ص٤٦٥.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٦٥.

(٣) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٦٦.

الذي تم بفضل الله ثم بفضل جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون أو طائفة وإنما جمعتهم الأخوة في الله التي لا تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس، ولا غيرهم من الأمم التي انضوت تحت لواء راية الإسلام ، قال الشاعر:

ولست أدري سوى الإسلام لي وطنًا ... الشام فيه ووادي النيل سيان
وأينما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لب أوطاني[١]

ولقد تفاعلت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح الدين مع الزمن والوقت وخضعت لسنة التدرج وأعطت ثمارها في معركة حطين ، وتوجت بفتح بيت المقدس ، وأصبح المؤمنون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٢].

وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المستعمرون من أجل تمزيق أرجاء العالم الإسلامي ، فقد نجحوا في تقطيع أراضي المسلمين ، لكنهم لم ينجحوا في تمزيق قلوبهم وظل المسلم محبًا لأخيه المسلم ولسان حال كل منهم يقول :

لو اشتكى مسلم في الصين أرقني ... أو اشتكى مسلم في الهند أبكاني
فمصر ريحانتي والشام نرجستي ... وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
وفي العراق أكف المجد ترفعني ... عن كل باغ ومأفون وخوان
ويسكن المسجد الأقصى وقبته ... في القلب لا شك أرعاه ويرعاني
أرى بخارى بلادي وهي نائية ... وأستريح إلى ذكرى خراسان
شريعة الله لمت شملنا وبنت ... لنا مقامًا بإحسان وإيمان[٣]

(١) إبراهيم النعمة ، الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ، ص٩، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٦٦.
(٢) رواه البخاري.
(٣) إبراهيم النعمة ، الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ، ص٢٣ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٦٦.

بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية:

من الملاحظ أن صلاح الدين الأيوبي كان يدرك أهمية العمل المزدوج، توحيد الجبهة الإسلامية وجهاد الصليبيين، نظرًا لما بينهما من اتصال وثيق، ومما يذكر هنا أن عام ١١٨٦م/ ٥٨٢هـ شهد الاتفاق مع عز الدين مسعود صاحب الموصل على أن يكون تابعًا له، ولذلك استطاع أن يخضع المدن الإسلامية الأربعة الرئيسية التي تحكمت في الظهير البري وهي القاهرة ودمشق، وحلب، والموصل، وجميعها سيكون لها شأنها البارز في مشروع الجهاد، ومن زاوية أخرى لا نغفل أن الصليبيين وعلى رأسهم ريموند الثالث كونت طرابلس، اتجهوا إلى عقد هدنة مع صلاح الدين وذلك عام ١١٨٥م/ ٥٨١هـ، مدتها أربع سنوات، ومن الملاحظ أن كلا من الجانبين احتاج إليها من أجل تنظيم قواته والتقاط الأنفاس، ومما يدل على بعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية مهادنته لبعض القوى الصليبية من أجل المحافظة على قواته وعدم تبديد فعالياتها طوال تلك الأعوام الدخول في معركة حاسمة معهم ولا يتعجل الأمر، بل يترك عوامل الانقسام والفرقة تلعب دورها في صفوفهم، وكانت أخطر قراراته السياسية " قرار السلام" المؤقت مع الصليبيين، ومن المهم إدراك أن تلك المعاهدات عندما سيتم خرقها ستعطيه المبرر لشن حرب التحرير الشاملة التي من ثمارها معركة حطين، وكانت شرارة الصدام بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين أتت من الفارس الصليبي رينولد دي شايتون أو أرناط، وهو الفارس الذي أدخلته رعونته التاريخ من أوسع أبوابه، فقد خرق أرناط الهدنة واعتبرها صلاح الدين إعلان حربي صليبي، وكان الرد الأيوبي سريعًا وحاسمًا كما حدث في حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م[1].

(١) محمد مؤنس، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص٢١٥، الصلابي، صلاح الدين الأيوبي، ص٤٦٧.

تنظيم دولته وإقطاعات أمرائه :

كان صلاح الدين بارعًا في تسوياته الرضائية وحفظ التوازنات لإرضاء الجميع ، وكان يفوض غيره في أمر الإدارة وينشغل كليًا بالمهمات الحربية ، وكان يسند الأمور إلى أهلها ويشترط على نوابه وحكامه في إدارة الأقاليم والإقطاعات معاملة الرعية بالمساواة والإسهام في نفقات الجهاد ، والاحتفاظ بجيوشهم جاهزة دومًا للقتال ، وكان يهتم بالولاء المخلص من أتباعه[١] .

العمل الدبلوماسي الخارجي:

فقد أدرك صلاح الدين من خلال تجاربه ومسئولياته خلال عشرين سنة ونيف أن الإطار الخارجي للأحداث له أثره فيها ، وقد يمارس تأثيرًا خطيرًا ، وأن القوى المادية التي بني منها دولته قطعة قطعة لا تكفي لضمان الاطمئنان إلى مسيرة الأمور كما يشتهي ، ولابد من صداقات وهدنات وعلاقات سلام تقوم على القوى الخارجية ، بل والمعادية أحيانًا ، فقد أقام في عام ٥٧٧هـ علاقات حسنة مع القسطنطينية ، وتم فتح الجامع الإسلامي فيها وإطلاق حوالي مائتي أسير مسلم عندها، وكان من نجاح هذه العلاقة أن زاد العداء بين بيزنطة وفرنجة الشام ، مما زاد اطمئنان صلاح الدين إلى بيزنطة وقبرص[٢] .

ومن جهة أخرى فإن الأساطيل الإيطالية – أساطيل جنوا وبيزا والبندقية وأمالفى – كانت متصلة الورود والتكاشف على السواحل الشامية ، ولها امتيازاتها في المرافئ كلها ، وهي تحمل الرجال والسلاح والمال إليهم دون انقطاع وترجع ببضائع الشرق والتوابل إلى الغرب ، ودورها الفعال الذي هو

(١) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٦٧.

(٢) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارسي المجاهد والملك الزاهد ، ص٢٥٧ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٦٨.

سائد الإمارات الفرنجية في المشرق على مدى قرابة قرن ، ولـولا أشـرعة سـفنها ما بقيت هذه الإمارات ولا قويت ، فكان على صلاح الدين أن يكبح من قوتها ما استطاع ، ولا يبحر بها الصليبيون في البحر ، ولم يكن لديه الأسطول الكافي لذلك ، وإنما بفتح بعض مرافئه لمصالحها، وهو يعرف أن مصلحة هؤلاء التجار تغلب تدينهم وتجعلهم ينسون الحرمات الذي يمكن أن يرميهم به الباب ، كما أنهم متنافسون فيما بينهم ، فاستغل هذه المنافسة ، وبذل كثيرًا من الجهود لاجتذاب تجارهم إلى مرافئ مصر مما لا يؤدي إلى تأمين منافعهم ، ولكن إلى تأمين منافع الدولة وزيادة مواردها ، ومنافع التجار المصريين من وراء الفرنج ، وقد أقام مع البيازنة – تجار بيزا – معاهدة سنة ٥٦٩هـ ، وثم فقره في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد تؤكد وجود اتفاق مماثل مع البندقية ، تقول الفقرة : ما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آله – أسلحة – قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد تقررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة[1] .

ومن مهارة صلاح الدين السياسية والدبلوماسية عقد الهدنة مع الفرقاء الصليبيين مما أوقع بينهم الشقاق ، وليس أدل على ذلك من الهدنة الذي عقده مع ريموند الثالث أمير طرابلس الغاضب والحانق على ملك بيت المقدس جاي لوزجنان وفريقه ، مما يدل على الدراية التامة لصلاح الدين بأحوال الصليبيين الداخلية.

---

(١) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ، ص ٢٥٧ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٤٦٩.

العدل :

إن العدل أساس الملك ولهذا أمر الله رسوله بالقيام به فقال: ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ (الشورى : ١٥) ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾ (النساء : ١٣٥) ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ ﴾ (المائدة : ٨) ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ (النساء : ٨٥).

والعدل بين الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محاربًا وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها ، رعية تحب حكامها وتطيعهم لأنها أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم ، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة ، وهو يؤذن بزوال الدول ، ولهذا حرمه الله على نفسه وجعله محرمًا بين خلقه فقال تعالى في الحديث القدسي : ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا))[١]، وقال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصافات : ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾(النمل : ٥٢).

ومن الحق أن نسجل أن الدولة النورية في عهد نور الدين زنكي والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي ، قد ساد فيها العدل في الرعية ،وتم إيصال حقوق الناس إليهم ، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دولتهم[٢] ، قال ابن شداد عن صلاح الدين : " لقد كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، من كبير وصغير ، وعجوز وهرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص٢٠٥، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٧٣.

ذلك سفرًا وحضرًا ، على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدًا للحوادث ، والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه ، ولم يرد قاصدًا أبدًا ولا منتحلاً ولا طالب حاجة ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأخذ بقصته[١] .

لقد قام صلاح الدين بالعدل في دولته وترك لنا وقائع ملموسة وتطبيقات عملية مع الأمراء والرعية في المحافظة على حقوق الأفراد وحقوق الدولة ، قامت هذه التطبيقات على العدل والإنصاف وأرست هذه القاعدة "العدل أساس الحكم والظلم يؤذن بزوال الدولة"[٢] .

والعدل – الذي أقامه صلاح الدين في دولته كان سببا مباشراً لانتصاره في حطين ، ولا يغفل أحد قول ابن القيم : "إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ، ويخذل الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة" .

الاستعانة بالعلماء واستشارتهم في الحرب والإدارة :

كان صلاح الدين على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر ، فصلاح الدين يعرف أن تحرير البلدان وتوحيدها ليس عملاً سياسيًا أو عسكريًا فحسب ، بل أنه أوسع من ذلك بكثير ، وأدرك أنه بدون تأصيل "الذات العقائدية" للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية موقوته معرضًا دومًا للمد والجزر وللتغيير والتبدل كما يحدث دائمًا وما يقتضيه الموقف هذا

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٣-١٤ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٧٣.

(٢) أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص ٢١١، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٣.

ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن ، إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع ، وحينئذ سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكًا ، لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط ، تكديس كمي يثبت للضربة أو الفريقين ، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار، فتذهب مع انهياره هدرًا جهود السنين الطوال وعرقها [1].

فكان صلاح الدين يلازم العلماء ويجالسهم ويستشيرهم في الحرب والإدارة ويستمع إلى نصائحهم ويقدرها ، وكان يعتمد على بعضهم في إدارة ممالكه ، وكان أكثرهم مرافقة له في السراء والضراء وفي حله وترحاله القاضي الفاضل ، وكان كثيرًا ما يذكر أسباب النصر بعد توفيق الله عز وجل ويقول : " ما فتحت البلاد بالعسكر وإنما فتحتها برأي القاضي الفاضل [2]" ، فالقاضي الفاضل كان يقدم له الرأي الحصيف ، والقول السديد ، والقرار الحكيم ، وكان يصدقه القول في الرأي والحرب المكيدة والسياسة والحكم. وقد لاقى صلاح الدين التأييد التام من العلماء والفقهاء، وكان يستشيرهم ويأخذ برأيهم ، وشارك العديد من العلماء والفقهاء في فتوحات وانتصارات صلاح الدين ، واستعان صلاح الدين بالعلماء والفقهاء على إعداد الأمة جهاديًا مبينًا لهم غاية الجهاد في الإسلام وضرورة الالتزام بها والعمل لها ، وقد ساهم العلماء مساهمة جوهرية في رفع الروح المعنوية القتالية في حطين وغيرها [3].

---

(١) عماد الدين خليل ، نور الدين محمود ، الرجل التجربة ، ص٢٤٩، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٢٦٥.

(٢) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٤/ ٣٢٧ ، د/ ماجد عرسان الكيلاني ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص٢٦٢.

(٣) أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص ١٤٣، ١٩٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٧٦.

حسن الصلة بالله :

كان صلاح الدين كثير الدعاء والعبادة والرجاء في نصر الله وعونه ، وكان يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحضهم على الطاعة والعبادة ويتقدمهم في ذلك ، ويهيئ لهم الفرصة لتزكية النفوس والانشغال بقراءة القرآن وتدبره وحفظه ، وكان حريصًا على صلاة القيام وكثرة الذكر، ويحض أمراءه وجنده على ذلك ، فكان رحمه الله يجلس إلى العلماء ويقرأ عليهم القرآن ، ويستمع منهم إلى تفسيره ، يجلس إلى أهل الحديث يتفقه عليهم فقه الحديث ويستمع إلى الفقهاء والعلماء ، وكان يحضر العلماء والفقهاء والمفسرين ليعلموا الجيش كتاب ربهم ويفقهوهم في دينهم ويوثقوا صلتهم بربهم ، وكان رحمه الله يأمر جنوده في الخيام أن يقوموا الليل ، وأن يذكروا الله ذكرًا كثيرًا، وكان يتفقد خيام الجند ، فإذا وجد خيمة غفل أهلها عن القيام والذكر وتلاوة القرآن أيقظهم وذكرهم بضرورة الإكثار من ذكر الله وعبادته وطاعته ، وهذه الأمور من أهم عوامل النصر على العدو[1] .

اللجوء إلى الله بعد الإعداد :

من أسباب النصر أنه كان بعد الأخذ بالأسباب يلجأ إلى الله تبارك وتعالى يطلب منه المدد والعون، وكان – رحمه الله – كثير الدعاء واللجوء إلى الله في المسلمات وكان في دعائه مخلصًا متضرعًا . وقال القاضي الفاضل العالم المصاحب له في أسفاره وجهاده عن دعائه وحاله في الدعاء: "كان يتصدق ويخفي صدقته قبل أن يناجي ربه وهو ساجد ، فيقول : إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية من نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل" ، ورأيته ساجدًا ودموعه

[1] أبو فارس ، دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، ص١٩٨.

تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول[(١)] فسرعان ما يستجيب الله دعاءه ويجعل أمر الصليبيين في اضطراب ويعودون شر مآب بالهزيمة من رب الأرباب . نعم أنه التوكل على الله حق توكله ، والدعاء من سويداء القلب إلى ربه وهو القائل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾(الطلاق :٢-٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة : ١٨٦) ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٠) [(٢)]

نجاح العمل الاستخباراتي لصلاح الدين :

استطاع صلاح الدين أن يخترق الصليبيين استخباراتيًا ، فقبيل معركة حطين تمكن صلاح الدين من استمالة زوجة أمير أنطاكية بوهيمند الثالث ، فكانت لها اتصالات سرية مع صلاح الدين الأيوبي وكانت تطلعه على خطط الصليبيين وتحركاتهم أول بأول ، وذلك في فجر يوم حطين ، وقد ذكر ابن الأثير هذه الحقيقة ، فيقول : إن أميرة أنطاكية كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثير من الأحوال يؤثرها علمها[(٣)] أما أبو شامة فيقول : وكانت امرأة برنس أنطاكية وتعرف مدام سيبل في موالاة السلطان ، عينا له على العدو وتهاديه وتناصحه، وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ، ويهدي إليها أنفس الهدايا[(٤)] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٢ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٧٧.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٤٧٧.

(٣)، (٤) سبق الحديث عن هذه النقطة ، فليراجع ، وانظر : د/ سلامة محمد الهرفي ، دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية ، ص ٦٧ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٧٧.

إن من أسباب الانتصار في حطين إعطاء الأمر حقه من الاهتمام مما جنب صلاح الدين المفاجآت العدوانية من الصليبيين ، وقد كتب صن تزو، مشيرًا لأهمية ذلك : إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعو إلى أن تخاف نتائج مائة معركة [١]. وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل مكان.

وقد انعكست عبقرية صلاح الدين في إيجاد شبكة اتصالات ومخابرات متينة ضمن صفوف الصليبيين بحيث كانت أخبارهم وتحركاتهم تصل إليه بسرعة وباستمرار [٢] .

أسباب تعود إلى الصليبيين أنفسهم :

كان الصليبيون منقسمين على أنفسهم في هذه المعركة، فبينما كان يرى أمير طرابلس عدم القتال في المكان الذي اختاره صلاح الدين ينبري له أرناط صاحب الكرك بالاتهام بالجبن والتواطؤ مع المسلمين ، والدعاية لهم بقوتهم ويتهمه بأنه يلاين المسلمين ، لأن زوجته حاصرها صلاح الدين والمسلمون في قلعة طبرية ، ولهذا نجده ما إن وجد فرصة للهروب هرب ومن معه من أرض المعركة وتركهم في أصعب ساعات القتال ، كما ترك زوجته في هذا الوضع الحرج.

- لقد وقعوا في الحيلة التي وضعها صلاح الدين عن غباء وعلم بها ، وقد نبههم إليها أمير طرابلس.

- الروح المعنوية التي انهارت من حرب الاستنزاف وفي بداية المعركة والمعارك السابقة التي وجدوا أنفسهم أمام مسلمين أقوياء الشكيمة لا قدرة لهم على دفع الهزيمة والأذى.

---

(١) عبد الله على السلامة ، الاستخبارات العسكرية في الإسلام ، ص٣١١ ، الصلابي، صلاح الدين ، ص٤٧٧.

(٢) محمد سهيل طقوش ، تاريخ الأيوبيين ، ص ١٥٣ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٧٧.

- فسق هؤلاء الصليبيين وفجورهم وانتشار الدعارة فيهم ، وأن قسمًا كبيرًا منهم جاء للنهب والسلب والسفك ظلمًا ، إنهم لا أخلاق لهم ، والنصر على المؤمنين الموحدين المجاهدين منهم بعيد.

- وفي هذا يقول جوستاف لوبون : ومما يلفت النظر أن هؤلاء الغزاة لا أخلاق لهم وليست عندهم قيم ، بل كانوا فجرة أشرار منجلين فاسقين ، وهؤلاء أعداء الحضارة وقتلتها إذ لا يرى منهم في أرض فلسطين غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان الدعار والراهبات العواهر[(١)] .

كلمة أخيرة :

يقول أبو الحسن الندوي : ماذا كان سر انتصار صلاح الدين الأيوبي الانتصار الباهر الذي حير العالم ، وغير مجرى التاريخ؟ إنما السر أنه كان مسلمًا مؤمنًا محمديًا ، لا يعرف غير لغة القرآن ، ولا يعرف غير لغة الإيمان ، ولا يعرف لغة الحنان ... إن المسلمين إلى هذا الوقت – وإن كانت المادية الرعناء، والتربية العصرية قد فعلت فعلتهما – لا يفهمون غير لغة القرآن ، إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ومهما تعددت لغاتهم ، ومهما فاق ذكاؤهم ، ومهما فاقت ألمعيتهم وعبقريتهم إلى الآن لا يفهمون إلا لغة محمد عليه الصلاة والسلام الذين آمنوا به كنبي خالد وكرافع علم الجهاد المقدس ، إنهم لا يفهمون إلا لغة القرآن ، خاطبوا المسلمين بلغة القرآن لا بلغة السياسة ، أثيروا فيهم الحنان ، والإيمان بكلمة الجهاد ، بكلمة الحنين إلى الشهادة ، إنهم لا يزالون يحسنون فهم هذه اللغة ، إنما كان سر سيطرة صلاح الدين على القلوب والأرواح في أنه فهم هذا السر . إن المسلمين لا يندفعون إلا بدافع الجهاد ، فجمع تحت رايته الإيمانية أشتاتًا من القيادات وضروبًا وأنواعًا من الشعوب ،

---

(١) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص٣٢٨ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٧٨.

واستطاع أن يوحِّد كلمة العالم الإسلامي الممزق المشتت ، المنقسم على نفسه ، وكيف استطاع أن يجمع هذا العالم المترامي الذي تعددت عناصره وتعددت ثقافاته ، وتعددت مذاهبه الفقهية ، كيف استطاع أن يوحد العالم الإسلامي في هذه الفترة الحالكة العصبية تحت راية محمد ﷺ ؟... إن هنالك قلوبًا مخلصة لا يعرف مدى إخلاصها إلا الله تبارك وتعالى ، قلوب مؤمنة صادقة لا تعرف لغة السياسة، ولا تعرف لغة اللياقة ، إنما تعرف الإيمان ، إنما تعرف الحنان ، إنما تعرف لغة القرآن ، فأنتم تملكون ثروة لا تملكها أمريكا ولا تملكها روسيا – ولا العالم أجمع- تلك ثروة الإيمان ، تلك ثروة الإيمان الدافق ،... إن هذه الثروة موجودة، ولكنها تحتاج إلى إثارة ، تحتاج إلى تحريك ، تحريك صادق مؤمن[(١)].

هاتي صلاح الدين ثانية فينا

وحددي حطين أو شبه حطين

فتح قلعة طبرية ٥٨٣هـ/١١٨٧م :

بالرغم من حالة الفرح العارمة التي عمت أرجاء العالم الإسلامي بعد الانتصار في حطين وتحطيم القوى الرئيسية للصليبيين إلا أن صلاح الدين لم يركن إلى ذلك ، ولم يدع الفرصة المناسبة للانقضاض على الصليبيين وتحرير البلدان التي يحتلونها ، وسرعان ما تحرك بقواته في صباح يوم الأحد صوب قلعة طبرية ، وكانت زوجة ريموند الثالث مقيمة بها ، فأرسل إليها صلاح الدين يدعوها للتسليم مقابل إعطائها الأمان لها ولمن معها ، فنزلت على الأمان وسلمت له القلعة وخرجت بمن معها وما معها من مال إلى طرابلس ، حيث كان ريموند الثالث زوجها قد نجا مع بعض أصحابه من حطين[(٢)].

---

(١) الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٤٧٩.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/٥٣٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩٥-١٩٦، أبو شامة ، الرّوضتين ، ٢/ ٧٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٧٧.

فتح مدينة عكا سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م :

على أن صلاح الدين لم يلبث أن خيب ظن الصليبيين ، فبدلاً من أن يتجه إلى بيت المقدس ليستوى عليها ، إذ به يتجه صوب عكا أولاً ، وربما كان ذلك مظهرًا من مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره ، وقد اختار صلاح الدين التوجه إلى الساحل لفتح المدن والحصون والقلاع الصليبية المنتشرة هناك وذلك لعدة أسباب منها :

- لأن قيامه بالهجوم مباشرة على المدينة المقدسة سيؤدي إلى استنفار كافة القوات الصليبية في المنطقة ، فتجتمع في حربها ضده مما قد يصعب ويؤخر عملية التحرير.

- كما أن فتح المدينة المقدسة من قبل صلاح الدين سيؤدي إلى حدوث قلق شديد في العالم الغربي الذي ربما يؤدي إلى اندفاعه بكل قوة لمحاربته(١).

- وتوجه صلاح الدين إلى المدن الساحلية الصليبية ، ليحرم الصليبيين من قواعدهم الساحلية البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي ، وبخاصة الغرب الأوربي ، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام ، وبعد ذلك تتساقط في يده المعاقل والمدن الصليبية في الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذي يربطها بقلب الحركة الصليبية وهو الغرب الأروبي.

- هذا فضلاً من أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من المدن والموانئ الصليبية سيمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام(٢).

على كل حال رحل صلاح الدين ظهر يوم الثلاثاء ومعه العساكر ووصل إلى

---

(١) عليه المهتدي ، صلاح الدين وتحرير القدس ، ص١٢٤، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٢.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٣٩.

عكا يوم الأربعاء ، وبالرغم من أن جوسلين الثالث دي كورتناي – أحد الفرسان الذين نجوا من حطين – كان يرغب في الدفاع عن عكا ومقاومة صلاح الدين، ولكنه لم يجد من يعينه على رغبته تلك ، إذ قتل معظم فرسان عكا وحماتها في حطين ، فرضخ للأمر الواقع وعرض تسليمها لصلاح الدين مقابل تأمين أهلها على أزواجهم وممتلكاتهم ، فقبل صلاح الدين ذلك وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وخيرهم بين الإقامة في عكا وبين الجلاء عنها ، واستولى المسلمون على المدينة يوم الجمعة أول جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/ يوليو ١١٨٧م ، وصلوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديمًا ثم جعله الصليبيون كنيسة ، وقد غنم المسلمون من عكا غنائم طائلة ، واستولوا على مقادير ضخمة من الأموال والذخائر والبضائع لأن هذه المدينة كان ذات مكانة تجارية هامة ، وعن طريقها تتم معظم تجارة الصليبيين مع العرب(١) .

ثم شرع صلاح الدين في ترتيب شئون المدينة ، فسلمها إلى ابنه الملك الفاضل، وأعطى جميع ما كان فيها للداوية من إقطاع وضياع للفقيه عيسى الهكاري – أحد كبار العلماء والمستشارين لصلاح الدين – وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها ، ومن ثم أخذ يرسل العساكر الإسلامية في مناطق الساحل ، فاستولوا على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ، ومعليا والشقيف والفولة ، والطور ، وغيرها من المواقع والحصون القريبة من عكا ، وفي ذلك الوقت هاجم العادل – أخو صلاح الدين – المدن الساحلية في فلسطين ، فاستولى على حصن مجدل يابا (مجدل لياب) – بين يافا ونابلس – وهاجم يافا نفسها ، فقامته ولكنها سقطت أخيرًا في يده(٢) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٣٩ ، ابن العماد الكاتب ، الفتح القسي، ص٨٨-٨٩ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠١ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٨٦.

(٢) أبو شامة ،الروضتين ، ٢/ ٨٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٢ ، المقريزي، السلوك، ١/ ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٣٩ – ٥٤٠ ، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ، ص٧٩ ، ابن العماد ، الفتح القسي ، ص ٩٠ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٥ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص١٣٢.

وكانت خطة صلاح الدين تقوم على مهاجمة الصليبيين من جميع الجهات حتى لا يجتمعوا في جهة واحدة ، ولكي تتفرق قوتهم فيسهل الإيقاع بهم والسيطرة على الحرب ، وتوجيهها لصالح المسلمين ، لاسيما وأن المسلمين بعد موقعة حطين تحولوا إلى الهجوم بعد أن انهارت قوى الصليبيين في حطين ، وتغير ميزان القوة في المنطقة ، وأصبحت المبادرة في يد المسلمين ، وقد سير السلطان فرقة من قواته بقيادة الأمير حسام الدين عمر بن لاجين ، حيث بدأ الاستيلاء على سبسطية – وبها قبر زكريا عليه السلام – وتقدم بقواته حتى وصل نابلس ، فدخلها وحاصر قلعتها فاضطر أهلها إلى الاستسلام بالأمان وتسليم القلعة ، وأقام أهل البلدة بها ، وأقرهم على أملاكهم وأموالهم[١].

وعقب هذه الفتوحات كتب صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يشرح فيها ما حققه المسلمون من انتصارات على الصليبيين وجاء في هذه الرسالة:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرًا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرًا وهون الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرًا ، وخوطب الدين بقوله: ولقد مننا عليك مرة أخرى ، فالأولى في عصر النبي ﷺ والصحابة ، والأخرى هذه التي عتق بها من ذل الكآبة ، وهو قد أصبح حرًا ريان الكبد الحرا ، والزمان كهيئته استدار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار ، فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديدًا ثوبه ، مبيضًا نصره ، ومخضرًا فصله ، متسعًا فضله ، مجتمعًا شمله.

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٢-٢٠٣ ، ابن العماد، الفتح القسى ، ص٩٥، ٩٦.

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه ، وتلك سبع ليالي وثمانية أيام حسومًا سخرها الله على الكفار ، فترك القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية : فيوم الخميس الأول فتحت طبرية ، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي مالهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة ، وفي يوم الخميس الثاني سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت أعلام الإيمان وهي أم البلاد ،وأخت إرم ذات العماد ، وقد أصدر هذه المطالعة ، وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الإسلام ، قد صار حديدًا مسلمًا يعوق خطوات الكفر عن الإقدام وأنصار الصليب وكباره ، وكل من العمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة وغلق رهنه ، فلا يقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها ، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف الخطباء – المنابرة – ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر ، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفًا . وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطعتهم سيوف نار الجحيم ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم وقتل الابرنس كافر الكفار ونشيدة الغار من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم[١] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٣-٢٠٥ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص١٣٥.

فتح مدينة يافا وتبنين وصرفند وصيدا :

وسار الملك العادل ببعض القوات المصرية إلى مدينة يافا وحاصرها واستولى عليها[١].

كما أرسل صلاح الدين جماعة من العساكر بقيادة المظفر تقي الدين عمر إلى تبنين ، فحاصرها ، ولكنه لم يستطع دخولها لحصانتها ومنعتها فكتب إلى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى أمرها بنفسه فسار إليه في ٨/ ٥/ ٥٨٣هـ/ يوليو ١١٨٧م ، حيث فرض عليها الحصار ، وضيق عليها الخناق ، حتى ضاق الأمر على المتحصنين بها ، فأرسلوا يطلبون الأمان والتسليم ، فلما آمنهم صلاح الدين على أنفسهم سلموها له ، ووفى لهم وسيرهم إلى مأمنهم، واستولى على القلعة في ٢٩ يوليو سنة ١١٨٧م ، ثم توجه صلاح الدين إلى صرفند ، حيث فتحها بغير قتال ثم واصل تقدمه إلى صيدا ، وكان من بها من الصليبيين قد أرهبهم نبأ انتصار المسلمين في المواقع المتقدمة ، فلما علم حاكمها سير صلاح الدين إليهم سار عنها وتركها فارغة في غير ممانع أو مدافع ، وجاءت رسلها بمفاتيحها إلى صلاح الدين حيث تسلمها والمسلمون في الحادي والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ / يوليو ١١٨٧م[٢].

فتح بيروت وجبيل :

وبعد ذلك جاء الدور على بيروت التي ظهر صلاح الدين أمامها أواخر شهر يوليو ١١٨٧م ، وكانت بيروت من أحصن مدن الساحل في بلاد الشام ، فضلاً

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤١، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤١-٥٤٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٥-٢٠٦ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨٠ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٩٩-١٠٣ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤١ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص١٣٧.

عن حسنها وجمالها ، فتحصن الصليبيون وراء أسوارها المنيعة ، وحاولوا الدفاع عنها وعن أنفسهم ولكنهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف ، ولم تكن معهم قوة من الفرسان تجيد شئون الحرب فاستسلموا لصلاح الدين في السادس من أغسطس سنة ١١٨٧م/ ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ ، بعد حصار دام ثمانية أيام(١).

ثم انتقل صلاح الدين بعد ذلك نحو جبيل التي كان صاحبها هيو الثالث ، وكان قد أسر في طبرية وعرض على صلاح الدين استعداده لتسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه ، وفعلاً استحضره صلاح الدين من دمشق في قيده حيث أمر الحامية بالتسليم فاستولى عليها صلاح الدين(٢).

ثم قصد صلاح الدين مدينة صور ، وهي من أشد وأقوى بلاد الساحل وأشدها حصانة ، وكان ريموند الثالث أمير طرابلس قد أقام بمدينة صور بعد فراره من حطين ، ولكن مع اقتراب صلاح الدين من صور واستيلائه على تبنين وصيدا وبيروت ، خاف على نفسه وخشى أن صلاح الدين يقصده في صور ففر منها ، وتركها وولى هاربًا إلى طرابلس ، ولكن صلاح الدين لم يقصدها مباشرة وتأنى في الوصول إليها ، كما إنه كان كلما أطلق سراح الصليبيين تركهم يتجهون نحو صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المتخلفة من بيت المقدس " اجتمع فيها كل إفرنجي بقى في الساحل "(٣) ، وحدث ذلك في الوقت أن وصل إلى المدينة من الغرب الأوربي الأمير كونراد مونتفرات حاملاً

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤٢ -٥٤٣، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٦-٢٠٧، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨٠ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٧ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ٩٥ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص١٠٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ٢/ ٦٤١.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨١ ، سعد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤١.

معه الأموال الكثيرة ، فبذلها في تحصين المدينة ورفع الروح المعنوية لدى الناس، فقوي عزم المدينة ، وشرع الناس في الدفاع عن المدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى الغرب يستعجل الإمدادات والنجدات ، فأدرك صلاح الدين صعوبة الاستيلاء على مدينة صور ، ورأى استغلال الوقت في فتح غيرها من المدن والحصون الصليبية [(١)].

فتح عسقلان وما يجاورها سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م :

وقبل أن يتوجه صلاح الدين إلى بيت المقدس ، اختار أن يستولى أولاً على عسقلان ، ذلك المركز الهام الذي طالما اتخذه الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية ، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى ، لأن صلاح الدين كان يرى أنه إذا أخذ عسقلان آمنت الطريق واتصلت القوافل [(٢)] واجتمع صلاح الدين بأخيه الملك العادل ومن معه من العساكر المصرية وساروا إلى عسقلان وفرض الحصار على المدينة في سادس عشر جمادي الآخرة ، وعندما وجد صلاح الدين أن عسقلان ربما أتعبته بسبب قوة تحصينها وإصرار حاميتها على المقاومة ، استحضر الملك جاي لوزجنان وجيرار دي مونتفرات مقدم الداوية من دمشق ووعدهما بتحريرهما إذا ساعداه بنفوذهما الأدبي والمعنوي على حمل البقايا الصليبية في فلسطين على الاستسلام ، ولكن حامية عسقلان رفضت الاستجابة للملك وردوا ردًا قبيحًا ، وفي تلك الأثناء استولى صلاح الدين على مواقع عديدة كالرملة وبينا والداروم. كذلك قبل مقدم الداوية أن يسلم صلاح الدين غزة والنطرون وبيت جبريل ، وهي القلاع التي كانت بأيدي الداوية في فلسطين ، أما أهل عسقلان الذين رفضوا الاستجابة لطلب الملك ومقدم الداوية ، لما ازدادت خسائرهم ، ورأوا أنهم يزدادون يومًا بعد يوم

---

(١)ابن الأثير ، الكامل ، ١/ ٥٤٣ – ٥٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/٢٠٨-٢٠٩ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص١٠٩-١١١ ، المقريزي ، السلوك ، ١-٩٥.

(٢)ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/٢٠٩.

ضعفا ووهنًا ، وإذا قتل منهم رجل لا يجدون عنه عوض ، وليس لهم نجدة ينتظرونها ، ولا نية لصلاح الدين في التراجع عنهم ، أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والجلاء عن المدينة بعد حصار دام أربعة عشر يومًا . وتم تسليم مدينة عسقلان في آخر جمادي الآخرة سنة ٥٨٣هـ / أوائل سبتمبر ١١٨٧ (١).

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرارد مقدم الداوية مقابل ما أداه عن معونة له ، لاسيما في حثه حامية غزة على الاستسلام ، أما جاي لوزجنان الذي لم يستطع أن يحقق العمل الذي وعد صلاح الدين به ، فقد أرسله إلى نابلس ، وفي الوقت نفسه وافق صلاح الدين على إرسال رسالة إلى الأميرة سيبل زوجة جاي لوزجنان في بيت المقدس لدعوتها للحضور إلى نابلس للإقامة مع زوجها، وحدث أن رحبت سيبل بتلك الدعوة وأسرعت إلى نابلس لتقيم مع زوجها الأمير جاي لوزجنان (٢).

نتائج معركة حطين :

- تساقط المدن والقلاع الصليبية :

كانت حطين معركة فاصلة وحاسمة ، فقد غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة ففي أعقابها اتجه صلاح الدين إلى فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ، ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حبيس ، حيث تساقطت في أيديهم مدن عكا ويافا وصيدا وبيروت ، وجبيل وعسقلان وغيرها ، ومن يطالع نصوص المصادر التاريخية لذلك العصر تتملكه الدهشة من موجة سقوط المدن الصليبية بصورة غير

(١)المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥-٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٩-٢١٠ ، ابن الأثير، الكامل ، ١١/ ٥٤٥-٥٤٦ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٨٠ ، ابن العماد ، الفتح القسي ، ١١٢-١١٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٥.

(٢)أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٨٧-٨٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٣.

مسبوقة عكست التفوق العسكري الساحق للمسلمين ضد أعدائهم ، كما تهاوت القلاع الصليبية التي طالما أغارت على مناطق المسلمين وأحالت حياتهم أحيانًا كثيرة إلى جحيم ، ومن أمثلة القلاع التي تهاوت أمام فعاليات الجيش الأيوبي نذكر طبرية ، صفر ، هوينن ، تبنين ، بغراس ، دربساك ، حجر شغلن، القصير ، وغيرها كثير ، ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي[١] .

- بداية النهاية للوجود الصليبي في الشام :

كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية ، حلت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرًا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حملة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى ، كما شكلت حدًا تراجع عنده المد الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي ، وبداية النهاية للوجود الصليبي، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشرذم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى ، لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر ، في مواجهة كل الأخطار. لقد أسست حطين بداية جديدة لموازين القوى ، وأكد أن قوى الفرنج يمكن أن تقهر ، وقد كشفت الدراسات التاريخية الحديثة التي بحثت تفاصيل تلك المرحلة أن معركة حطين انتهت بانتصار صلاح الدين ، لكنها لم تقتلع نهائيًا وجود الفرنج، فهي استراتيجيًا معركة فاصلة بين حدين ، أي أنها ختمت مرحلة التراجع والهزائم وأسست مرحلة الانتصارات والتقدم وشقت الطريق الطويل والصعب الذي شهد الكثير من الصمود والهبوط والهجوم والهجوم المضاد ، إلى أن تم خلخلة مواقع الفرنج وتفكيك ممالكهم وطردهم من المنطقة[٢] .

---

(١) محمد مؤنس ، الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢١٩، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص ٤٨٣.

(٢) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٥٣.

- **عودة الثقة والكرامة للمسلمين :**

كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين ، كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس ، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود ، وقد كان لهذا النصر صدى بالغ في نفوس المسلمين بعامة وأهالي دمشق بخاصة لأن دمشق كانت آنذاك مركز أعماله ومقره ، وفيها قضاته وكتابه ، الذين كانوا طوال أوقات المعركة ساجدين لله ، وقائمين يدعون له بالنصر على أعدائه ، ولما علموا بالنصر عبروا عن فرحتهم بالدموع والكلمات المؤثرة التي تضمنت عبارات الشكر والحمد لله(١) .

- **حطين فتحت طريق بيت المقدس :**

كانت حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس ، وباقي فلسطين ، وقد وصف ابن واصل هذه المعركة بقوله : "كانت وقعة حطين مفتاح الفتوح الإسلامية وبها تيسر فتح بيت المقدس"(٢) . وعدها حلقة وسط بين فتوحات نور الدين محمود وركن الدين بيبرس البندقداري، منذ مجيء ملوك الفرنج إلى البلاد الساحلية ، واستيلائهم عليها ، ولم يقع للمسلمين معهم كيوم حطين ، فرحم الله الملك الناصر ، وقدس روحه، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة رضي الله عنهم ، برجل مثله ومثل نور الدين محمود بن زنكي ، رحمة الله عليهم ، فهما جددا الإسلام بعد دروسه ، وشيدا بنيان التوحيد بعد طموسه، ثم أيد الله الإسلام بعدهما بالملك المظفر ركن الدين بيبرس ، وكان أمره أعجب ، إذ جاء بعد أن استولى التتار على معظم البلاد الإسلامية ، وآيس الناس أن لا انتعاش للملك فبدد شمل التتار ، وحفظ البلاد

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٥٤ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٨٨.

الإسلامية ، وملك من الفرنج أكثر الحصون الساحلية[١].

- **أهمية الوعي الجغرافي :**

أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي ، واستثمار مميزاته ، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية ، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى ، كما تجلت أهمية فلسطين وأرضها ، التي تعد بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر[٢].

- **ارتفاع قدر صلاح الدين :**

غدا لاسم صلاح الدين بعد الانتصار في حطين ، من الرهبة في قلوب الصليبيين الممزوجة بالإعجاب والإجلال ، نظرًا لما اتصفت به فتوحاته من النبل والشهامة والمروءة ، كما كان لتسامحه معهم ، وحسن معاملته لأسراهم ، أثر كبير في استسلام العديد من المدن والحصون دون مقاومة تذكر . والواقع أنه أظهر الرحمة وأخلاق الفرسان في تعامله مع الصليبيين ، وبفضل هذه السجايا مارست جيوشه ضبط النفس عند النصر ، وتجنب ارتكاب الأعمال الوحشية الشائعة في ذلك الوقت، مما جعل الغرب الأوربي وبخاصة فرنسا يقف موقف الإعجاب والمدح لصلاح الدين، حتى تحول في المؤلفات الأدبية الأوربية إلى ما يشبه الأسطورة التي خرجت عن إطارها التاريخي الواقعي الموضوعي[٣] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ١٩٣.

(٢) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٥٤.

(٣) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٥٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٦.

- **ضياع هيبة مملكة وملك بيت المقدس:**

وقد أضاعت خسارة الصليبيين في حطين هيبة مملكة بيت المقدس ، وبخاصة بعد أن أسر ملكها جاي لوزجنان ، ونتج عن المعركة نقص ملموس في الفرسان المحاربين ، بعد أن سقط معظم الفرسان الصليبيين وغالبية جيش بيت المقدس بين قتلى وأسرى ، فمن شهد القتلى قال ما هنالك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل[١] .

- **حطين تتويج لجهود صلاح الدين:**

لما تأت انتصارات صلاح الدين من فراغ ، ولم تكن النتائج العسكرية التي حققها من دون مقدمات سياسية وتنظيمية وإدارية وإصلاحية وإحيائية امتدت لأكثر من قرن إلى أن بدأ قطف ثمارها في عهدي عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، والأخير يعتبر المؤسس الحقيقي للتحولات الكبرى التي شهدتها بلاد الشام ثم مصر ، فقد عرف نور الدين محمود بانتصاراته العسكرية وأعماله الإصلاحية الإحيائية وإنجازاته الشرعية ، فقد اشتهر ببناء المدارس ومعاهد التربية والتعليم ، واهتم بالقضاء وبتشييد المساجد والحصون ونشر العلم في حلب ودمشق ومختلف مدن الشام ، وفي عهده استعاد القضاء دوره الشرعي والتاريخي وبنى داراً للعدل وشجع العلماء والفقهاء على لعب دورهم في الإعداد النفسي للقوات وتبليغ الرسالة ، وتعليم أصول اللغة والفقه والحديث لقادة جيشه ، وفي هذه الأجواء العلمية تلقى صلاح الدين دروسه وتربيته الدينية، فتعلم على يد المحدث أحمد بن محمد الأصبهاني ، والواعظ على بين إبراهيم بن نجا ونجم الدين الخبوشاني ، وهؤلاء جزء من الفقهاء والعلماء الذين أشرفوا على تربية الجيل الثالث من القيادات السياسية والعسكرية الذي كان له شرف إنزال الهزائم بقوات الفرنجة بعد مائة سنة من المواجهات المتقطعة،

---

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١١٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٦.

فصلاح الدين لم يصنع نفسه ، بل وفقه الله تعالى ، ثم هو نتاج تاريخي وموضوعي لسياق من التقدم بدأ مع بدء الحركة الإصلاحية الدينية ، التي تزعمها نظام الملك في عهد السلاجقة والتي كان من رموزها الإمام الجويني وأبو إسحاق الشيرازي والغزالي وغيرهم ، ولقد أتت تلك الجهود ثمارها والتي كان من أهمها معركة حطين وفتح بيت المقدس على يدي صلاح الدين[١] .

(١) وليد نويهض ، صلاح الدين وسقوط القدس وتحريرها ، ص ٧٨-٧٩ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٦.

الفصل الثامن

تحرير بيت المقدس ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م

تحرير بيت المقدس ٥٨٣هـ/١١٨٧م :

بعد سقوط معظم المدن والمعاقل الصليبية بالساحل في يد صلاح الدين ، اطمأن صلاح الدين إلى أن الصليبيين لم يعد في إمكانهم إنقاذ بيت المقدس إذا قام هو بالهجوم عليه ، لاسيما وأن صلاح الدين قد أسر من الصليبيين في المعارك السابقة حوالي مائة ألف أسير ، وأنقذ من المسلمين المأسورين عند الصليبيين ما يزيد على عشرين ألف نفس[(١)] ، هذا بالإضافة إلى عشرات الآلاف من القتلى ، ومع ذلك أرسل صلاح الدين إلى مصر يطلب حضور الأسطول إلى سواحل بلاد الشام ، فحضر الأسطول بقيادة حسام الدين لؤلؤ الحاجب، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا له مركبًا غنموه[(٢)] .

وبعد أن أتم صلاح الدين استعداداته الحربية بسيطرته على الشريط الساحلي وعزل بيت المقدس ، ومنع وصول الإمدادات إليه وقطع كل أمل الصليبيين سواء في الغرب الأوربي أو في بلاد الشام في الوصول إلى بيت المقدس ، وإنقاذه من جيوش المسلمين ، ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد المحيطة ببيت المقدس ، وضمن بذلك إحكام العزلة على مملكة بيت المقدس ، شمر صلاح الدين عن ساعد الجد والاجتهاد وعزم على قصد بيت المقدس ، فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الإسلامية التي كانت متفرقة في الساحل[(٣)] .

وكانت الحشود الإسلامية العسكرية قد شاركت صلاح الدين في معركة حطين ، واستغل صلاح الدين تواجدها في الشام قبل عودتها إلى بلادها في السيطرة على مدن وموانئ بيت الساحل ، وحرص صلاح الدين على أن يسبق

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٠٧.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤٦ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٤٢.

(٣) الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٨.

مسيره إلى بيت المقدس حملة إعلامية إلى كافة أطراف العالم الإسلامي بقصد استنفار المسلمين للجهاد ، الأمر الذي ثارت معه عزائم المسلمين بالعزم على الجهاد والاشتراك في تطهير تلك البقعة المقدسة أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومسرى محمد ﷺ ، وكثير من المسلمين لما بلغهم ما من الله به على صلاح الدين من فتوح الساحل الشامي ، ومن ثم قصده المسير إلى بيت المقدس ، حتى توافدوا عليه من كل مكان يتقدمهم العلماء والفقهاء ، الذين قدموا للتطوع في الجهاد لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام(١) .

ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته في الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية ، واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده ، ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب أثناء تقدمه إلى بيت المقدس ، لذلك أمر الأساطيل المنصورة بالمسير للمشاركة في الجهاد ، فسارت إليه من مصر يتقدمهم الحاجب لؤلؤ ، وأخذت تجوب البحر ، وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم ، في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات تصل من مصر والشام برًا وبحرًا بكل سهولة ، وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت المقدس قد أخذت قسطًا وافرًا من التحصين ، لما تتمتع به من مكانة عظيمة في نفوس الصليبيين حرص على إحضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الأبراج العالية ، فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والتعاطات والقطاعات وعدد النقب ، وغيرها من الأدوات اللازمة لدك الأسوار ونقبها ثم حشو تلك النقوب بالحطب والنفط وإشعال النيران فيها ، لفتح ثغرات في

---

(١) عبد الله سعيد محمد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢٠٩-٢١٠ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٩.

الأسوار يمكن من خلالها اقتحام الأسوار ودخول المدينة[1].

وبعد أن أتم صلاح الدين استعداداته لتحرير بيت المقدس عرض أولاً على المدينة التسليم بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن الصليبية أي : يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالمًا ، ولكن رفض أهل المدينة وكان يحمل لواء المعارضة والمقاومة باليان الثاني دي ايلين ، وكان من الأمراء القلائل الذين نجو من حطين، وقد تزوج الملكة ماريا كومنين أرملة عموري الأول ، وقد سمح له صلاح الدين بالذهاب إلى بيت المقدس ، بشرط عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده ، وعندما وصل باليان إلى بيت المقدس وجد المدينة في حالة يرثى لها ، لعدم وجود فرسان يدافعون عنها ، إذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان ، فضلاً عن انهيار الروح المعنوية للأهالي عقب ما سمعوه من أنباء كارثة حطين وأسر ملكهم ، وقد خرج الصليبيون برؤية باليان وتوسلوا إليه بالدموع ليبقى معهم ويدافع عنهم ، فنسى وعده لصلاح الدين وأخذ يعمل في سرعة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام الصليبي ، ذلك أنه جمع من استطاع جمعهم من الفرسان وأبناء الفرسان فوق سن الخامسة عشر ، فضلاً عن الصناع والتجار والصالحين للقتال، ثم لجأ بالاتفاق مع البطرق إلى الاستيلاء على ما بكنيسة القيامة من نفائس معدنية وأوان فضية لصهرها وضربها نقودًا يستعين بها على قضاء حاجات الدفاع واستئجار الجند[2].

وعادت الروح إلى الناس في بيت المقدس بوجود باليان بينهم وتحمسه للدفاع عنهم ، وظنوا أنه بمقدورهم الصمود بوجه صلاح الدين ورفضوا عرض الأمان الذي عرضه عليهم صلاح الدين ورأوا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك

---

(١) عبد الله سعيد محمد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢١٠ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٨٩.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/٦٣٨.

المسلمون بيت المقدس[(١)].

ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من الصليبيين بشروط طيبة وذلك رغبة منه في عدم استخدام القوة والعنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وتصرف معهم تصرف كريم، إذ سمح بخروج الملكة ماريا كومنين – أرملة عموري الأول وزوجة بالين – وأمر بحراستها من بيت المقدس إلى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين ، ولكنهم أصروا على رفض الأمان الذي أعطاه لهم صلاح الدين ، على أن الذي كان يقوي عزيمتهم على المقاومة أنهم كانوا ممتنين وآمنين لأنهم كانوا تحت رحمة عدو مثل صلاح الدين يتصف بالإنسانية والرحمة ويتمسك بوعوده.

لم يجد صلاح الدين بد من تشديد الحصار على بيت المقدس وأخذ يعمل على تحين الزمان والمكان المناسب ، الذي يدخل منه المدينة ، فأخذ يطوف حول المدينة خمسة أيام يتحسس مواطن الضعف في أسوارها حتى استقر الرأي أخيرًا أن يركز هجومه على الجهة الشمالية ، وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م بدأ صلاح الدين بالهجوم عند باب عمود أو كنيسة صهيون – في الجانب الشمالي من بيت المقدس – حيث حمل المسلمون حملة رجل واحد حتى وصلوا إلى سور المدينة ونقبوه[(٢)].

وفي الوقت الذي اشتد هجوم صلاح الدين على بيت المقدس ، اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك ، حتى أن الفريق الأول نادى بأنه يفضل الحكم الإسلامي على سيطرة الكاثوليك

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٤.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٩٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٥.

الغربيين ، وتشير بعض المصادر إلى تآمر الأرثوذكس في بيت المقدس مع صلاح الدين ، وإلى أن ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين تعهد فيها الأرثوذكس بفتح أبواب المدينة [(١)].

ولم تلبث قوى الصليبيين المحاصرين في بيت المقدس أن خارت ولم يستطيعوا المقاومة ، فأرسل باليان دي إيلين في طلب الصلح مع صلاح الدين على نفس الشروط التي عرضها صلاح الدين ، فقبل صلاح الدين بعد تردد منه وتدخل من قواده وخاصته ومشورتهم عليه بقبول الصلح ، مقابل دفع فدية قدرها عشرة دنانير عن كل رجل ، وكل امرأة خمسة دنانير ، وفدية الطفل بدينارين ، أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغًا إجماليًا قدره ثلاثون ألف دينار ، واشترط صلاح الدين أن يؤدى الصليبيون الفداء المفروض عليها في مدى أربعين يومًا ، ومن انقضت الأربعون يومًا ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكًا [(٢)].

وقد أظهر صلاح الدين تسامحًا كبيرًا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية ، ولم يختلف المؤرخون على شهامة صلاح الدين وكرمه وتسامحه مع الصليبين عندما عامل الفقراء الصليبيين ، وعندما عامل نساء الصليبيين معاملة حسنة بأن سمح لهم بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن ، وكانت زوجة الملك جاي لوزجنان الأسير موجودة في بيت المقدس فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمرافقة زوجها في الأسر في نابلس ، فأذن لها ، كذلك طلبت الأميرة اتينت أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج ، كما طلبت إطلاق سراح ابنها من زوجها الأول أونفروي ،

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٥.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٤٧ – ٥٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٢ -٢١٤ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ١٢٦-١٢٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٤.

فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر " وهي بنوابها محوطة وبرأيها منوطة " ، ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك في نوفمبر ١١٨٨م ، والشوبك في يونيو ١١٨٩م ، أما اليتامي والشيوخ والأرامل من الصليبيين فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم بدون فداء ، بل منحهم أيضًا مساعدات مالية من ماله الخاص ، وهكذا بدا الفارق عظيمًا في سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧م وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩م[١].

وقد احترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين ، فعندما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة ، وإزالة آثارها وقالوا له: إذا هدمت بنايتها ، وألحقت بأسافلها أعاليها ونبشت المقبرة وعيضت ، وأخمدت نيرانها وأطفيت ومحيت رسومها ونفيت ، انقطعت عنها إمدادات الزوار ، وانحسمت عن قصدها مواد أطماع أهل النار ، ومهما استمرت العمارة ، استمرت الزيارة . بينما أشار عليه البعض بأنه لما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان، فأعرض صلاح الدين عن هدم البنيان[٢].

ومن الأمور التي أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطرق بيت المقدس يدفع لنفسه العشرة دنانير ويغادر المدينة حاملاً معه ما استطاع حمله من الذهب والفضة ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة دون أن يأبى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم[٣] ويبدو أن سبب ذلك هو انعدام الروابط الإيمانية والأسرية وغيرها من الروابط بين الصليبيين في ذلك الوقت ، فالأسرى كانوا

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٩٥ -٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥٠-٥٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٥-٢١٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٤٨.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١١٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٣١.

(٣) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢١٦.

خليطا من أجناس وشعوب أوروبية متباينة ، وأجناد غرباء مأجورين من الذين رغبوا في السفر إلى الشرق تخلصًا من رق الأرض السائد وقتذاك في المجتمع الأوربي[١].

والخلاصة أن ذلك الموقف المخزي من كبار الصليبيين ، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الإنجليزي لين بول على إبداء إعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك : "إنها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح"[٢].

وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلاف المدنيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى في يد صلاح الدين ، فطلب الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين أن يهب له ألفًا من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله ، وأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحرك ذلك العمل الإنساني الذي قام به الملك العادل مشاعر البطريرك وباليان فتقدما إلى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك ، فأعطاهما صلاح الدين ما أرادا وأطلق سراحهما ، ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة في شوارع بيت المقدس ، بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من الصليبيين لكبر سنه وأن على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفي للمدينة ويسمح لها بالخروج من طلوع الشمس إلى الليل ، وما أن صدر ذلك الإعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى[٣] وطلب أمير البيرة إطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمني ، ذكر لصلاح الدين أنهم من بلده ، وأن قدومهم إلى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك ، كما طلب أيضًا الأمير مظفر الدين علي كوجك إطلاق سراح زهاء ألف أرمني ادعى أنهم

(١) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٩٣.

(٢) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢١٦.

(٣) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢١٧.

من الرها ، فأجابهم إلى ذلك وأطلق سراحهم[١] .

ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما قام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل ، وكبار الأمراء المسلمين ، بل تعدى ذلك إلى عامة المسلمين ، والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من التسامح وكرم الأخلاق تجاه أسرى الصليبيين في بيت المقدس الشيء الكثير . وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين ما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين ، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين ، فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين ، فسأل عن حالهن وما يطلبن ، فقيل له أنهن يطلبن الرحمة ، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتعرف عليه وأطلق سراحه وسمح لهم بالذهاب حيثما يريدون ، أما النساء والبنات اللاتي مات أزواجهن وآباؤهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن وأعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له[٢] .

ومن المفارقات الغريبة التي وقعت من الصليبيين تجاه بعضهم البعض، أنه بعد أن تسلم صلاح الدين من الصليبيين في بيت المقدس الفدية المتفق عليها ، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلى الممتلكات الصليبية في صور وطرابلس ، ولذلك جمعهم خارج المدينة تحت حراسة مشددة وقسمهم إلى ثلاث مجموعات : مجموعة قادها الداوية ، ومجموعة قادها الإسبتارية ، والمجموعة الثالثة باليان نفسه، ثم أرسلهم مخفورين خوفًا عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات الأعراب في الطريق . على أن الخطر الذي هدد أولئك الصليبيين النازحين من بيت المقدس لم يأت من جانب المسلمين ، إنما أتى من جانب الصليبيين أنفسهم ، إذ لم يكادوا يرحلون حدود إمارة طرابلس الصليبية حتى انقض عليهم أولئك

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٩٤.

(٢) عبد الله سعيد ، صلاح الدين الأيوبي والصليبيون ، ص٢١٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٩٤.

المشردون شمالاً صوب مدينة طرابلس ذاتها ، ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من تلك الجموع الخاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب مدينتهم في وجوههم ، ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم في محنتهم ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقى مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين ، وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس الصليبية من إخوانهم الصليبيين جزء من المعاملة الرحيمة التي لقوها من صلاح الدين ، فذهب بعضهم إلى أنطاكية حيث وجدوا مقرًا ومقامًا إلى حين[(١)].

وقد تضرع بعض النصارى إلى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم ، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحدًا ، وأن يقوموا بالخدمة في المدينة ، فوافق صلاح الدين على ذلك ، واشترط عليهم شروطًا قابلوها بالالتزام والقبول ، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعوملوا معاملة أهل الذمة ، فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[(٢)].

وهكذا أبدى المسلمون الرحمة نحو المدينة التي سقطت في أيديهم ، وإذا استعاد الإنسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة ١٠٩٩م عندما نشر جود فري ونانكرد الموت في الشوارع ، وعندما أغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا وألقوا في بحار من الدماء ، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ، فضلاً عما قاموا به من نهب وسلب وسبي[(٣)] ، فإنه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين ، إذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الإسلامية السمحاء وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/٦٤٨.

(٢) ابن العماد ، الفتح القسى ، ص١٣٦.

(٣) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٤٩٦.

يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان[١].

يقول جيمس رستون : "وهكذا سلك جنود صلاح الدين سلوكًا مثاليًا في دخولهم للقدس سنة ١١٨٧م ، وقد نظر صلاح الدين لنفسه وسمعته بعد الانتقام لما فعله الصليبيون في الحرب الأولى سنة١٠٩٩م ، وبسبب حمايته لكنيسة القيامة وأماكن مسيحية أخرى كثيرة ، سيتذكر الجميع تسامحه تجاه أهل الأديان الأخرى ، وتجاه الأماكن المقدسة للدين المسيحي ، يبدو أن أفعاله اعتبرت علمًا ونموذجًا على كيفية سلوك المسلك الصالح ، فبسبب عفوه ووجوه الخير المتعددة في طبيعته وسلوكه تجاه أعدائه ، سيظل مشهورًا إلى الأبد باللطف والتسامح والحكمة"[٢].

يقول ستيفن رانيسمان : " الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية ، فبينما كان الفرنج ، ومنذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم ، ولم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، ومن المناظر التي تدعو للحزن والأسى ، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق ألف أسير على سبيل المكافأة على خدماته له ، فوهبهم له صلاح الدين ، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وإذ ابتهج البطريق هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير ، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء لكي يعتقهم ، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير ، كما جعل صلاح الدين لباالين خمسمائة أسير ، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز ، ولما أقبل نساء الفرنج

(١) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢١٩.

(٢) جيمس رستون الابن ، مقاتلون في سبيل الله ، ترجمة رضوان السيد ، ص١٣٧، الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٤٩٦.

اللاتي افتدين أنفسهن ، وقد امتلأت عيونهن بالدموع ، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن وآباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، أجاب بأنه وعد بإطلاق كل من في الأسر من أزواجهن ، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته ، والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض من أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى(١) .

وقال جروسيه : " بعكس الصليبيين نفذ صلاح الدين وعوده بشرف وبشعور إنساني ، وبروح فروسية ، مما أثار إعجاب المؤرخين الذين سردوا أحداث تلك الفترة" ... ويستطرد جروسيه : "طلب بعض المتعصبين من صلاح الدين هدم معابد المسيحيين وتدمير كنيسة القيامة بهدف إلغاء حج المسيحيين" المؤمنين بالثالوث المقدس" فصدهم عن ذلك بكلمة منه ، قال: لماذا الهدم والتدمير ، طالما أن هدف عبادتهم هو مكان الصليب والقبر المقدس ، وليس البناء الخارجي ؟ وحتى لو سويت الأبنية بالأرض ، فإن مختلف الطوائف المسيحية لن تتخلى عن السعي للوصول إلى هذا المكان لنفعل إذن ، كما فعل الخليفة عمر الذي احتفظ بهذه الأبنية عندما فتح القدس في السنوات الأولى للإسلام" . ويعلق جروسيه على ذلك القول : "إن كل ما يتحلى به هذا السلطان العظيم من حرية الرأي والمعتقد يبرز في هذه العبارة الجميلة(٢) .. وصدق الشاعر الحيص بيص شهاب الدين أبو الفوارس المتوفي سنة ٥٧٤هـ عندما قال :

ملكنا فكان العفو منا سجية — فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما — عدونا على الأسرى نمن ونصفح

---

(١) د/ ياسين سويد ، حروب القدس في التاريخ الإسلامي ، ص ١٠٨ ، الصلابي ، صلاح الدين، ص٤٩٧.

(٢) ياسين سويد ، حروب القدس في التاريخ الإسلامي، ص١٠٨.

وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل وعاء بالذي فيه ينضح[١]

لقد بهر صلاح الدين بأخلاقه ملوك الغرب وقوادهم ، حيث كانوا يقودون جحافل جيوشهم في الشام حتى أن الفرنسيين ، كانوا يقولون : إن دماءه دماء فرنسية ، والألمان والإنجليز ، والإيطاليون ، كلهم ينسجون قصصًا رائعة عن أخلاق صلاح الدين ويتحدثون عنها في قراهم ومدنهم ومسرحياتهم[٢] .

لقد كان صلاح الدين فعلاً رجلاً إسلاميًا بمعنى الكلمة مقتديًا بالرسول محمد ﷺ في عفوه وحلمه وسماحته ، ولقد قال عنه أحد المؤرخين الأوربيين: سيظل في الذاكرة أن الزمان الدموي والقاسي مثل ذاك الزمان لم يتمكن من إفساد إنسان ذي سلطة عظيمة ، إنه صلاح الدين[٣] وأكبر دليل على تقدير الإفرنج لهذه البطولة النادرة والسماحة السمحة اهتمام إمبراطور ألمانيا بزيارة قبر صلاح الدين عندما زار بلاد الشام سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٩م ، وكانت معه الإمبراطورة ، وقد خطب خطبة أشاد فيها لصلاح الدين ، وأرسلت الإمبراطورة إكليلاً من الزهر ليوضع على ضريح البطل العظيم. ولم ينس أمير الشعراء – أحمد شوقي – أن يسجل هذه الذكرى وقال :

عظيم الناس من يبكي العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظامًا
فهل من مبلغ غليوم عني ... مقالاً مرضيًا ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام ... تعهد في الثرى ملكًا هُمامًا
أرى النسيان أظمأه فلما ... وقفت بقبره كنت الغماما
أتدري أي سلطان تحي ... وأي ملك تهدي السلاما

---

(١) ياسين سويد ، حروب القدس في التاريخ الإسلامي ، ص١٠٨.

(٢) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ٦/ ٤١٠.

(٣) منير عدور ، الوجيز في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ، ص٦١ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٤٩٨.

دعوت أجلّ أهل الأرض حربا وأشـرفهم إذا سـكنوا سـلاما[1]

وذكر ابن شداد : " أن تسلم القدس كان يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة الإسراء والمعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب ، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم - ﷺ - إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله - تعالىٰ - وكان فتوحًا عظيمًا شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الخرق والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر والشام ، بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي كان في قبة الصخرة ، وكان شكلاً عظيمًا ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .. وفرج الله عمن كان أسيرًا من المسلمين ، وكانوا خلقًا عظيمًا ، زهاء ثلاثة آلاف أسير " [2].

"وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسابق جماعة منهم إلى أعلى القبة الصليب ، فلما فعلوا وسقط الصليب ، صاح الناس كلهم صوتًا واحدًا من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحًا ، وأما الفرنج فصاحوا تفجعًا وتوجعًا، فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها" [3].

---

(١) أحمد عبد الجواد ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٥١ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص ٤٩٨.

(٢) سيرة صلاح الدين ، ص٨٢.

(٣)ابن الأثير الكامل ، ١١/ ٥٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٧ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٧ ، فايد محمود عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٤٨.

وكان الصليبيون قد حاولوا تغيير المظهر الإسلامي لمدينة القدس ، فإن الداوية من الصليبيين قد بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك ، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول ، وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس وإعادة الأبنية إلى حالها القديم ، ولما كان الجمعة الأخرى رابع من شعبان سنة ٥٨٣هـ / أكتوبر ١١٨٧م صلى المسلمون في المسجد الأقصى ومعهم السلطان صلاح الدين ، وصلى في قبة الصخرة ، وكان الخطيب الإمام محي الدين بن الزكي قاضي دمشق – ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبًا وإمامًا يرسم الصلوات الخمس – وأمر أن يعمل له منبره ، فقيل له : أن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبرًا وأمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه وقال : هذا قد عملناه لينصب في بيت المقدس ، فعمله النجارون في عدة سنين ، لم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره ، فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده – رحمه الله –[١].

ثم قام صلاح الدين بإعادة إعمار المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه ، وتدقيق نقوشه ، فشرعوا في عمارته ، ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور ، وكان الصليبيون قد فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها ، فأمر بكشفها ، وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد ، ثم نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة ، فعاد إلى الإسلام غضًا طريًا ، وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس ، لم يفعلها بعد عمر

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥١-٥٥٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٢٨-٢٢٩ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٤٨.

ابن الخطاب رضي الله عنه غير صلاح الدين – رحمه الله – وكفا ذلك فخرًا وشرفًا[١].

أول جمعة أقيمت ببيت المقدس بعد فتحه :

قال ابن كثير : لما تطهر بيت المقدس ، مما كان فيه من الصلبان والنواقير ، والرهبان والقساوس ، ودخله أهل الإيمان ، نودي بالآذان وقرئ القرآن ، ووحد الرحمن ، كان أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر إلى جانب المحراب ، وبسطت البسط ، وعلقت القناديل ، وتلي التنزيل ، وجاء الحق ، وبطلت الأباطيل ، وصفت السجادات ، وكثرت السجدات ، وتنوعت العبادات ، وارتفعت الدعوات ، ونزلت البركات، وانجلت الكربات ، وأقيمت الصلوات ، وأذن المؤذنون ، وخرس القسيسون ، وزال البؤس ، وطابت النفوس ، وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس ، وعُبِدَ الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وكبره الراكع والساجد والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لرقة القلوب المدامع ، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال ، كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال ، ولم يكن عين خطيب ، فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي ، وهو في قبة الصخرة ، أن يكون القاضي محيى الدين بن الزكي اليوم خطيبًا ، فلبس الخلعة السوداء ، وخطب للناس خطبة سنية فصيحة ، بليغة ، وذكر فيها شرف البيت المقدس ، وما ورد فيه من الفضائل ، والترغيبات ، وما فيه من الدلائل . وكان أول ما قال : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام : ٤٥) .

ثم أورد تحميدات القرآن كلها ، ثم قال : "الحمد لله معز الإسلام بنصره ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢١٧ ، ٢٢٩-٢٣٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٧ ، ابن العماد ، الفتح القس ، ص ١٣٧-١٤٤.

ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومزيد النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على العباد من طله وهطله الذي أظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع الآمر بما يشاء ، فلا يراجع، الحاكم بما يريد ، فلا يدافع ، أحمده على أظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصرة أنصاره ، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد ، باطن سره ، وظاهر أجهاره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، رافع الشكر ، وداحض الشرك ، ورافض الإفك ، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السماوات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى ، ﷺ ، وعلى خليفته الصديق ، السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين وجامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان. ثم ذكر الموعظة ، وهي مشتملة على تغبيط الحاضرين بما يسره الله على أيديهم ، من فتح بيت المقدس ، الذي مَن شأنه كذا وكذا ، فذكر فضائله ومآثره ، وأنه أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، وإليه أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام ، وصلى فيه الأنبياء والرسل الكرام ، ومنه كان المعراج إلى السماوات ، ثم عاد إليه ، ثم سار منه إلى المسجد الحرام ، على البراق ، وهو أرض المحشر والمنشر ، ويوم التلاق ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، وقد أسس على التقوى من

أول يوم[1].

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مئة عام ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقه ، واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بني عليه ، وبالتقوى ، فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه.

فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها من ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومفر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحه ، عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ، ولم يزحزح عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ ﴾ (النساء : ١٧٢) ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة : ١٧) ، وهو أول القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، ولا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه.

لولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/ ٣٤٧-٣٤٨.

العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا الله تعالى بواجب شكرها فله النعمة عليكم بتخصيصكم هذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون ، ومَرَّ به عينا الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء.

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونص عليه في خطابه فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ (الإسراء : ١)؟ أليس هو البيت الذي عظمته الملوك وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله –عز وجل– الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى بأن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله ، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خُذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته "كان" و"قد" عن "سوف" و"حتى".

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرفهم فيه من أذى الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث،

فالآن يستغفر لكم أملاك السماوات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعزتها نجا ، وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدى، وجدوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من عباده.

واحذروا عباد الله – بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين أن تفترقوا كبيرًا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيمًا من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا والذي أتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

اللهم ، وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والحامي عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين[(١)].

وقد ظل المسيحيون اليعاقبة والأرثوذكس في بيت المقدس بشرط دفع الجزية، فضلاً عن الفدية المتفق عليها ، مع إعفاء غير القادرين من كل ذلك.

ولا شك أن الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس إذ أتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الأماكن المقدسة ، وقد تواتر في المصادر أن صلاح الدين قد بادر عقب فتح بيت المقدس إلى إرسال رسالة إلى إسحاق الثاني أنجليوس إمبراطور الدولة البيزنطية يخبره بما تم على يديه من الفتوح

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٣/ ٣١٩.

وليسلم إليه مائة وتسعين من رعايا الإمبراطورية البيزنطية كانوا قد وقعوا في يديه أثناء حروبه ضد الصليبيين ، فرد عليه الإمبراطور إسحاق فهنأه وطلب وضع كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية تحت إشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين تعينهم الحكومة البيزنطية، كما طلب الإمبراطور البيزنطي من صلاح الدين عقد تحالف بين الطرفين ضد الصليبيين ، ولكن جميع مطالب الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجليوس قوبلت بالرفض[١].

أما اليهود فكانوا أول من هلل لطرد الصليبيين من بيت المقدس ، وقد ذكر الشاعر اليهودي الأسباني يهودا الحرزي الذي زار بيت المقدس سنة ١٢١٦ – ١٢١٧م أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من الصهاينة اليهود إليها ، وأن صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الإقامة في المدينة ، وهكذا نجد أن الصهيونية في التاريخ لا تكتفي بالشماتة في المسيحيين ، وإنما تريد أن تحقق مكاسبها دائمًا على حساب المسلمين والمسيحيين على حد سواء[٢].

---

(١) ، (٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥٠.

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

بعد أن استقر الإسلام في القدس ، أرسل صلاح الدين البشائر إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله وإلى سائر ملوك الأطراف ، وخرج من القدس في الخامس والعشرين من شعبان سنة ٥٨٣هـ يريد مدينة صور (١) .

وكان من أثر تسامح صلاح الدين مع الصليبيين أن أمنهم على أرواحهم وأموالهم في كل الحصون والقلاع والمدن التي دخلها بالأمان ، فسار كل من في البلاد المفتوحة يقصدون مدينة صور ، فأصبحت تعج بعدد كبير من الصليبيين ، وأصبحت بهم تمثل أكبر مراكز القوى الصليبية بعد القدس وعكا وعسقلان ، لاسيما بعد أن وصل إليها كونراد دي مونفرات أحد أمراء الغرب الأوربي، ولذلك فشلت محاولات صلاح الدين الاستيلاء عليها ، ولم يجد بد من تركها وتوجيه جهوده إلى مناطق صليبية أخرى في شمال الشام ، وبالفعل رحل صلاح الدين عن صور في أواخر شهر شوال ٥٨٣هـ/ آخر ديسمبر ١١٨٧م ، وسار بعساكره نحو عكا (٢) .

وبعد أن فشل صلاح الدين في الاستيلاء على صور ، شرع في غزو ومهاجمة القلاع الصليبية الواقعة في إقليم الجليل ، وتمكن في أواخر ديسمبر سنة ١١٨٧م من الاستيلاء على قلعة هونين ، وهي من أحصن القلاع وأمنعها ، وكانت قد استعصت عليه قبل ذلك ، إلا أن صلاح الدين أرسل إليها فرقة عسكرية شددت عليها الحصار حتى استسلمت (٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٧ ، ابن العماد ، الفتح القسى، ص١٤٧-١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٣٨-٢٤٠.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥٦-٥٥٧ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٧ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص١٦٨-١٦٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٤٥-٢٤٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١١/ ٥٥٦-٥٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٤٥-٢٤٦ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص١٦٨-١٦٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٧.

وفي نفس الوقت اتجهت فرقة أخرى من الجيش الأيوبي لمهاجمة صفد – إلى الشمال الغربي من طبرية – وكانت تابعة للداوية، وحصن كوكب – إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية – وكانت تابعة للإستبارية ، وكانت هاتين القلعتين محصنتين تحصينًا شديدًا فصمدتا في وجه محاولات صلاح الدين ، ولم يستطع صلاح الدين من الاستيلاء عليهما إلا بعد جهد جهيد استمر قرابة العام، فاستسلمت صفد في أواخر العام ١١٨٨م وكوكب في أواخر العام ١١٨٩م[١].

صلاح الدين والصراع مع إماراتي طرابلس وأنطاكية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م :

كان ريموند الثالث أمير طرابلس – الذي استطاع الفرار من حطين – قد توفى بعد ذلك بقليل من أثر الصدمة ، وقد أوصى ريموند قبل وفاته بأن يخلفه في حكم طرابلس ريموند الابن الأكبر لبوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، ولكن بوهيمند كان محتاجًا لابنه البكر إلى جانبه للدفاع عن إمارته ، فاكتفى بإرسال ابن آخر له هو بوهيمند الرابع للدفاع عن طرابلس، وانتقل حكم تلك الإمارة في أواخر عام ١١٨٧م إلى البيت النورماني الذي كان يحكم أنطاكية ، وقد استطاع البيت النورماني أن يدافع عن طرابلس في عهدها الجديد[٢].

سار صلاح الدين يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م بقواته قاصدًا مهاجمة أنطرسوس ، وبدأ منازلتها من يوم الأحد السادس من جمادي الأولى ، وفرض عليها الحصار الخانق حتى استسلمت هذه المدينة ، في حين استعصت عليه قلعتها ، فأقسم صلاح الدين أن يأخذها قبل أن يتناول طعام الغذاء – وكان الوقت وقت الغذاء – فقال : نتغذى بأنطرسوس إن شاء الله ، وبعد أن استولى عليه أمر صلاح الدين بتدمير سور المدينة حتى لا يحتمي

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٢٠ ، ١٣٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥١.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥٠-٦٥١.

به الصليبيون إذا ما أرادوا العودة إلى المدينة ، كما أمر بإحراق البلد بأجمعه[١] .

ثم سار صلاح الدين بقواته وهاجم حصن الأكراد ، وكان هذا الحصن قويًا ودافع عنه أصحابه من الإستبارية في شجاعة ، فارتد عنه صلاح الدين وتوغل في حدود مملكة طرابلس حتى وصل بالقرب من طرابلس ذاتها ، ولمس عن قرب حال هذه المملكة وعايش تحصيناتها ومدى قوتها بنفسه[٢] .

ثم عدل صلاح الدين وجهته ، وسار نحو إمارة أنطاكية وشرع في مهاجمة المدن والحصون والقلاع الصليبية التابعة لها ، حيث بدأ بمهاجمة جبلة ، وتمكن من الاستيلاء على هذه المدينة وقلعتها بالأمان بعد حصارها في يوليو ١١٨٨م[٣] .

ثم زحفت قوات صلاح الدين إلى حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماه، ثم تحرك صلاح الدين إلى جهة اللاذقية ، فوصلها في اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ/ يونيو ١١٨٨م ، وهي أكبر موانئ إمارة أنطاكية، فعجز الصليبيون في المدينة عن حمايتها ، فهجروها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل ، واجتمعوا بهما ، فحاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم الخناق حتى استسلموا للقوات الإسلامية ، حيث دخلها صلاح الدين في يوليو عام ١١٨٨م/ ١٧/ ٥/ ٥٨٤هـ ، فسلمها صلاح الدين إلى ابن أخيه تقي الدين عمر[٤] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨٨ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٦ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٥٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧-٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٥٥-٢٥٩ ، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ، ص٨٩ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٩.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٩ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٢٣٣ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٥٩-٢٦٠.

وفي الأثناء التي استولى فيها صلاح الدين على اللاذقية وصل إلى ميناء المدينة أسطول صليبي مكون من ستين قطعة بحرية ، أتى من صقلية لنجدة الصليبيين في المدينة ، فلما أسرع أهلها بالاستسلام لصلاح الدين ازداد ضيق وغيظ هذا الأسطول ، وقرر قادته الانتقام من الصليبيين المغادرين من المدينة ، فآثر هؤلاء الصليبيين المقام في مدينة اللاذقية ودفع الجزية عن مغادرتها[١] .

وقد طلب قائد هذا الأسطول من صلاح الدين تسليمهم المدينة وهدده وتوعده إن لم يجبه إلى طلبه قائلاً : " وإلا جاءك من وراء البحر في عدد الموج أفواجًا ، فوجًا بعد فوج ، وسار إليك ملوك النصرانية من سائر الممالك" . فرد عليه صلاح الدين: "قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، وافترضه علينا ، فنحن قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله" فانصرف قائد الأسطول بعدما رأى قوة شخصية صلاح الدين وعزمه على مواصلة الحرب حتى انقضاء هذه الملحمة[٢] .

وبعد اللاذقية تحول صلاح الدين لمهاجمة حصن صهيون ، وهو من أقوى الحصون وأمنعها ، فوصل إليه في ٢٩ من جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ/ يوليو١١٨٨م ، وقد وجد صلاح الدين في الاستيلاء على هذا الحصن صعوبة كبيرة ، إذ وجد مقاومة عنيفة إلى أن تمكن في الاستيلاء عليه في آخر يوليو ١١٨٨م ، حيث فرض عليهم مقابل الأمان دفع عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن الصغير دينارين ، وسلمه صلاح الدين إلى الأمير ناصر الدين منكوبرس أمير قلعة أبي قبيس، فأعاد تحصينه وترميمه ، وكان من أهم نتائج

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٩-١٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٠-٢٦١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٠ ، ابن العماد، الفتح القسى ، ص٢٤٠ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص١٥٧-١٥٨.

الاستيلاء على هـذا الحصن أن دب الرعب والخوف في قلوب الصليبيين في الحصون والقلاع المجاورة ، فأسرع سكان حصن بلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرتين إلى تسليمها إلى صلاح الدين[١] .

ثم سار صلاح الدين بقواته نحو حصن بكاس – على جانب نهر العاصي – حيث تمكن صلاح الدين من الاستيلاء عليه بعد قتال شديد حيث دخله عنوة يوم الجمعة الموافق ٩/٦/ ٥٨٤هـ ، ٩ أغسطس ١١٨٨م ، ثم استولى على قلعة الشغر في ١٢ أغسطس ١١٨٨م[٢] .

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر صاحب حلب ببعض قواته إلى سرمينية ، فاستولى عليها في يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٥٨٤هـ ، ثم قام بهدم سورها وسواه بالأرض[٣] .

وقد أورد المؤرخون أن صلاح الدين قد استولى على ستة قلاع هي جبلة واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشعر ، وسرمانية ، في ستة أسابيع وفي يوم جمعة من كل أسبوع[٤] وهذا يدل على عدة دلالات ، أن صلاح الدين كان يختار أوقات يكون فيها الخطباء على المنابر ويدعون له ولجيشه بالنصر والتمكين، كما أن هذه الأوقات هي أوقات إجابة الدعاء ، ومن الأوقات

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٠-١١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦١ -٢٦٣ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٠-٩١ ، ابن العماد ، الفتح القسي ، ص٢٤١-٢٤٢، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢-١٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٤ ، المقريزي، السلوك، ١/ ١٠٠ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٦٠.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢-١٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٤-٢٦٥، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ، ص٩١-٦٢.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٣-١٤ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٥.

المباركة لدى المسلمين، وهذا يدل على درجة إخلاص صلاح الدين النية لله عز وجل ، ومدى يقينه بنصر الله.

وتوجهت قوات صلاح الدين صوب قلعة برزية ، وهي قلعة غاية في القوة والمنعة على سن جبل شاهق ، وقد قاومت هذه القلعة مقاومة شديدة أتعبت المسلمين وأنهكتهم ، ومما زاد من معاناة المسلمين المحاصرين لهذه القلعة أن الزمان كان شديد الحر فاشتد الكرب عليهم ، وبعد صعوبة شديدة تمكن صلاح الدين من الاستيلاء عنوة على هذه القعلة[١] .

وذكر المؤرخون أن الأميرة سيبل زوجة بوهيمند الثالث أمير أنطاكية كانت تهادي صلاح الدين وتطلعه على أسرار الفرنج ، وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدي لها أنفس الهدايا ، وكانت تكشف له عن عورات الصليبيين ومواطن الضعف فيهم ، بفضل هذه استطاع صلاح الدين أن يستولي على برزية ، ولذلك لما سقطت برزية في يده ، كان من بين الأسرى شقيقة سيبل ، فأرسلها صلاح الدين مكرمة إلى أنطاكية ، ومعها زوجها وجماعة من أصحابها وصهرها، وذلك إكرامًا للأميرة سيبل ، فشكرته على ذلك ودامت مودتها له[٢] .

والشيء الذي نريد أن نؤكد عليه أن فتوح صلاح الدين عقب حطين امتازت بالاعتدال والبعد عن التطرف وتجنب العنف مع أعدائه، فعامل أسرى الصليبيين معاملة حسنة ، ومنح كثيرًا من أهالي المدن التي سقطت في يده الحرية وسمح لهم بالنزوح إلى صور أو غيرها ، هذا فضلاً عن حرصه على الرفق بالنساء والأطفال والشيوخ من الصليبيين. ويعترف الكتاب الأوربيون أنفسهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٥-١٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ،٢/ ٢٦٦-٢٦٧، ابن العماد، الفتح القسى ، ص٢٥١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٢ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٦٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٣ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٢٥١-٢٥٢.

بأن صلاح الدين ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب بل يفوق المثل العليا التي لم يصل إليها هؤلاء الفرسان في يوم من الأيام ، وربما كان السر في تلك المعاملة بالإضافة إلى طبيعة صلاح الدين وتمسكه بروح الإسلام وأخلاقه – هو عدم رغبته في استثارة الغرب الأوربي ضده إذا هو تطرف في معاملة الصليبيين وعاملهم بمثل ما عومل به المسلمين من قبل ، وفي الوقت نفسه لم يخرج صلاح الدين من حسابه احتمال مجيء حملة صليبية جديدة ، بل أخذ حذره ، وأعد لذلك الاحتمال فحصن القلاع القوية التي سقطت في يده ، وهدم المعاقل الضعيفة التي قد يستفيد منها الصليبيون في المستقبل(١).

ومن الأحداث السابقة يتضح لنا أيضًا أن صلاح الدين لم يبرع فقط في الحرب، بل برع أيضًا في السياسة ، فقد استطاع أن يتصل سرًا بزوجة صاحب أنطاكية ، تلك الإمارة الصليبية الخطيرة والتي تهدد المسلمين من وقت لآخر ، والهدف من هذه الاتصالات الحصول على المعلومات عن الصليبيين من ناحية، كما أن مثل هذه الزوجة لها عظيم الأثر على نفس زوجها ، فكان بإمكانها تغيير مجرى كثير من الحوادث من أجل مصلحة المسلمين وأشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله : "وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه ، وتعلمه كثيرًا من الأحوال التي تؤثر "(٢).

وكانت انتصارات صلاح الدين في مقابل انكسارات الصليبيين ترفع من الروح المعنوية للجنود المسلمين مما جعلهم يتقدمون من حصن لآخر غير مبالين بصعوبة هذه الحصون ومناعتها ، وبهذه الروح انتقل صلاح الدين بجنوده نحو حصن دربساك وهو أحد معاقل الداوية القوية القريبة من أنطاكية وبدأ حصارها

(١)سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٩٥٣.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص١٦٤.

في يوم الجمعة ٨/ ٧/ ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م ، وبالرغم من استماتة الداوية في الدفاع عن هذا الحصن إلا أن عزيمة وإصرار صلاح الدين على السيطرة على هذا الحصن جعلت من فيه يستسلمون له منتصف سبتمبر ١١٨٨م وكان السبب الرئيسي في استسلام الحصن هو أن أهل دربساك أرسلوا إلى أمير أنطاكية يستنجدون به إلا أنه عجز عن إغاثتهم فلم يجدوا بدًا من التسليم وطلب الأمان[١].

ثم سار صلاح الدين بقواته نحو حصن بغراس (بغراص) ، وكان بحوزة الداوية هو الآخر ، وقد شارك في الهجوم على هذا الحصن العماد الكاتب وابن شداد وابن الأثير ، فلما شدد صلاح الدين الحصار على هذا الحصن وضربه بالمجانيق سارع من فيه إلى الاستسلام ، فتسلم صلاح الدين ما فيه من ذخائر وأموال وأسلحة ثم أمر بتخريبه ، وكان ذلك في ٢/ ٨/ ٥٨٤هـ / أواخر سبتمبر ١١٨٨م[٢].

قال المؤرخون عن هذين الحصنين : "وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين ولطاغية الكفر سلاحين ، فتم للسلطان – صلاح الدين – فتح هذه الحصون المذكورة ، مع أبراج ومغارات وشقاقات – كهوف – كثيرة حتى خلص ذلك الإقليم ، وتم الفتح العظيم ، وعادت الكنائس مساجد ، والبيع معابد ، والصوامع جوامع ، والمذابح لعبدة الصلبان مصارع"[٣].

---

(١) ابن الأثير ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٣ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٢٥٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٨-١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٨ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٣ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ٢٥٧-٢٥٨ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٩.

الهدنة مع إمارة أنطاكية ٥٨٤هـ/١١٨٨م :

وكان من نتائج سقوط حصن بغراس ودربساك في يد صلاح الدين أن أصبحت إمارتا أنطاكية وطرابلس مقصوصتي الجناح على حد قول أبو شامة: "فتح دربساك الذين لم يكن لأنطاكية إلا به الامتساك ، وقد قص الآن جناحها وفل سلاحها وحق قرحها .. وهذا الحصنان – دربساك وبغراس – كانا لأنطاكية جناحين"(١) ، وبدأ بوهيمند الثالث أمير أنطاكية يتخوف من سقوط أنطاكية ذاتها إن قصدها صلاح الدين ، وأشفق على نفسه ومن معه من حدوث ذلك ، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه عقد الهدنة معه مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين لديه ، وقد حدثت في ذلك الوقت ما يشبه المجاعة في أنطاكية إذ ارتفعت الأسعار وقلت الأقوات ، وكثر الناس فيها ، وفي المقابل وجد اقتراح الهدنة هوى لدى المحيطين بصلاح الدين ، إذ أن جنوده كانوا في حاجة إلى الراحة قليلاً ، إذ أنهم منذ حطين لم يذوقوا طعم الراحة ، وظلوا في حل وترحال ، وجهاد وقتال متواصل ، وبدأ يشعر الجند الغريب بالملل وأبدوا السآمة ، فتم إبرام الهدنة بين الطرفين وأطلق سراح المسلمين الأسرى(٢).

وقد أشار البعض على صلاح الدين – بعد عقد الهدنة – بتفريق الجنود ، فرد عليهم قائلاً : "إن العمر قصير والأجل غير مأمون ، وقد بقى من الفرنج هذه الحصون : كوكب وصفد والكرك وغيرها ولابد من الفراغ منها ، فإنها في وسط بلاد الإسلام ، ولا يؤمن شر أهلها ، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد. والله أعلم" (٣).

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣٢-١٣٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥٤.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٩٨٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٩ – ٢٧٠ ، ابن العماد، الفتح القسى ، ص ٢٦٠-٢٦١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٤.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ٧٥.

وعلى ما يبدو أن صلاح الدين لم يكن راغبًا في مهادنة الصليبيين في هذا الوقت، ولكنه نزل على رغبة المحيطين به ، وهذا ما أكده عماد الدين الكاتب الذي صحب صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين بقوله : " ولم يكن له رغبة في إتمام هذا الصلح ، لكمال الغبطة لنا في الحروب ووفور الربح ، ولكن العسكر الغريب مل الإقامة ، وأبدى السآمة ، وأراد السلم والسلامة " (١).

على أية حال لم تمنع هذه الهدنة المعقودة مع إمارة أنطاكية صلاح الدين من مهاجمة بقية الحصون الصليبية المتناثرة ، ولاسيما أن الهدنة كانت مع أنطاكية فقط لا غير ، ولم تنص على عدم مهاجمة بقية الحصون والقلاع الصليبية (٢).

وكان صلاح الدين قد جعل على حصن الكرك عسكرًا يحاصرونه منذ ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة ، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا لحوم دوابهم ، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين – وكان صلاح الدين قد جعله على حصار قلعة الكرك في جمع كبير من العساكر – لما يئسوا من نجدة تأتيهم ، فاستسلموا ، وبعد ذلك ببضعة أشهر استسلم حصن الشويك هو الآخر وهرمز والوعيرة والسلع (٣).

ثم سار صلاح الدين بقواته في شهر رمضان عام٥٨٤ هـ حتى أتى قلعة صفد وهي للفرسان الداوية ، وهي قلعة منيعة ، قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، وضرب عليها الحصار ، حتى استسلمت هذه القلعة ونزلت

(١) ابن العماد الكاتب ، الفتح القسي ، ص٢٦٠ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص١٦٨.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٥٤.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٠-٢١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٧١ ، ابن العماد ، الفتح القسي ، ص٢٦٦-٢٦٧، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٣٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤٢.

على الأمان ، وأقام من أقام ورحل من رحل من أراد إلى صور في أمان[١] .

وبعد أن عزم صلاح الدين على التوجه نحو حصن كوكب الصليبي ، استبق حاكم صور الأحداث وخشى أن باستيلاء صلاح الدين على حصن كوكب يكون الطريق قد غدا مفتوحًا إليه ، فأسرع بإرسال فرقة من شجعان الداوية والاستبارية نجدة إلى حصن كوكب قبل وصول صلاح الدين ، ولكنها – هذه الفرقة – سقطت في يد قايماز النجمي مقدم جيش صلاح الدين ، ففت ذلك في عضد أهل كوكب ، فما أن فرض صلاح الدين عليهم الحصار حتى أسرعوا إلى الاستسلام ونزلوا على الأمان ، وتسلم صلاح الدين الحصن في منتصف ذي القعدة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م[٢] .

لم يبق للصليبيين في فلسطين من الحصون القوية إلا حصن السقيف أو حصن سقيف أرنون ، قرب بانياس ، وقد اعتصم وتحصن به رينو صاحب صيدا ، عقب استيلاء المسلمين على هذه المدينة ، وعندما عسكر صلاح الدين برجاله في مرج عيون استعدادًا لمهاجمة حصن السقيف ، أسرع رينو إلى الاستسلام لصلاح الدين بشرط أن يسمح بإيوائه في دمشق حيث يظل تابعًا مخلصًا لصلاح الدين ، وذلك خوفًا من أن تنتقم منه الصليبيون لاسيما الماركيز حاكم صور الذي يحتفظ عنده بزوجته وأبنائه ، فاحتفظ به صلاح الدين في دمشق وتقدم للاستيلاء على حصن السقيف ، فرفضت الحامية النزول على طلب رينو والتسليم لصلاح الدين ، فشد المسلمون الحصار على الحصن وشددوا عليه الهجوم حتى استولوا عليه في أبريل سنة ١١٩٠[٣] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢١-٢٢ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٧٢ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٣ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص٢٧٣-٢٧٥ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠١.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٨٢ -٢٨٤ ، ابن العماد ، الفتح القسى ، ص ٢٨٥-٢٨٨ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١١٧.

وبذلك لم يبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس الصليبية غير صور ، التي يبدي المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين في فتحها ، أما المؤرخ ابن الأثير – الذي عرف بتحامله على صلاح الدين – فيقول : "فاجتمع بها شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم، وتابعوا الرسل إلى من في الصقلية والأندلس وغيرهما يستغيثون ويستنجدون ، والإمداد في كل وقت تأتيهم ، وكان ذلك بتفريط السلطان في إطلاق كل من يحضره حتى عض بنانه أسفًا وندمًا حيث لم ينفعه ذلك"[1].

ولكن يمكن تعليل ما فعله صلاح الدين من إطلاق أسرى الصليبيين والسماح لهم بالمسير إلى مدينة صور بأن صلاح الدين كان مسلمًا رحيمًا لا يحب إراقة الدماء إلا عند الضرورة ، ومن ثم سمح لهم بالمسير آمنين ، كما أنه لم يكن في الإمكان تركهم في البلاد المفتوحة ، خوفًا من اشتداد ساعدهم في بعض الأحيان ، وينقلبون على المسلمين ويسببون لهم الضعف ويساعدوا الصليبيين إذا ما هاجموا من جديد ، خصوصًا إذا عرفنا أن صلاح الدين لم يكن يغفل أمر الصليبيين "وأنه قد رتب الجانب القبلي والبلد المقدس وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والآلات والعدد ، والعدد المتواصل المدد ، ورتب فيها ولده الأفضل عليًا لحمايتها وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها"[2].

ومن دلائل اهتمام صلاح الدين بالبلاد وخشيته عليها من الهجوم الصليبي أنه أتى عكا " فأقام بها معظم المحرم سنة خمس وثمانين وخمسمائة ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليًا وأمره بعمارة السور والإطناب فيه ، ومعه حسام

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٧٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٧٥ – ٢٧٦ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٦ ، ابن العماد ، الفتح القسي ، ص٢٧٥-٢٧٧.

الدين بشارة ، وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر وأودعهم بعكا بصدد حفظها "[1] وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين كان يتوقع هجومًا من الصليبيين بهدف استرداد البلاد التي أخذها منهم والانتقام من المسلمين ومن ثم لم يجد من سبيل للخلاص من الصليبيين الذين استسلموا في القلاع والحصون إلا السماح لهم بمغادرة تلك البلاد والرحيل إلى صور وعدم الغدر بهم تمشيًا مع تعاليم الإسلام التي تمنع الغدر أو قتل الأبرياء والمستأنسين[2] .

والواقع أن تلك الخطة التي اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين والتي تقوم على تأمينهم مقابل تسليم المدن والقلاع له ، أتاحت لصلاح الدين فرصة الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس في شهور قليلة ، ما عدا أماكن قليلة منها مدينة صور ، وصلاح الدين لم يكن أمامه غير اتباع هذه الخطة ، إذ لو عمد إلى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس عن طريق القوة المصابرة لطال أمر القتال هذا بالإضافة إلى أنه قد اختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملاً بمبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء[3] .

لقد تصرف صلاح الدين طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين ، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنبًا إلى جنب تحت ظل السلطان ، وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن إبادة المسيحيين[4] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/٢٧٨.

(٢) فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص١٧٢.

(٣) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢٣٥.

(٤) قدري قلعجي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٨٠.

لقد أثرت تصرفات صلاح الـدين المستمدة مـن هـدي الإسـلام العظـيم في الساسة الأوربيين وشعوبهم ، لما رأوا من عفوه الكريم ، وتسامحه النبيل ، فكـان أسوة حسنة ومثلاً يضرب للناس ، وكسب للإسـلام بقلبـه وسـيفه ، وهـذا مـا جعل تشرشل يقول عنه أنه من أعظم ملوك الـدنيا ، ودفـع الكاتـب الإنجليـزي ديدر هجارد إلى القول بأنه أعظم رجل على وجه الأرض[1].

(١) قدري قلعجي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٢٨٢.

الفصل التاسع

الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين

الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين :

استطاع صلاح الدين أن يحقق عملاً عظيمًا في وقت قصير لم يتجاوز ثلاث سنوات إذ تمكن من تحرير معظم البلاد الإسلامية التي أخذها الصليبيون في بلاد الشام ، ولم يبق للصليبيين من المدن الهامة على الساحل سوى مدينة صور ، وهي المدينة الوحيدة الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأما إمارة طرابلس فقد سقطت كل البلاد التابعة لها ، ولم يبق من المناطق التابعة لإمارة أنطاكية سوى أنطاكية نفسها وميناء السويدية وبعض الحصون مثل المرقب ، وهكذا بدأ البنيان الصليبي الكبير وكأنه إقليم على شفا جرف هار فانهار به فجأة قبل أن ينقضي على إقامته قرن واحد من الزمان.

ولكن بقايا الصليبيين المتشرذمة لم يستسلموا تمامًا للهزيمة ودفعها الخوف من صلاح الدين إلى الصمود في وجهه ، وفي الوقت الذي سقطت فيه مملكة بيت المقدس في أيدي المسلمين ، كانت هذه البقايا الصليبية المتجمعة في مدينة صور في أشد الاحتياج لزعامة رشيدة تجمع شعثها وتنظم صفوفها وتعمل على حمايتها وتدافع لها عن كيانها وتضمن لها أمن مستقبلها ، وشاءت الأقدار أن يصل إلى صور في هذه المرحلة الحاسمة زعيم قوي هو كونراد دي مونفرات قادمًا من الغرب الأوربي عن طريق القسطنطينية ، فجمع شعث الصليبين الفارين من قبضة صلاح الدين وأعاد لهم الأمل في البقاء في بلاد الشام ، وعمل على حمايتهم وإعادة تنظيم صفوفهم ، واعترف من في صور من الأمراء له بالقيادة والزعامة وأسلموا له القيادة ، فأقام كونراد التحصينات اللازمة في المدينة التي عرفت أصلاً بحصانتها ومنعتها ، فلما أغلقت أبوابها في وجه صلاح الدين لم يستطع أن يفعل لها شيئًا فتركها وآثر أن يبدأ بالاستيلاء على بيت المقدس ثم يعود مرة أخرى للاستيلاء عليها [1].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٥-٩٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦١.

ولما تمكن صلاح الدين من السيطرة على بيت المقدس ، اتجه بكل قواته وقوته للسيطرة على صور ، ولكن كان كونراد قد استغل الأموال التي جلبها معه من القسطنطينية في حفر الخندق حول المدينة تجري فيه مياه البحر ، فوصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء ، لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها ، وعمل كونراد على الاستفادة من أموال التجار الفرنسيين والإيطاليين المقيمين بالمدينة ، فلما وصلها صلاح الدين وفرض عليها الحصار لم تغن عنه شيئًا قواته ولا جمعه ، بل إن الأسطول المصري كاد يتعرض للهزيمة مما جعل صلاح الدين يضطر إلى رفع الحصار والابتعاد عن هذه المدينة الحصينة(١).

كما أن فشل صلاح الدين في الاستيلاء على صور زاد في حماس بقايا الصليبين ودفعهم إلى أخذ زمام المبادرة لقتال المسلمين ، فحاولوا الزحف بقواتهم إلى صيدا للاستيلاء عليها ، ولكن قوات صلاح الدين تصدت لهم وأوقعت بهم الهزيمة النكراء(٢).

ومن الأسباب التي أعلت من الروح المعنوية لدى الصليبيين في الشام ومنحتهم الأمل في البقاء جاثمين على أرض الشام الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع بوهيمند الثالث أمير أنطاكية لمدة ثمانية أشهر ، فأعطتهم الفرصة لالتقاط الأنفاس ، وإعادة ترتيب الأوراق والصفوف من جديد.

وفي تلك الأثناء أحدثت هزيمة الصليبيين في حطين ثم سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ، إذ يقال أن البابا أوربان الثالث – وكان مسنًا مريضًا – لم يحتمل هذه الأخبار المؤلمة التي سمعها وتوفي

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٤٥.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٨٤ -٢٨٥ ، ابن العماد، الفتح القسى ، ص٢٨٩ -٢٩١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٩٨-٩٩.

في أكتوبر سنة ١١٨٧م[1].

ولم يلبث كونراد دي مونتفرات أن أرسل جوسياس رئيس أساقفة صور إلى غرب أوربا في أواخر صيف سنة ١١٨٧م ليطلب من البابوية وملوك الغرب وأمرائه النجدة العاجلة ، معتمدًا على استثارة مشاعر المسيحيين واستنهاض كوامن الحقد ضد المسلمين ، إذ أخذ بصحبته جماعة من القساوسة الذين ارتدوا ملابس الحداد وطاف بهم الغرب الأوربي حاثًا لهم على استرجاع القدس وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه بعصا ، وقد جعلوا الدماء وقد سالت على وجه صورة المسيح وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين ، وقد جرحه وقتله ، ليستنفروا بذلك الناس للقتال والخروج لحرب المسلمين[2].

ونقل جوسياس رئيس أساقفة صور نشاطه إلى البابوية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة موقف الصليبيين في الشام ، ولكن ذلك البابا لم يلبث أن مات من أثر الصدمة ، فبادر البابا الجديد – جريجوري الثامن – إلى إرسال كتاب دوري إلى ملك إنجلترا وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم جميعًا على أن يتناسوا ما بينهم من خصومات وحزازات ويبعثوا قواتهم لمحاربة المسلمين. وإذا كان البابا جريجوري قد توفى هو الآخر في ديسمبر من العام نفسه قبل أن يرى ثمار دعوته ، فإن خليفته كليمنت الثالث أسرع إلى الاتصال بالإمبراطور فردريك بربا روسا الأول ، في الوقت الذي انتقل جوسياس إلى الغرب لمقاتلة ملكي فرنسا وإنجلترا .

والواقع أنه لم يكن من السهل على ملكي إنجلترا وفرنسا بالذات أن يتناسيا

---

(١) سعد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦٤.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٨٨، ابن أيبك ، كنز الدرر ، ٧/ ٩٩ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦٢ ، ٦٦٣.

ما بينهما من عداء عميق ، حتى ولو كان هذا المشروع من أجل تحقيق مصلحة دينية عليا ، فعلى الرغم من أن هنري الثامن ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا قد استجابا لدعوة الحرب الصليبية عندما قابلهما جوسياس على حدود نورمانديا في سنة ١١٨٨م ، وعلى الرغم من أنه تم الاتفاق عندئذ على أن تخرج جيوشهما جنبًا إلى جنب إلى الشام ، إلا أنهما تباطئا بعد ذلك في التنفيذ ، بل إن الحرب سرعان ما نشبت بين الطرفين من جديد في يونيو سنة ١١٨٨م ، ومهما يكن من أمر فإن هنري الثامن ملك إنجلترا لم يلبث أن توفى في أوائل يوليو ، فخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد الذي توج في سبتمبر من العام نفسه ، وفي صيف عام ١١٩٠م أبحر ملك فرنسا وإنجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضي كل منهما فصل الشتاء في جزيرة صقلية (سبتمبر ١١٩٠- مارس ١١٩١م) في الوقت الذي كان صلاح الدين يمكن لنفسه في البلا التي انتزعها من الصليبيين.

أما إمبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا ، فكان أسرع إلى العمل على الرغم من كبر سنه ، فتحرك في مايو سنة ١١٨٩م وبصحبته ثاني أبنائه فريدريك أمير سوابيا – على رأس جيش كبير ومنظم قدره بعض المؤرخين بمائة ألف محارب سالكًا الطريق البري إلى القسطنطينية عبر هنغاريا ، ولم يلبث فردريك برباووسا ورجاله أن واجهوا عداءً شديدًا من الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس (١١٨٥م -١١٩٥م) وذلك نظرًا لما كان هناك عندئذ من تحالف بين فريدريك بربروسا والنورمان أعداء الإمبراطورية البيزنطية ، وكان أن أدت مخاوف الإمبراطور إسحاق أنجيلوس إلى سعيه لمحالفة صلاح الدين ضد فرديدريك بربروسا والصليبيين وهو التحالف الذي تم سنة ١١٨٩م/ ٥٨٥هـ وأشارت إليه المصادر العربية والصليبية على حد سواء ، وكان من نتيجته إثارة الغرب الأوربي وزعمائه ضد الإمبراطورية البيزنطية ، ولم يلبث الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس أن أرسل إلى صلاح الدين سنة ١١٨٩م يعرفه

بوصول فردريك بربااروسا "ويعده أنه لا يمكنه من العبور إلى بلاده" وقد تعهد صلاح الدين مقابل تلك المعونة التي قدمها له البيزنطيون ضد الصليبيين بوضع الأماكن المسيحية المقدسة في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين المسيحي الأرثوذكس. وإذا كان صلاح الدين وافق عندئذ على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الأرثوذكس ، فإن الدولة البيزنطية وافقت هي الأخرى على أن تجعل لصلاح الدين نوعًا من الوصاية على الجالية الإسلامية في القسطنطينية، فأرسل صلاح الدين الخطباء والمؤذنين والقراء إلى القسطنطينية ، وأقيمت الخطبة بالجامع القديم بالقسطنطينية للسلطان والخليفة الناصر لدين الله(١) .

وهكذا اصطبغت الحملة الصليبية الثالثة من أول أمرها بصبغة فردية وتأثرت بروح العداء والشك المستأصلة بين زعماء الغرب الأوربي واللاتيني ، مما حال دون تحقيق النتائج المرجوة من هذه الحملة.

وفي المقابل ، كان قلج أرسلان الثاني بن مسعود ، سلطان سلاجقة الروم يواجه متاعب شديدة من جانب أبنائه الذين قسم ملكه بينهم ، فضلاً عما كان يتعرض له من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين من ناحية والإمبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى ، ولذلك وجد قلج أرسلان في الألمان الصليبيين حليفًا طبيعيًا له ضد العدو المشترك، ممثلاً في محور دمشق القسطنطينية. وإذا كان قلج أرسلان قد تعهد لفردريك باربااروسا بإرشاده في طريقه إلى الشام عبر آسيا الصغرى وحمايته ورجاله من عدوان المعتدين إلا أن سلطان سلاجقة الروم العجوز – الذي أضعفته ثورة أبنائه وعقوقهم – لم يستطع أن يمنع قبائل التركمان في آسيا الصغرى من التعرض للصليبيين الألمان ، هذا فضلاً عما صادفه الألمان من صعاب بسبب وعورة الطريق وندرة الزاد وقلة الماء ، ودخل الشتاء فتراكمت الثلوج فاحتاجوا إلى أكل الدواب ، ولولا شدة فردريك

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٩٨ ، ١٠٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥٩ – ١٦٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦٤-٦٦٥.

باربروسا وحزمه لأفلت زمام الجيش من يده[(١)].

كان هذا الوصف الدقيق لحقيقة الموقف الصليبي عند بداية الدعوة لقيام الحملة الصليبية الجديدة، وحتى يُعْلَم ماهية الصليبيين المتجهين إلى الشرق للغزو والاعتداء.

على أية حال، كان وليم الثاني ملك صقلية النورماني أول من استجاب لتلك الدعوة، ولم ينتظر الاتفاق مع بقية ملوك أوربا الغربيين في الاشتراك معهم في هذه الحملة، بل سارع بإرسال أسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس، وعلى ما يبدو أن وليم الثاني كانت تراوده الأحلام بأن يكون له دور رئيسي في هذه الحملة، كما كان النورمان هم الذين حملوا لواء الحملة الصليبية الأولى، وأسسوا إمارة أنطاكية، وكانوا على استعداد للقيام بدور مشابه في الحملة الصليبية الثالثة، ولكن وليم الثاني كان منشغلاً بالعلاقة بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية؛ مما منعه في الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة بنصيب أكبر من تلك السفن والفرسان الذين أرسلهم سنة ١١٨٨م إلى طرابلس، ولم يلبث وليم أن توفي في العام التالي سنة ١١٨٩م، وهذه المعونة النورمانية، وإن فشلت في تحقيق الآمال المعقودة عليها إلا أنها نجحت ولو جزئيًا في منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية في حينها[(٢)].

وفي أبريل سنة ١١٨٩م أخذ الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا شارة الصليب وأرسل إنذارًا إلى صلاح الدين الأيوبي، ولكن السلطان صلاح الدين رفض ذلك الإنذار، وفي ١١ مايو ١١٨٩م تحركت قوات الإمبراطور الألماني قبل القوات الفرنسية والإنجليزية، وعجل بالعبور إلى آسيا الصغرى على رأس

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ٢/ ١٥١ – ١٥٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/ ٣١٨، سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٦٦٦-٦٦٧.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٦٦٣.

مائة ألف رجل بينهم عشرون ألف فارس ، وهنا أخذ الإمبراطور البيزنطي إسحاق أنجيلوس يرسل الرسالة تلو الأخرى إلى صلاح الدين ليحيطه علمًا بتحركات الصليبيين الألمان وأخبارهم ، وارتكب هذا الجيش فظائع في طريقه إلى الأرض المقدسة على امتداد الدانوب[1].

وفي عام ٢٥ أبريل ١١٩٠م / ٥٨٦هـ دخل الجيش الألماني أراضي السلاجقة، وكان قلج أرسلان الثاني سلطان سلاجقة الروم (١١٥٦-١١٩٢م) يواجه المتاعب من جانب أبنائه ، واتضح للإمبراطور الألماني أن المعاهدة التي عقدها من السلطان السلجوقي لم تعد قائمة إذ لم يستطع قلج أرسلان السيطرة على ابنه قطب الدين ملكشاه – زوج ابنة صلاح الدين – الذي عزم على مقاومة الصليبيين الألمان ومواجهتهم عند قونية لحظة نزولهم ، إلا أن قطب الدين لم يتمكن من التصدي للألمان وفشل في منعهم من التقدم واضطر للفرار أمامهم ، فأعيد تجديد المعاهدة بين سلطان سلاجقة الروم والإمبراطور الألماني، وتمكن الصليبيون الألمان من الوصول إلى أرمينية الصغرى[2].

نجح فردريك بارباروسا في الوصول إلى أرمينية الصغرى ومعاونة سلاجقة الروم له أثار الفزع والرعب بين المسلمين ، فخرجت الدعوات لتلبية دعوة الجهاد في سبيل الله ، وسرعة إرسال النجدات والإمدادات للمسلمين المرابطين على خط القتال ، بينما أخذ صلاح الدين يتابع باهتمام بالغ تقدم سير الحملة الصليبية نحو الشام ، وأقام عدة تحصينات وأسرع إلى إخلاء وتدمير بعض القلاع والحصون التي يخشى احتلال الصليبيين لها واستخدامها في محاربة المسلمين ، فأمر بهدم سور طبرية ، كما هدم يافا وأرسوف وقيسارية ، وهدم

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦٦.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥٠ -١٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣١٨ ، المقريزي ، السلوك ١/ ١٠٤-١٠٧ ، عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص ٦٨-٦٩.

سور صيدا ، وجبيل ونقل أهلها إلى بيروت[١] .

وفجأة غرق الإمبراطور فردريك باربروسا يوم ١٠ يونيو ١١٩٠م/ ٥٨٦هـ في نهر سالف وهو في الطريق من طرسوس صوب أذنه وأنطاكية ، وضربت الفوضى في الحملة الصليبية الألمانية ، وعجز فردريك السوابي - ابن الإمبراطور الغريق - عن السيطرة على الجند ، بل طمع فيه من كان قد قدم له المساعدة من قبل مثل ليو الثاني أمير أرمينية الصغرى وبوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، فضلاً عن انتشار الأوبئة والأمراض بين الجنود ، فمات منهم الكثير ، وفضل الكثير منهم العودة إلى ألمانيا ، بينما نقل فردريك السوابي إلى أنطاكية لتلقى العلاج[٢] .

وهكذا انتهى أمر الألمان بمشاركة رمزية في الحملة الصليبية الثالثة على الرغم من قوة الجيش الألماني وضخامة أعداده ، وبذلك زال خطرها عن المسلمين ، وتحول خوف ورعب المسلمين من هذه الحملة إلى سخرية وتهكم عليها ، حيث تهكم ابن واصل[٣] على جموع الألمان القليلة التي وصلت سالمة إلى الشام ، فيصفهم بأنهم "حملة عصى وركاب حمير" لذلك تعرضوا في طريقهم من أنطاكية إلى عكا لكثير من هجمات المسلمين - وبخاصة أهل حلب - فكان الواحد يأسر جماعة منهم ، وهانوا في الأنفس بعدما كان قد تهيبوا هيبة عظيمة ، وبيعوا في الأسواق بثمن بخس[٤] .

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥٠-١٥١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٦٨.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥٥-١٥٦ .

(٣) مفرج الكروب ، ٢/ ٣٢٢- ٣٢٣.

(٤) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٧٠.

الصليبيون وحصار عكا:

كان صلاح الدين قد أفرج عن جاي لوزجنان في يوليو ١١٨٨م ، ولم يشأ أن يتركه ينصرف وحيدًا ، وإنما أفرج أيضًا عن عشرة من أعيان أسرى الصليبيين ليكونوا له رفقاء وبطانة ، منهم عموري لوزجنان – أخو جاي- ، ومقدم الداوية، وقد اكتفى صلاح الدين عند إطلاق سراح الملك بأن تعهد له جاي بألا يشهر في وجهه سيفًا أبدًا ، ويكون غلامه ومملوكه طليقًا أبدًا ، بل أطلق أيضًا سراح الماركيز العجوز وليم الثالث دي مونتفرات ، وأرسله معززًا مكرمًا إلى ابنه كونراد في صور ، في الوقت الذي رفع كونراد دي مونتفرات مساومة صلاح الدين وأصر على المقاومة والقتال.

ولكن ما أكثر ما وعد الصليبيون ، وما أكثر ما نكثوا العهد .. فإذا كان صلاح الدين قد تمسك دائمًا بمبادئ الشهامة العربية في تصرفاته مع الصليبيين ، فإن جاي لوزجنان الذي تعهد بعدم محاربة صلاح الدين أو المسلمين وأقسم على أن يبرح الشام فور إطلاق سراحه ، لم يلبث أن نزح إلى صور مؤملاً أن يتولى زعامة القوات الصليبية في حربها ضد المسلمين.

على أن صلاح الدين لم يخسر شيئًا من إطلاق سراح جاي لوزجنان ، بل على العكس فقد استفاد كثيرًا ، لما ترتب على هذه الخطوة من اشتداد المنازعات بين الصليبيين بعضهم البعض ، وعلى وجه الدقة بين جاي لوزجنان وخصومه، ذلك أن الموقف لم يلبث أن تعقد في صور عند وصول جاي لوزجنان إلى أبوابها سنة ١١٨٨م ، حقيقة أن مدينة صور كانت المدينة الوحيدة التي ظلت على قيد الحياة من حطام مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكن كونراد دي مونتفرات ، الذي نظم صفوف الصليبيين في صور وأشرف على حركة المقاومة داخلها ، واستطاع الثبات فعلاً في وجه صلاح الدين وجيوشه ، ورفض أن يسمح لملك بيت المقدس بدخول المدينة.

وهكذا قضي جان لوزجنان بضعة أشهر خارج أبواب صور – ومعه زوجته الملكة – يصيح ويستجير ويطالب بدخول مدينته ، وعندئذ رد عليه كونراد بأن صور لم تعد مدينة جاي ، ، وأن الفصل بينهما ملوك الغرب – أي ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا – الذين ينتظر وصولهم إلى الشام بين الفينة والأخرى[1] .

ولما لم يجد جاي لوزجنان وسيلة تمكنه من دخول صور ، أخذ يجمع شراذم الفرسان ، المقاتلين الفارين من وجه صلاح الدين أو الذين أطلق سراحهم وما انضم إليهم من صليبيو الغرب الأوربي ، ثم توجه بهم إلى عكا ، حيث ضرب عليها الحصار في أواخر أغسطس سنة ١١٨٩م ، ولم يكن من المتوقع نجاح هذه المغامرة التي قام بها جاي لوزجنان لقلة ما معه من عدة وعتاد ، وكان من المتوقع أن يقوم صلاح الدين بسحق هذه الشراذم لولا أن لاحت في الأفق بشائر (الحملة الصليبية الثالثة التي أتت من غرب أوربا ، وسرعان ما تراكمت الجموع الصليبية بساحليها أمام عكا ، إذ تحرك البيازنة والجنوبيين والبنادقة بأساطيلها إليها ، ووصلت طلائع أساطيل الغرب الأوربي تحمل آلاف الصليبيين من الدانيين والفريزيين والفلمنك والفرنسيين ، وفي أواخر شهر سبتمبر ١١٨٩م حضر كونراد دي مونتفرات من صور بقواته للمشاركة في حصار عكا ، ومحاولة الاستيلاء عليها[2].

وكان صلاح الدين قد عهد بإعادة تحصين عكا وتزويدها بالسلاح والمؤن إلى خادمه بهاء الدين قراقوش ، الذي جعلها مع قلعتها وسورها تحفة معمارية منيعة ، وجلب بأمر صلاح الدين المقاتلة إليها والأسطول إلى مينائها . وكان رأي صلاح الدين مقاتلة الفرنج أثناء تحركهم نحو عكا ، لأنهم إن وصلوا إليها لصقوا بأرضها ، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم إلا إذا وصلوا عكا بحجة أن

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٧٠-٦٧١.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٧٣.

الطريق الذي سلكه الفرنجة وعرة وضيقة ولا يسهل قتالهم فيها للإجهاز عليهم دفعة واحدة ، ومع ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة كمائن على شكل عصابات من البدو تتخطفهم أثناء سيرهم ، ولكنهم تابعوا المسير حتى عسكروا أمامها من البر والبحر ، يقول ابن العماد : " وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب ، فإن نزالهم عند نزولهم صار أصعب "[١] .

وقد كانت عكا أهم موانيء فلسطين ، تقع على شبه جزيرة صغيرة داخل خليج يخرج من البحر المتوسط ، وكان يحميها من الجنوب والغرب سور ضخم تم بناؤه داخل المياه بمعجزة هندسية على يد أحد المسلمين ، وكان هذا السور يمنع الوصول إليها من جهة البحر . وفي الركن الجنوبي الشرقي كان حصن عكا الشهير للدفاع عن المدينة ومينائها من جانب البر ، أما الجانب الشمالي فيحميه سور ضخم آخر يتقابل في زاوية قائمة على حصن ضخم يسمى الملعون في الشمال الشرقي من عكا[٢] .

وطالت الحرب أمام عكا واتخذت طابع حرب الخنادق ، فحامية عكا الإسلامية محتمية خلف أسوار المدينة ، والصليبيون المحاصرون لعكا مجتمعون في الخنادق التي حفروها وراء الحيطان التي بنوها ، في حين قضي صلاح الدين شتاء ١١٨٩م – ١١٩٠م وشطرًا من الربيع التالي ساكنًا يراقب الموقف عن كثب ، فلم يقدر صلاح الدين أن يصل إلى المدينة ولا يستطيع أهل عكا الوصول إلى صلاح الدين ، ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين على اتصال بحامية المدينة عن طريق العوامين والحمام الزاجل[٣] .

والشيء الذي يذكره التاريخ أن صلاح الدين لم يقف وحده في مواجهة

---

(١) شاكر مصطفى ، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ، ص٢٨٥.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٥.

(٣) ابن العماد ، الفتح القسى ، ص ١٩٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٢.

الحملة الصليبية ، بل ساعده وعضده كثير من الملوك والأمراء المعاصرين له ، إذ يذكر المؤرخون أنه اجتمع إليه في أبريل سنة ١١٩٠م عماد الدين الأتقى صاحب دارا ، والشريف فخر الدين مبعوث من الخليفة ببغداد ومعه بعض آلات الحرب والحصار ، وفي الشهر التالي وصل إلى صلاح الدين الأمير عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ، ومعز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ، فضلاً عن علاء الدين خرم شاه بن مسعود صاحب الموصل نائبًا عن أبيه ، وزين الدين صاحب إربل [(١)].

وهذا الموقف يدل على أن العالم الإسلامي وقادته آنذاك كانوا على وعي كبير بحقيقة الموقف ، وطبيعة أهداف الحملات الصليبية ، وأنهم قد وعوا الدرس جيدًا ، وتناسوا ما بينهم من خلافات واختلافات لمواجهة عدو مشترك لم يكن هدفه هزيمة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس فقط ، فكان تأييدهم لصلاح الدين وجهادهم ضد الصليبيين هو دفاع عن إسلامهم وأملاكهم قبل أن يكون دفاعًا عن شخص صلاح الدين.

وقد طلب صلاح الدين المعونة من ملك المغرب (الموحدين) — أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدي ، حيث أرسل إليه رسالة مصحوبة بهدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دراهم البلسان ، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسًا عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة [(٢)].

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتابًا رقيقًا جاء فيه : "الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سأله

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/٣٠٦ -٣٠٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/٤١-٤٢.

(٢) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ٤/٢١٦.

القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الدراري التي بعضها من بعض . وكان عنوان الكتاب من : صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب ، ولكن أبا يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأنه سرها في نفسه ، ومع ذلك أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضًا ، وقد قيل أن المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة وحال دون وصولها استيلاء الصليبين على سواحل الشام ، وقد دلل ابن خلدون[١] بذلك على تفوق ملوك الغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[٢].

على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن المنصور الموحدي لم يقابل صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعًا إلى أن يعقوب المنصور كان دائمًا على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس، كما أن للموحدين تصريحات تدل على رغبتهم في الرحلة إلى الشرق وضمه لدولتهم ، وقد أشار الذهبي إلى تصريح السلطان المنصور برغبته في قصد مصر[٣].

لقد كان الموحدون يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي ، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية ، لقد صرح السلطان الموحدي برغبته في غزو البلاد المصرية ، وذكر ما فيها من المناكر والبدع ، وقال : "نحن إن شاء الله مطهروها" ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله[٤] ، إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو بلاد الشرق كله ، ولا شك أن أمراء الدولة النورية

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٦/ ٤٩٠.

(٢) الصلابي ، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، ٢/ ٥١٨.

(٣) الصلابي ، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، ٢/ ٥١٩.

(٤) عز الدين عمر محمود ، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص١١٥.

والأيوبية يعلمون بهذا ، ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم، فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم فيها ، وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات الشرق في وجه الأطماع الموحدية. وكانت غزوة قراقوش على المغرب إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها ، لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب ، واتخذت الطريق الصحراوي لقصره أولاً ، ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ، ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئًا بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته ، ولذلك عملوا عل التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم[1].

لقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية ، وحزازات سياسية ، وموقف داخلي متوتر وخارجي متربص ، وبالرغم من ذلك فقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه مما جعل السفير شمس الدين بن منقذ يمدحه في قصيدة عدتها أربعون بيتًا أعطاه سلطان الموحدين بكل بيت ألف درهم ، ولو التقى صلاح الدين مع السلطان الموحدي في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها ، لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ، ولكن الله غالب على أمره. ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين صلاح الدين وملك الموحدين لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء، كما هو الحال في كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عددًا كبيرًا من المغاربة قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم

---

(١) مراجع عقيلة الغنادي ، سقوط دولة الموحدين ، ص١٩٨ ، الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٥٤٢.

المشارقة ، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين[(١)] .

إن صلاح الدين سعى للاستفادة من الموحدين ضد الحملة الصليبية الثالثة ، وهذا يدل على مرونته السياسية الكبيرة ، فقد أدى ما عليه ، أما سلطان الموحدين فكان يمكنه أن يتجاوز الخلافات المنهجية ويساهم مع صلاح الدين في الدفاع عن الأمة الإسلامية ، إلا أنه فشل في هذا الاختيار[(٢)] .

وفي تلك الأثناء كان ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا قد اتفقا على إنهاء الخلافات بينهما والرحيل في الحملة الصليبية ، وقد سلكا طريقين مختلفين للوصول إلى صقلية التي كانت المحطة الأولى في طريقهما إلى الأرض المقدسة ، وهناك أمضى الملكان شتاء سنة ١١٩٠م – ١١٩١/ ٥٨٦ – ٥٨٧ هـ حيث تورطا في النزاع الذي كان دائرًا حول وراثة عرش وليم الثاني النورماني ملك صقلية ، وفي ١٠ أبريل أبحر أسطول ريتشارد من بسينا إلى رودس حيث بقي بها حتى أول مايو ١١٩١م/ ٥٨٧هـ ، ثم حدث أن استولى على قبرص.

ولم يلبث أن وصل إلى عكا الأمير فردريك السوابي على رأس البقية الباقية من حطام حملة فردريك باربااروسا الألمانية ، فكان لوصول هذه القوة أثرها في شد أزر الصليبيين وتشديدهم الحصار على عكا ومن بها من المسلمين وقيامهم بالهجمات على معسكرات جيش صلاح الدين أواخر سبتمبر سنة ١١٩١م[(٣)] .

جهود صلاح الدين في فك الحصار عن عكا :

استنفر صلاح الدين المسلمين وأمراءهم للجهاد في سبيل الله ووقف – رحمه الله – بجموع المسلمين يكرون على الأعداء ، والحرب بينه وبين الصليبيين

(١) الصلابي ، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي ، ٢/ ٥٢٠-٥٢١.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٥٤٤.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٧٧.

سجال ، كلما دمر لهم كتيبة استبدلوا بها كتائب ، وأوربا هناك تقف وراء جيوشها وتدعمها وتمدها بالمال والسفن والرجال في كل حين ، والحقد على المسلمين يملأ قلبها ، ولما اشتد الحصار على عكا أصبح هم صلاح الدين الكبير أن يمد المحاصرين بالمال والنفط والرجال، لأن إمدادات الصليبيين تصل إليهم بسهولة وإمدادات المسلمين المحاصرين لا تصل إلا بصعوبة شديدة ، فلم تبق حيلة أو خدعة حربية يفكر بها القادة ، إلا وقد استخدمها صلاح الدين[١] .

وقد أعد صلاح الدين ببيروت بطسة كبيرة وعمرها ، وأودعها أربع مئة غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا ؛ حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة ببيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزي الفرنج ، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تُرى من بُعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم واعترضوهم من الحراقات والشواني وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أو لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا : لا لم نأخذ البلد بعد، فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد ، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر ، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها ، فاشتدت البطسة الإسلامي في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرجًا عظيمًا ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[٢] .

وفي العشر الأواسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٦٠-١٦١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٥٢-٥٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٣٠-٣٣١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٦٠-١٦٠.

والمقدم على الأسطول ، هو والحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلدة ميرة إلا قدر ما يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير ، فأسرها يوسف – صلاح الدين – في نفسه ولم يبدها لخاص أو عام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، وتضعف به قلوب المسلمين ، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بُطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير ، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى النويتة بها الرياح التي تحملها إلى عكا ، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان ، وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون به الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد ، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ، ويدعو في قلبه والله يثبته ، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتد ، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا سالمين بحمد الله إلى ميناء البلدة وتلقاهم أهل عكا تلقي الأمطار عن جدب[1].

ومن نوادر القتال على عكا أن عوامًا مسلمًا كان يقال له عيسى ، كان يدخل بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاث أكياس فيها ألف دينار ، وكُتب للعسكر ، وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره – على المسلمين – وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرف المسلمون بوصوله ، فأبطأ الطائر ، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتًا غريقًا ،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٣١-٣٣٢ ، ابن العماد الكاتب ، الفتح القسي ، ص٤١٧

فتفقدوه، فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رئي من أدى الأمانة في حال حياته وقدر الله أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل[١].

قال العماد : فعدم – يعني عيسى – ولم يسمع له خبر ، ولم يظهر له أثر ، فظنت به الظنون ، وما تيقنت المنون ، وكانت له لا شك عند الله منزلة ، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجملة محتملة ، فوجد في عكا ميتًا قد رماه البحر إلى ساحلها ، وبرأه الله مما قالوا ، فذهب حق اليقين من الظنون بباطلها[٢].

ولما شرع الصليبيون في نصب المجانيق على المدينة وحشد الكثير من وسائل الحصار والهجوم من الدبابات والعرادات (وضايق أهل عكا أشد مضايقة) ، ومع ذلك فقد خرج المجاهدون المسلمون من عكا وهاجموا الصليبيين وأحرقوا المجانيق والعرادات (فاحترق جميعها) وأسر المسلمون من الصليبيين خلق كثير من حملتهم أربعة من المعروفين ، وقتلوا منهم أيضًا سبعين صليبيًا . حاول الصليبيون إعادة بناء مدافعهم من جديد فلم يتمكنوا من ذلك ؛ لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق ، فعمل الصليبيون تلاً صناعيًا من التراب في مكان بعيد عن المدينة بحيث يمكنه من الرمي وهو يكشف عن عكا ، ثم إن الصليبيين كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه إلى البلد ، فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا منجنيقين ، وصار التل سترة لهم[٣].

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وآمن العدو من أن يضرب مصاف وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في

---

(١) ابن العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٤١٧-٤٢٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٦٠.

(٢) ابن العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص ٤١٧-٤٢٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢/ ١٦٠.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٥٢ ، العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٤١٥- ٤١٦ ، ابن شداد، سيرة صلاح الدين ، ص١٣٤-١٣٥.

العود إلى بلادهم ليأخذوا نصيبًا من الراحة ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة ، واستغل السلطان بإدخال البدل إلى عكا ، وحمل الميرِ والذخائر وإخراج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلاً ونهارًا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة ٥٨٧هـ ، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها ، وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ، ومن كان بها من الأمراء ، ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء وأعيان من الخلق ، وتقدم إلى كل من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة[١].

سقوط عكا في أيدي الصليبيين للمرة الثانية ٥٨٧هـ/١١٩١م :

وقد طال حصار الصليبيين لعكا ، وخلال هذه الفترة حاول صلاح الدين أن يفك حصار الصليبيين عن المدينة وإيصال المعونات إلى المحاصرين بها ، ودخل مع الصليبيين في أكثر من قتال ، ولكن تفوق الصليبيين البحري وكثرة عددهم صعبت من مهمة صلاح الدين في استنقاذ المدينة.

وفي تلك الأثناء كان الملك الفرنسي قد وصل عكا التي كان الصليبيون يحاصرونها والمسلمون يدافعون عنها ، وعلى الرغم من قلة عدد جيش فيليب أوغسطس ، فإن وصوله وظهوره أمام عكا في ٢٠ أبريل ١١٩١م / ٥٨٧هـ ، أشعل الحماس في نفوس الفرنج فشددوا الحصار على عكا ، في حين ازداد موقف المسلمين سوءًا وتلاشت روحهم المعنوية ، وضعفوا عن مواصلة القتال ، وضجرت العساكر من كثرة القتال ، ورحل صاحب سنجار ، وصاحب الموصل[٢].

---

(١) الصلابي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٥٥٣.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٨٣-١٨٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٥.

ثم كان وصول ريتشارد قلب الأسد إلى عكا في ٨ يونيو ، فازدادت قوة الصليبيين ، في الوقت الذي ازدادت حالة المسلمين المحاصرين في عكا سوءًا أمام ضغط الجموع الصليبية التي شددت الحصار ، وأدرك صلاح الدين ما كانت تعانيه حامية المدينة من شدة وضغط تحت وطأة الحصار فاشتد في الزحف والحث على القتال ، وصار يطوف بين الجند بنفسه ، وهو ينادي : "يا للإسلام"[(١)].

ولم تفلح محاولات صلاح الدين في استنقاذ عكا وفك حصارها ، ولم تجد حامية المدينة بد من الاستسلام ، واضطر قراقوش والمشطوب الكردي إلى طلب الاستسلام وتسليم المدينة ، وفي يوم ١٧ جمادى الآخرة / ١٢ يوليو استسلمت حامية المدينة للصليبيين رغم اعتراضات صلاح الدين. وكانت شروط الاستسلام تنص على خروجهم سالمين مقابل أن يعيد صلاح الدين إلى الفرنج صليب الصلبوت، وأن يطلق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الفرنج تحددت أسماؤهم ، وأن يدفع فدية قدرها مائتي ألف ينرنت[(٢)].

وهكذا استسلمت المدينة بعد أن صمدت عامين تحت الحصار الخانق الأمر الذي أحدث موجة من الحزن والأسى بين عامة المسلمين ، ومما زاد من الحزن والألم غدر الصليبيين ونكثهم بوعودهم وعهودهم ، فنقضوا شروط الاستسلام، فأسروا من كان في عكا من المسلمين وكانوا ألوفًا ، وتقول المصادر أن ريتشارد قلب الأسد دفعه تهوره وحمقه إلى أن ساق أسرى المسلمين الذين بعكا – وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم – إلى تلك العياضة وأوثقهم بالحبال ، ثم حمل الصليبيون عليهم حملة واحدة وقتلوهم عن آخرهم وذلك في ٢٧ رجب ٥٨٧هـ/ ٢٠ أغسطس ١١٩١م[(٣)].

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٦٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،٢/ ٦٧٩، ٦٨١.
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٥٩ -٣٦٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،٢/ ٦٨٢.
(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٨٨ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٥ ، ابن الأثير الكامل، ١٢/ ٧٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٦٣-٣٦٤ ، العماد ، الفتح القسى ، ص٥٢٨-٥٣٠

وشتان بين السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد مع أسرى المسلمين بعكا ، وبين ذلك السلوك الإنساني الذي كان صلاح الدين قد اتبعه في مواقف كثيرة ، منها ما فعله بأسراهم عقب انتصاره في حطين ، ثم عقب انتصاره ودخوله بيت المقدس، إذ حرص دائمًا على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين[1].

والجدير بالذكر أنه بالرغم من نجاح الصليبيين في الاستيلاء على عكا، وبالرغم من تكتلهم جميعًا في تشديد الحصار على المدينة والاستيلاء عليها ، إلا أن ذلك كان يخفى وراءه خلافات واختلافات كبيرة كانت تنذر بفشل هذه الحملة في أي وقت من الأوقات ، وربما كان باستطاعة الصليبيين أن يستولوا على عكا بدون الانتظار لمدة عامين كاملين لولا عدم تعاونهم فيما بينهم بسبب اختلاف طوائفهم وأصولهم ومشاربهم ، بالإضافة إلى ما نشأ عندئذ من خلاف شديد ونزاع مرير بين كونراد دي مونتفرات وجاي لوزجنان بسبب التنافس حول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، وذلك أن سيبل ملكة بيت المقدس وزوجة جاي ماتت أمام عكا في أكتوبر سنة ١١٩٠م ، وبذلك صارت الوريثة الشرعية لعرش المملكة هي أختها الأميرة إيزابيل الابنة الثانية لعموري الأول ملك بيت المقدس الأسبق . ولم يكن لجاي لوزجنان – حسب قانون مملكة بيت المقدس – أي حق شرعي في العرش بعد وفاة زوجته ، ولاسيما أنه كان مكروهًا من الأمراء لضعفه وسوء تصرفه في الأحداث التي صحبت كارثة حطين ، لذلك أسرع الأمراء إلى تطليق الأميرة إيزابيل من زوجها الخامل أونفروي الرابع تورون ، وتزويجها في نوفمبر ١١٩٠م من كونراد دي مونتفرات، وهو الرجل القوي الذي اعتقد الأمراء كفايته وقدرته على إحياء مملكة بيت المقدس.

---

(١) عبد الله سعيد ، صلاح الدين والصليبيون ، ص٢٦٨.

ولا شك أن هذا الإجراء لم يرض جاي لوزجنان ، وشيعته وبخاصة الداوية - مما أحدث انشقاقًا خطيرًا بين صفوف الصليبيين أمام عكا لولا وصول فيليب أوغسطس سنة ١٩٩١م ، فجمع شمل الصليبيين تحت زعامته ووجه جهودهم جميعًا لحرب المسلمين(١) .

ومن صور الاختلافات في صفوف الصليبيين أنه لما وصل ريتشارد قلب الأسد بقواته إلى صور في ٦ يونيو رفضت حامية المدينة السماح له بدخول المدينة ، وذلك طبقًا للتعليمات التي تركها لهم فيليب وكونراد ، ولذلك لم يجد ريتشارد بدًا من الالتجاء إلى عكا فوصلها يوم ٨ يونيو ١١٩١م.

وحتى في أثناء الحصار وهم مجتمعون أمام عكا ، إذ استمر الخلاف الحاد بين كونراد وجاي ، مما جعل كونراد يترك الصليبيين أمام عكا ويهرب إلى صور، وظل الخلاف قائمًا بين كونراد وجاي حتى بعد سقوط عكا ، بل ازداد تفاقمًا إذ تمسك جاي بحقه - بوصفه الملك السابق الذي سبق تتويجه في بيت المقدس - في حين نادى كونراد بشرعية حقه بوصفه زوج إيزابيل ووريثة الملكة ، وازداد ذلك النزاع خطورة واتسعت رقعته عندما استعان جاي لوزجنان بريتشارد ملك إنجلترا فضلاً عن الداوية ، في حين استعان كونراد بأمراء مملكة بيت المقدس السابقين ، وأيدهم فيليب ، وأخيرًا عقد الصليبيون مجلسًا كبيرًا لبحث تلك المشكلة في ٢٧ يوليو سنة ١١٩١م ولكنهم لم يصلوا إلى حل موفق يرضي الطرفين(٢) .

وحتى فيليب ملك فرنسا فلم يلبث طويلاً بعد سقوط عكا وآثر العودة إلى بلاده بسبب الخلافات مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، لأن فيليب شعر بأن ريتشارد سحب بساط الزعامة والريادة من تحت أقدامه وأن مكانته اهتزت

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٧٨.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٨٢.

بسبب ريتشارد ، الذي كان من الناحية القانونية تابعًا إقطاعيًا له ، ولكن فاقه في القوة والشدة في الشرق ، واعتذر بالمرض وأبحر من صور في ١٣ أغسطس قاصدًا بلاده (١).

وقد حدث أثناء حصار عكا مواقف بطولية تدل على روح الفداء والشجاعة التي تحلى بها المسلمون في قتال الصليبيين ، من ذلك أن صلاح الدين أمر بتعبئة سفينة كبيرة (بطسة) في بيروت وشحنها بالآلات والأسلحة والمؤن والرجال ؛ لإمداد حامية عكا عن طريق البحر ، ولكن السفينة الإسلامية لم تكد تصل على مياه عكا حتى حاصرتها سفن ريتشارد ملك إنجلترا وأحاطت بها من كل جانب، وعندئذ أبى رجال السفينة الإسلامية الاستسلام وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الصليبيين حتى أحرقوا إحداها ، وعندما يئس المسلمون المقاتلون في السفينة من النجاة ، قال مقدمهم : "والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئًا فأغرقوا سفينتهم وغرقوا جميعًا وهم ستمائة وخمسون رجلاً استشهدوا كرامًا (٢).

وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعًا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طوال تلك الليلة ، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : إنه رحيم القلب – صلاح الدين – وقد أذنا لك في الخروج إليه ، فاخرجي واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث للجند الإسلامي ، وأخبرتهم بواقعتها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، فبكت بكاءً شديدًا ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن خبرها وقصتها ، فأخبروه فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٦٣ ، عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص٧١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٦٥ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٦١ ، العماد ، الفتح القسي ، ص٤٨٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٥١.

الرضيع ، فمضوا يبحثون عنه فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه ، ولم يزل واقفًا - رحمه الله - حتى أحضر الطفل وسلم إليها فأخذته وبكت بكاءً شديدًا وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها ، فحملت على فرس ، وألحقت بمعسكرهم مع طفلها ، فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والفرق الكبير بين صلاح الدين وقادة الصليبيين [١].

وكان قد طلب ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد الاجتماع بصلاح الدين ، ثم فتر بعد أيام ، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر أنها قد ضعفت وتغيرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقدي به ثم تُهدى ، ففهم صلاح الدين أن ريتشارد قلب الأسد محتاج ذلك لنفسه ، لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرًا مغربيًا عنده ، فأطلقه السلطان صلاح الدين ، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج ، فأرسل إليه ما طلب [٢].

على أية حال كان لسقوط عكا تأثيره الكبير على وضع المسلمين ، وعلى الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية إلا أن هذا الحدث أضعف المسلمين كثيرًا بحيث ركنوا بعده إلى الدفاع السلبي ، والذي من مظاهره تخريب بعض القلاع والحصون كي لا تقع بين يدي العدو ، ثم يجعل منها مرتكزًا للهجوم على المناطق الإسلامية ، صحيح أن فشل جيش صلاح الدين في حصار صور يعتبر بداية لخط الانكسار الإسلامي ، إلا أن هذا الفشل يوضع في التحليل الأخير ضمن إخفاقات جيش صلاح الدين ، وليس ضمن انتصارات الصليبيين ، والقصد من ذلك أن ما حصل في صور هو عدم نجاح حصار المسلمين لإحدى المدن ، أما في عكا فقد هزم المدافعون عنها وانتصر الصليبيون [٣].

---

(١) الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٦١.

(٢) الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٦١.

(٣) محسن محمد حسين ، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، ص٤٦٨.

المواجهة بعد سقوط عكا :

مما لا شك فيه أن استيلاء الصليبيين على عكا قد رفع من روحهم المعنوية ، وطمعوا في الذهاب إلى أكثر من عكا ، وقد تكون راودتهم الآمال في الاستيلاء على بيت المقدس ، بيت القصيد ، ولم يلبث ريتشارد قلب الأسد أن شعر بالزهو والفخر بعد الاستيلاء على عكا ، وقد خلا له الجو من أي منافسين أقوياء بعد رحيل ملك فرنسا ، فأخذ يفكر في استرداد شاطئ فلسطين من عكا إلى عسقلان ، فسار بالجيش بحذاء الساحل نحو مدينة عسقلان في أواخر أوغسطس ١١٩١م ، في ظل ظروف غاية في الصعوبة بسبب شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب القرى والبلاد التي مر بها ، كما أن صلاح الدين كان يهاجمهم بقواته من الخلف فيقتلون ويجرحون ويأسرون العديد منهم ، ثم سار الصليبيون إلى قيسارية (والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم ما قدروا عليه) ، فلما اقترب الصليبيون من قيسارية (لاصقهم المسلمون ، وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيرًا).

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية استأنفوا زحفهم نحو قيسارية التي استولوا عليها هي الأخرى في نهاية أغسطس سنة ١١٩١م ليجدوها مخربة تمامًا بحيث لم يستطيعوا الحصول منها على زاد أو مال، فلما اقترب الصليبيون من يافا باغتهم المسلمون بقيادة صلاح الدين وأوقعوا بهم خسائر كبيرة ، إلا أن ذلك لم يمنع الصليبيين من الاستيلاء على يافا ، التي لم يكن بها أحد من المسلمين ، ولما اقترب الصليبيون من أرسوف دارت بين صلاح الدين وريتشارد في سبتمبر ١١٩١م معركة كبيرة حيث أحاط المسلمين بالصليبيين وحملوا عليهم حملة شديدة ولحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير ، ولكن الصليبيين اجتمعوا من جديد وهاجموا المسلمين ، وحملوا عليهم جملة واحدة ، وتحولت المعركة بسرعة في صالح الصليبيين ، وتفرق كثير من جند المسلمين (فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد ، وقتل عدد كبير ،

والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين) ، فلو علم الصليبيون أنها هزيمة لاتبعوهم ، واستمرت الهزيمة وهلك المسلمون (لكن كان بالقرب من المسلمين منطقة كثيرة الشجر فدخلوها ، وظن الصليبيون أنها مكيدة ، فعادوا ، وكان ذلك رحمة بالمسلمين) (١).

كان لانتصار الصليبيين في أرسوف نتائجه العميقة الأثر ، لأنه بعث في نفوس الصليبيين الثقة بعد الهزائم التي أخذت تترى عليهم منذ موقعة حطين. ويتخذ المؤرخون موقعة أرسوف سنة ١١٩١م نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تشير إلى أن تيار الحرب الذي استمر في صالح المسلمين بالشام منذ سنة ١١٧٠م بدأ يتحول بعد أرسوف ولمدة ستين سنة – أي حتى سنة ١٢٥٠م تقريبًا – في صالح الصليبيين (٢).

هذه الهزيمة تركت جرحًا غائرًا في قلب صلاح الدين لم تستطع الأيام أن تداويه ، ولا يرى له الأطباء اندمال ، وصلاح الدين كان في قلبه من تلك الواقعة مالا يعلمه إلا الله ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب (٣).

ولم تتوقف خسائر صلاح الدين وجيشه على الهزيمة في أرسوف بل تغيرت نفسية الجيش ، وبدأ يبدى أفراده علامات الملل والضجر من الحرب ، فباستثناء الجيش المصري وجيش الموصل ، بدأ الآخرون يتبرمون من طول الحرب، وظهر ذلك جليًا بعد أرسوف ، فقد أراد صلاح الدين أن يركز جهوده في الدفاع عن عسقلان ولكن أمراؤه أشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له: "قد رأيت ما كان بالأمس منا ، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم لصدهم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٦٩-٧٠ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٧٥-١٨٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٦٧-٣٦٨ ، العماد ، الفتح القسى ، ص٥٤١ -٥٤٥، المقريزي، السلوك ، ١/ ١٠٥ -١٠٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٠.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٨٩ .

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٧٥-١٨٤.

عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزح عنها فينزلون عليها ، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كانا عليه على عكا ، ويعظم الأمر علينا ، لأن العدو قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ، وضعفنا نحن بما يخرج من أيدينا ، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها" . ولكن صلاح الدين لم تسمح له نفسه تخريب عسقلان والتفريط فيها وأراد أن يدافع عن المدينة ، ولكن أمراؤه خالفوه في ذلك الأمر ، وقالوا له : "إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا"(١).

فلما رأى صلاح الدين إجماع رأي الأمراء على ضرورة تخريب عسقلان حتى لا يتركها عامرة للصليبيين فيستغلونها في الاستيلاء على القدس وفي قطع طريق مصر ، سار إليها وأمر بتخريبها وألقيت حجارتها في البحر (وهلك فيها من الأموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره) وسط بكاء الناس أسفًا وغمًا لخرابها.

ولم يكتف صلاح الدين بتخريب عسقلان ، بل سار إلى الرملة (فخرب حصنها وخرب كنيسة لد) ثم توجه إلى بيت المقدس ، فأشرع على أعمال الدفاع عنها ، لعلمه أنها غاية مراد الصليبيين ومقصدهم ، ثم عاد بعد ذلك إلى معسكره قرب الرملة(٢).

محاولات الصلح وعقد الهدنة بين الصليبيين والمسلمين:

حدث قبل موقعة أرسوف أن أرسل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وقائد الجيوش الصليبية رسالة إلى الملك العادل من أجل الاجتماع معه ، وقد رحب

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧٠-٧١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٨٦-١٨٨ ، العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٥٥٠-٥٥١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٨٧-١٨٨، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩١-١٩٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٦٩-٣٧٠ .

العادل بهذا العرض ، واجتمعا فأشار ريتشارد إلى الصلح ، وكان مجمل ما قال: "إنه قد طال بيننا القتال ، ونحن جئنا من أجل نصر أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه" ، فقال العادل : "على ماذا يكون الصلح؟" ، فقال : "على أن يسلم إلى أهل الساحل (الصليبيين) ما أخذتم من البلاد" ، فرفض الملك العادل ذلك وقال له : "إن دون ذلك قتل كل فارس وراجل" . فرجع ريتشارد غاضبًا[١].

ويقصد الملك العادل – الذي ناب عن صلاح الدين في مفاوضات الصلح – بموقفه هذا : إن إعادة أرض الإسلام إلى الصليبيين لن يكون ولو كلفهم استشهاد كل الرجال والفرسان المسلمين[٢].

وثمة حل آخر طريف اقترحه ريتشارد في ذلك الوقت لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام ، وهو أن يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية وأخت ريتشارد ، وكانت عزيزة عليه كبيرة القدر . وكان هدف ريتشارد من ذلك الزواج السياسي أن يشترك الزوجان – العادل الذي يمثل الجانب الإسلامي ، وجوانا التي تمثل الجانب الصليبي – في حكم فلسطين ، بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية ، وبذلك ينتهي الإشكال! وفي هذه الحالة يستولى المسيحيون على صليب الصلبوت ويكون لهم بكنيسة القيامة قس ويمكنوا من زيارتها بشرط ألا يحملوا السلاح ، ويرضى العادل مقدمي الفرنج والدواية والإسبتارية ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون[٣].

ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الاقتراح ترحيبًا كبيرًا ، ورأى في ذلك عين الصواب ، وربما رأى العادل – وهو الرجل الثاني في الدولة الأيوبية

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٦٧.

(٢) فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٢٢٦.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٢ ، العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٥٥٥-٥٥٧، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٣.

بعد أخيه صلاح الدين – في ذلك الحل ضمانًا لتوحيد المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت لواء واحد ، وإقرار الأمور في تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الفريقين . على أن الأغرب في الموضوع هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها في صراحة تامة . وعلى ما يبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك إنجلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه وأن هذا الأمر هو محض مكر وخديعة من ريتشارد(١) .

ولكن المفاجأة أن اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان ودخلوا على جوانا أخت ملك إنجلترا ، وأنكروا عليها الزواج من العادل فامتنعت من الإجابة ، وخوفوها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة وفيه عصيان للمسيح وإغضاب له ، فاعتذر الملك ريتشارد للعادل وشرط عليه الدخول في دين النصرانية حتى يتم الزواج ، وعندئذ عرف العادل أنها خديعة وصرف النظر عن الموضوع(٢) .

ثم أعاد ريتشارد الكرة وطلب إجراء الصلح وعقد الهدنة مع صلاح الدين ، وأرسل إليه يقول له : "إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد ، وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم ، فيمن علينا السلطان ، ونستريح من هذا العناء الدائم" .

فأرسل صلاح الدين جوابًا لملك إنجلترا يقول فيه:

"القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧٢ ، العماد الكاتب، الفتح القسي ، ص٥٥٥-٥٥٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٣.

بين المسلمين ، أما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، أما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها"[(١)].

وبعد فشل هذه المحاولات ، فقد عاد الفريقان إلى الاقتتال من جديد ، وجرى بين المسلمين والصليبيين وقعات كثيرة ، منها وقعة في ناحية يازور ، وانتصر فيها المسلمون[(٢)].

واشتدت هجمات البدو والمسلمين على جيش الصليبيين المتجهون إلى اللد والرملة ، وهما أول مدينتين هامتين على الطريق بين يافا وبيت المقدس، وهو الطريق الذي أصبح مفتوحًا أمام الصليبيين عقب انتصارهم في أرسوف . وقد أصيب الصليبيون بخيبة أمل شديدة عندما وجدوا أن صلاح الدين قد خرب الرملة فاضطروا إلى نصب معسكرهم بين أنقاض المدينة وخرائبها . أما صلاح الدين فقد عسكر في النطرون – في منتصف الطريق إلى بيت المقدس لحمايتها من الصليبيين – وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد إلى النطرون أسرع إلى هدمها – كما هدم الرملة من قبل – واتجه في سرعة نحو بيت المقدس لتقوية استحكاماتها وإعدادها للدفاع عنها ، فوقع الاهتمام في عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق[(٣)].

وكانت تدابير صلاح الدين الآتية للدفاع عن بيت المقدس تقوم على :

١- قسم أسوارها بين أمرائه وجهزهم بما يحتاجون إليه للمقاومة.

٢- أفسد مصادر المياه المحيطة بالمدينة بحيث لم يبق حول بيت المقدس ما

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٢-٣٧٣ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٣.
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩١.
(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٧.

يُشرب أصلاً ، مما سيجعل العدو في حالة عطش شديد إذا حاول الهجوم عليه.

٣-استدعى القوات من الأطراف ، فجاءه الملك الأفضل مع العساكر الشرقية وبدر الدين دلدرم الياروقي من التركمان وعز الدين بن المقدم.

٤-قيام فرسان المسلمين بشن الغارات المفاجئة والخاطفة على معسكر الصليبيين[1] .

ولم يلبث ريتشارد أن طلب إجراء المفاوضات من أجل عقد الهدنة وإجراء الصلح ، حيث اجتمع بالملك العادل ، وطلب منه الاجتماع بصلاح الدين ، فامتنع الملك العادل ، وقال : "إن الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة ، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع"[2] ومن ثم تعرضت المفاوضات بين الجانبين للتعثر من جديد.

وبعد فشل مفاوضات الهدنة بين المسلمين والصليبيين رأى ريتشارد أن يهاجم القدس ويأخذها بالقوة ، وتمكن وهو في الطريق إليها من احتلال النطرون ووداي نوبة في سهولة ، وصار على مقربة من بيت المقدس ، وكان ذلك في نهاية عام ١١٩١م ، وقد زحف الشتاء ببرده وعواصفه ، وحالت الأمطار والأوحال بينهما ، في الوقت الذي أخذ البدو والأعراب – بإيحاء من صلاح الدين – يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبي ويقطعون خطوط مواصلاته (وكانت سرايا المسلمين طوال مدة مقام صلاح الدين في القدس تهاجم العدو)، فتارة تواقع طائفة منهم ، وتارة تقطع الميرة عنهم ، ورغم ذلك فقد تحمل الصليبيون العناء في سبيل الوصول إلى بيت المقدس وهي المدينة الحبيبة إلى النفوس.

---

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٩٦ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٧١.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤ ، محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص١٩٤.

ويصف المؤرخون الغربيون مدى فرح الصليبيين عندئذ وحماستهم لرؤية بيت المقدس ، مما أعاد للأذهان ذكرى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م ، وفي تلك الأثناء قدم إلى صلاح الدين العساكر والإمدادات من مصر (فقويت نفوس المسلمين بالقدس) ، وأمر صلاح الدين بتحصين القدس وعمارة أسواره وحفر خنادقه ، وأرسل إلى البلاد يجمع الرجال الذين يقومون بهذه الأعمال (وعمل فيه السلطان بنفسه ، ينقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء)[1] .

سار ريتشارد بجموع الصليبيين الذين تغمرهم الفرحة العارمة والآمال العريضة في دخول بيت المقدس – رغم ما يعانون من آلام وصعوبات – فلما اقترب الصليبيون من بيت المقدس في ديسمبر سنة ١١٩١م وجدوا أن صلاح الدين قد أحكم تحصيناتها "فقسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد ، فقرر ريتشارد ترك مشروع وحلم الاستيلاء على بيت المقدس والتراجع بالصليبيين إلى الرملة ويبنا ، ثم ما لبث أن سار بالجيش في ٢٠ يناير ١١٩٢م إلى عسقلان حيث شرع في عمارتها وتحصينها[2] .

الخلافات الصليبية :

جاء هذا التراجع من ريتشارد والصليبيين عن بيت المقدس فرصة لإعادة ترميم ما تهدم من جدار الصف الصليبي الداخلي ، حيث كانت الخلافات والاختلافات بين زعماء الحملة الصليبية الثالثة تنذر بانشقاق خطير ، فبينما رحا الحرب تدور بين الصليبيين والمسلمين أرسل كونراد دي مونتفرات إلى

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧٤ ، العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٤ -١٩٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٧٤-٧٥ ، العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ٥٨٣-٥٨٤ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٢-٣٨٣، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٦.

صلاح الدين يطلب مصالحته ويتعهد بمحالفته ضد بقية الصليبيين وبمساعدته على استرداد عكا إذا وافق صلاح الدين على إعطائه صيدا وبيروت[١] .

ولكن لم يفت على صلاح الدين مكر وخداع كونراد ، حيث أدرك الأخير أن ريتشارد بدأ يظهر أطماعه في صور وتأييده المستمر لمنافسه على عرش مملكة بيت المقدس جاي لوزجنان ، فانفصل كونراد عن الصليبيين في عكا عاد إلى صور للاحتفاظ بها لنفسه ، وأراد أن يستغل صلاح الدين لتحقيق أطماعه الشخصية. لذلك أرسل صلاح الدين رده على طلبه بالموافقة بشرط أن يبدأ كونراد بمجاهرة الصليبيين العداء والشروع في حصار عكا أولاً ، وتسليم من في صور وعكا من أسرى المسلمين ، بعدها يسلمه صلاح الدين بيروت وصيدا ، ولكن المركيز لم ينفذ من ذلك شيء ، إلا أن الأخبار حينما وصلت إلى ريتشارد وأسرع بالعودة إلى عكا وترتيب أموره خوفًا من قيام هذا الاتفاق بين صلاح الدين وكونراد.

وبالرغم من أن كونراد كان مقيمًا في صور لا يغادرها إلا للضرورة إلا أنه يراقب الأحداث عن كثب ، فلما اقترب ريتشارد من بيت المقدس وأعلن عزمه الاستيلاء عليها ويعيد منافسه جاي لوزجنان إلى عرشها ، ولذلك أسرع إلى مراسلة صلاح الدين .

ولما دارت المفاوضات بين ريتشارد والملك العادل أعاد كونراد الكرة من جديد ، وحاول الاتصال بصلاح الدين ، وأرسل يخطب ود صلاح الدين ويعقد التحالف معه ضد الصليبيين ، ولكن صلاح الدين لم يكن يطمأن إلى نوايا كونراد ، ولم يطمئن إلى عهوده التي طالما نكثها[٢] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩١.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٧٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩٦.

ولم تلبث أن اتسعت دائرة الخلاف بين كونراد وجاي حتى شملت رعايا المدن الإيطالية بالشام ، فانضم الجنوية إلى جانب كونرادى مونتفرات ، في حين ظاهر البيازنة جاي لوزجان ، وكان أن دبر الجنوية في عكا مؤامرة في فبراير سنة ١١٩٢م للاستيلاء على عكا وتسليمها إلى كونراد ، ولكن البيازنة قاومهم ، وخف ريتشارد لنجتهم ، وتم إحباط المؤامرة . وإذا كان ريتشارد استطاع التوفيق بين البيازنة والجنويين بعد ذلك فإن الفتق بين ريتشارد نفسه وكونراد دي مونتفرات كان يتعذر رتقه في سهولة.

وفي هذا الوقت وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده ، مما تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده ، غير أنه كان من المتعذر على ريتشارد أن يبرح الشام قبل أن يصل إلى حل مع صلاح الدين من ناحية وحل النزاع الذي استحكم من ناحية أخرى. لذلك رأى ريتشارد أن يعقد مؤتمرًا عامًا من الأمراء والفرسان الصليبيين لاستفتائهم في مشكلة : أيهما أحق بعرش مملكة بيت المقدس: كونراد أم جاي ؟ ! وكان أن عقد المؤتمر في عسقلان في شهر أبريل سنة ١١٩٢م ، وعندئذ أجمع الأمراء إجماعًا شبه تام على اختيار كونراد لعرش مملكة بيت المقدس ، لما لمسوه فيه من صفات حربية بارزة وشجاعة نادرة تضمن للصليبيين في الشام قسطًا من الأمان ، ومهما يكن من أمر فإن كونراد لم يهنأ بتلك الثقة طويلاً إذ وجد مقتولاً في ٢٨ أبريل ١١٩٢م ، ويقال أنه قتل بيد أحد الفدائيين من الباطنية ، أوفده شيخهم راشد بن سنان لينفذ تلك الجريمة بتحريض من ريتشارد[١].

ولم يمض وقت طويل على وفاة كونراد – بل مقتله – حتى تزوج هنري دي شامبني – الذي تربطه علاقة قرابة بريتشارد من إيزابل أرملة كونراد دي مونتفرات وريثة مملكة بيت المقدس في أوائل مايو ١١٩٢م أي بعد مقتل زوجها

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩٦ –٦٩٧.

بيومين ، وبذلك تكون قد حلت مشكلة عرش المملكة الصليبية حلاً سريعًا موفقًا [1].

فشل ريتشارد في الاستيلاء على بيت المقدس:

بعد أن هدأت رياح الخلافات الصليبية انطلق ريتشارد محاولاً الاستيلاء على بيت المقدس ، واستغل سيطرته على عسقلان والداروم في قطع طريق المواصلات والإمدادات بين مصر وجيش صلاح الدين ، حيث كان الجيش قد استعد للسير من مصر إلى بلاد الشام بناء على طلب صلاح الدين ، فكتب السلطان إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فخرج العسكر المصري من مصر في هيئة قافلة كبيرة تحت قيادة فلك الدين - أخي العادل لأمه- ، ولكن خيانة الأعراب سربت أخبار الجيش المصري إلى الصليبيين ، ولما علم صلاح الدين بنية ريتشارد الإيقاع بالعسكر المصري ومباغتته ، أسرع لنجدتهم وتحذيرهم من الصليبيين ، إلا أن ريتشارد كان أسرع حركة وباغت القافلة المصرية أثناء ليل ٢٣ يونيو ١١٩٢م ، "فكبسهم قرب الصباح" ، فبغت الناس ، ووقع عليهم بخيله ورجله ، وكان الشجاع الأمير القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانقسمت القوات المصرية ثلاثة أقسام : قسم قصد الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغل في البرية مع جماعة أخرى من العرب ، وقسم استولى عليه الصليبيون فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم.

وكانت وقعة شنيعة لم يصب الإسلام مثلها منذ فترة مديدة ، وتبدد الناس في البرية ، وردوا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه ، وجمع الصليبيون ما أمكنهم جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر صنوف الأموال ، حتى قيل أن عدد الجمال وحدها بلغ ثلاثة آلاف جمل خلاف الأحمال ، فلا عجب أن

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٦ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٦٩٨.

يعتبرها المؤرخون المسلمون "وقعة شنعاء" ومما يؤكد ذلك الانطباع لدى المسلمين حالة الحزن الشديدة التي ألمت بصلاح الدين حتى أنه لم يستطع أحد أن يخرجه من حالة الحزن هذه حتى أقرب المقربين إليه[(١)].

وكان من نتائج هذه الهزيمة أن ارتفعت معنويات الصليبيين (وضح عزمهم على قصد القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والأزواد) وأسرع ريتشارد إلى تقوية الحراسة عند اللد حتى لا ينقطع وصول المؤن إلى معسكر الصليبيين ، وفي الوقت نفسه أرسل إلى صور وطرابلس وعكا (يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس). وأقام الصليبيون فرقة من جيشهم على بلدة اللد يحفظون الطريق ، ويقطعون على المسلمين إمداداتهم لعلمهم أن قوات صلاح الدين قليلة خصوصًا بعد القضاء على القوات المصرية التي جاءت نجدة للمسلمين[(٢)].

وأخذ صلاح الدين يستعد لمواجهة التحرك الصليبي والهجوم على بيت المقدس حيث قسم الأسوار على الأسوار (وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار) وأخذ يعمل على إفساد المياه في محيط بيت المقدس ، فخرب الصهاريج والعيون والآبار ، بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً ، وأرض القدس لا يطمع في حفر بئر فيها لأنها جبل عظيم وحجر صليب[(٣)].

وعلى ما يبدو أن الأمراء والأجناد الذين حول صلاح الدين بدؤوا يشقون له عصا الطاعة ، وبدأوا يراجعونه في قرارته ، من ذلك أنه لما أخذ يعمل على تحصين بيت المقدس وإعدادها للحصار أنكر عليه هؤلاء الأمراء والأجناد هذا

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٨ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٩.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٨ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ١٠٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٥.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٥.

الموقف وخشوا على أنفسهم أن يحدث لهم ما حدث لغيرهم في عكا وقالوا له : لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحصر وتجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع[(١)] .

ومما يؤكد هذا الرأي أن صلاح الدين جمع هؤلاء الأمراء والأجناد وخطبهم وحثهم قائلاً : "الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذمتكم ، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لو يتم أعنتكم – والعياذ بالله – طوى البلاد كطي السجل للكتاب ،وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام عليكم) ، ولم يكن صلاح الدين هو الوحيد المتحدث بل سبقه إلى ذلك ابن شداد – وهو شاهد عيان بصفته كان مرافقًا لصلاح الدين في حروبه – الذي لم يخرج كلامه عن هذا الإطار.

فجاء الرد من بعض الأمراء والأجناد بتلبية دعوة صلاح الدين بل والاعتراف بفضله عليهم وما وصلوا إليه من مراتب وإقطاعيات ، وهذا دليل على إنكارهم مما كان من غيرهم من نكران وخروج على صلاح الدين ، فقال الأمير سيف الدين بن المشطوب : "يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا ، وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت" وقال باقي الأمراء مثل ما يقول فانبسطت نفس صلاح الدين بذلك المجلس وطاب قلبه"[(٢)] .

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٠٢.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٨ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، ٢/ ٢٨٥-٢٨٧ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٣١.

ولكن كانت القدس أكبر هموم صلاح الدين ، ولم تكن لمثل هذه الإجابة – وإن كانت مطلوبة ومحببة – أن تفرج عنه كربة أو تزيل عنه همه لاسيما وأن الصليبيين أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من المسير إلى بيت المقدس ، فبدا مغمومًا مهمومًا (وكان – رحمه الله – عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال)[١]

ويقول ابن شداد أيضًا: "وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله ، ثم قال : قلت له : قد وقع لي واقع أعرضه، فأذن فيه ، فقلت : المولى في اهتمامه وما قد حمل في نفسه من هذا الأمر مجتهدًا فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم جمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع ، وفيه ساعة مستجابة.. ، ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفيه ، بحيث لا يشعر أنه منك وتصلي بين الآذان والإقامة ركعتين تناجي فيها ربك ، وتفوض مقاليد أمرك إليه ، وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاءك) ، ويقول ابن شداد: " ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجدًا وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مصلاه ، ثم انقضت الجمعة بخير "[٢].

وحدث أن انقسمت صفوف الصليبيين ودب الخلاف بين عناصرها وانقسموا على أنفسهم بين مؤيدي الزحف على بيت المقدس ، ومحاصرتها ومعارض تلك الفكرة ، وأيد الفرنسيون بقوة فكرة مهاجمة بيت المقدس مهما

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ٢١٦–٢١٧.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص١٢، ٢١٧ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٣٢.

كانت الظروف ، وقالوا : "إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه" في حين عارض الإنجليز بقيادة ريتشارد تلك الفكرة على أساس أن صلاح الدين خرب مياه الآبار والعيون والصهاريج حول القدس ولا يمكن للجيش أن يبقى بدون ماء ، واستحكم الخلاف بين الفريقين ، وانتهى بهم الرأي على الأخذ برأي ريتشارد والإنجليز واستبعاد رأي الفرنسيين وعدم الإقدام على الزحف نحو بيت المقدس ، فانسحب الصليبيون "ناكصين على أعقابهم" إلى الرملة في أواخر يوليو ١١٩٢م ومن هناك بعثوا في طلب الصلح(١).

وكان هذا الانقسام في صفوف الصليبيين بداية التراجع في الآمال لدى الغرب الأوربي في استعادة بيت المقدس ، وبدأت الكفة تميل إلى صلاح الدين والمعسكر الإسلامي ، والذي ساعد على ذلك أن الحصار الاقتصادي الذي فرضه الغرب الأوربي قد فرض حصارًا اقتصاديًا وتجاريًا على المسلمين ، وقام البابا في أوربا بدور نشيط في تطبيق هذا الحصار بهدف إضعاف المسلمين وعدم إعطائهم ما يزيد في قوتهم ، ولهذا قررت البابوية المسيحية عقوبة الحرمان على من يتعاملون مع المسلمين وخصوصًا منع بيع الأخشاب اللازمة لبناء الأساطيل والمجانيق والأسلحة وكذلك الرقيق والحديد ، وكل ما يستعان به في الحرب ، ولكن المسلمين ردوا على مثل هذا الموقف بالمثل بأن منعوا سفن الغرب الأوربي والجمهوريات الإيطالية التجارية بالتزود بما تحتاج إليه من موانئ الشرق الإسلامي ، وجعلوا حجم التبادل التجاري مرهون بما تقدمه الدول الأوربية من المواد اللازمة للحرب ، وكثيرًا ما عادت السفن والأساطيل الأوربية التجارية دون أن يسمح لها بالبيع أو الشراء في الموانئ الإسلامية، وخصوصًا الإسكندرية وذلك بسبب موقفها المعادي للإسلام ، ومساندتها

---

(١) المقريزي ، السلوك ،١/ ١٠٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٦-٢١٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٨٧-٣٩٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٩٨-١٩٩.

للحروب الصليبية والأساطيل إلى رفع الحظر عن الموانئ الإسلامية وإن تعرضت للحرمان البابوي[١].

صلح الرملة ٥٨٨هـ/١١٩٢م :

وفي ذلك الوقت وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده مما تطلب منه سرعة العودة إلى بلاده ، مما جعله يعجل بسرعة إجراء الصلح مع صلاح الدين والمسلمين ، فأرسل إلى صلاح الدين يقول : "قد أهلكنا نحن وأنتم ، والأصح نحقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك ضعف مني ، بل أريد المصالحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي ، فالكبش يتأخر لينطح، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز أن أهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي الكونت هنري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك ، يكون هو وعسكره بحكمك ، لو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا ، وأن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك في المراسلة لما كانت المراسلة تجري مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني قرية أو مزرعة قبلتها وقبلتها"[٢].

ومن الملاحظ في هذه الرسالة أن ريتشارد قد تخلى عن صلفه وتشدده في مراسلة صلاح الدين ، ويبدو أن موقفه المتزعزع في مواجهة صلاح الدين هو الذي دفعه إلى التقرب إلى صلاح الدين والتودد إليه بل وعدم استفزازه بذكره للأشياء التي تغضب صلاح الدين وذلك بقوله: "وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك في المراسلة كما كانت المراسلة تجري مع الملك العادل قلت بتركها

(١) فايد محمد عاشور ، العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي ، ص١٦٩.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١٩-٢٢١.

وأعرضت عنها" كما أن ريتشارد تنازل عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس واكتفى بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة – وبخاصة كنيسة القيامة – مع ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين ، ولم يفت ريتشارد أن يشيد بتسامح صلاح الدين وسعة صدره ، وهذه صفات وحقائق كانت موجودة قبل مجيء الصليبيين ، فلم تكن هناك حاجة للمطالبة بها من الأصل – وهذا يؤيد الرأي بأن ريتشارد كان يريد سرعة الرحيل إلى بلاده ، ولكن كان يرغب في تسوية الأمور مع صلاح الدين قبل الرحيل.

ولما رأى صلاح الدين ذلك من ريتشارد قبل هذه اللهجة المعتدلة وبادلها الاعتدال والإحسان ، فأرسل إليه : "إن ابن أختك – هنري دي شامبني – يكون عندي كبعض أولادي"[١] ، ووافق صلاح الدين أن يكون للصليبيين امتلاك البلاد الساحلية من صور إلى يافا بشرط أن "عسقلان وما وراءها تكون خرابًا لا لنا ولا لكم" ، لأن صلاح الدين اهتم تلك المرة بإبعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان وما يليها من بلدان الساحل تجاه غزة والداروم حتى لا تؤدي سيطرة الصليبيين على تلك الجهات إلى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام ، أما داخلية فلسطين فلا خلاف أن تبقى في أيدي المسلمين[٢].

ولما كان ريتشارد قد أعاد تعمير عسقلان وتحصينها بعد قيام صلاح الدين بتخريبها ، فاعترض ريتشارد على تركها أو تخريبها ، فعرض عليه صلاح الدين إعطائه اللد مقابل ما أنفق في تعمير عسقلان ، إلا أن ريتشارد رفض ذلك وتمسك بالإبقاء على عسقلان في يده ، فتعثرت المفاوضات وعادت إلى نقطة الصفر[٣].

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٩٠-٣٩١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،٢/ ٧٠٤.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٩٠-٣٩٣.

وبعد تعثر المفاوضات مع صلاح الدين فإن ريتشارد قد عزم على المسير نحو بيروت وافتتاحها من أيدي المسلمين ثم الإبحار نحو بلاده بسرعة ، وما أن بدأ ريتشارد بالمسير ، حتى استغل صلاح الدين ذلك ، وأراد أن يصرفه عن بيروت فهاجم يافا ونجح في الاستيلاء عليها ، إلا أنه لم يهنأ طويلاً بيافا، إذ وفي الوقت الذي كانت حامية المدينة تسلم لصلاح الدين لاح الأسطول الصليبي بقيادة ريتشارد في الأفق ، مما جعل المسلمون يهرعون بالخروج من المدينة وتركها ، فدخلها ريتشارد واستعادها من جديد[١].

وفي حين كان ريتشارد يزهو بانتصاره في يافا وصل به إلى درجة التشفي والشماتة ، أراد صلاح الدين أن يهاجمه بقواته مستغلاً قلة ما معه من عساكر ووجوده خارج يافا ، ويهاجمه بغتة يوم ٥ أغسطس ، غير أنه لم يجد استجابة لرغبته هذه ، بل إن أحد الجنود الذين قعدوا عن القيام بالهجوم على الصليبيين أغلظ له القول وقال له : "يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا السبي والغنائم وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون ، إذا كان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فلهم ، وكان صلاح الدين قد منع العساكر أخذ الغنائم من يافا حينما دخلوها – وكانت كثيرة – خوفًا عليهم من الانشغال بالغنائم عن مواصلة الحرب ضد الصليبيين ، وكذلك غضب معظم العسكر من منعهم الغنائم ، فلم يجد صلاح الدين بد من التراجع إلى يازور بعيدًا عن خطوط الصليبيين الأمامية[٢].

وفي هذه الأثناء مرض ريتشارد مرضًا شديدًا وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه بعض الأدوية والفاكهة والثلج ، فكان صلاح الدين يستحضرها له خصيصًا

---

(١) ابن الأثير الكامل ، ١٢/ ٨٤-٨٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٩٣ -٣٩٥ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٣٦.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠١ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٢٩.

ويرسلها له – على ما كان بينهما من عداوة وحروب – فطابت بذلك نفس ريتشارد [١].

وكانت الأخبار السيئة تتواتر لدى ريتشارد عن بلاده والتي تنذر بكارثة له إن لم يعجل بالعودة إليها ، ولم يعد خفيًا على أحد ذلك الأمر ، بل إنه نفسه جاهر بهذا الأمر ، فقال لأحد الأمراء المسلمين عقب استيلائه على يافا "سلم لي على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا الأمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادي وراء البحر ، وما في دوام هذه مصلحة لا لنا ولا لكم" [٢].

وسار صلاح الدين إلى الرملة ، وأصبح قبولاً للصلح مع ريتشارد وظاهر ذلك قوله لأخيه العادل : "إن نزعوا عن عسقلان فصالحهم، فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار – لفظ فاري معناه الحرب – ، والنفقات قد نفذت" [٣].

وجرت المراسلات بين صلاح الدين وريتشارد بين شد وجذب ولين وغلظة، إلى أن تنازل ريتشارد – تحت تأثير الوضع السيئ في بلاده – عن شروطه السابقة ومنها عسقلان ، فتم عقد صلح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م/ ٢٣ شعبان ٥٨٨هـ ، ونص هذا الصلح على ما يلي :

- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبًا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٢.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٢١-٢٣٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٣٩٦-٤٠٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٠ -٢٠٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٠٦، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٣٨.

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٣١-٢٣٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ،٢/ ٤٠٢-٤٠٣ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٣ ، فايد محمد فايد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٤٠.

- تكون عسقلان بأيدي المسلمين على أن يجري تخريبها.
- يتقاسم المسلمون والصليبيون اللد والرملة مناصفة.
- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحرية.
- للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح ، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تعد جزءًا من المناطق الإسلامية التي شملتها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس[(١)] .

وبالرغم من إجراء الصلح والهدنة ودخولها حيز التنفيذ ، فإن صلاح الدين لن يكون هواه مع ذلك بل كان إيثاره الجهاد ومواصلة الجهاد في سبيل الله ، ولكن الظروف اضطرته لذلك ، ولم يكن راغبًا في مهادنة الصليبيين وترك الجهاد مادامت أرض الإسلام محتلة ، ومادام العدو جاثمًا على أرض الإسلام ، ويشهد ابن شداد الذي حضر مفاوضات الصلح والهدنة ، وقال : "والله العليم إن الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي : في بعض محاوراته في الصلح-: أخاف أن أصالح وما أدري على شيء يكون مني ، فيقوم هذا العدو، وقد بقى لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تلة - يعني حصنه - وقال : لا أنزل ويهلك المسلمون،

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٢-٢٣٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٠٣-٢٠٤، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٣-٤٠٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٣ ، العماد الكاتب، الفتح القسي ، ص٦٠٣-٦٠٥ ، عبد الرحمن محمد عبد الرحمن ، الدبلوماسية الإسلامية ص٣٩٤.

فهذا كلامه ، وكان كما قال ، ولكن رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة ، وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقًا وسعادة له"[١].

كما أن صلاح الدين لم يكن واثقًا من حسن نية الصليبيين فأسرع إلى عسقلان أهم المواقع العسكرية والبحرية والبرية بالنسبة للجيش المصري ، وتعتبر هي بوابة مصر والطريق المؤدي إليها ، وحرص على إخراج الصليبيين منها ، ثم عاد إلى القدس وزارها وتفقد أسوارها وتحصيناتها ، وتفقد الثغور الإسلامية الهامة كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت ، وتفقد القلاع البحرية الساحلية بأسرها ، وقام بسد ما فيها من ثغرات وخلل وأصلح أمور جنودها وشحنها بالرجال والمؤن والأجناد ، ثم عاد إلى دمشق في يوم ٢٦/ ١/ ٥٨٨هـ / ١٨/١٠/ ١١٩٢م ، (وكان دخوله إليها يومًا مشهودًا ، وفرح الناس به فرحًا عظيمًا ، لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام)[٢].

ولم يلبث بوهيمند الثالث أمير أنطاكية أن أقر صلح الرملة ودخل فيه[٣].

وبالرغم من أن الظروف قد اضطرت صلاح الدين إلى عقد الهدنة مع الصليبيين ولم يكن من مناصريها إلا أن ذلك لم يمنعه من الالتزام بها بل أظهر كرمًا وجودًا كبيرًا في معاملة المسيحيين الذين أتوا إلى بلاد الإسلام بغرض التجارة أو زيارة الأماكن المقدسة ، حيث وصلت أعداد غفيرة منهم بمجرد عقد

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٥، أبو شامة، الروضتين ، ٢/ ٢٠٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤٦-٤٨.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٨٦-٨٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٠٤-٢٤١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢١٧ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٤٠-٢٤١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٨٦-٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٩.

الهدنة ، بل إن صلاح الدين بالغ في إكرامهم "وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم"(١) ولما جاءه بوهيمند الثالث من أجل الدخول في الهدنة أكرم صلاح الدين وفادته وبالغ في احترامه وإكرامه ومباسطته وأنعم عليه بنعم كثيرة(٢).

وبالإجمال فإن صلح الرملة قد أحدث عاصفة من الفرح والسرور بين الناس سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين ، وكان يوم الصلح "يومًا مشهودًا ، عم فيه الطائفتين بين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب"(٣).

أما ريتشارد ملك إنجلترا فقد غادر بلاد الشام عائدًا إلى بلاده في ١/ ١/ ٥٨٨ هـ ـ ٩/ ١٠/ ١١٩٢م بعد أن سلم السلطة في المناطق الساحلية الواقعة بين صور ويافا إلى الكونت هنري دي شامبني(٤).

وبينما كان ريتشارد عائدًا إلى بلاده غرقت سفينته في البحر ، واستطاع أن يصل إلى الشاطئ سالمًا ، ثم توغل في أرض النمسا متنكرًا حتى اكتشف أمره في إحدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا في "كانون الأول ديسمبر ١١٩٢م فاقتيد إلى ليوبولد دوق النمسا الذي اتهمه بمقتل المركيز كونراد دي مونتفرات ، وأراد الدوق بيعه ، فتقدم أعداؤه لشرائه إلا أنه ما لبث أن سلمه لهنري السادس إمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفع فدية كبيرة ، وقد أطلق سراح ريتشارد قلب الأسد في مارس ١١٩٤م ، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل فقضى نحبه في ٢٦مارس عام ١١٩٩م(٥).

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢١٤.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢١٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٠.

(٤) العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٦١٠ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤٨.

(٥) قدري قلعجي ، صلاح الدين الأيوبي ، ص٣٢٩.

ويجب أن نذكر في ختام الحملة الصليبية الثالثة أن حصادها كان هزيلاً ، ولم تحقق شيئًا ذا بال بالنسبة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ويمكن اعتبارها من الحملات الصليبية الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بذل فيها من جهد ضخم ، فضلاً عن أنها لم تنجح في الوصول إلى الهدف الأساسي من مجيئها إلى الشرق وهو استرداد بيت المقدس في الشام من المسلمين ، ولم تكن الحملة الصليبية الثالثة هي التي أبقت على الكيان الصليبي ولكن الإمدادات العسكرية والبشرية التي جاءت من الغرب بعد معركة حطين هي التي دفعت دماء جديدة في شرايين الكيان الصليبي ، وقد بدأت هذه الإمدادات بوصول دي مونتفيرات المفاجئ إلى صور ، فأبقى مجيئه الكيان الصليبي حيًا إلى حين ، وتحول من في صور من مجرد جماعات محشورة مذعورة انحشرت داخل المدينة إلى قوة هجومية ، وفتيل متفجر أمده صلاح الدين – بعفوه وتسامحه – بالوقود والمادة المتفجرة اللازمة ، قبل مجيء الحملة الصليبية الثالثة ، وإذا أردنا أن نكون منصفين فلابد من القول بأن الحملة الصليبية الثالثة وإن كانت قد فشلت في استرداد بيت المقدس إلا أنها أبقت على الحطام المتبقي من الكيان الصليبي على قيد الحياة إلى حين ، وحالت دون أن يقذف به إلى البحر ليعود من حيث أتى.

على أية حال فإن الوضع في بلاد الشام بعد رحيل ريتشارد وانتهاء الحملة الصليبية الثالثة ، وكان يتلخص في سيطرة الصليبيين على شاطئ البحر بما فيها صور وحيفا وقيسارية وأرسوف وعكا ويافا ، وسيطرة المسلمين على المناطق الداخلية بما فيها بيت المقدس ، وكان هذا إيذانًا بتأجيل حسم المعركة الفاصلة إلى جولة جديدة وبطل جديد.

نتائج الحملة الصليبية الثالثة:

- يعتبر المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بذل فيها من جهد ضخم ، فضلاً عن أنها لم ينجح في تحقيق الهدف التي جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس من المسلمين.

- شاركت الظروف السياسية والعسكرية التي واجهت هذه الحملة وأحاطت بها في هذه النهاية الفاشلة ، إذ ليس في استطاعة جيش تجرد من القيادة الموحّدة، وفرقته المنازعات السياسية ، وقاتل في أرض أجنبية ، أن يحرز النصر على جيوش جمع بينها وحدة الصف والهدف ، وانضوت تحت قيادة رجل واحد مثل صلاح الدين.

- كان من بين عوامل الفشل أن ملكي إنجلترا وفرنسا حملا إلى الشرق ما بينهما من منازعات محلية وسياسية ، على الرغم من إتفاقهما على التغاضي قبل أن يتحركا من أوربا الغربية.

- اختلف الطابع الروحي للحملة ، إذ لم يكن للبابا دور كبير في توجيهها ، كما حدث في الحملة الأولى ، وطغى عليها الطابع السياسي ، بما يحمل من خلفيات متناقضة.

- استمرار تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت المنازعات السياسية والدينية على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب ، إذ تحتم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة لمدة ثلاث سنوات ، في ظروف غير عادية ، بالإضافة إلى ما حصل من تشنجات سرعان ما منعها صلاح الدين بحكمته نذكر منها النزاع الذي حصل بين العناصر التركية والعناصر الكردية في جيشه ، ولولا رحمة الله ، ثم قيادة صلاح الدين لكانت الخسائر كبرى وبشكل غير متصور ، ولكن حسن قيادة صلاح الدين

وصمود المسلمين في وجه هذه الحملة الشرسة أربك ملوك أوربا وأفشل مخططاتهم ولم يستطيعوا إرجاع بيت المقدس ، وهذا يعتبر انتصار عظيم لصلاح الدين على الرغم من الخسائر التي لحقت بالمسلمين .

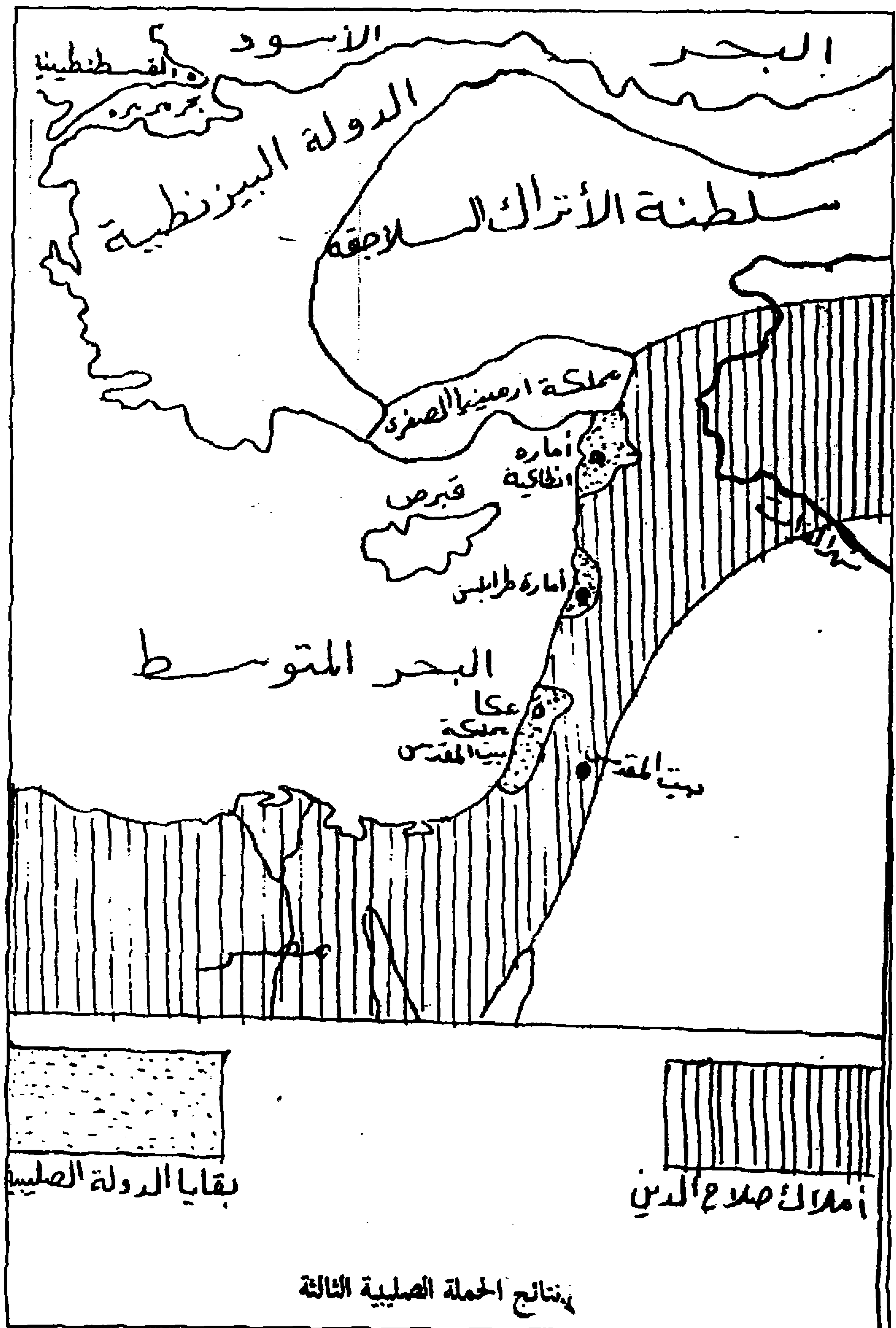
- تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعدى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج إلى ريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته[1] .

- بالرغم من أن أوربا العربية اتحدت في ذلك العمل وجهزت حملة كبيرة كانت من أكبر الحملات الصليبية ، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً ، وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دي مونتفيرات ، ومن نجدة طرابلس من قبل الأسطول الصقلي ، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعد الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا فضلاً عن جزيرة قبرص ، على أن أمرًا واحدًا تحقق هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح[2] .

---

(١) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص٢٠٤-٢٠٥ ، عبد العزيز إبراهيم ، الفتوح الإسلامية، ص٢٩٩.

(٢) محمد سهيل ، تاريخ الأيوبيين ، ص٢٠٤ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨٠.



نتائج الحملة الصليبية الثالثة

بقي أن نقول أن صلح الرملة جاء بسبب ظروف عسكرية واقتصادية جعلت صلاح الدين قبل به مع علمه بأن الموقف الفرنجي كان ضعيفًا، فقد كانت تقديرات رجاله ومستشاريه بأن مغادرة القوى العسكرية الفرنجية إلى بلادهم هي من صالحهم ، وأن بقاءهم سيؤدي إلى قدوم قوات أوربية جديدة ستحدث الضرر بالمعسكر الإسلامي ، وإذا نظرنا في تاريخ المعاهدات والاتفاقيات والهدن التي عقدها المسلمون مع الفرنج ، كعماد الدين زنكي ونور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين ، نلحظ أنها كانت محددة الأهداف ، وهو إعطاء فرصة للقوات الإسلامية للاستعداد وزيادة إمكانياتها القتالية للقيام بجولة أو جولات قادمة مع الصليبيين ، ومعظم هذه الاتفاقيات كانت بطلب من الفرنج أنفسهم ، ولم يكن الزعماء المسلمون يتوانون في عقدها ، لما فيها من مصلحة لهم، إما لمحاربة إمارات أخرى لم تعقد معهم المعاهدات ، أو التسهيل على المسلمين وحرية تنقلهم وسفرهم بين مصر والشام ، ولتسهيل مهمة تنقل القوافل التجارية عبر المنطقة العربية ، أو لتوفير الأمن والاطمئنان لقوافل الحجاج لأداء مناسك الحج دون خطر ، وأما الصلح الأخير وهو صلح الرملة ، فقد حدد بثلاث سنوات ، ووجد صلاح الدين ومستشاروه أن المصلحة في عقده بسبب سوء الأحوال الصحية التي ألمت بجنده بالإضافة إلى الإرهاق والتعب الذي عانوه ، فكانوا يرون أنها فرصة للاستعداد لجولات ومعارك قادمة[(١)]. فابن شداد يقول : ورأى السلطان ذلك مصلحة لما غشى الناس من ضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، فرأى أن يجمعهم مرة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التي صاروا عليها ويعمر البلاد ، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة ويتفرغ لعمارته[(٢)]. ويذكر ابن شداد كذلك أن صلاح الدين لم يكن راضيًا عن هذا الصلح ، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة

(١) الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨٣.

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٣٣.

العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، ويرى ابن شداد أن الصلح كان في صالح المسلمين ، لأن صلاح الدين توفى بُعيد عقده ، ولو اتفقت وفاته أثناء المعارك المحتدمة بين المسلمين والفرنج لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقًا وسعادة (١).

- **المكاسب والخسائر :**

إذا كانت الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت على المستوى السياسي والعسكري فإنها كانت لها مكاسب عديدة على المستوى الحضاري نذكر منها:-

- نقلوا عن المسلمين كثيرًا من العلوم والمعارف التي كان سائدة بينهم في تلك الفترة ، وقد ألفوا فيها كتبًا احتوت كثيرًا من التجديد والابتكار ووضع قوانين في هذه العلوم.

- نقلوا عن المسلمين كثيرًا من الصناعات والفنون ، مثل صناعة النسيج والصباغة والمينا والمعادن والزجاج ، كما نقلوا عنهم فن العمارة ، وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوربا الصناعية والتجارية والفنية . يقول جوستاف لوبون : ولم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك ثم يقول : وعن المسلمين أخذت أوربا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة، ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوربا تحولاً تامًا (٢).

- تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثرًا أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها ، ولولا الحروب الصليبية لتأخر نمو الحضارة في أوربا مدة لا يعلمها إلا الله ، ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين.

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢٣٥ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨٣.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة الغرب ، ص٣٣٦-٣٣٧ ، محمد السيد الوكيل ، أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ، ص٢١٩ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨١.

يقول لوبون : " ولكنا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلت لنا أهمية تلك النتائج ، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين – أي مدة التواجد الصليبي في بلاد المسلمين –أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوربا ، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التي أنشدتها ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين ، وأما الغرب فكان غارقًا في بحر الهمجية[1].

ذلكم هو ما أفادته أوربا من الحروب الصليبية ، وهي وإن منيت بخسائر فادحة وهزائم قاتلة ، ولم تحقق الهدف الذي جاءت من أجله ، وهو استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين إلا أنها كسبت من وراء ذلك هذه المكاسب العظيمة التي نهضت بأوربا وأسرعت في إيصال الحضارة إليها.

أما المسلمون فإنه لم يكن لدى الصليبيين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون ، فقد كانوا في سلوكهم وحوشًا ضارية ، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على حد سواء ، ولقد وصف أسقف عكا الصليبي (جاك دوفيتري) الغزاة بقوله : وكان لا يرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة ، والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان الدعار والراهبات العواهر ، وكان مع الحملة الصليبية جيش العواهر الذي جلب خصيصًا للترفيه عن المقاتلين ، ولم يقتصر على جنود الصليبيين ولكنه تعدى ذلك إلى صفوف الفجرة والفسقة من المسلمين[2]. يقول ابن العماد الكاتب ، وهو شاهد عيان ذلك : "وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحثة متحلية بشبابها وحسنها متزينة ، قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاد

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة الغرب ، ص٢٢٣-٢٢٤، محمد السيد الوكيل ، أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ، ص٢١٩ ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨١.

(٢) محمد السيد الوكيل ، أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ، ص٢١٩-٢٢٢ باختصار ، الصلابي ، صلاح الدين ، ص٥٨٢.

الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الأشقياء ... وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن ، وإنهن لا يمتنعن من العذبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان ، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب ، وفتحن أبواب الملاذ... وأبق من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء ، جماعة جذبهم الهوى ، واتبعوا من غوى ، فمنهم من رضي بالذلة ، ومنهم من ندم على الذلة فتحيل في النقلة .. وما عند الفرنج على الغرباء ، إذا أمكنت منهم الأعزب حرج(١) .

- وفاة صلاح الدين :

رضي صلاح الدين بصلح الرملة ، وأدرك أنه قطع شوطًا كبيرًا في تحقيق ما كان يهدف إليه من تطهير البلاد الإسلامية من أقدام المستعمرين ، ولو أن جنده أطاعوه ولم يختلفوا عليه لمضى في طريقه إلى النهاية حتى يحرر أرض الإسلام من دنس المستعمرين الصليبيين . ولكن نظر فإذا العزائم قد خارت والنفوس قد ضعفت والهمم قد تضعضعت ، فقبل هذا الصلح على أمل أن يتجدد نشاط المجاهدين وتستريح سواعد المحاربين ، ثم يعودوا بعد الهدنة إلى استئناف الجهاد في سبيل الله ، ويتحقق وعد الله.

ولكن صحة صلاح الدين كانت قد تأثرت بهذا الجهاد المستمر والهموم والأحزان التي ملأت قلبه ونفسه بأحوال المسلمين ، فلم يلبث كثيرًا ، إذ وافته المنية بعد مرض قصير ، فمات لموت صلاح الدين الرجال ، ومات بوفاته الأفاضل ، وغاصت الأيادي ، وفاضت الأعادي ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب الملاحون ، وطردت الضيوف ، وأنكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه(٢).

---

(١) العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٣٤٧-٣٤٩.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٣٩.

وكانت وفاة صلاح الدين يوم الأربعاء ١٧ صفر سنة ٥٨٩هـ/ ٤ مارس١١٩٣م ، وله من العمر سبع وخمسون سنة ، فكان يوم موته يومًا مشهودًا لم يصب الإسلام بمثله منذ الخلفاء الراشدين حتى أن الدنيا كلها تبكي في صوت واحد ، فشيعته زفرات الباكين وعويلهم ، حيث حمله العلماء – الذين كان يحبهم ويحبونه – في تابوت على أعناقهم ليدفن في قلعة دمشق ، وبعد ذلك بني له ابنه الأفضل مقبرة خاصة شمال جامع دمشق ، لا تزيد عن خمسة أمتار طولاً في مثلها عرضًا ، فنقل إليها السلطان سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦م (١).

"...وكان – رحمه الله – كثير التواضع قريب من الناس ، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محبًا للفقهاء وأهل الدين والخير محسنًا إليهم ، مائلاً إلى الفضائل، يستحسن الشعر الجيد ويردده في مجلسه ، ومدحه كثير من الشعراء .. كان شديد التمسك بالشريعة ، سمع الحديث من أبي الحسن بن على إبراهيم بن المسلم بن بنت أبي السعد ، كان كريمًا ، كان ورعًا ، وكان لا يصلي إلا في جماعة ، وله إمام راتب ملازم ، وكان يصلي قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ . وكان يسوي في المحاكمة بين أكبر الناس وبين خصمه ، كان شجاعًا في الحرب، يمر بين الصفوف وليس معه سوى صبي ، كان ذاكرًا لوقائع العرب ، وعجائب الدنيا ، ومجلسه طاهر من المعايب ، رحمه الله وغفر له." (٢).

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم : " لقد كانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد يواصل دور نور الدين محمود ويطوره ، وكان صلاح الدين قد تقلب في تطورات السياسة والحرب ، منذ أن جاء في جيش عمه أسد الدين شيركوه ، حتى انتصاره الرائع في حطين ، بمثابة المدرسة التي تلقى فيها دروسه السياسية والاستراتيجية ، حول حقائق الصراع الدائر على أرض المنطقة العربية بين أصحاب الأرض والحق والتاريخ وأولئك الغزاة الغرباء القادمين من غرب

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٥١٨/٣.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١١٣/١.

أوربا لكي يستوطنوا الأرض العربية الإسلامية في فلسطين خاصة وفي المنطقة العربية عامة.

ومن ناحية أخرى كانت المنطقة العربية والعالم الإسلامي بصفة عامة تعيش حالة من البعث الأخلاقي والسياسي جعلت الجميع يتحدثون عن فضل الجهاد والمجاهدين ، وعن فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وبات القضاء على الخطر الصليبي واستعادة الأماكن المقدسة ، وتحرير الأرض العربية مطلبًا شعبيًا يمثل نوعًا من الضغط السياسي والأخلاقي على حكام ذلك الزمان، وعندما حقق صلاح الدين هذا كله – عبر مراحل حياته المختلفة – كان طبيعيًا أن يرتفع من مجرد ضابط في جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعين والعقل عند كل مسلم في المنطقة العربية وخارجها.

لقد كان صلاح الدين شخصية ملء القلب والعين وكان موضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه ، سواء أكانوا من الأصدقاء أو الأعداء ، وقد وضعه التاريخ مكانه زعيمًا مثاليًا للمسلمين تمكن من توحيد جبهة النضال ضد الصليبيين ، وألحق بهم الهزائم ، واسترد منهم بيت القدس وحرر المقدسات الإسلامية والمدن والحصون العربية.

لقد بني صلاح الدين دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية والدينية للعالم الإسلامي تحت راية الجهاد ضد الصليبيين ، وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة الإقليمية الكبرى التي ضمت المنطقة العربية من كردستان وديار بكر شمالاً حتى اليمن جنوبًا ، ومن حدود مصر الغربية إلى بلاد الرافدين ، كما كانت له سلطة معنوية امتدت عبر العالم الإسلامي ، بفضل التأييد الذي حصل عليه من الخليفة العباسي على المستوى السياسي والمساندة التي أعطته إياها جماهير المسلمين لدوره في الجهاد على المستوى الشعبي.

ويتميز صلاح الدين بالطموح والإخلاص للمبادئ التي اعتنقها ، بيد أن طموحه لم يكن لتحقيق آماله الشخصية – فقد مات الرجل فقيرًا – كما أن مبادئه كانت نابعة من إيمانه بالجهاد، وسيلة وحيدة لاسترداد الأراضي التي استوطنها الصليبيون القادمون من أوربا وتحرير القدس والأقصى. وكان ذلك كله بسيطًا في أخلاقه واضحًا في رؤيته ، حاسمًا في أداء دوره . لقد أدرك أن التشرذم والفرقة والأنانية السياسية التي وصمت حكام المنطقة العربية هي التي أدت إلى انتصار الصليبيين وقيام المستوطنات الصليبية فوق الأرض العربية في فلسطين وبلاد الشام ، كما أدرك أن استمرار هذه المستوطنات كان رهنًا بانحطاط الخلق السياسي لدى الحكام ، ولهذا ثار صلاح الدين على النظام السياسي القائم ، وعمل على استبداله بنظام سياسي تكون الوحدة العربية الإسلامية أساسه . وقد لخص نظرته في هذه المسألة بكلمات رسالته إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله ، حيث كتب إليه : "... ولو أن أمور الحرب تصلحها الشراكة ، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة ، فإذا صح التدبير ، لم يحتمل في اللقاء إلى العدة..." (١).

ستظل مكانة صلاح الدين عظيمة أبد الدهر ، إذ يكفي ما قام به في سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم ، ثم مواصلة الجهاد في صورة لا تعرف الملل لطرد الغزاة الدخلاء ، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا عنه ولا نظر إلا في آلاته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١/ ١٥٩، قاسم عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك ، ص٧٦.

ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة [1].

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٢١ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ١٢٥ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧١٨.

الفصل العاشر

الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين

الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين :

توفى صلاح الدين وورث بنوه وإخوته مملكته الإقليمية الكبرى ، لكنهم لم يرثوا دوره السياسي أو مهاراته الحربية ، أو مكانته في قلوب الناس ، وترك صلاح الدين وراءه فراغًا كبيرًا ، عجز وارثوه جميعًا أن يملؤوه.

ومن الثابت أن صلاح الدين ترك وراثته لأبنائه وأخوته وأسرته ، فقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ولدًا ذكرًا وابنة صغيرة ، ولم يخلف في خزانته من الأموال إلا دينارًا واحدًا وستة وثلاثين درهمًا ، ولم يترك دارٌ ولا عقارًا[1] .

وكان الملك الأفضل نور الدين علي – هو الابن الأكبر لصلاح الدين – ملازمًا لأبيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك ، وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم ، أما الابن الثاني لصلاح الدين – وهو الملك العزيز عثمان – فكان بمصر وقت وفاة أبيه ، فاحتفظ بها، في حين أخذ الابن الثالث – وهو الملك الظاهر غازي – حلب وجميع أعمالها شمال الشام ، أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر – أخو صلاح الدين – فقد أخذ الكرك والأردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر ، ووزعت بقية الإقطاعيات الأخرى على أخوة صلاح الدين ونسبه وأهل بيته ، فأخذ الظافر خضر بن صلاح الدين بصرى وحوران ، وأخذ الأمجد بهرام شاه ابن أخي صلاح الدين بعلبك ، وأخذ المجاهد شيركوه الثاني (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين حمص ، وأخذ المنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر حماه ، وأخذ سيف الإسلام طغتكين – وهو الأخ الرابع لصلاح الدين – اليمن وجزيرة العرب ، وبقيت بعض البلاد في يد جماعة من الأمراء منهم الأمير سابق الدين عثمان ابن الداية وبيده شيندر ، وأبو قبيس ، والأمير ناصر الدين منكورس بن خمادتكين وبيده حصن صهيون وحصن برزية الواقع قرب اللاذقية

(١) العماد الكاتب ، الفتح القسى ، ص٦٢٩ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٤٨.

والأمير بدر الدين دلورم بن بهاء الدين يادوق وبيده تل باشر ، والأمير عز الدين أسامة وبيده كوكب وعجلون ، والأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم وبيده برين وكفر طاب وحصن أفاميه[1].

وكانت أهم أجزاء مملكة صلاح الدين ما كان بيد الملك الأفضل نور الدين علي وهو الابن الأكبر صلاح الدين ، والمعهود إليه بالسلطنة بعد أبيه ، وكان في بلاطه بدمشق من الأمراء والوزراء وخاصة أبيه ، أما الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر فكان عنده بمصر جمهور العساكر الصلاحية والأسدية والأكراد ، هذا إضافة إلى خيرات مصر الكثيرة والوفيرة[2].

أما إخوة صلاح الدين فقد آثر أن يبعدهم ويعطيهم إقطاعيات ثانوية ، فالعادل كان في الكرك وقت وفاة صلاح الدين ، فلما سمع الخبر وصل دمشق بعد أيام ، ولم يطل مقامه بها إذ أسرع إلى بلاد الجزيرة خوفًا من أن تثور وتخرج عليه[3].

والشيء الذي يؤسف له حقًا أن معظم هؤلاء جميعًا طمعوا في الاستقلال بما في أيديهم ، حيث تمزقت الدولة التي ظل صلاح الدين ومن قبله نور الدين محمود يشيد في أركانها ، إذ بها تصبح بين عشية وضحاها شراذم متنافسة ، والشيء الذي يمثل الخطر الأكبر على هذه الدولة الإقليمية أنه كانت تتربص بها العيون ، ففضلاً عن الصليبيين كان خلفاء البيت الزنكي يراقبون الأحداث عن كثب ومنهم عز الدين مسعود الأول بن مودود أتابك الموصل ، وأخيه عماد الدين زنكي الثاني بن مودود أتابك سنجار ، كما أن البيت الأرتقي يسعى حثيثًا لمراقبة الأحداث ممثلاً في قطب الدين سقمان الثاني صاحب كيفا وآمد،

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣٤ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٤٤- ٢٢٥ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٢٤٨.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٥٠٠٤.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٢٦.

وعماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان صاحب خرتبرت ، فضلا عن بني سكمان شاه آرمن في حلاط[1] .

وخلاصة القول: أن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين أصبحت كالفريسة التي تنتظر الطيور الجارحة أن تنقض عليها وتقطتع من جسدها ما استطاعت يدها الوصول إليه ، وإن لم تجد هذه الدولة الشخصية القوية التي تستطيع الحفاظ عليها فإنها سوف تذهب أدراج الرياح ويصبح افتراسها أمرًا لا مناص منه.

النزاع بين أبناء البيت الأيوبي:

كان صلاح الدين قبل وفاته قد أوصى لابنه الأفضل – صاحب دمشق – بالسلطنة من بعده ، وأخذ العهود والمواثيق من الأمراء والأحفاد فيما يشبه البيعة ، بمعنى أن تكون له السلطة العليا في جميع أنحاء الدولة الأيوبية ، ولكن لم يكن الزجل المناسب للمنصب ولا الزمان الذي وجد فيه ، فقد اتهم بأنه كان يشرب الخمر ويقضي من الأوقات الكثير في سماع الأغاني واللهو والتمتع بالترف والملذات، وانشغل عن متابعة أمور الدولة وأساء السيرة والسريرة ، واعتمد على نصائح وزيره الجديد ضياء الدين بن الأثير – أخو المؤرخ المشهور– وهو الذي لم يكن يعمل إلا لمصلحته الشخصية وإن كانت على حساب مصالح العالم الإسلامي ، وهذا ما سوف تثبته الأيام[2].

كما أن تقريب الأفضل لوزيره الجديد ضياء الدين بن الأثير جاء على حساب رجال الدولة السابقين منذ عهد صلاح الدين ، مما أغضبهم وأثارهم فلجؤوا إلى الملك العزيز عثمان وقالوا: "هو أولى أولاد السلطان بذلك إذ هو المحيي لسنة والده في الشجاعة والكرم" ، ومازالوا بالملك العزيز عثمان

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧١٩.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٠-١٢٢ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢٠.

وأشاروا عليه بضرورة المسير إلى بلاد الشام وأخذها لتجتمع له المملكتان وتنتظم ممالك والده في مملكة ، فاستجاب لهم وبذل الأموال واستخدم الرجال وتحرك بقواته يريد بلاد الشام[1] .

ومن بين المآخذ التي أخذها العزيز عثمان على أخيه الأفضل وكانت سببًا في تحركه إلى الشام ، عجز أخيه الأفضل عن استرداد حصن جبيل الذي نجح الصليبيون في الاستيلاء عليه بعد أن استمالوا حاكمه الكردي إليهم فسلمه إليهم.

ووصل العزيز بقواته إلى مدينة دمشق عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م وضرب عليها الحصار وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، الذي لجأ إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الجزيرة ، ولم يكن العادل وحده هو الذي أسرع إلى نجدته ، بل أسرع لنجدته أيضًا الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ، وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماه ، وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها، كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق ، واتفقوا على حفظها ، ومساعدة الأفضل، ليس حبًا فيه بقدر ما هو حفاظًا على ممتلكاتهم الشخصية ، لعلمهم بأن العزيز عثمان إن ملك دمشق فالدور على أحدهم.

وعندئذ وجد العزيز أن الأمور قد تعقدت ، وأدرك أنه لا قدرة له على مواجهة كل هؤلاء – وكان هو الآخر يفتقد عزيمة صلاح الدين – فترددت الرسل بينهما في الصلح ، واجتمع مع العادل في صحراء المزة غربي دمشق ، وطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها ، واستقرت قاعدة الصلح التي تمت في يوليو ١١٩٤م ، بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين ، وأخذ الظاهر

---

(١) ابن واصل ، ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٦ ، فايد محمد الجهاد الإسلامي ، ص٢٤٩.

جبلة واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا [١].

ومن النقاط التي تجدر بالملاحظة من خلال ما سبق من خلافات بين أعضاء البيت الأيوبي ، أولى النقاط هو الدور الحاسم والتوفيقي الذي لعبه العادل في التوفيق بين الأخوين المتنازعين الأفضل والعزيز ، إذ اجتمع العادل بابن أخيه العزيز عثمان قرب دمشق وقال له : "لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب.. ارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك..." [٢] وبذلك يكون العادل قد ظهر بمظهر الشخصية العاقلة التي يمكن لها أن تقود سفينة الدولة الأيوبية بين أنواء النزاعات الداخلية ، وإن كان دوره ثانويًا – حتى الآن – من ممتلكات الدولة الأيوبية.

كما أن بطانة السوء التي لا يعنيها إلا مصلحتها الشخصية ساهمت بدور كبير في إذكاء روح العداء والتنازع بين أفراد البيت الأيوبي ، فقد حرض الوزير ضياء الدين بن الأثير الملك الأفضل على قتال أخيه العزيز ، في وقت كان الأفضل يريد حقن الدماء والتفاهم مع أخيه ، وكان الأفضل لما تحقق من أن الملك العزيز قاصده مال إلى مرضاته ، وقال : "إن كان قصد أخي من محاربتي أن تكون الخطبة والسكة باسمه فأنا أجيبه إلى ذلك" واتبع رضاه ، فأنكر عليه بطانة السوء لاسيما الوزير ضياء الدين ذلك الموقف وقالوا له : "الله الله ، لا يقوم هذا بخاطرك ، وابذل ما عندك من الأموال وقو بها عساكرك ، ولا تدخل تحت الضيم ونحن بين يدك ، كما تحب وأنت الأكبر من أولاد السلطان وأولى منه بالخطبة والسكة" [٣].

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٠٩-١١٠ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٦-١١٧ ، ابن واصل، مفرج الكروب ، ٣/ ١٦-٢٧ ، ٣٠ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢١ ، سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢١.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢١.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٧.

ولم يكن لدى الأفضل الرغبة في تنازع أبناء صلاح الدين ، وكان حريصًا على ألا تحدث فتنة تضر بالمسلمين جميعًا ، فقال لهم : "أعرف هذا الذي تقولون ، ولكني لا أوثر الفتنة وأحب سلامة الإسلام بانتظام الصلح بيني وبين أخي".

ولما أراد البعض أن يسعى بالصلح فيما بينهما أمثال العماد الكاتب، أثار ذلك بطانة السوء وأغروا به الأفضل وقالوا له : "هذا العماد الكاتب يوالي أخاك في هواه لا في هواك ، فأعرض عن هذا وخذ في حديث غيره ، فما عندنا سوى الإباء ، و لا اعتدال مع الاعتداء ، وأين النخوة والحمية ، والنفوس الأبية، وما هذه الرقة والركة ، ولنا الشوكة والسكة ، ونحن عبيدك وخدمك ، ونطرح نفوسنا تحتَ قدمك ، فإياك أن تعرف إلا بالجد والعزيمة الصادقة"[١].

وحدث أن الأفضل قد تاب من أفعاله المشينة التي كان عليها وأزال المنكرات، وأراق الخمور ، وترك اللعب ، وأقبل على العبادة ، ولبس الخشن من الثياب ، وشرع في نسخ المصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجدًا يخلو فيه لعبادة ربه ، وواظب على الصيام ، وجالس الفقراء ، وبالغ في التقشف ، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل ، وقال المؤرخون : "إن الملك الأفضل أصبح يومًا تائبًا من غير سبب يعلم"[٢].

ولكن الوزراء والأمراء الصلاحية ، الذين لم يجدوا لأنفسهم مكانًا في بلاط الأفضل "فتفرق عن الملك الأفضل كبراء دولته"[٣].

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٠٩-١١٠، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٨-٣٦.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤٠ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٨-١١٩ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٢٩.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٣٨-٣٩.

ومن بين الأمراء الكبار الذين هجروا بلاط الأفضل الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب ، وهو من أكابر الأمراء في عهد صلاح الدين ، فسار إلى مصر ودخل في خدمة الملك العزيز عثمان ، وأخذ يحرضه على أخيه الأفضل، ويقوي عزمه على أخذ دمشق من أخيه ، وقال له : "إن لم تنصر الدولة الصلاحية خذلت ، وإن لم تصنها ابتذلت ، وأخوك الملك الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره ضياء الجزري ، وقد أفسد أحوال الدولة، فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد ويحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك ، فإن أغفيت أغفلت ، وإن أمهلت أهملت ، وإن لنت غلظوا ، وإن نمت تيقظوا ، ولا تلتزم باليمين فإن من شروطها صفو الوداد وصحة النية ، ولم يوجد ذلك ، فحنثهم في أيمانهم قد تحقق ، وبريت من العهدة ، فاقصد البلاد فإنها في يدك قبل أن يحصل للدولة من الفساد مالا يمكن تلافيه"(١).

ومن بين الذين فارقوا بلاط دمشق ، وجاؤوا إلى مصر الأمير شمس الدين ابن السلار ، حيث ساعد عز الدين أسامة في التحريض على الملك الأفضل ، وتقوية عزم العزيز على أخذ دمشق ، ومن الذين لجؤوا إلى مصر أيضًا القاضي محي الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبي عصرون ، فاحترمه العزيز وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف المصرية(٢).

وفي المقابل ، فلم يكن هناك مغضوب عليهم فقط في بلاد دمشق لجؤوا إلى مصر ، بل كان أيضًا هناك مغضوب عليهم في بلاط القاهرة لجؤوا إلى بلاد الأفضل في دمشق ، فقربهم وأكرمهم وأقطعهم الإقطاعيات الكبيرة ، ولا شك أن هؤلاء كانت لديهم الرغبة في الانتقام من بلاط القاهرة ، فأوغروا صدر

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٣٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٨.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٣٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١١٨-١٢٠.

الأفضل على أخيه العزيز وقطعوا أي أمل في الصلح بين الأخوين ، في الوقت الذي بدأت تتدهور فيه أحوال مصر سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤ ، وحل بها الوباء والبلاء[١] .

- **استمرار الخلاف بين القاهرة ودمشق ٥٩١هـ/١١٩٥م :**

في وسط هذا الجو المشحون بالدسائس والمؤامرات بين القاهرة ودمشق ، فلا أمل للوفاق ولا وسيلة للإصلاح ، فمازال الوزراء والأمراء الصلاحية يسعون عند العزيز حتى أغروه بالزحف نحو دمشق لأخذها ، وبدلاً من أن يستمع الأفضل لصوت العقل ويستجيب لنصيحة من نصحوه "بمكاتبة أخيه العزيز وملاطفته واسترضائه ومصافاته.." ولكن ترك رأي العقلاء ، وقبل ما أشار به عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير ، فإنه أشار بأن يعتصم بعمه الملك العادل، ويلتجئ إليه ويستجير به ويستنجد به على أخيه ، وكان هذا من فاسد الرأي"[٢] .

وكاد الأفضل أن يستجيب لرأي من قالوا له : "الأخ أولى بالمساعدة والمساعدة، وما يطلب إلا إقامة الخطبة له ، فأجبه إلى ذلك ، ولا تضايقه فيه ولا تنافسه" ولكنه خلا بوزيره ضياء الدين بن الأثير فأقنعه ليس بضرورة الاستنجاد بعمه فقط بل بأخيه الملك الظاهر صاحب حلب وأغراه بالتنازل لأخيه الظاهر عن جبلة واللاذقية وأعمالهما ليضمن مساعدته ضد أخيه[٣] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤١ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٢٣ ، فايد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٢٥٣.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤١ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٢٣ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٥٣.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١١٨-١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤١ -٤٢ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ١٢٣.

ولكن سرعان ما انقلب حلفاء الأفضل عليه ، فالملك الظاهر لم يستمر في دعم أخيه لما وجد تلكؤ الأفضل في إعطائه اللاذقية وجبلة مقابل مساعدته ، بل وأسرع الظاهر إلى تحريض أخيه العزيز على أخذ دمشق ، واستبد العادل بالأمور في دمشق بل إنه كان يركب السنجق السلطاني في كل يوم ويسير الأفضل في ركابه ، وبدا وكأن العادل هو السلطان والأفضل في خدمته[١] .

ومن هنا بدأت طموحات العادل تكبر في تولي منبر الزعامة والقيادة في الدولة الأيوبية ، ولاسيما وأنه كان يرى أن نصيبه من تركة صلاح الدين لم يكن يتناسب مع وضعه ولا مكانته في البيت الأيوبي ، وهو الذي كان ينوب عن صلاح الدين في مهام الدولة الجسام من قبل ، ومن ثم فإنه كان يرنو إلى أبعد ما أعطاه صلاح الدين قبل وفاته ، وهو الذي كان في يوم من الأيام قاب قوسين أو أدنى من أن يحكم المسلمين والصليبيين في بلاد الشام معًا، عندما فشلت مفاوضات زواجه من جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد في إطار صلح عام بين الجانبين.

فلما اقتربت جيوش مصر من دمشق ظهرت مهارة العادل "وكان ذا مكر شديد وخديعة"[٢] حيث كاتب الأمراء الصلاحية – مماليك صلاح الدين – والأسدية – مماليك أسد الدين شيركوه – والجنود الأكراد ، ووعدهم الوعود الجميلة ووعدهم الإقطاعيات الكبيرة ، فأفسدهم على العزيز فتركوه وتخلوا عنه، فلم يجد العزيز بدًا من العودة إلى مصر خاوي الوفاض ، وقد تخلى عنه معظم جيشه بسبب دسائس العادل الذي نجح في استمالة معظم الجند الأسدية والأكراد ، وخرج إلى مصر ، وهو يطوي المراحل ولا يصدق النجاة[٣] .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤٣-٤٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٢٣-١٢٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٣.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٤٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤٦-٤٩ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ١٢٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٣.

لم يترك العادل هذه الفرصة السانحة وأسرع إلى الاستيلاء على بيت المقدس، حيث سلمها له نائب العزيز عليها ، وأظهر لهما – العادل والأفضل – الخضوع والانتماء ، ثم تابع المسير إلى مصر لمحاولة الاستيلاء عليها ، ووصلا إلى بلبيس وحاصراها ، فلما رأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل واجتماعهم عليه خشي على نفسه وألا ينال نصيبه من دولة صلاح الدين التي يطمع أن يكون له منها نصيب الأسد ، وخشي أن يتفق الأخوان العزيز والأفضل ويتلاشى دوره في الدولة الأيوبية ، أو أن يظفر الأفضل بكل شيء ويخرج هو بلا شيء ، ووجد أن من مصلحته أن يبقى الأخوان في شقاق ، فأرسل العادل سرًا إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد بأن يجعل الأفضل يسرع بالانسحاب من أمام بلبيس[١] .

وقد أجرى العادل مفاوضات الصلح بين الأخوين ، واستقر الطرفان على إجراء الصلح على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين ، وطبرية والأردن وجميع ما بيده ، ويكون للعادل إقطاعه الذي كان قديمًا ويكون مقيمًا بمصر عند الملك العزيز ، كما تقرر أن يعفو الملك العزيز عن كل من الأمراء الأسدية والأكراد الذين خرجوا عليه وانضموا إلى الأفضل والعادل ، وأن يعودوا للخدمة مع العزيز ، وأن ترد لهم إقطاعاتهم ، وحلف الملك العادل لابن أخيه العزيز وحلف الأخوين كل لصاحبه ، ولما تم هذا الاتفاق خرج العزيز واجتمع بعمه الملك العادل وأخيه الأفضل[٢] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١١٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٢٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٤٨-٥١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٥٢ – ٥٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٤.

استيلاء العزيز على دمشق :

الخلافات التي حدثت بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وشارك فيها أحيانًا أخوهم الظاهر ، جعلت من العادل ليس فقط حكمًا بين المتنازعين بل أيضًا ظهر بمظهر الوصي على البيت الأيوبي ، وبدا أقوى شخصية تدير دفة الأمور ، وبدأ يفرض سيطرته على مصر أيضًا ، فبعد انتهاء الصلح واستقامت الأمور، ورجع الملك الأفضل إلى دمشق بعساكره ، ورجع الملك العزيز عثمان إلى القاهرة وفي صحبته عمه العادل الذي أصبح السلطة الفعلية في مصر (وأمر ونهي وحكم وتصرف في كبير الأمور وحقيرها)[1] .

وفي المقابل كان الأفضل بعد عودته من مصر قد لزم القناعة والطاعة والزهد وأقبل على العبادة واعتزل السياسة والملك وفوض الأمر لوزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري[2] (فاختلت الأحوال به غاية الاختلال ، وكثر شاكوه وقل شاكروه)[3] فضج الناس به من سوء إدارته وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير معًا .

وبالرغم من أن العادل أرسل إلى الأفضل يطلب منه أن يبتعد عن ابن الأثير ضياء الدين ، ويبعده عن تدمير أمور الملك ، إلا أنه تمسك به ، بل إنه انقاد لرأيه ورفض حتى مصالحة أخيه وعمه عند مسيرهما إليه ، وهنا وجد العادل والعزيز الأمور مهيأة لعزل الأفضل والاستيلاء على دمشق ، فخرج الاثنان – العادل والعزيز – عن مصر في يونيو سنة ١١٩٦م قاصدين دمشق ، فلما وصلا دمشق لم يجدا صعوبة في دخولها ، لأن بعض الأمراء كانوا قد راسلوا العزيز والعادل ومرضوهما على الأفضل وحثوهما على أخذ دمشق منه (فكتبوا

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٥٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٤.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٥٥ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٢٩.

يحثونهما على معالجة الزحف إلى البلد وانتهاز الفرصة ، ويعدون من أنفسهم المساعدة وفتح الأبواب لهما) [١] فما صدهم عن البلد صاد ، ولا ردهم راد ، ولم يجدوا في طريقهم من يقاتلهم) [٢].

وحدث أن سقطت دمشق في أيدي العادل والعزيز في أوائل يوليو ١١٩٦م ، واتفقا على أن يحل العادل محل الأفضل في حكم دمشق وأواسط الشام ، في حين أخذ العزيز لقب السلطنة ، وبقيت له مصر وبيت المقدس ، ويذكر اسمه في الخطبة وينقش على السكة ، أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران – شرقي بصرى – ليقيم فيها نسيًا منسيًا ، أما الوزراء ابن الأثير فقد هربه الأفضل في جملة الصناديق خوفًا عليه من القتل فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلاده[٣].

العادل والصليبيون :

كانت القوى الصليبية في الشرق والغرب تراقب تطورات الأحداث عند المسلمين باهتمام ، وخصوصًا بعد وفاة صلاح الدين ، وما أعقب ذلك من اختلاف أولاده فيما بينهم وتقسيم دولته إلى دويلات متنازعة ، ذلك الاختلاف والشقاق شجع القوى الصليبية في الغرب على الإعداد من أجل شن حملة صليبية جديدة للانتقام واسترداد بيت المقدس والاستيلاء على بلاد المسلمين والثأر منهم ، واستغلوا أن الهدنة التي عقدوها مع صلاح الدين كانت محدودة بثلاثة سنوات وثلاثة أشهر تنتهي فعلاً في ديسمبر سنة ١١٩٥م.

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٦٠-٦٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٣٣ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٦٠.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٦٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٦.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٦٢-٦٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٣٤- ١٣٥ ، أبو شامة، الروضتين ، ٢/ ٢٣١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٢٦ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢٢.

ومن الأشياء التي فجرت فتيل الصراع من جديد تصرفات أمير مدينة بيروت المعروف بأسامة ، حيث كان يرسل سفن الأسطول الإسلامي لتقطع الطريق على الصليبيين الذين أخذوا يتدفقون من أوربا على بلاد الشام لدعم الوجود الصليبي ، فاشتكى الصليبيون من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر (فلم يمنعا أسامة من ذلك) . هنا خرجت الدعوات الصليبية للإسراع لنجدتهم من المسلمين ويقولون لملوك أوربا وأمرائها (إن لم تنجدونا ، وإلا أخذ المسلمون البلاد)[١] .

وكان من أشد ملوك الغرب حماسة للحرب الصليبية عندئذ هنري السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٠ – ١١٩٧م) حيث وجد في الحروب الصليبية فرصة طيبة لتحقيق أحلامه وآماله الواسعة في استرداد بيت المقدس وتكوين إمبراطورية كبيرة ، وبإخضاع الشرقين اللاتيني والبيزنطي للإمبراطورية المقدسة العالمية[٢] ومن ثم أخذت جموع الألمان تتقاطر على الشام وازدحمت بهم المدن والقلاع الصليبية [٣].

بدأت الجموع الألمانية الصليبية تهاجم المدن والحصون الإسلامية ، ولم يستطع الملك العادل السكوت على أولئك الألمان الذين (انتشروا في الساحل وكثروا فيه) لاسيما بعدما قتلوا بعض المسلمين في أطراف القدس وأسروا وغنموا شيئًا كثيرًا ، لذلك أسرع العادل إلى طلب النجدات والإمدادات من أمراء بني أيوب من الجزيرة شمالاً حتى مصر جنوبًا ، فعبؤوا جيوشهم ، وتجمعت هذه الجيوش في عين جالوت إلى الجنوب الشرقي من الناصرة ، ولم تلبث أن أحاطت الجيوش الإسلامية بالألمان قرب عكا ذاتها سنة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢٣.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣.

٥٩٤هـ/ ١١٩٨م ، ثم نهض الصليبيون لقتال القوات الإسلامية ، والتقى الجمعان عند تل العجول بالقرب من غزة ، فقتل المسلمون منهم جماعة وأسروا جماعة ورجعوا بغنائم كثيرة[(١)].

وجاء رد هنري دي شامبني ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بأن أسرع بطلب النجدة من الإمبراطور الألماني هنري السادس ، ولكن العادل كان أسرع حركة ، فقبل أن تتجمع الجموع الصليبية ، حيث أسرع إلى مهاجمة يافا – وكانت تابعة تبعية إسمية للملك عموري لوزجنان ملك قبرص – فعرض هنري دي شامبني على عموري إعطائه يافا ليحكمها حكمًا فعليًا ، مقابل مساعدته في الحرب ضد المسلمين والدفاع عن يافا في وجه الهجمات الإسلامية، وبالفعل وافق عموري على العرض ولكن شاءت الأقدار أن يموت هنري دي شامبني فجأة في سبتمبر ١١٩٧م ، في الوقت الذي استولت الجيوش الأيوبية على يافا بسهولة ، وكانت خسارة الصليبيين مزدوجة بسبب سقوط يافا في أيدي المسلمين ، ووفاة ملكهم من ناحية أخرى[(٢)].

ولا شك أن خسارة الصليبيين بوفاة هنري دي شامبني كانت كبيرة ، إذ أنهم افتقدوا شخصية قيادية تستطيع قيادة دفة مصيرهم وسط أرض تلفظهم بكل قواها ، واضطر الصليبيون إلى عرض عرش المملكة الصليبية على عموري الثاني لوزجنان ملك قبرص فتزوج بأرملة هنري المسماة إيزابيل ، وذلك بهدف إقامة رجل قوي على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ليدافع عنها ويحميها من المسلمين ، وأصبحت قبرص موحدة مع المملكة الصليبية في بلاد الشام تحت عرش عموري لوزجنان ، ولاقت الفكرة تأييدًا من جميع طوائف الصليبيين

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٧٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٤٠ ، أبو شامة ، الروضتين، ٢/ ٢٣٣.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٦-١٢٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٧٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣.

لاسيما الداوية والإسبتارية ، ومعظم أمراء الصليبيين في الشام.

وكان عموري قد وصل بالفعل إلى بلاد الشام ليدافع عن يافا ، ولكن وصل بعد أن سقطت المدينة فعلاً في يد العادل ، فشرع في مهاجمة بيروت للاستيلاء عليها تعويضًا عن يافا ، واستطاع بالفعل أخذ بيروت في أكتوبر ١١٩٧م (فملكوها صفوًا وعفوًا بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة) بعد أن هرب صاحبها الأمير عز الدين أسامة ومن معه من العساكر[١].

وكان لضياع مدينة بيروت واستيلاء الصليبيين عليها نتائج خطيرة منها:

- حرمان الأسطول الإسلامي من الاستفادة منها وعدم تزويده بما يحتاج إليه من ذخائر وإمدادات.
- تمكن الصليبيون من إحكام سيطرتهم على ساحل الشام الواقع شمالي عكا وحتى مدينة طرابلس.
- تجرأ بوهيمند الثالث أمير إمارة أنطاكية الصليبية على إظهار رغبته في الاستيلاء على اللاذقية وجبلة وهما الميناءان اللذان استولى عليهما صلاح الدين سنة ١١٨٨م ، ولكن اهتمام الملك الظاهر صاحب حلب بالمدينتين وتحصينه لهما فوت على بوهيمند الثالث الفرصة وفشلت محاولته تلك عام ١١٩٧م/ ٥٩٣م[٢].

أما الصليبيون الألمان فإنهم فكروا – عقب الاستيلاء على بيروت – في الزحف بزعامة الملك عموري للاستيلاء على بيت المقدس ، فلما علم العادل بنيتهم تلك أرسل القوات الإسلامية إلى مدينة صور فقطعوا أشجارها وخربوا مابها من قرى وأبراج ، فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت إلى صور

(١) ابن الأثيرة ، الكامل ، ١٢/ ١٢٧ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٦٣.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢٦.

وأقاموا عليها ، ثم تركوها وهاجموا حصن تبنين في أول صفر ٥٩٤هـ/ أواخر نوفمبر ١١٩٧م ، وهاجموه هجومًا عنيفًا ، ولكن المسلمين صمدوا وأصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه.

وأسرع العادل إلى نجدة حصن تبنين وأرسل يطلب على وجه السرعة الإمدادات من ابن أخيه العزيز عثمان في مصر ، ومن أعضاء البيت الأيوبي، فسار الملك العزيز مجدًا فيمن معه من العساكر فوصل إلى عسقلان في ربيع الأول ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م ، وجاءت النجدات من البيت الأيوبي ، فأخاف ذلك الصليبيين الألمان ، في الوقت الذي سمعوا بوفاة إمبراطورهم هنري السادس في الغرب فآثروا الانصراف عن حصن تبنين ، وتراجعوا إلى صور ثم إلى عكا، أما الملك العزيز والملك العادل ، فقد سارا في أثر الصليبيين "يلتقطون من ظفروا به منهم ، فغنم المسلمون شيئًا كثيرًا من عسكرهم"[1] .

ثم قام الملك العزيز عثمان بإعادة تعمير تبنين بعد أن هدم الصليبيين سورها بالمنجنيقات وعمرها وزودها بالغلال ، وترك معظم الجيش المصري ، تحت إمرة عمه العادل وفوض إليه أمر الصلح والحرب وعاد إلى مصر في جمع قليل[2] ، وكان سبب تعجل العزيز بالعودة إلى مصر أنه علم بأنه توجد مؤامرة لقتله، فعاد مسرعًا للقاهرة ، حيث خرج الناس للقائه في يوم مشهود[3] .

وبعد تراجع الصليبيين عن تبنين وترك العزيز لجيش مصر في خدمة عمه الملك العادل ، فقوي بذلك ساعده وظل متأهبًا لقتال الصليبيين ويوالي الهجمات عليهم إلى أن أضجرهم وأسأمهم ، وفي المقابل فإن وفاة الإمبراطور الألماني هنري السادس قد أثرت كثيرًا في معنويات الجنود الألمان الذين انحسر

---

(١) ابن واصل ، مفروج ، ٣/ ٧٥-٧٦ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٣ ، أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ٣/ ٩٣-٩٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٧٦.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٢٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٤١.

دورهم واضمحل ولم يعد لهم دور في توجيه الأمور الصليبية لاسيما بعد هزيمتهم في تبنين ، فطلب الصليبيون بقيادة عموري الثاني عقد الهدنة مع المسلمين ، حيث عقدت الهدنة بالفعل في أول يوليو سنة ١١٩٨م على أساس القواعد التي اتبعت في صلح الرملة المعقود بين صلاح الدين وريتشارد مع احتفاظ كل من المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة ، فاحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل ، واحتفظ العادل بيافا في حين قسمت صيدا بين الطرفين واتفقوا على أن تكون مدة الهدنة ثلاث سنين(١) .

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

ما كاد العادل ينتهي من مهادنة الصليبيين حتى دخلت الدولة الأيوبية منعطفًا خطيرًا ، إما تنجو منه وتعود بقوة أو أنها تندثر وتذهب مع رياح الفرقة والتنازع ، حيث توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في السابع والعشرين من المحرم سنة ٥٩٥هـ / الموافق آخر نوفمبر ١١٩٨م(٢) .

وترك العزيز من البنين يزيدون عن عشرة كلهم صغارًا أكبرهم ابنه محمد قد أنافت سنوه على عشر ، فاجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا لولده محمد ونعتوه بالملك المنصور محمد ، ولكن جماعة من الأمراء الأسدية بزعامة سيف الدين يازكوج ، لم يقبلوا بتولية هذا الطفل ، واجتمعوا مع الأمراء الصلاحية ، واجتمع الرأي على أن يتم استدعاء الأفضل من صرخد ليكون وصيًا على الملك المنصور ابن الملك العزيز ، ولم يتأخر الأفضل عن المجيء إلى مصر وتولية الأمور فيها(٣) .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٤١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٧٨.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٨٢-٨٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ٩٥ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ١٤٣-١٤٤.

(٣) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٤-٢٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٤٠-١٤٢ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ١٤٥-١٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٩١-٩٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٤٧.

وكان الملك العادل في هذه الأثناء يحاصر ماردين في ديار بكر ، حيث كان حاكمها النظام مدبر حسام الدين الأرتقي قد كتب إلى العادل يستدعيه لتسليح ماردين ويأخذ منه عوض عنها ، فلما قصدها العادل لم يف له النظام بوعده مما تطلب من العادل حصار ماردين لأخذها بالقوة ، وقد كاتب بعض الأمراء الحانقين على الأفضل – العادل حتى ينضم إليهم في أخذ مصر ولكنه ظل محاصرًا لماردين (وظن أنه يأخذها ، والذي يريدون منه لا يفوته) [١].

وفي هذه الأثناء شجع بعض الأمراء في مصر الملك الأفضل على محاربة الملك العادل وأخذ دمشق منه ، وقالوا : "اطلب بلدك الذي منه أخرجت ، وعن المقام فيه أزعجت ، ومالك في مصر ما يكفيك ، ودمشق لك بوصية أبيك" [٢] وكان هذا رأي أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب وابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، حيث أخذا يستحثان الأفضل على الخروج إلى دمشق وأخذها مستغلاً غياب العادل عنها ، ووعدوه بمساعدته بالمال والنفس والرجال ، فانساق الأفضل وراء هؤلاء وخرج بقواته من مصر صوب دمشق لأخذها من عمه العادل [٣].

وعندما علم العادل بهذه الأنباء تعجل بالعودة إلى دمشق ، فوصلها في ٨ يونيو سنة ١١٩٩م ، وأخذ يعد العدة للدفاع عن المدينة ، فلما وصل الأفضل بقواته ضرب الحصار على دمشق مدة ستة أشهر (حتى غلت الأقوات بدمشق لشدة الحصار) ، وفي هذه الأثناء لجأ بعض الأمراء من معسكر الأفضل إلى العادل فخلع عليهم وأحسن إليهم فتبعهم الكثير في هذا المسلك ، فقويت نفس

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٤٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٤٦-١٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٩١-٩٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٤٧.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٥.

(٣) ابن الأثير ، ١٢/ ١٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٩٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١٤٨/١.

العادل وأرسل إلى بقية الأمراء في جيش الأفضل يستميلهم إليه ويحثهم على إثناء الأفضل عن مقصوده وبذل لهم الأموال الجزيلة حتى تغيرت نفوسهم على الأفضل[(١)] .

ومع طول الحصار لدمشق ضعفت نفوس العسكر المصري ، فتراجع الأفضل بالجيش عن دمشق ، ولما أراد مهاجمتها خذله أخوه الملك الظاهر غازي ، وضعضع نفسه وأوهن قوته حسدًا منه على أخيه الأفضل وهو - الأفضل - لا يدري[(٢)] .

وبعد أن انقلب الأمراء على الأفضل ، ومال أكثرهم إلى العادل ، ظن الأفضل أن الأمراء الأكراد قد تحالفوا وصاروا يدًا واحدة واتفقوا مع الدمشقيين ضده ، وفي هذه الأثناء وصل الملك الكامل محمد بن العادل بقواته التي كان تركها معه لمحاصرة ماردين - لمساعدة والده ، واستطاع دخول دمشق في ١٢/ ٢/ ٥٩٦هـ/ ديسمبر ١١٩٩م ، فتراجعت قوات الأفضل عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة ، في حين كان وصول الكامل محمد بالقوات والأموال إلى دمشق سالمًا من الأسباب التي زادت من قوة العادل (فقويت نفس أبيه به قوة عظيمة وأيقن بظهور أمره واستيلائه)[(٣)] .

وفي هذه الأثناء ساءت أحوال جيش الأفضل (وكثرت المخامرة والنفاق فيه، وانحلت بذلك العزائم ، ووقع من المفاسد القبيحة ، فنفر قلب الملك الظاهر من أخيه الملك الأفضل ، وامتنع عن لقائه مدة ، وتقاعد عن الحرب) الأمر الذي دفعهما إلى التراجع عن دمشق ، ثم اتفاقهما على الرحيل والعودة إلى بلادهما ، فعاد الأفضل إلى مصر في صفر ٥٩٦هـ/ أواخر ديسمبر ١١٩٩م ، بعد أن هلك

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٩٧.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٤٤.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٠٤-١٠٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٤٥ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٦-٢٣٧.

له من الأموال الكثير ، وعاد الظاهر إلى حلب[1].

ولكن العادل لم يترك الأفضل يعود إلى مصر في سلام فأتبعه بجيشه، وترك ابنه الكامل محمد ليعود إلى ماردين ويستولي عليها ، وتحرك هو بقواته في أثر الملك الأفضل ، وأخذ يطوي المراحل طيًا في أثره ، فلما بلغ الملك الأفضل ذلك الخبر حاول أن يقوم بجمع جيشه الذي كان قد تفرق ، فتعذر ذلك عليه ، فخرج في جمع قليل ، وقرر لقاء العادل قبل دخول البلاد المصرية ، فالتقى الفريقان في مكان يقال له السائح بالقرب من بلبيس ، فانهزم عسكر الأفضل وولوا منهزمين لا يلون على شيء ، ثم لحق به في القاهرة حيث استسلم الأفضل وطلب عودته إلى إقطاعه المتواضع في حوران على أن تكون مصر للعادل، حيث تسلم منه القاهرة فدخلها العادل في الثامن من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ/ الخامس من فبراير ١٢٠٠هـ[2].

ولما استقر العادل في القاهرة أظهر في أول الأمر أنه أتابك تابع للملك المنصور ابن الملك العزيز ، وحلف له الأمراء والقادة لمساعدته ليقوم بأتابكية الملك المنصور ، إلى أن هدأت الأمور واستقر الحكم والملك في مصر للعادل خلع المنصور ونادى بنفسه سلطانًا ، وخطب له على المنابر منذ الجمعة الموافق الحادي والعشرين من شوال سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م ، خطب له في الشام ومصر وحران والرها وبيافا رقين ، وضربت السكة باسمه ، واستدعى الملك العادل ابنه الكامل محمد من الشرق ، ونصبه نائبًا له على البلاد المصرية ، وجعله ولي

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٠٤-١٠٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٤٥ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ١٤٩-١٥٠ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٥-٢٣٧ ، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ٩٥-٩٦.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٠٨-١٠٩ ، ابن الأثير، الكامل ، ١٢/ ١٥٥-١٥٦، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٥٠-١٥١، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ٩٨.

عهده ، وأطلق على العادل منذ ذلك التاريخ لقب السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب (واستبد بملك مصر آمنا من الشراكة)[1] .

وبالرغم من سيطرة العادل على مصر وأجزاء واسعة من الشام إلا أن نار الفتنة والنزاع لم تهدأ في صدر الأفضل والظاهر ابنا صلاح الدين ، فلم يلبث أن اتفقا مع بعض الأمراء من مؤيديهم على مهاجمة دمشق وانتزاعها من العادل، وشرعا في مهاجمتها ، وضايقوا دمشق أشد مضايقة وكادت تسقط بالفعل في أيديهما ، إلا أن العادل نجح في بذر بذور النزاع بين الأخوين ، فكتب العادل إلى الأخوين الأفضل والظاهر ، يقول لكل منهما : "إن أخاك لا يريد البلد إلا لنفسه ، وإن العساكر متفقون معه في الباطن على ذلك" ، فاختلف الأخوين ورحلا عن دمشق أول المحرم سنة ٥٩٨هـ / الموافق أول أكتوبر ١٢٠١م ، وعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة عمه ولاطفه وأهدى إليه ، وأما الملك الأفضل فلم يحصل من البلاد إلا على سميساط وبلادها لا غير ، واتفق الجميع على أن يكون السلطان العادل سلطان البلاد ، وحلفوا له على ذلك ، وخطب له في حلب ، وانتظمت البلاد في حكمه ، واستقرت قواعده ، واعتمد في ملكه على أبنائه حيث أناب ابنه الكامل محمد في حكم مصر ، وجعل المعظم عيسى في دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ، والأوحد ميافرقين ، أما العادل نفسه فكان له الإشراف التام على جميع تلك الأنحاء ، وصار ينتقل في ممالك أولاده، والعمدة في كل الممالك عليه[2] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٥١-١٥٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٥٦، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١١٢-١١٣ ، أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٧.

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ٢/ ٢٣٧ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٥٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، ٣/ ١١٧-١٢٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ١٦٠-١٦٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٢٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٢٩ ، فايد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ، ص٢٧٤.

وبعد.. فإن العادل قد سلك مسلكًا سياسيًا طبيعيًا في تناوله للأمور ولم يكن انتهازيًا كما يحلو للبعض أن يصفه ، فقد تعامل الرجل مع حقائق الموقف السياسي ولم يحاول أن يغتال حاكمًا ، ولكن كان الرجل الأكثر كفاءة وخبرة وسط جماعة من العابثين ، ولم يكن ممكنًا أو مقبولاً أن يترك الأمور تتردى تحت حكم أشخاص متقلبين بين العبث واللهو من ناحية ، والزهد والانقطاع للعبادة من ناحية أخرى ، مثل ابن أخيه الأفضل ، وعلى أية حال فإن الأحكام الأخلاقية لا يمكن أن تكون معيار لتقييم حركة التاريخ التي تحكمها اعتبارات الصراع و "دفع الناس بعضهم بعضًا" على حد تعبير القرآن الكريم[١] .

---

(١) قاسم عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص٨٩.

الفصل الحادي عشر

السلطان العادل والصليبيين

- علاقة الملك العادل بالصليبيين والحملة الصليبية الرابعة:

حدث أن بدأ الفكر الصليبي الاستراتيجي يتغير، بعد الهزائم المتتالية التي لقيها الصليبيون على يد صلاح الدين، ثم فشل الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق الأمل الذي كان معقودًا عليها في استخلاص بيت المقدس، والأحداث التي أعقبت وفاة صلاح الدين، وتنازع البيت الأيوبي، مما ذهب رياح قوتهم وهيبتهم، هذه الأحداث أوجدت لدى الغرب الرغبة في القيام بحملة صليبية جديدة، ولكن الفكر الاستراتيجي للغرب بدأ يتغير هذه المرة، حيث لم يعد النزول على ساحل الشام أو ضفاف نهر الأردن هدفًا للمشروعات الصليبية، إنما بات هدفهم المنشود هو ضرب العالم الإسلامي في قلبه النابض مصر، بوصف مصر مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين في الشام والمخزن الكبير الذي استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية في محاربة الصليبين، هذا فضلاً عن إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامة الملك العادل جعل من الخطورة على الصليبيين أن يتجهوا لحصار بيت المقدس، فيعرضون أنفسهم للوقوع بين فكي كماشة، أي بين قوات العادل التي تخرج من مصر وتلك التي تنفذ من دمشق.

ثم إنه وجدت عندئذ نسبة كبيرة من التجار الإيطاليين في موانئ دلتا النيل – وبخاصة في دمياط والأسكندرية – وهؤلاء سيتعرضون لانتقام السلطات المصرية إذا هاجم الصليبيون بيت المقدس، فالأولى أن يبدأ الصليبيون بمهاجمة شواطئ مصر لحماية أولئك التجار وتأمين الجبهة الجنوبية لفلسطين، ثم بعد ذلك يستطيعون الاستيلاء على بيت المقدس، إما عن طريق المساومة أو عن طريق القوة، وهكذا استقر الرأي على أن تكون مصر مقصد الحملة الصليبية الرابعة [1].

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٧٣٤.

وبينما كانت الرغبة لدى الغرب تتنامى في القيام بحملة صليبية جديدة ، تولى كرسي البابوية أنوسنت الثالث سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م ، وهو الذي جمع بين السياسة والدين ، وكان يؤمن إيمانًا جازمًا بوجوب سيطرة الكنيسة على السياسات الداخلية والخارجية للبلاد الأوروبية ، ووجوب معالجة المشكلات السياسية وفق مخطط تضعه الكنيسة ، وكان يعتقد بوجوب طاعة كل القوى الأوربية للبابا ، ويعتبر أن البابا هو نائب عن المسيح في الأرض ، وأن طاعته فريضة واجبة ، وبناء على هذا ، فإن البابا يعتبر نفسه صاحب الحق الأعلى في تولية الملوك والأباطرة ورسم سياستهم التي يسيرون وفقها ، وكذلك فإن أمور الحرب ينبغي أن تشرف عليها الكنيسة ، وهي التي ترسم خطتها.

وكان أنوسنت من أشد المتحمسين للقيام بالحملة الصليبية ، ولذلك لم تكد تمر على توليته كرسي البابوية أشهر قليلة ، حتى دعا في منتصف سنة ١١٩٨م – للحملة الصليبية الرابعة ، ثم أرسل بعد قليل إلى إيمار بطرق مملكة بيت المقدس يطلب منه إرسال تقرير مفصل إلى روما عن الموقف في بلاد الشام، ويأمره أن يعنى في ذلك التقرير بالبيانات الخاصة بمدى قوة حكام المسلمين ، والعلاقات فيما بينهم وبين بعض ، وطلب منه أيضًا وصفًا حقيقيًا لأحوال الصليبيين حتى يكون على بينة من الأمر ، وقد شاءت الأقدار أن تمد البابوية بفرصة مواتية وهي وفاة الإمبراطور هنري السادس في سبتمبر ١١٩٧هـ/ ٥٩٤م وهو الذي كان بأطماعه الواسعة في الشرق والغرب معًا يمثل خطرًا كبيرًا على مشروعات البابوية وأطماعها ومصالحها ، وقد أعلن هنري السادس سابقًا عن القيام بحملة يحقق بها أطماعه في الشرقين الصليبي والبيزنطي ، وبدت البابوية أمام قوته وهيمنته عاجزة عن معارضته أو الوقوف في وجهه ، فجاءت وفاته – وهو ما يزال في ريعان الشباب – ذات أثر عظيم في نفس البابوية ، إذ زال

التهديد الخطير الذي كانت تتعرض له[١] .

وسرعان ما أخذت الاستعدادات للحملة الصليبية الرابعة تسير سيرًا سريعًا، بفضل جهود جماعة من الدعاة المتحمسين ، لم يقلوا في حماستهم عن دعاة الحملة الصليبية الأولى ، غير أنه يلاحظ في تكوين الحملة الصليبية الرابعة أنها لم تكن حملة شعبية ، ولم تكن حملة ملوك وأباطرة ، إنما كانت حملة أمراء ، ساهم فيها وتولى قيادتها عدد كبير من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وغيرهم ، وإن كانت الغلبة فيها للعنصر الفرنسي ، وفي مقدمة هؤلاء جميعًا كان بلدوين الرابع أمير فلاندرز، وأخوه هنري ، وبونيفيس دي مونتفرات ، ثيبو الثالث أمير شامبني ولويس أمير بلوا.

والواقع أن التجارب أثبتت فشل الحملات الصليبية التي تولى قيادتها الملوك والأباطرة ، فبينما كانت أكثر الحملات الصليبية نجاحًا الحملة الصليبية الأولى ، التي لم يشترك فيها ملك متوج ، والتي تولى زعامتها مجموعة من الأمراء ، إذ بالحملتين الثانية والثالثة تفشلان بسبب الحزازات العنصرية والخلافات القوية بين الملوك الذين لم يستطيعوا أن ينسوا في الشرق ما كان بينهم من منافسات وضغائن في الغرب[٢] .

وقبل جميع الأمراء بالكونت تيبالد كونت شمبانيا قائدًا للحملة الصليبية ومعه عدد كبير من الأمراء ، وانقضت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٠م في مفاوضات مختلفة بين القادة والبابا أنوسنت الثالث الذي كان يحاول أن يسيطر على دفة الحملة الصليبية الرابعة ، ثم توفى يتبالد كونت شمبانيا فجأة في مارس ١٢٠١م فاختار الأمراء بونيفاس مونتيفرات قائدًا للحملة الصليبية الرابعة[٣] .

(١) روبرت كلاري ، فتح القسطنطينية ، ص١٢ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ١٩٥-١٩٨، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٨١.
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٣٣-٧٣٤.
(٣) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ١٩٨ - ٢٠١ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٢٨٣.

- انحراف الحملة الصليبية عن وجهتها :

وبعد أن حدد الصليبيون قادة الحملة ووجهتها ، بقي عليهم أن يعدوا السفن اللازمة لتنقلهم إلى الشواطئ المصرية ، فاتصلوا بالبندقية ، ثم عقدوا اتفاقية مع الدوج انريكو دامدولو على أن تقوم سفن البندقية بنقل جنود الحملة الصليبية إلى الشواطئ المصرية لمدة سنة مقابل ٨٥ ألف مارك من الفضة تدفع على أربع دفعات.

وبالرغم من هدف الحملة وهدفها المنشود هو مصر ، ولكن ظروفًا جديدة أدت إلى تغيير مسار الحملة ، فبعد توقيع الاتفاقيات مع البندقية شرع الصليبيون في التوجه إلى البندقية ، والتجمع بها حتى تنقلهم سفن الأسطول البندقي إلى جهة الحملة ، فلما اكتمل شملهم طلبوا من البنادقة الرحيل في الأسطول ، وطلب دوق البندقية من الصليبيين دفع الأموال المطلوبة أولاً ، فدفع الصليبيون للبنادقة ما جموعه من المال ، ولكن تبين أنهم لازالوا مدينين للبنادقة بخمسين ألف مارك لابد من سدادها قبل أن يتحرك الأسطول.

وهنا طلب حاكم البندقية العجوز مساعدة الحملة الصليبية لكي يستولي على مدينة زارا من المجر – على الشاطئ المقابل للبحر الأدرياتي واستردادها من ملك هنغاريا وتسليمها للبنادقة مقابل تأجيل المبلغ الذي سيدفعه الصليبيون لنقل حملتهم إلى الشواطئ المصرية . ولأن البديل كان التخلي عن الحملة الصليبية الرابعة وضياع المبلغ الذي دفعه الصليبيون بالفعل فإن قادة الحملة الصليبية الرابعة قبلوا هذا العرض.

ثم ما لبث الصليبيون أن شرعوا في مهاجمة مدينة زارا ونهبوها في أكتوبر سنة ١٢٠٢م – وهو البلد المسيحي الآمن – مما يدل دلالة واضحة على بداية انحراف الحملة الصليبية ، وعدم تمييزها – في ذلك الدور الجديد – بين مهاجمة المسلمين ، ومهاجمة المسيحيين ، وزاد الموقف سوءًا أن مدينة زارا لم تكد تقع في

قبضة الصليبيين حتى دب الخلاف بينهم وبين البنادقة حول اقتسام الغنائم المسيحية ، وتحول الخلاف إلى نزاع مسلح انتهى باتفاق سريع بين الطرفين ، أما البابا أنوسنت الثالث فيقال أن الاستيلاء بلغ به حدًا جعله يصدر قرار الحرمان ضد الحملة الصليبية بأكملها ، ثم خفف قراره بعد ذلك وجعله ضد البنادقة المشتركين فيها بوصفهم مسؤولين عن انحراف الحملة الرابعة إلى زارا(١) .

وكان البنادقة يرومون مهاجمة بيزنطة والانتقام منها للمهانة التي تعرض لها البنادقة من الإمبراطور البيزنطي ، ويريدون تعويض خسائرهم التي منوا بها نتيجة لتوسع الإمبراطور البيزنطي في إعطاء الامتيازات التجارية للتجار البيازنة والجينوية في القسطنطينية في حين قبض على التجار البنادقة وصودرت أموالهم ، وألحقوا بهم الضرر ، كما أن الاستيلاء على عاصمة بيزنطة سوف يمكن البندقية من السيطرة على البسفور.

وفي هذه الأثناء كانت قد حدثت ثورة في القسطنطينية انتهت بخلع إسحاق الثاني وفرار ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبًا المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين . أما الثمن الذي عرضه الكسيوس مقابل تلك المساعدة فكان مغريًا حقًا يتلخص في إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية فضلاً عن مساعدة الصليبيين في حملتهم على مصر.

ومن الطبيعي أن يصادف هذا العرض قبولاً وترحيبًا من البابوية في حين وجدت البندقية فيه تحقيقًا لفوائد مادية ضخمة . وهنا نلاحظ أن البنادقة بالذات لم يكونوا مستعدين لمعاداة الملك العادل وحمل الصليبيين إلى شواطئ مصر، نظرًا لما صار لهم من مصالح اقتصادية واسعة في مصر آنذاك ، ولا أدل على نفاق البنادقة مع الصليبيين آنئذ من أنهم في الوقت الذي كانوا يسومون الصليبيين على الأجر اللازم لنقلهم إلى شواطئ مصر إذا بهم يدخلون في

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٣٥ ، قاسم عبده قاسم ، الأيوبيون والمماليك ،ص٩٠.

مفاوضات اقتصادية مع السلطان العادل ، وأرسلوا بعض المبعوثين إلى مصر فعلاً سنة ١٢٠٢م ، فعقدوا اتفاقية مع السلطان العادل وتعهدوا له بعدم مساعدة أي مشروع صليبي ضد مصر ، وقد أضفى السلطان العادل بالذات على البنادقة امتيازات تجارية واسعة في مصر ، وعقدوا معهم معاهدة تجارية حققت لهم كثيرًا من الفوائد ، كما خفض لهم الضرائب ، وسمح بإقامة فندق آخر جديد لهم في الإسكندرية.

وهكذا لم يكن في صالح البنادقة بأي حال من الأحوال التضحية بمصالحهم التجارية في مصر ، وإثارة القطيعة مع السلطان العادل ، في الوقت الذي سيؤدي اشتراكهم مع الصليبيين في غزو القسطنطينية إلى تحقيق مكاسب جديدة في ذلك المركز الهام الواقع على الطريق التجاري بين آسيا وأوربا والتقاء البحرين الأسود والأبيض ، أما الغرض الصليبي والكنيسة وبيت المقدس فكلها ألفاظ جوفاء في نظر البنادقة لن يؤدي الجري وراءها إلى كساد تجارتهم وضياع مصالحهم الاقتصادية ذلك الاعتبار الأول في نظرهم[1].

وإذا أضفنا إلى ذلك العداء المذهبي المستمر بين كنيسة القسطنطينية ذات المذهب الأرثوذكسي ، والبابوية الكاثوليكية بمزاعمها العالمية عن رئاسة العالم المسيحي ، وسوء العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين منذ الحملة الصليبية الأولى وموقف الإمبراطورية البيزنطية من الحملات الصليبية المتعاقبة منذ ١٠٩٧ ، واعتقاد البابوية والغرب الأوربي أن الدولة البيزنطية مسئولة عن عرقلة جهود الصليبيين في المشرق وفي فشل كثير من الحملات الصليبية التى سلكت أراضيها، والنفور القديم المتأصل بين الكنيستين الشرقية والغربية ، أدركنا في نهاية الأمر لماذا صادفت فكرة اتجاه الصليبيين ضد القسطنطينية قبولاً عامًا سريعًا من

---

(١) فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ضد الصليبيين ، ص٢٨٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ص٧٣٥.

البابوية والبنادقة والرأي العام في الغرب الأوربي جميعًا[١] .

على أية حال تحركت القوات الصليبية والأسطول البندقي إلى القسطنطينية، فوصلها في يونيو ١٢٠٣م / ٥٩٩هـ ، فلما سمع بهم الإمبراطور الكسيوس الثالث المتربع على العرش هرب إلى تراقيا ثم أخرج الإمبراطور المخلوع إسحاق من السجن ونصب على العرش ، ثم اتفق الصليبيون على أن يكون الشاب الصغير شريكًا لوالده ، فتوجوه إمبراطورًا مشاركًا لأبيه وعرف باسم الكسيوس الرابع ، وبدأ الصليبيون يطالبونه بالوفاء بتعهداته ، فلما عجز عن إجابة طلباتهم المادية المرهقة وثار عليه شعبه ، استولى الصليبيون على القسطنطينية في مارس سنة ١٢٠٤م ، وعندئذ نسى الصليبيون أنهم فتحوا بلدًا مسيحيًا وأنهم اقتحموا أكبر مركز ظل يحمي المسيحية في الشرق طوال تسعة قرون، وحدث أنهم انساحوا في طرقات المدينة وشوارعها كالطيور الجارحة حين تنقض على فريستها ، فأخذ الصليبيون يقتلون من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال ، ولم تقع عينهم على تحفة أو أثر إلا نهبوها ، ولم يتركوا أثرًا فنيًا ولا أدبيًا إلا أفسدوه وخربوه ، حتى الكنائس والأديرة لم تسلم من عبث الصليبيين ، ولم تنج من أيديهم وهم الذين حملوا شارة الصليب على صدورهم وأكتافهم ، وادعوا أنهم خرجوا من بلادهم لخدمة المسيحية ومحاربة المسلمين ، واقتحم الصليبيون كنيسة القديسة صوفيا وهم سكارى فمزقوا الستائر والبسط والفرش ، وداسوا الكتب المقدسة بأقدامهم ، وحطموا الأيقونات ذات القيمة الفنية النادرة ، ولم يسلم الجامع الذي كان للمسلمين في القسطنطينية[٢] فأشعلوا فيه النار سنة ١٢٠٤م وظلت النار مشتعلة فيه مدة يومين وامتدت منه ألسنة

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٣٦.

(٢) وقد أقيم هذا المسجد منذ عصر الأمويين ، وكانت تقام فيه الخطبة يوم الجمعة ، وتقام فيه الصلوات ، ويدعو فيه لخليفة المسلمين.

اللهب حتى هددت كنسية رأيا صوفيا نفسها[١].

وبعد أن انتهت موجة السلب والنهب ، قام المنافسون بتقسيم الغنيمة فيما بينهم ، واستقر رأيهم على اختيار بلدوين التاسع كونت فلاندرز إمبراطورًا، وتم تتويجه في كنيسة القديسة صوفيا في مايو ١٢٠٤م ، أما منصب البطرقة فقد اختير له أحد البنادقة – وهو توماس مورسيني – الذي كان أول رجل كاثوليكي يتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية . وتم الاتفاق على تقسيم أشلاء الإمبراطورية البيزنطية الساقطة إلى دول إقطاعية ، وفق النظام الإقطاعي الغربي ، يحكمها الأمراء والزعماء الصليبيين ويكونوا تابعين للإمبراطور بلدوين ، على أن تشمل أملاك الإمبراطور الخاصة القسطنطينية نفسها ، ما عدا الحي البندقي ، أما بونفيس دي مونتفيرات فقد أخذ مقدونيا وتساليا ، أما البنادقة فقد نالوا نصيب الأسد من هذه الغنيمة فنالوا معظم الأحياء التجارية والجزائر القريبة من الشاطئ وجزيرة كريت ومعظم الجزر الرئيسية ، في حين اقتسم بقية أمراء الحملة الصليبية الفائض من أراضي الإمبراطورية في البلقان ، أما صغار الأمراء في الحملة الصليبية فقد خرجوا من هذه الغنيمة صفر اليدين ، فيما استأثر زعماء الحملة الصليبية وحدهم بالغنيمة مما أوجد حالة من الغليان سادت الذين لم ينالوا شيئًا من هذه الغنيمة[٢].

وبالرغم من أن عموري كان حريصًا على احترام الصلح الذي بينه وبين المسلمين ، ولكن هناك أحداث فرضت عليه الخروج على هذا الصلح ، منها اعتداءات الأمير المصري – الذي كان يملك قلعة صيدا – على ممتلكات الصليبيين وسفنهم ، ولم تفلح شكاوى عموري إلى الملك العادل الذي أقر بعجزه عن منع ذلك الأمير على القيام بهجمات على ممتلكات وسفن

---

(١) فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ٢/ ٧٣٨ ، قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٩١.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٣٩ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٢٩١.

الصليبيين، ومنعه من العدوان ، وعندئذ عزم عموري على الانتقام فتربص القافلة من السفن الإسلامية تبلغ عشرين سفينة واستولى عليها بما فيها ومن فيها، وبعد ذلك شرع عموري في الإغارة على إقليم الجليل بالاشتراك مع الداوية الأستبارية ، فضلاً عن فرسان عكا ، وتوغل هؤلاء الصليبيين حتى وصلوا الطريق بين عكا وطبرية ، فخرج لهم العادل بجنوده ، غير أنه لم يستجب لإلحاح أمرائه بالهجوم على ممتلكات الصليبيين ، وتجمد الموقف عند هذا الحد[١].

وفي هذا الأثناء وصلت جموع الصليبيين – المعترضين على تغيير وجهة الحملة إلى القسطنطينية – وكانت لديهم الحماسة الشديدة للقيام بالهجوم على المسلمين ، ولم يستطع عموري الوقوف في وجههم ، فقام بعدد من المظاهرات الحربية لإشباع رغباتهم ، حيث خرج في عشرين سفينة صليبية من عكا في ٢٠مايو ١٢٠٤م لمهاجمة دلتا مصر ، فدخلت فرع رشيد ، حيث أقام الصليبيون خمسة أيام " يسلبون وينهبون" ، وبعد أن نهبوا مدينة فوه بالذات عادوا ومعهم الأسرى والغنائم إلى الشام[٢].

وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد لمسوا مدى الضعف والتخاذل الذي يعيشه الأيوبيون آنذاك ، فلم تنقطع إغاراتهم على شمال الشام ، ولم تتوقف هجمات الأسبتارية على ممتلكات المنصور الأيوبي صاحب حماه ليضطروا إلى تسليم بعرين ، وقد استعان الملك المنصور بقوات بعلبك وحمص ، وبذلك أمكنه إنزال هزيمتين بالأسبتارية المعتدين في منتصف مايو سنة ١٢٠٣م ، ثم هزمهم مرة أخرى "هزيمة شنيعة" في أوائل الشهر التالي ، غير أن الأسبتارية أعادوا تنظيم صفوفهم وأعادوا الكرة وهاجموا الملك المنصور وأنزلوا به الهزيمة وتقدموا في

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ،٢/ ١٥٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل، ١٢/ ١٩٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٦١ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل، ١٢/ ١٩٨ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٠٦.

بلاده ، حتى وصلوا أبواب حماه نفسها ، وفي سنة ١٢٠٤/ ١٢٠٥م ثم أغار الصليبيون على إقليم حمص حيث "قتلوا وأسروا" كما خرجوا من طرابلس وقاموا بغارة على جبلة واللاذقية وقتلوا عددًا من المسلمين ، وغنموا وسبوا شيئًا كثيرًا ، وبالرغم من أن الملك الظاهر صاحب حلب قام بحملة كبيرة على الصليبيين في حصن المرقب (١٢٠٤-١٢٠٥م) إلا إنه فشل في الاستيلاء عليه لحصانته[١] .

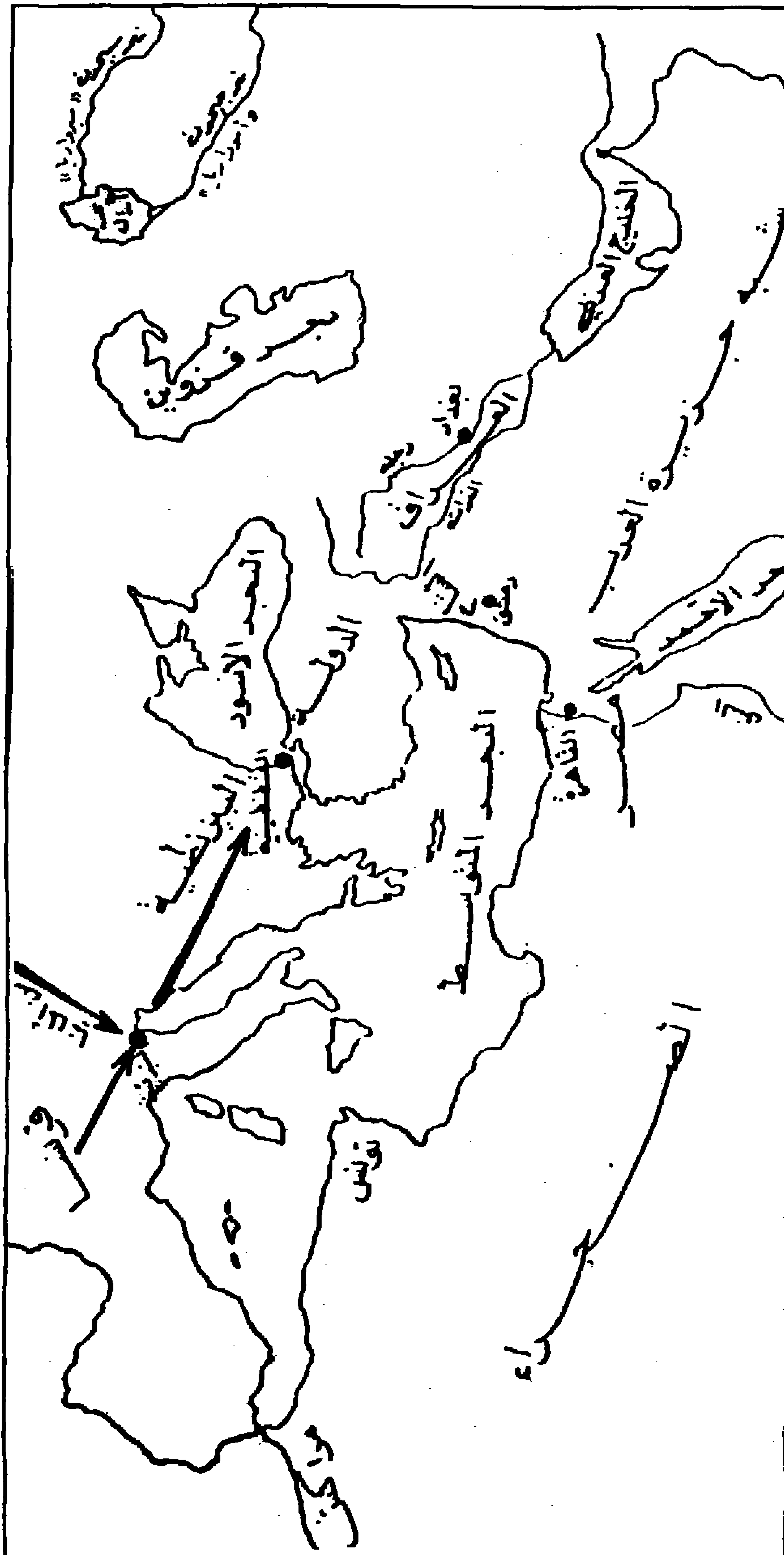
وهنا وجد عموري أن الصليبيين قد اكتفوا بالسيطرة على الإمبراطورية البيزنطية وتقسيمها فيما بينهم ، ولم تعد لهم الرغبة في النزول إلى أرض الشام ومهاجمة المسلمين ، أضف إلى ذلك قيام كثير من الفرسان الصليبيين بالرحيل من الشام إلى القسطنطينية حيث منحهم بلدوين كثير من الإقطاعات في البلقان، فلم يرغب عموري أنه يواجه الأيوبيين وحده ، فأرسل إلى العادل – الذي كانت هو الآخر لديه رغبة كبيرة في التصالح ، وعقد معه الهدنة ، وتنازل له العادل عن يافا ، وترك للصليبيين نصف اللد والرملة وصيدا ، كما أعطاهم الناصرة لتسهيل مهمة الحجاج الصليبيين ، وتم عقد الهدنة في شهر المحرم سنة ٦٠١هـ / سبتمبر ١٢٠٤م[٢] .

وبعد عقد هذه المعاهدة بشهور توفى أماريك عموري الثاني لوزجنان وتحديدًا في أبريل ١٢٠٥م ، وترتب على هذه الوفاة المفاجئة انفصال عري الوحدة بين تاجي مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس في عكا ، ذلك أن مملكة عكا الصليبية عادت إلى صاحبتها إيزابل ثم إلى كبرى بناتها من هنري دي شامبني واسمها ماري ، من حين آل عرش قبرص إلى هيو الأول ابن عموري وهو صبي دون العاشرة من عمره[٣] .

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٦٣-١٦٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٤.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٦٢ -١٦٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٤

(٣) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص٣٨.



الحملة الصليبية الرابعة

وظهرت على مسرح الأحداث السياسية شخصية جديدة هي حنا دي برين الذي كان قد اقترب من الستين ، فعين هذا النبيل الفرنسي وصيًا على ابنة أماليك عموري الثاني المسماة ماري وتولى الحكم (١٢٠٥-١٢١٠م)[١].

وبالرغم من عقد الهدنة مع المسلمين إلا أن هجمات الصليبيين على بلاد المسلمين لم تتوقف ، بل تعددت ، بدأها فرسان الأسبتارية في حصن الأكراد حيث كانوا يريدون الاستيلاء على حمص ، وتكررت محاولاتهم الاستيلاء عليه سنة ١٢٠٦/١٢٠٨م ، وحدث أن هاجم أهل قبرص سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م أسطولاً للمسلمين وأخذوا (عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها) فأرسل السلطان العادل إلى الوصي على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية حنادي دي برين يذكره بالهدنة بين الطرفين ، ويطلب منه التدخل لدى أهل قبرص ورد ما أخذوا من أسطول المسلمين ويقول له : "نحن صلح ، فلم غدرتم بأصحابنا؟ " ولكن الوصي على عرش المملكة الصليبية أجاب العادل : "بأن أهل قبرص ليس لي عليهم حكم وأن مرجعهم إلى الفرنجة الذين بالقسطنطينية "[٢].

وكان أهل الشام قد أزعجتهم غارات الصليبيين على بلاد المسلمين من حولهم ، واجتمع خلق عظيم منهم في المساجد وطالبوا السلطات بمواصلة الجهاد، وذكر أن امرأة مسلمة قطعت شعرها وبعثت به إلى السلطان العادل وقالت : "اجعله قيدًا لفرسك في سبيل الله" ، فعقد العادل العزم وخرج من دمشق على نية الجهاد"[٣].

ثم حدث أن انتقل العادل إلى حصن الأكراد لمحاولة إرهاب الأسبتارية وإبعاد

---

(١) قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص٩٢.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٧٣ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٦٩-٧٠ ، محمود الحويري ، العادل الأيوبي ، ص٨٤، قاسم عبده قاسم ، الأيوبين والمماليك ،ص٩٢.

خطرهم عن حمص . وقد نصب العادل معسكره عند بحيرة قدس قرب حمص، وأخذ يستدعى الجنود ويطلب النجدات والإمدادات ، التي أتت إليه من الملك المنصور صاحب حماه والملك الأمجد صاحب بعلبك ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الظاهر صاحب حلب ، وأمراء سنجار والموصل والجزيرة وآمد، ثم شرع العادل في مهاجمة حصن الأكراد في يونيو ١٢٠٧م ، فنازله وأسر خمسمائة رجل وغنم إلا أنه لم يستطع الاستيلاء على الحصن لحصانته واكتفى بالاستيلاء على بعض الأبراج المحيطة بالحصن مثل حصن اعناز وأسر حاميته وغنم منه أمولاً كثيرة وسلاحًا(١) .

ثم توجه العادل بقواته إلى قلعة قريبة من طرابلس ونصب عليها المجانيق ، ولم يزل مصابرًا عليها حتى فتحها ، وحصل على جميع ما كان بها ، وبعد ذلك زحف على طرابلس في يوليو سنة ١٢٠٧م ، ونصب عليها المجانيق وضيق على أهلها أشد مضايقة ، وعاثت العساكر في قرى طرابلس وبساتينها ... وقطعوا العين الواصلة إليها وخربوا طرقها ، وكان العادل يريد قطع الإمدادات عن طرابلس ومنع الماء عنها ، ليدفعهم إلى الخضوع والاستسلام ، ولكن العادل فجأة – بالرغم من أن هجومه على طرابلس لم يطل أكثر من ١٢ يومًا – أمر بالانسحاب وتراجع بقواته إلى بحيرة قدس قرب حمص ، واكتفى بتخريب المكان والاستيلاء على حافيه(٢).

وبالرغم من أن حملة العادل على طرابلس لم تستغرق من الوقت طويلاً، وأن العادل آثر الانسحاب بقواته دون إتمام أهداف الحملة ، إلا أن تلك الحملة قد أرهبت الصليبيين ودفعت بوهيمند الرابع أمير طرابلس إلى طلب الصلح "وسير مالاً وثلثمائة أسير وعدة هدايا" فأجابه العادل إلى طلبه وصالحه في آخر ذي

---

(١)ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣-١٧٢-١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٧٣، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ١٩٦.

(٢)ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٧٣-٢٧٤.

الحجة سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م[1].

إن موقف العادل وملوك الدولة الأيوبية في سابق الأحداث يكشف عن:

- حقيقة أن خلفاء صلاح الدين لم يكونوا مثله ، وأنهم اتبعوا سياسة متخاذلة تجاه العدو الصليبي تقوم على رد الفعل ، وتجنح إلى التفريط والتسليم على الرغم من قدرتهم العسكرية ، وضخامة مواردهم ، وسوء أحوال الفرنج بالمشرق ومن ناحية أخرى نجدهم لا يتهاونون في شن حرب ضد بعضهم بعضًا لأسباب أهون بكثير.

- والحقيقة الأخرى التي كشفت عنها أحداث العلاقة بين المسلمين والصليبيين أن العادل كانت لديه الرغبة المفرطة – أحيانًا – في مهادنة الفرنج ، ينبغي على الباحث أن لا ينسى صداقته للملك الصليبي ريتشارد قلب الأسد أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، وسعادة العادل بمشروع الزواج من أخت ريتشارد ، وهو المشروع الذي فشل بسبب معارضة صلاح الدين ، والمقابل المطلوب في هذه الزيجة.

- والشيء الذي لا يمكن إنكاره أن العلماء قد أخذوا على الملك العادل الأيوبي تهاونه في عدم حفظ ثغور الإسلام وتعرض للوم من هؤلاء العلماء الذين لم يتورعوا عن تقريعه وأمام عامة الناس ، ويبدو أن السلطان العادل محمدً كان يهتم بإبقاء العرش في ذريته أكثر من شيء آخر ، وقد أدى ذلك إلى نشوء موقف سياسي لصالح الصليبيين[2].

على أية حال فإن العادل – بعد أن عقد الصلح – قد أرسل إلى الخليفة العباسي سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م يطلب التشريف والتقليد على مصر والشام

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٧٤ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ١٦٦ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٠٨.

(٢) قاسم عبده قاسم ، الأيوبيين والمماليك ، ص٩٣.

والبلاد الجزرية وخلاط ، فاستجاب الناصر لـدين الله العباسـي لرغبـة العـادل، وقلده حكم البلاد التي ذكرها وأصبح بذلك مفوضًا من الخليفة في حكم الـبلاد ولبس شعار العباسيين ، وخوطب العادل (بشاهنشاه – ملـك الملـوك – خليـل أمير المؤمنين)[1] .

وفي سـنة ١٢٠٨م بلغـت مـاري – الوريثـة الـشرعية لمملكـة بيـت المقـدس الصليبية – سن الرشد ، فبحث الصليبيون لها عن زوج ، ودار على ذلك صراع كبير ، إلى أن انتهى الأمر بزواجها من حنا دي برين الـذي كـان في الـستين مـن عمره ، بمشورة من فيليب ملك فرنسا وتأييد من البابا ، ولم يلبث حنا دي بـرين أن تزوج عروسه الشاب ، ثم توج ملكًا على مملكـة بيـت المقـدس الـصليبية في كاتدرائية صور في أوائل أكتوبر ١٢٠٨م.

وفي الوقت الذي توج فيه حنا دي بردين ملكًا على مملكة بيت المقدس كانت الهدنة المعقودة بين الصليبيين والمسلمين قـد انتهـت في يوليـو ١٢١٠م ، فأرسـل العـادل إلى عكـا يطلـب تجديـدها ، فوافـق حنـا دي بـرين ، ومعظـم طوائـف الصليبيين ، إلا أن بعض طوائف الصليبيين الأخرى مثل الداوية قد اختـاروا – بحماقتهم المعهودة – استئناف الحرب مع المسلمين ، وقـوي سـاعدهم بوصـول أعداد كبيرة من الصليبيين من الغرب الأوربي إلى عكا سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م ، فقاموا بعدد من الأعمال الاستفزازية ضد المسلمين في تلك الفترة[2] مما استدعى خروج الملك المعظم ابن العادل على رأس جيوشه قاصدًا عكا ، وأوقعوا بقراها وحصونها المحيطة بها الخراب والدمار وسبوا وغنموا كثيرًا ، ثم تراجع عن عكا، وشرع في إقامة قلعة حصينة قوية فوق جبل الطور – وهو جبل عال مطل علـى عكا وبالقرب منها ويشرف على إقليم الناصرة – لحماية إقلـيم الجليـل مـن أي إغارات مقبلة من جانب الصليبيين. وقد اهتم العادل اهتمامًا كبيرًا بهذه القلعة،

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٨٠-١٨٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٦٧.

(٢) المقريزي ، السوك ، ١/ ١٧١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٠١.

ولما فرغ من بنائها شحنها بالرجال والذخائر والسلاح ، مما أثار الرعب في قلوب الصليبيين ، وجعلهم يشعرون بأن العادل ينوي القيام قريبًا بعمل خطير ضدهم ، وإزاء ذلك لم يسع الداوية سوى أن يخضعوا لرأي بقية طوائف الصليبيين ويقروا مبدأ الصلح مع المسلمين ، وعقدت الهدنة في يوليو سنة ١٢١١م بين العادل والملك حنا دي برين لمدة ستة سنوات ١٢١١-١٢١٧م[١] .

ولم تلبث ماري – ملكة مملكة بيت المقدس – أن توفيت سنة ١٢١٢م حزينة على شبابها الضائع ، ولكن بعد أن كانت قد أنجبت من زوجها الكهل طفلة أسمتها إيزابيلا أو يولاند. وهكذا تعرض عرش المملكة الصليبية مرة أخرى للذبذبة ، وساء موقف حنا دي برين الذي كان قد تولى العرش بوصفه زوجًا للملكة ، ولكن بعد وفاتها لم تعد له صفة شرعية ، وذلك وفقًا للقواعد والأصول الإقطاعية ، ولكن تم الاتفاق بسرعة على أن يقوم حنا دي برين بالوصاية على المملكة وعلى ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد ، وقد حرص حنا دي برين على أن لا تضيع سنوات الهدنة مع المسلمين سدى ، وإنما أخذ يعمل على تصفية مشاكل الصليبيين الداخلية ويمنيهم بمشروعه غزو مصر . وكان حنا دي برين قد بادر – عقب الهدنة السابقة مع العادل – بإرسال الرسل إلى روما يطلب إعداد حملة جديدة بحيث تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة[٢] .

على أية حال فإن الهدنة كان لها دور كبير في هدوء الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين لبعض الوقت ، إلا أن بعض المنشقين من كلا الجانبين لم يكن ليدع الوقت يمر بدون حرب ، فحدث أن شغل الداوية أنفسهم عندئذ بمساعدة بوهيمند أمير طرابلس في الحرب التي قامت بينه وبين ليو الثاني ملك أرمينية حول وراثة عرش أنطاكية ، وهي الحرب التي استعان بوهيمند فيها بالأتراك

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ١٢٥-٢١٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٧١ ، ١٧٦.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٥٢.

السلاجقة وبالطاهر ملك حلب ، أما الأسبتارية فقد استغلوا تلك المدنة أيضًا في العمل على الجبهة الأرمينية ، ولكن ليس في محاربة الأرمن – كما فعل الداوية – وإنما في مساعدتهم في حربهم ضد سلاجقة الروم ، الأمر الذي جعل الملك ليو الثاني الأرمني يضفى على فرسان الاسبتارية كثيرًا من الامتيازات والمنح ، وبفضل مساعدة الأسبتارية تمكن ليو الثاني ملك أرمينية من إنزال الهزيمة بالسلطان عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم ، وانتزاع عدة مدن مهمة منه مثل هرقلة وقرمان إلى الجنوب الغربي من قونية سنة ١٢١١م[١] .

كما حدث أن رجال الباطنية (الإسماعيلية) قتلوا سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م في كنيسة انطرسوس ريموند بوهيمند الرابع أمير أنطاكية وطرابلس وكان عمره ثماني عشرة سنة ، فحزن عليه أبوه حزنًا شديدً ، وأعظم الصليبيون ذلك ، وقرروا الانتقام من الإسماعيلية والمسلمين ، فاجتمعوا سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م من جزيرة قبرص وطرابلس وإلى أنطاكية ، وانضم إليهم عسكر من الأرمن وأغاروا على قلاع الباطنية ، ونازلوا قلعة الخوابي ، فاستنجد الباطنية بالملك الظاهر ملك حلب ، فاستجاب لهم ، وأرسل نجدة إلى القلعة ومؤن ، فلما علم الصليبيون بذلك رحلوا عن القلعة ، وأرسل إليهم الملك الظاهر أنه لن يمكنهم من الإسماعيلية فرحلوا إلى أنطاكية[٢] .

الحملة الهنغارية سنة ١٢١٧م :

كانت الأحوال في المنطقة العربية مع بداية العقد الثاني من القرن الثالث عشر في حال من السيولة السياسية والميوعة العسكرية التي لم تحسمها المعاهدة التي أبرمها السلطان العادل محمد مع الملك الصليبي حنا دي برين سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م لمدة ست سنوات ، والتي كانت في واقع الأمر بمثابة فترة إعداد

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٥٢.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢١٩-٢٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٧٩.

من جانب الفرنج وأوربا لشن حملة صليبية جديدة ، فدعا البابا أنوسنت الثالث لحملة صليبية جديدة ١٢١٣م ، وقال في بيانه أن المسلمين بنوا حصنًا جديدًا على جبل الطور ، وهو المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده ، وأنهم باتوا يهددون عكا وهي آخر ما بقى من مملكة بيت المقدس – وفي تلك المرة أعلن البابا أن الحملة يجب أن تتجه إلى الشام مباشرة لتعويض الجهد الذي بدده رجال الحملة الرابعة في القسطنطينية.

وهكذا أخذت الاستعدادات تجري في الغرب الأوربي للحملة المنتظرة ، وكانت النية متجهة إلى أن يشترك فيها البابا أنوسنت الثالث بنفسه لولا وفاته سنة ١٢١٦م.

وكأن أن وصلت الحملة الصليبية المنتظرة إلى الشام في خريف سنة ١٢١٧م ، وجل أفرادها من الهنغارين والألمان تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثاني ملك هنغاريا ، ثم لحق بهما هيو ملك قبرص ، وفي نهاية أكتوبر سنة ١٢١٧م عقد مجلس الحرب في عكا واتفق فيه زعماء الصليبيين على البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التي شيدها العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل[١] .

ووصلت الأنباء إلى السلطان العادل فخاف على البلاد الإسلامية ، فخرج من مصر بالعساكر المصرية ، ولكن على ما يبدو أن العادل كان يخشى مواجهة الصليبيين ، فقد كان ابنه الملك المعظم يرغب في قتال الصليبيين مباشرة ، ولكن رغب العادل في الانسحاب من بيسان التي وصلها ، فلما عارضه ابنه وأشار عليه بعدم التراجع ، لكن العادل "نهر ابنه وشتمه بالعجمية وقال له : "أقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت من ينفعني من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول!"[٢] .

---

(١) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٢٥٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٥٥.
(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٦ ، أبو شامة ، النيل على الروضتين ، ١/ ١٠٢.

ومن هذا النص يتبين لنا أن العادل لم يكن قادرًا على ممارسة سلطة حقيقية على أبنائه ، كما أنه كان يتوجس خيفة من لقاء الصليبين.

على أية حال فإن الصليبيين زحفوا نحو بيسان ، وما يزال العادل بقواته فيها، إلا أنه أسرع بالخروج منها متجهًا إلى دمشق ، ونزل عند مرج الصفر[(١)] . وقد انزعج أهل بيسان والمسلمون جميعًا من انسحاب العادل ، وذكر ابن الأثير أنه "لما سار العادل إلى مرج الصفر رأى في طريقه رجلاً يحمل شيئًا ، وهو يمشي تارة ، وتارة يقعد ليستريح ، فعدل إليه العادل وحده ، فقال له : "يا شيخ، لا تعجل ، وأرفق بنفسك" . فعرفه الرجل فقال : " يا سلطان المسلمين، أنت لا تعجل! فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف نعجل؟!" [(٢)].

وكان انسحاب العادل من بيسان مخيبًا لآمال أهلها الذين لم يستطع الفرار منهم سوى قلة قليلة ، في حين وجد الصليبيون المدينة خالية من كل وسائل الدفاع ، فاستولوا عليها وعلى المنطقة المحيطة بها ، وغنموا منها غنائم كثيرة إذ وجدوا بها (من الأسواق والغلال والمواشي شيء لا يعلمه إلا الله تعالى) . وفي ١٠ نوفمبر سنة ١٢١٧ عبر الصليبيون الأردن وتوغلوا حتى وصلوا نوى . وبعد أن حاصر الصليبيون بانياس لمدة ثلاثة أيام عادوا إلى عكا مرة أخرى عبر الأردن ومعهم من الغنائم والسبي مالا يحصى سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا[(٣)].

وقد اكتفى العادل بمراقبة ما يحدث للمسلمين ، ثم أمر بتحصين دمشق ونقل

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ابن الأثير الكامل ، ١٢/ ٣٢٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٦.

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٥ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ١/ ١٠٢.

المؤن إليها ، وأفسد ما حولها من مصادر المياه والطعام حتى لا يستفيد منها العدو إذا ما هاجم دمشق (ففزع الناس وابتهلوا إلى الله وكثر ضجيجهم بالجامع) ، ثم أرسل العادل ابنه المعظم عيسى لإعداد العدة للدفاع عن القدس، وكتب إلى ملوك الشرق يدعوهم لنجدته ونصرته، فكان أول من وصل إليه في دمشق أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومعه جيشه، ففرح أهل دمشق لتلك النجدة، ولم يبق أحد بالبلد إلا خرج لتلقيه، وكان يومًا مشهودًا[١].

أما الصليبيون فقد شجعتهم حالة الهلع والفزع التي انتابت المسلمين لفرار العادل من أمامهم ، واستيلائهم على بيسان فشرعوا في مهاجمة الحصن الذي بناه المسلمون على جبل الطور ، وحاصروا القلعة من ٢٩ فبراير حتى ١٧ ديسمبر ١٢١٧م/ ٦١٤هـ ، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء على الحصن، فشرعوا في الانسحاب (بعدما أقاموا عليها سبعة عشر يومًا) ، ولكن العادل أدرك صعوبة الدفاع عن قلعة جبل الطور ، وخشي عودة الصليبيين إليها وقرر تدمير القلعة حتى لا يستفيد منها الصليبيون إذا أخذوها (فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها)[٢].

ثم ما لبث أن قام الصليبيون الهنغاريون بعدة غارات على بلاد المسلمين في مناطق جبال الشام قرب مرج عيون وشقيف وأرنون (وكادت تهلك بأجمعها في عاصفة ثلجية عند اجتياز جبال لبنان) ثم عاد بعدها ملك هنغاريا إلى أوربا عبر الطريق البري، فاتجه من عكا إلى طرابلس حيث زار الإستبارية في حصن الأكراد والمراقب ثم اتجه إلى طرسوس ومنها إلى أوربا عبر الأناضول ، في حين توفي هيو ملك قبرص في أواخر سنة ٦١٤هـ / ١٠-١-١٢١٨م تاركًا وراءه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٦، المقريزي ، السلوك، ١/ ١٨٦-١٨٧ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٠٠.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٧.

عرش قبرص ليتولاه ابنه الطفل هنري الذي لم يتجاوز عمره ثمانية شهور بوصاية أرملته أليس ملكة بيت المقدس[١].

- الحملة الصليبية الخامسة على مصر :

أدرك الصليبيون مدى أهمية مصر ومكانتها بالنسبة للإسلام والمسلمين ، وخصوصًا منذ عهد الحملة الصليبية الثالثة ، فقد نصح ريتشارد قلب الأسد الصليبيين بمهاجمة مصر والاستيلاء عليها إذا ما أرادوا الاستيلاء على بلاد الشام عمومًا ، وفلسطين خصوصًا ، لاعتقادهم أن مصر كانت تعتبر موردًا بشريًا وماليًا للجيوش الإسلامية ، والاستيلاء عليها لن يفقد المسلمين أغنى إقليم إليهم فقط ، بل إنهم لن يستطيعوا أيضًا المحافظة على أسطولهم في شرق البحر المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الإبقاء على بيت المقدس في أيديهم طويلاً إذا تعرضوا للهجوم من ناحيتين في وقت واحد ، من عكا والسويس ، علاوة على أن مصر ستصبح في حال استيلاء الصليبيين عليها موردًا اقتصاديًا يزيد في قوتهم من ناحية ويقلل من اعتمادهم على معونات الغرب الأوربي ، علاوة على بعد المسافة بين ممالك الصليبيين في الشرق ومؤيدوهم في الغرب[٢].

وبعبارة أخرى فإن دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها وصلوا في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر إلى نتيجة حاسمة لا شبهة فيها ولا جدال حولها ، هي أن مفاتيح بيت المقدس توجد في القاهرة وأن عليهم البدء بمصر أولاً بوصفها الطريق الطبيعي – الذي لا طريق غيره – للوصول إلى بيت المقدس، وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح في أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتهم ، فهم حين يشبهون مصر برأس الأفعى وأحيانًا يشبهونها بأنها مخزن

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٢ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٢٦٦ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٠٠.

(٢) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ،٣/ ٢٦٦-٢٦٧.

الإمدادات في العالم الإسلامي ، ومرة أخرى يشبهونها بالقلب في الجسد،... إلى غير ذلك من التشبيهات العديدة التي فاضت بها كتب دعاة الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى ، والتي وإن دلت على شيء فإنما تدل على أن الصليبيين أدركوا أن الخطر الحقيقي الذي هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم في بلاد الشام إنما نبع من مصر بالذات(١) .

ووضح هذا الموقف عندما اجتمعت القوات الصليبية بمرج عكا وطال بها الانتظار ، فعقد قادة الصليبيين اجتماعًا للمشورة في ماذا يبدأون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً ، وقالوا : "أن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر أولاً ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد" ، ويشهد هذا النص على ان المعاصرين أدركوا أن صلاح الدين لم يكن من إخراج الصليبيين إلا بعد أن ملك مصر واستمد منها القوة اللازمة للجهاد ، كما يشهد على إحساس الصليبيين بأنهم إذا أخذوا مصر ، فلن يبقى في طريقهم بعد ذلك أية عقبة لأخذ بيت المقدس(٢) .

والواقع أن الفكر الصليبي في مصر بالذات لم يكن جديدًا ، ولا ترجع بدايته إلى نهاية القرن الثاني عشر ، إنما هو تفكير قديم قدم الحروب الصليبية ذاتها، فقد فكر جود فري دي بوايون – أول حكام الدولة الصليبية في بيت المقدس – في الاستيلاء على مصر سنة ١٠٩٩م ، وإذا كان جودفري قد مات في العام التالي قبل أن ينفذ مشروعه ضد مصر سنة ١١١٦م ، ومازال ينتقل من أيلة إلى سيناء حتى وصل الفرنا وتنيس على شاطئ بحيرة المنزلة ، كذلك رأينا كيف

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٥٩.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٦٠، فايد محمد، الجهاد الإسلامي ، ص٣٠١.

أدى مولد الجبهة الإسلامية الموحدة إلى أن أصبحت مصر جزء من دولة نور الدين محمود سنة ١١٦٩ ، وهو الأمر الذي لم يتم إلا بعد منافسة شديدة بين نور الدين محمود والصليبيين حول الفوز بمصر ، مما تطلب من عموري الأول ملك بيت المقدس القيام بحملاته الأربع الشهيرة على مصر (١١٦١-١١٦٨م). وقد وصلت هذه الحملات إلى بلبيس والقاهرة ، بل وإلى الصعيد والإسكندرية، وإذا كان الصليبيون قد فشلوا في الاحتفاظ بمصر ، فإن فشلهم كان أدعى لإحساسهم بخطورة موقفهم في بلاد الشام بعد أن غدا نور الدين - ومن بعده صلاح الدين - يطوقان ممتلكات الصليبين من الشمال والجنوب ، وقد ظهر أثر ذلك فيما أصاب الصليبين على يد صلاح الدين في حطين ، ثم في ضياع بيت المقدس سنة ١١٨٧م ، الأمر الذي استدعى مجيء الحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٩١م إلى الشام ، لمحاولة استعادة بيت المقدس من صلاح الدين ، ولعل فشل هذه الحملة في تحقيق الهدف الذي أتت من أجله هو الذي أقنع أبرز قادتها - وهو ريتشارد قلب الأسد - كما أقنع الغرب الأوربي بأن الاستيلاء على مصر يجب أن يسبق أي محاولة لاسترداد بيت المقدس. ووفقًا لهذه الخطة الجديدة تمت الدعوة للحملة الصليبية الرابعة ، وهي الحملة التي لولا انحرافها إلى القسطنطينية لنزلت بشمال الدلتا وفقًا للخطة المرسومة لها.

وهكذا يبدو لنا أن تفكير الصليبيين في غزو مصر ومحاولة ذلك الغزو لم يكن شيئًا جديدًا في أوائل القرن الثالث عشر لكن الجديد في الأمر هو أن الصليبيين آمنوا في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر أن الاستيلاء على مصر ضروري لتأمين مشاريعهم وبقائهم في فلسطين . وأنه بدون الاستيلاء على مصر لن تستقر حياتهم في الشام ، وهذا هو السر في إصرار الحملات الصليبية منذ القرن الثالث عشر على الاتجاه نحو مصر بالذات. وإن كانت الحملة الصليبية الرابعة قد خرجت عن الخطة الموضوعة لها واتجهت إلى القسطنطينية بدلاً من مصر ، فإن الحملة الخامسة التزمت بالطريق المرسوم واتخذت مصر

ميدانًا لها[١].

على أية حال فقد اتفق الصليبيون على قصد مصر، وبدأت جموعهم تتقاطر على الشام تلبية لدعوة البابا أنوسنت الثالث، ثم تعهدها بعده البابا هونريوس الثالث، وانضم إليهم صليبو الشام بزعامة حنا دي بردين، وأيده في فكرته غزو مصر الداوية والأسبتارية وصليبو قبرص.

وبعد أن ترك حنا دي برين حامية عسكرية في عكا خرج على رأس الحملة الصليبية الخامسة، حيث بدأ التحرك بهذه الجموع في ٢٧ مايو ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، قاصدًا دمياط، ونزلت القوات الصليبية على الجانب الغربي للنيل بينهم وبين دمياط النيل، حيث عسكروا قبالة دمياط في منطقة كانت تعرف باسم جيزة دمياط، وكان المكان مثاليًا من الناحية الدفاعية، ولكن لم يكن مناسبًا لقوات تريد أن تواصل هجومها للاستيلاء على المدينة ومينائها، وفي غضون أيام كانت بقية سفن الأسطول الصليبي قد وصلت كلها قبالة دمياط[٢].

وقد وجد الصليبيون أنفسهم في موقف صعب إذ أنهم عسكروا في الجانب الغربي المواجه لمدينة دمياط، وجعلوا فرع النيل يفصل بينهم وبين المدينة، وهذا يتطلب منهم عبور فرع النيل إذا أرادوا الاستيلاء على المدينة، ولم يكن معهم ما يساعدهم على تحقيق ذلك، كما أن دمياط كانت شديدة التحصين، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل سلاسل، وكان على النيل برج منيع فيه سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٧٦١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٣/ ٢٥٨، ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٣٢٣، المقريزي، السلوك، ١/ ١٨٨، رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٦٩، قاسم عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص٩٩.

بحر الملح من عبور أرض مصر . وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة ، ويعرف اليوم مكانهما في دمياط بين البرجين.

ويقول ابن الأثير : " ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها من أقاصي ديار مصر وأدانيها "[1].

وعندما علم الكامل – الذي كان ينوب على أبيه السلطان العادل في حكم مصر – بنزول الصليبيين في مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جيش ونصب عسكره عند جنوبي دمياط عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ، ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى ، وأخذ يجمع الجيوش (حتى صار عند الكامل من المقاتلة مالا يكاد ينحصر عدده)[2].

وفي الوقت الذي انشغل الصليبيون بمهاجمة دمياط ومصر فإن العادل أراد أن يشغلهم عن مهاجمة دمياط ، فانتدب أبناءه لمهاجمة ممتلكات الصليبيين في الشام، فخرج المعظم عيسى لمهاجمة قيسارية ، فخرج لهدم قلعتها الجديدة ومعه عدد ضخم من آلات الحصار ، ولم يكن لدى الصليبيين عندئذ بالشام من القوة ما يمكنهم من الدخول في معركة كبرى ضد المسلمين ، فدخل المسلمون المدينة وهدموها ، وبعد ذلك اتجه المعظم لمهاجمة عثليث ، وظن أنه سيفعل بها مثل قيسارية ، ولكن الداوية في عثليث تحصنوا في قلعتهم وخزنوا كميات كافية من المؤن والماء تكفي لمقاومة حصار طويل ، مما جعل المعظم لا يتمكن من تحقيق غرضه فانصرف عنها.

وفي تلك الأثناء – أو قبل ذلك بقليل (يونيو ١٢١٨م) لجأ الابن الثالث

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٥٨ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ١٨٨.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٦١.

للسلطان – وهو الأشرف موسى – إلى مهاجمة الصليبيين في طرابلس (فدخل بلاد الفرنج وأشغلهم عن دمياط) وأغار على حصن صافيتا وحصن الأكراد. غير أن الأشرف لم يستطع أن يستمر طويلاً في أعماله الحربية في تلك المنطقة[١].

وعلى ما يبدو أن الخطوب قد تجمعت على الدولة الأيوبية ، فبعد هجوم الصليبيين على مصر ، بدأ هجوم مشترك من بعض ملوك الشرق المسلمين ، منهم الملك الغالب عز الدين كيكاوس السلجوقي سلطان الروم ومعه الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام الذين انتهزوا فرصة انشغال العادل بالجهاد ضد الصليبيين ، فهاجموا العادل وأخذوا منه بعض البلاد التابعة له ، ولولا الاختلاف بين هؤلاء الملوك وعودة الملك السلجوقي إلى بلاده لأحدث عملهم هذا حرجًا بالغًا للعادل والمسلمين[٢].

على أية حال فإن الصليبيين قد اشتد بأسهم وشددوا من القتال في دمياط ، وحاولوا اقتحام الأبراج والسلاسل التي تمنعهم من الولولج إلى النيل وبقية أرض مصر (وعملوا آلات ومرمات وأبراجًا يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه)[٣] ويتمكنوا بملكهم هذا البرج من دخول نهر النيل (وكان هذا البرج مشحونًا بالرجال) وكان المدافعون عن برج السلسلة من الأبطال وقاوموا الهجوم ببسالة فائقة ، وصبر المؤمنون (وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشيء وكسرت مرماتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه[٤].

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٦٥.
(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٩-١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٦٣-٢٦٤ ، وابن أيبك ، كنز الدرر ، ٧/ ١٩٦ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ٢/ ١٠٩ ، ابن العديم ، زبدة حلب / ، ٣/ ١٨٠.
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٣ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، ٣/ ٢٦٠ ، ومرمات جمع مرمة ، وهو نوع من السفن الحربية الكبيرة في العصور الوسطى.
(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب، ٣/ ٢٦١.

وأخيرًا تمكن الصليبيون في ٢٤ أغسطس ١٢١٨م من الاستيلاء على برج السلسلة وقطع السلاسل التي كانت تعترض مجرى نهر النيل وتحول دون دخول السفن الصليبية فيه ، لأن هذا البرج كان (قفل الديار المصرية)[١] .

وكانت خسارة المسلمين كبيرة بنجاح الصليبيين في السيطرة على برج السلسلة، إذ أمكن مراكبهم أن تدخل (من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر) ، ولذلك حاول الملك الكامل عرقلة سير مراكب الصليبيين في النيل فأقام جسرًا عظيمًا بعرض المجرى ، ولكن الصليبين (قاتلوا عليه قتالاً شديدًا حتى قطعوه) وعندئذ لجأ الكامل إلى عدد من المراكب فملأها وخرقها وغرقها في النيل لتعوق تقدم الصليبيين ، ولكن الصليبيين نجحوا في التغلب على ذلك عن طريق خليج هناك يعرف بالأزرق ، وكان النيل يجري فيه قديمًا فحفروه حفرًا عميقًا ، وأجروا فيه الماء إلى البحر المتوسط ، وبذلك تمكنت سفنهم من الولوج في النيل والإبحار حتى وصلوا إلى موضع يقال له بورة ، حيث يقابل عسكر الأيوبيين عند منزلة العادلية[٢] .

ولما علم السلطان العادل بما حدث عن استيلاء الصليبيين على برج السلسلة حزن حزنًا شديدًا (فتأوه تأوهًا شديدًا، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا ، ومرض عن ساعته) ، ثم توفى في نهاية أغسطس ١٢١٨م / ٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ[٣] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٤-١٩٥، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ٢/ ١٠٩.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤/ ١٥ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٤.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٣/ ٢٧٥ -٢٧٦ ، ٤/ ١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٤-٣٥٠.

وفي الوقت الذي ضعفت نفوس الناس لموت العادل ، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام الصليبيين للتوغل في مصر ، أراد الصليبيون في الشام استغلال الأحداث ، حيث تشجع صليبيو عكا ، فخرج فريق من حاميتها لمطاردة بعض المسلمين الذين أغاروا على الضياع القريبة ، وأغارت الداوية على بلاد المسلمين وأوغلوا فيها قتلاً وسلبًا ونهبًا ، إلى أن أحاط بهم جيشًا أيوبيًا قرب القيمون ، فأبادوا هؤلاء الصليبيين في ٢٩ أغسطس ١٢١٨م ، ولم ينج منهم إلا القليل ، فاقتيدوا أسرى إلى بيت المقدس[١] .

وفي الوقت الذي بدا من الممكن أن يتقدم الصليبيون في عملياتهم الحربية ضد المسلمين بفضل قيادة حنا دي برين أظهرت الأحداث خلاف ذلك ، ذلك أن عقب سقوط برج السلسلة في أيدي الصليبيين حدث خللاً واضحًا في عملياتهم الحربية ، بعد أن اعتقد كثير من المحاربين أن مهمتهم قد انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا فعلاً بقسمهم الصليبي ، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وهكذا صار على حنا دي برين أن ينتظر وصول الإمدادات الجديدة ، وهي الإمدادات التي وصلت من أوربا فعلاً في سبتمبر ١٢١٨م ، على أنه يلاحظ أنه جاء بصحبة هذه الإمدادات الكاردينال بلاجيوس مندوبًا عن البابا وقائدًا على الصليبيين في حملتهم على مصر ، فأدى هذا الازدواج في القيادة إلى إنزال أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها[٢] كما سيلي فيما بعد .

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ٢/ ١٠٩.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٦٥.

الفصل الثاني عشر

السلطان الكامل والصليبيون

السلطان الكامل والصليبيين :

مات العادل عن عمر ناهز الخمسة وسبعين عامًا بعد أن قضي في الحكم تسع عشرة عامًا وشهرًا واحدًا وتسعة عشر يومًا ، وترك من الأولاد تسعة عشر ولدًا ذكرًا سوى البنات ، وجعل معظمهم ملوكًا يحكمون الدولة الأيوبية في حياته ، وأهم هؤلاء الأبناء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، والملك الكامل محمد صاحب مصر ، والملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس ، والملك المظفر شِهاب الدين غازي صاحب ميافارقين ، والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق وخلاط ، فلما مات والدهم كتب المعظم عيسى صاحب دمشق إلى إخوته يخبرهم بوفاة والدهم ، فجلس الملك الكامل للعزاء في معسكره بجوار دمياط (١).

وكان أولاد العادل يؤثرون المصلحة العامة للمسلمين ويخشون الفرقة والاختلاف (فلما توفى – العادل – ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه أبوه واتفقوا اتفاقًا حسنًا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم . بل كانوا كالنفس الواحدة ، كل منهم يثق في الآخر بحيث يحضر عنده منفردًا من غير عسكره لا يخافه ، فلا بِرم زار ملكهم ، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم) . (ولعمري أنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام ، وفي نوبة دمياط كفاية) (٢).

وبالرغم من الأحداث التي ألمت بالدولة الأيوبية ، فإن الصليبيين لم يستطيعوا الاستفادة منها ، إذ أن الصليبيين الجاثمين على أرض مصر كانوا يعانون من سوء اختيار موقعهم العسكري ، وظلوا فترة طويلة عاجزين عن إيجاد موطئ قدم لهم على الضفة الشرقية للنيل ، كما عانوا من الأمراض التي تنتشر عادة في

(١)المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٠-١٩٤.

(٢)ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٥٢.

المعسكرات ، وبالرغم من أن الإمدادات بدأت تصل إلى الصليبيين المعسكرين على أرض مصر منذ خريف عام ١٢١٨م ،إلا أنها كانت برئاسة الكاردينال البرتغالي بلاجيوس الذي صب اهتمامه وطاقته كلها لكي يجعل من مفهوم البابا أنوسنت الثالث – الذي مات قبل تشكيل الحملة – عن الحملة الصليبية التي تقودها الكنيسة أمرًا واقعًا ، وكان هذا العمل يتطلب مهارة دبلوماسية عالية لأنه على الرغم من أن حنا دي برين كان قائد الجيش الصليبي فإن فرق الجيش المختلفة كانت متفرقة الآراء والأهواء ، ولم يكن بلاجيوس يتمتع بالشخصية التي تمكنه من القيام بهذا العمل ، إذ كان رجلاً ذا طاقة هائلة ولكن كان ضيق الأفق قصير النظر مغرمًا بنفسه مستبدًا ، وعنيدًا بشكل مثير ، ولم يكن بلاجيوس يتردد في اتخاذ القرارات العسكرية بدلاً من أن يرجع إلى العسكريين من ذوي الخبرة ، وسرعان ما تسبب وجوده في مشكلات جمة داخل المعسكر الصليبي [١].

وفي ٩ اكتوبر ١٢١٨م قام الملك الكامل بمهاجمة معسكر الصليبيين في بورة – في مواجهة دمياط – فعبر النيل على رأس أربعة آلاف من رجاله ، وقام بهجوم مباغت على المعسكر الصليبي ، ولكن الصليبيين كانوا على حذر فصمدوا للمسلمين وتغلبوا عليهم ، وعندئذ اضطر الكامل ورجاله إلى التراجع إلى الضفة الشرقية للنيل ، بعد أن خسروا كثيرًا من الضحايا ، وقد أراد الصليبيون أن يتوجوا نصرهم السابق بالعبور إلى ضفة دمياط ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وزاد من موقف الكامل سوءًا أن قبائل البدو خرجت من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى التي أعقبت نزول الصليبيين الدلتا ، فقطع البدو والأعراب الطرق وأغاروا على القرى ونهبوها " وأفسدوا وبالغوا في الإفساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج" [٢].

---

(١) قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص١٠٣.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٦ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٣١١.

- المؤامرة ضد الكامل :

في الوقت الذي كانت الدولة الأيوبية تواجه الأخطار التي تهدد مصيرها إذا برياح الغدر والمؤامرة تعصف بما تبقى للدولة الأيوبية من استقرار ، فقد كان من جملة الأمراء الأكراد الموجودين بمصر الأمير عماد الدين أحمد بن علي المعروف بابن المشطوب (وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجمع من الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه ولاسيما الأكراد) . وحدث أن ابن المشطوب دبر مؤامرة كبرى داخل معسكر الكامل وانضم إليه فيها معظم قادة الجيش من الأكراد، واستهدفت المؤامرة عزل الكامل وإحلال أخيه الصغير – الفائز ابن العادل – مكانه (ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد) ، فعلم الكامل بالخبر فدخل على هؤلاء المتآمرين (فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف ، وهم يحلفون لأخيه الفائز) ، فلما رأوه تفرقوا ، وخاف الكامل منهم ، ولم يشأ أن يواجه المتآمرين وإنما (أخذ يداريهم لكونه في مقابلة العدو ولا يمكنه المقامرة) . ولم يثبت الكامل لهذه المحنة ويواجهها بل خارت قواه حتى أنه فكر في الفرار من مصر والالتجاء إلى اليمن حيث كان ابنه مسعود يتولى حكمها ، لولا أنه علم بقرب وصول أخيه المعظم من الشام فآثر التسلل في مساء ٥ فبراير ١٢١٩م من معسكره في العادلية قاصدًا أشموم طناح[(١)] وأقام بها . وعندما أصبح الصباح ولم يجد الجند السلطان بينهم هجروا أيضًا المعسكر (فركب كل إنسان هواه ، ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ كل شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذي يخف حمله ، وتركوا الباقي بحاله من ميرة ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل)[(٢)].

---

(١) أشموم طناح : تقع شرقي المنصورة ، وجنوبي دكرنس الحالية.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٥، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٦-١٩٧ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٠.

وبذلك جاءت الفرصة مواتية للصليبيين فعبروا نهل النيل إلى الضفة الشرقية (وهم آمنون من غير منازع ولا مدافع ، وأخذوا كل ما كان في معسكر المسلمين ، وكان شيئًا لا يقدر)[(١)] .

وبعد فترة طويلة من عجز الصليبيين عن عبور النيل إلى الضفة الأخرى أتت الفرصة بلا عناء ، إذ أصبح الطريق مفتوحًا أمام الصليبيين لحصار مدينة دمياط والاستيلاء عليها بفضل مؤامرة ابن المشطوب.

وساء كثيرًا موقف المسلمين المدافعين عن مصر (فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس في أمر مريج ، فقوي به قلبه ، واشتد ظهره ، وثبت جنانه ، وأقام بمنزله) حيث استطاع المعظم عيسى أن يعالج هذا الأمر بسياسة وحنكة ، حيث قام بنفي ابن المشطوب إلى الشرق حيث تم سجنه في الكرك ، أما الفائز أخوه فقد نفاه إلى سنجار حيث مات في الطريق[(٢)] .

ثم أدار المعظم عيسى دفة الحرب مع الصليبيين فتقدم بالجيش إلى فارسكور حيث عسكر هناك جنوبي العادلية – التي احتلها الصليبيون – ليتمكن من مهاجمة الصليبيين من الخلف إن هم هاجموا دمياط ، وبذلك يقعوا بين حامية دمياط في الشمال وجيش المسلمين المعسكر عند فارسكور في الجنوب ، وفي نفس الوقت أخذ يرسل في طلب النجدات والإمدادات إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي ، فأرسل (سبعين رسولاً يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ويستحثهم على إنقاذ المسلمين واستغاثتهم ، ويخوف من تغلب الفرنج على مصر ، فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها)[(٣)] .

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٦ -١٩٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٥.
(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤/ ١٧ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ٢/ ١١٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ٢/ ٣٢٥ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٠
(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٥ -١٩٧ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣١.

- **سقوط دمياط :**

بالرغم من أن الإمدادات بدأت تصل إلى معسكر الأيوبيين تباعًا ، إلا أن موقفهم بدأ يزداد سوءًا إذ اشتدت هجمات الصليبيين على دمياط ، ولم تفلح هجمات المسلمين المعسكرين عند فارسكور عن وقف هذه الهجمات لأن الصليبيين أقاموا خندقًا كبيرًا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين واستمر القتال (واشتد الأمر على أهلها – دمياط – وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها ، وسأموا القتال وملازمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ، ومع ذلك صبروا صبرًا لم يسمع بمثله[(١)]. واستطاعت دمياط الصمود وقاومت الحصار ببسالة ودافعت هجمات الصليبيين مدة تسعة أشهر.

وبدأت الإمدادات تتقاطر على الصليبيين ، فبدأت من قبرص في فبراير ١٢١٩م/ ذي الحجة ٦١٥هـ فضلاً عن بعض الصليبيين الفرنسيين الذين أتوا من الغرب ، ولم تتوقف الإمدادات عن الصليبيين ، حيث كانت قبرص تشكل قاعدة عسكرية تزودهم بالإمدادات والمؤن لتغطية احتياجات الحملة بالكامل[(٢)].

وبدأ موقف الكامل يتأزم أكثر ، إذ أن الأخبار بدأت تصل إليه عندئذ عن تقدم جيوش جنكيز خان ، وتهديده للدولة الخوارزمية ، مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي ضد المغول ولذلك عرض الكامل على الصليبيين . أسخى عرض يمكن التقدم به . وهو استعداده للموافقة على أحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة باستثناء حصن الكرك ووادي العربة ، أي إعادة المملكة إلى ما كانت عليه في فلسطين قبل حطين سنة ١١٨٧م ، باستثناء

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٩٨ .
(٢) سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٣٩-٤٠.

الأردن ، وذلك كله مقابل جلاء الصليبيين عن مصر[(١)] .

كان عرض السلطان الكامل غاية في الكرم ... والتخاذل ، ولكن الفرنج رفضوه!!

كان الملك حنا دري برين والصليبيون الفرنسيون والصليبيون المستوطنون في فلسطين يحبذون قبول العرض السلطاني ، وذكروا بقية المعسكر الصليبي بأن هذه الحملة كان هدفها الأساسي تسهيل الاستيلاء على بيت المقدس ، ولكن بلاجيوس استغل وضعه بوصفه المندوب البابوي في الحملة رفض العرض واقتراح الملك الصليبي ، ويبدوا أن الإيطاليين بوجه خاص كانوا وراء رفض المندوب البابوي لأن البيازنة والجنيوية والبنادقة الذين عارضوا مهاجمة مصر من قبل ، رأوا أن في احتلال الدلتا مكسبًا تجاريًا ضخمًا يفوق استرداد بيت المقدس، ولو كانت الحروب الصليبية آنذاك ما تزال محتفظة بصبغتها الدينية حريصة على غايتها المفروض أنها بدأت من أجلها لقبل الصليبيون عرض السلطان الكامل ، ولرأوا فيه فرصة طيبة لاسترداد بيت المقدس دون عناء ، ولكن رفض الصليبيون جاء مصداقًا لما قلناه سابقًا من أن الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر انحرفت عن هدفها الديني الذي ادعت أنها قامت من أجله ، إلى أغراض دنيوية عديدة ، وهكذا أضاع بلاجيوس فرصة ثمينة برفض عرض الكامل ، وهي فرصة سيندم عليها الصليبيون حيث لا ينفع الندم[(٢)] .

وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة ، وشيعته الداوية والإيطاليين ، وهو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم في فارسكور بدلاً من الاكتفاء بمحاصرة دمياط ، وعندما اعترض الملك

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٦٩ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٢٨٤- ٢٨٥ ، فايد محمد ٣/ ٢٨٤ – ٢٨٥ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣١٢.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٦٩ ، قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٦.

حنا دي برين وأمراءه على تلك الخطة اتهمه بلاجيوس وحزبه بالخيانة والضعف، وشرعوا في ٢٩ أغسطس سنة ١١١٩م يهاجمون معسكر المسلمين ، وكانت النتيجة فشل الهجوم وفرار الصليبيين ووقوع بعضهم في الأسر ، مما دعم مركز المسلمين وأعاد الثقة إلى نفوسهم ، على أن الكامل أراد أن يستغل ذلك النصر ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرضه الخاص بالجلاء عن مصر مقابل إعطائهم "القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل!" ماعدا الكرك والشوبك .. وعندئذ أبى الفرنج وقالوا : "لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله" ، وحدث أن رضي الكامل بمطالب الصليبيين ولكن بلاجيوس – ومن ورائه الإيطاليون والداوية والأسبتارية – ظلوا يغالون في طلباتهم ، وأنبوا حنا دي برين وأمراءهم لاستعدادهم التساهل مع الكامل ، والواضح أن هذا الانشقاق الذي بدا واضحًا بين زعيمي الحملة الصليبية الخامسة – حنا دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس – كان السبب الرئيسي في إضاعة الفرصة وفشل الحملة.

ومن الواضح أن الذي دفع الكامل إلى تكرار عرضه على الصليبيين مرة أخرى هو إحساسه بسوء موقفه ، لأن النيل جاء فيضانه منخفضًا في تلك السنة، مما هدد البلاد بالمجاعة "وغلت الأسعار بأرض مصر ، فكانت من أشق السنين وأشدها على مصر "، ثم إن المعظم نفسه اعتراه القلق ، وأخذ يفكر في العودة إلى الشام ، في الوقت الذي ساء موقف حامية دمياط ، وتعرضت للمجاعة والوباء "فنهكتهم الأمراض وغلت عندهم الأسعار وامتلأت الطرقات من الأموات وعدمت الأقوات" . أما الصليبيون فقد وصلتهم في سبتمبر ١١١٩م نجدة قوية من الإنجليز والفرنسيين ، وعندئذ ضيق الصليبيون الخناق على دمياط ، فازدادت حالتها سوءًا ، وعبثًا حاول الكامل إمداد دمياط بخمسمائة من مماليكه بقيادة ابن الجرخي ومعهم مؤنة من المؤن والأهالي ، إلى وقعت تلك النجدة في أيدي الصليبيين ، فاستولوا على ما معها وقتلوا جميع رجالها ،

وصفت رؤوس القتلى على الخنادق[١].

وشعر الصليبيون بسوء حالة أهل دمياط ، كما شعروا بضعف المقاومة ، فصعدوا على السور الخارجي في ٥/ ١١/ ١٢١٩م ولم يجدوا مقاومة فصعدوا على السور الداخلي للمدينة دون أن يتعرضوا لمقاومة تذكر واتفقوا مع أهلها على التسليم وأعطوهم الأمان وملكوا المدينة في يوم ٢٧/ ٨/ ٦١٦هـ ، ٥/ ١١/ ١٢١٩م ، بعد حصار دام ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا[٢].

وكعادة الصليبيين لم يلتزموا بالأمان (وغدروا بأهل دمياط ، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسرًا ، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ، ويفتضون البنات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر بلادهم، وجعلوا الجامع كنيسة) [٣].

واختار الصليبيون من بين الأسرى المسلمين ثلاثمائة من الرجال البارزين وجعلوهم رهائن ، أما الأطفال الصغار فجرى تسليمهم إلى رجال الدين حتى يحولوهم إلى النصرانية ويعدوا لخدمة الكنيسة والمسيحية ، ومن تبقى من الأطفال باعوهم رقيقًا، ثم وزعت الغنائم بين الصليبيين وفقًا لمكانة كل منهم ورتبته ، أما وضع دمياط وتبعيتها ، فقد شهد تنافسًا وتنازعًا كبيرًا ، فبدأ النزاع بين الملك حنا دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس ثم بين الفرنسيين والإيطاليين ، وأخيرًا بين الملك حنا دي برين والفرنسيين والأسبتارية والداوية من جانب والإيطاليين من جانب آخر ، ففي الوقت الذي رأى حنا دي برين أن تكون دمياط جزءًا من مملكة بيت المقدس وأيده في هذا الطوائف الدينية

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤/ ١٩ ، أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ٢/ ١١٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٧١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٦.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٦ ، المقريزي ، السلوك، ١/ ٢٠١ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٨٧-٢٨٨.

والعسكرية والنبلاء العلمانيون ، في حين أصر بلاجيوس المندوب البابوي على أن دمياط تابعة للكنيسة ، وظلت الخلافات قائمة إلى أن استقر الرأي أخيرًا على عرض الأمر على البابا وانتظار حكمه[١].

وكانت خطة الصليبيين ترمي إلى الإقامة في دمياط ، ووجدوا فيها مركزًا تجاريًا وحربيًا فريدًا ، يهيئ لهم السيادة البحرية التامة على شرق حوض البحر المتوسط (وشرعوا في عمارتها وتحصينها وبالغوا في ذلك حتى أنها بقيت لا ترام) وأقبل الصليبيون من كل فج عميق للإقامة في دمياط (وأصبحت دار هجرتهم)[٢].

وكان وقع سقوط دمياط أليمًا على المسلمين جميعًا (ووقع على المسلمين كآبة عظيمة ، وبكى الكامل والمعظم بكاءً شديدًا) ، واشتد الخوف بالناس ، واستبد بهم الرعب (وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك ، وخافهم الناس كافة ، وصاروا يتوقعون البلاء صباحًا ومساءًا ، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفًا من بلادهم (ولات حين مناص) والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ، ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها، وإنما منعوا منه فثبتوا)[٣].

وزادت فواجع المسلمين ، إذ جاءت الأخبار – بعد سقوط دمياط – بفعل المغول الذين أخذوا يقوضون أركان الجانب الشرقي من العالم الإسلامي ، فاستولوا على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ، ومعظم فارس ، وسقطت بخارى في أيديهم في فبراير ١٢٢٠م ، ولم يلبث المغول أن أوغلوا في عراق العجم ، فدمروا الري وهمدان وقزوين ، وأصبحوا على أبوب عراق العرب وبغداد ،

---

(١) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٢٨٨-٢٨٩.
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٦.
(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٧.

وحدث أن ارتعدت فرائص الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد لهذه الأخبار ، وبعث يستنجد بالملك الأشرف موسى الأيوبي حاكم خلاط والجزيرة (ويأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم) ، ولكن الأشرف الأيوبي كان في شغل بنجدة أخيه الكامل ، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج ، وأتى إلى مصر لإنقاذها من الحملة الصليبية الخامسة(١) .

استرداد دمياط من الصليبيين :

وفي هذه الأثناء وقع انشقاق بين زعماء الحملة الصليبية ، فقد ادعى بلاجيوس لنفسه سلطة مطلقة على الصليبيين بدمياط وتجاهل أي رأي أو حق لحنا دي برين ملك بيت المقدس ، في حين كان حنا دي برين يزعم لنفسه حق ملكية المدينة الأسيرة ، بل إنه أمر بسك عملة جديدة عليها صورته بلقب "ملك دمياط" وفي المقابل أعلن بلاجيوس أن المدينة ملك لكل المسحيين الذين تمثلهم البابوية ، وقد ظلت هذه الخلافات محتدمة إلى أن اضطر حنا دي برين إلى مغادرة دمياط والعودة إلى عكا في أواخر مارس سنة ١٢٢٠ ، تاركًا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية عام ١٢٢٠م والنصف الأول من عام ١٢٢١ في ركود تام(٢) .

هذه الخلافات المحتدمة بين زعماء الحملة الصليبية الخامسة جعلتهم يضيعون عامًا ونصف العام وهم غير قادرين على القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة مما أعطى الفرصة للمسلمين لمداواة الجراح وإعادة ترتيب الأوراق فاختار الكامل معسكرًا جديدًا للجيش ، حيث انتقل من معسكره عند فارسكور إلى قبالة طلخا ليحمي الطريق إلى القاهرة ، وأطلق على هذه القلعة أو المنزلة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٧ وما بعدها.

(٢) قاسم عبده قاسم ، الأيوبيين والمماليك ، ص١٠٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،٢/ ٧٧٣.

الجديدة اسم (المنصورة)[(١)] .

وقد اختير هذا الموضع المثلث المحيط بضلعين مائيين ، هما البحر الصغير والنيل ، فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه برًا إلا بعد عبور البحر الصغير المعروف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره ، كما لا تستطيع الوصول إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهري طويل بعيدًا عن قواعده ، ومن ناحية كان معسكر الكامل قريبًا من أماكن قدوم النجدات العسكرية من الشام ، كما كان قريبًا من أماكن الإمدادات الغذائية . كما استغل الكامل فرصة انشغال الصليبيين بخلافاتهم الداخلية ، وأقام الإنشاءات والاستحكامات العسكرية في معسكره ، وساعد الكامل في ذلك أيضًا أن بلاجيوس أصدر أوامر مشددة تحد من النشاط البحري للصليبيين بين عكا ودمياط – سواء بين السفن والمسافرين – فاستغل المسلمون ذلك الوضع للسيطرة على مياه البحر بين دمياط وعكا ، كما قامت السفن المصرية بإغراق وإحراق عشر سفن للحجاج الصليبيين بين الإسكندرية وقبرص وعكا ودمياط.

وفي هذه الأثناء لم يتوقف الكامل عن طلب النجدات من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وخاصة الشرق وبلاد الشام ، فأسرع إليه الملك الأشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما ، والملك المنصور صاحب حماه وقلج أرسلان ، والمجاهد صاحب حمص والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك (وتتابع قدوم النجدات حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفًا)[(٢)] .

وعلى ما يبدو أن الروح المعنوية لدى المسلمين ارتفعت بهذه النجدات (ففرح المسلمون بذلك ، واستبشروا ، وتفاءلوا ، وقويت نفوسهم ، واستطالوا على عدوهم)[(٣)] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤/ ٣٣.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٢٩.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٨-٣٢٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٣٨-٢٤١.

وجرت بين الطرفين معارك كبيرة كان للأسطول الإسلامي الدور الأول منها، فقد تمكنت البحرية الإسلامية من الاستيلاء على ست شواني وجلاسة[(١)] وبطسة ، وأسروا منهم ألفين ومائتي رجل ، ثم ظفروا أيضًا ثلاث قطائع[(٢)] فتضعضع الفرنج لذلك[(٣)] .

وفي الوقت الذي لم تكن تنقطع فيه المناوشات والمواجهات بين الصليبيين والمسلمين ، جرت محاولات للتقريب وإجراء الصلح ، فعرض الكامل على الصليبيين الجلاء عن دمياط مقابل إعطائهم بيت المقدس وعسقلان ، وطبرية، وصيدا ، وجبلة ، واللاذقية (وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل..ما عدا الكرك) ولكن بلاجيوس رفض ذلك العرض من جديد ، الذي يضيع على المسلمين وتاريخهم أنصع صفحاته بمحو انتصارات صلاح الدين على الصليبيين وفي حطين ، بل إن بلاجيوس اشتط وتمادى في غيه وطلب "ثلاثمائة ألف دينار عوضًا عن تخريب القدس[(٤)] ليعمروه بها ، فلم يتم بينهما أمر وقالوا : لابد من الكرك"[(٥)] .

وعلى ما يبدو أن إصرار بلاجيوس على موقفه وتباطئه في الزحف إلى القاهرة ، كان نتيجة الأخبار المتابعة التي وصلت الصليبيين عند دمياط عن

---

(١) الجلاسة نوع من السفن الحربية الكبيرة ، وكان شائع الاستعمال في البحر المتوسط ، المقريزي، السلوك ، ١/ ٢٠٣ ، حاشية ٣.

(٢) قطائع جمع قطيعة وهي الفئة من الجنود ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٣.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٢١٧.

(٤) وكان المعظم عيسى صاحب دمشق قد أمر بتخريب بيت المقدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليه (فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها إلا برج داود.. وخرج معظم من كان في القدس من الناس ولم يبق فيه إلا نفر يسير ، ونقل المعظم ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال ، فشق على المسلمين تخريب بيت المقدس وأخذ دمياط). المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٤

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٢٩.

قرب وصول الإمبراطور فردريك الثاني على رأس حملة صليبية كبيرة ، بل إن الإمبراطور نفسه أرسل مندوبين عنه إلى الصليبيين في دمياط إشارة إلى قرب وصوله.

ثم كان أن وصل لويس دوق بافاريا على رأس قوة كبيرة إلى دمياط فتشجع بلاجيوس ، وقرر في أواخر يونيو سنة ١٢٢١م الزحف إلى القاهرة ، وأرسل إلى الملك حنا دي برين في عكا يطلب منه الحضور إلى دمياط والمشاركة في هذه العملية. وقد تمنع حنا دي برين عن الحضور في أول الأمر نتيجة لسياسة بلاجيوس وتحكمه ، ولكنه خشي أن يتعرض بعد ذلك للوم من الرأي العام المسيحي ، ويتهم بعرقلة الجهود الصليبية ، فحضر إلى دمياط ووصلها في ٧ يوليو سنة ١٢٢١م ، في الوقت الذي كان الصليبيون قد شرعوا فعلاً في التحرك جنوبًا صوب القاهرة بمحاذاة النيل(١).

وبينما هم الصليبيون بالزحف إلى القاهرة شاع بينهم أن فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا قادم لدعم الصليبيين ومعه قوة كبيرة ، فازداد حماس بلاجيوس وظهر عليه (الزهو والكبرياء)(٢).

وعندما علم الكامل بتحركات الصليبيين نحو القاهرة وإشاعة قدوم فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا جدد على الصليبيين عرضه الذي يستجدى موافقتهم عليه، ولكن بلاجيوس وشيعته امتنعوا وغالوا في طلباتهم وقالوا : "لابد وأن تعطونا خمسمائة ألف دينار لتعمير ما خربتم من أسوار القدس ، مع أخذ ما ذكر من البلاد ، وأخذ الشوبك والكرك أيضًا!"(٣)

وما لبث الصليبيون أن بدؤوا الهجوم على معسكر المسلمين يوم ١٧ يوليو، وقد اتخذ الصليبيون الوقت والمكان غير المناسبين للدخول مع المسلمين في

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٧٤.

(٢) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٢٩٢-٢٩٧ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٣.

معركة فاصلة ، فقد وصلوا إلى المكان الذي أطلق عليه المؤرخون اسم (رأس الجزيرة) ، وهي نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط ، وتمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات[١] .

ويحدد المقريزي الوقت عند مهاجمة الصليبيين بأنه كان أول ليلة توت/أغسطس سنة ١٢٢١م ، وهذا وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الشمس ، حيث أغرق الأرض بالماء ، وعجز الصليبيون عن الحركة وتوقفت الإمدادات ، فسقط في أيديهم ورأوا (أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها) والفرنج (لا معرفة لهم بأرض مصر ، ولا بأمر النيل ، فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرّق أكثر الأرض التي هم عليها ، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط..) ، ولم يلبث المصريون أن قطعوا السدود فانهمر الماء حول الصليبيين وأغرق أكثر الأرض المحيطة بهم ، بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يستطيعون العودة عن طريقه إلى دمياط ، فلما اشتد الأمر على الصليبيين أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العودة إلى دمياط ، فرأوا ما أملوا بعيدًا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون[٢] .

وعندما عجز الفرنج عن الإقامة أو الحركة وندرت الأقوات عندهم فأرادوا الارتداد سريعًا إلى دمياط ولكن (حيل بينهم وبين ما يشتهون) حيث كان الكامل قد أنزل عند شار مساح – شمالي شربين – ألفي فارس في آلاف من العربان ليحولوا بين الفرنج ودمياط[٣] .

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٤١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٣٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٢٩ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ١/ ٢٠٧–٢٠٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٤١ ، رانسيمان ، في تاريخ الحروب الصليبية ، ٢/ ٢٩٨–٢٩٩.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٧.

وفي هذه الأثناء وصلت قوات كبيرة بقيادة المعظم عيسى صاحب دمشق فعلت الروح المعنوية لدى المسلمين (فاشتد ظهور المسلمين ، وازداد الفرنج خذلانا ووهنا) [١].

وأصبح وضع الصليبيين في غاية السوء ، فلم يعد أمامهم سوى التخلي عن أحلامهم في الاستيلاء على مصر ، ولم يبق أمامهم سوى طلب الصلح بعد أن (عاينوا الهلاك) فأرسلوا إلى السلطان الكامل في ٢٨ أغسطس سنة ١٢٢١م يعرضون عليه استعدادهم لترك دمياط والجلاء عن البلاد ، مقابل السماح لهم بالخروج عن المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم يعودون إلى بلادهم سالمين [٢].

وقد أسرع الكامل إلى الموافقة على عرض الصليبيين وسط معارضة شديدة من أخويه المعظم والأشرف – اللذان أرادا استغلال الظروف المواتية والانتقام من الصليبيين (واجتثاث أصلهم البتة) ، ولكن الكامل رفض ذلك المبدأ لأنه يتوقع قدوم الإمبراطور الألماني فردريك الثاني على رأس حملة صليبية جديدة ، فينتقم مما قد يحدث للصليبيين ، كما أنه يوجد كثير من الصليبيين في دمياط ، فإن هو انتقم من المحاصرين يمتنع من في دمياط من تسليمها ويدرك أنه وقتذاك بها في دمياط لشدة تحصينها [٣].

وفي نهاية الأمر اتفق الرأي على عقد الصلح مع الصليبيين ، ولكن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم لا من أمرائهم ، يبقون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك ، وأرسلوا إلى الكامل عشرين من ملوكهم على رأسهم حنا دي برين نفسه وبلاجيوس مندوب البابا،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٠٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٤١-٢٤٢ ، المقريزي، السلوك ، ١/ ٢٠٨.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٤١.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٣٠-٢٣١ .

في حين بعث الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه ليكونوا رهينة عند الصليبيين حتى يتم تنفيذ الاتفاق[(١)].

وبعد إتمام الاتفاق جلا الصليبيون عن دمياط في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١م فدخلها الكامل في اليوم التالي ، وقد أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا ، في حين عاد حنا دي برين ورجاله إلى الشام ، بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثماني سنوات (١٢٢١-١٢٢٩م) بشرط أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى[(٢)].

وبينما كان الصليبيون يهمون بمغادرة شاطئ مصر ، بعد أن تسلم الكامل دمياط ، إذ بالنجدة الصليبية الكبيرة التي كان يخشاها الكامل تصل (فلما تسلمها – دمياط – المسلمون قدم في ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة ، يقال: أنها ألف مركب ، فعد تأخرهم إلى ما بعد تسليمها – دمياط – من الفرنج صنعًا جميلاً من الله سبحانه..)[(٣)].

وبعد ... فقد انتهت الحملة الخامسة نهاية مؤلمة ، وعدت هذه الحملة من الحملات الفاشلة ، ولعل السبب الرئيسي في فشلها هو الخلاف بين قادتها والأطماع المتباينة، وفي كثير من الأحيان كان الغرور المفرط من بلاجيوس المندوب البابوي ، ففي الوقت الذي كان الكامل على استعداد إعطاء الصليبيين كل ما أفنى صلاح الدين عمره في تحقيقه بما فيها القدس ، مقابل الانسحاب من دمياط بل أنه كرر عليهم العرض مرات ومرات ، وكان يستجدى منهم الموافقة عليه، ولكن كان في الصليبيين غلو وشطط ورغبة قوية في إذلال المسلمين ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٠٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٣٠ ، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٦/ ٢٤٢-٢٤٣ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٢/ ٣٠١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٩.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ١٠٩.

وكان من صنع الله أن يكون ذلك حال زعماء الحملة الصليبية الخامسة وإلا كان لهم أكثر مما أرادوا.

أحوال الأيوبيين بعد الحملة الصليبية الخامسة:

عمت البشائر بلاد المسلمين بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة ، وعودة دمياط إلى المسلمين ، وخرجت فلول الحملة الصليبية الخامسة المنهزمة تلعق جراحها ، بعد أن أغرقها بلاجيوس في أوحال الدلتا ، واحتفل الكامل بهذا الانتصار الذي ساقته له السماء ، واحتفل به الشعراء ، واحتفل به كامل البيت الأيوبي ، ولكن بعد السكرة جاءت الفكرة ، إذ لم يلبث عقد التحالف الأيوبي أن انفرط في نهاية سنة ١٢٢٣م وأوائل سنة ١٢٢٤م/ ٦٢٠-٦٢١هـ.

بدأ العداء والنزاع بين الأخوة عندما قام المعظم عيسى بمهاجمة أملاك أخويه وأقاربه ، وكان الملك الأشرف آنذاك في زيارة أخيه الكامل بمصر ، فقام المعظم عيسى بمهاجمة حماه ؛ لأن الملك الناصر صاحب حماه كان قد التزم له بمال يحمله إليه إن هو حكم حماه ولكنه (لم يف له) فهاجم حماه ، فأغلقت المدينة أبوابها وجرى بين أهلها والمعظم عيسى قتال ثم تركها ، واستولى على أعمالها مثل المعرة وسلميه ، فغضب الملك الكامل والأشرف موسى من هذه الأعمال ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم عيسى يطلب منه الرحيل عن حماه وأعمالها ، فامتثل للأمر ولكنه غضب على أخويه الكامل والأشرف ، وخصوصًا بعد أن أعاد المعرة وسلمية إلى الناصر ، وزادت الشكوك والشقاق بين الأخوة (وتأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشرف)[1] .

وكان رد المعظم عيسى أن بدأ يكون جبهة معارضة لأخويه الأشرف

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٣١-١٣٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢١٣-٢١٩ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك ، ص٩٩.

والكامل، فأرسل إلى أخيه المظفر غازي صاحب خلاط يحسن له العصيان على أخيه الملك الأشرف (فأجاب المظفر إلى ذلك ، وخالف أخاه الأشرف وطمع فيه)[١] .

وأرسل إلى أخيه الكامل تهديدًا صريحًا ، وقال له فيما قال : "وإن قصدتني لا أخذك إلا بعساكرك ، فوقع في نفسه - الكامل - الخوف ممن معه ، وهم أن يخرج من مصر ، فلم يجسر)[٢] ثم أخذ المعظم عيسى في مهاجمة حمص سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ، وخرب قراها ومزارعها ، ولما فشل في الاستيلاء عليها تركها وعاد أدراجه[٣] ، ولما عاد الأشرف موسى من مصر ، ووصل إلى دمشق ، استقبله المعظم عيسى وأكرم وفادته ، وظل به حتى نجح في استمالته إليه واستعداده على أخيه وكونا حلفًا مشتركًا ضد الكامل ومن يؤيده ويناصره[٤] .

وفي هذا الجو المشحون بالخلافات والفتن بين أفراد البيت الأيوبي ، لاح في الأفق خطرًا جديدًا - هو خطر الخوارزمية - هدد منطقة الشرق الأدنى بأجمعها، وقد ظهر هذا الخطر نتيجة مباشرة لحركة توسع التتار ، بعد أن دمر جنكيز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠-١٢٢١م/ ٦١٧-٦١٨هـ ، وكانت الهزيمة قد حلت بعلاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، فاضطر إلى الفرار إلى طبرستان ، حيث توفى ، وخلفه ابنه جلال الدين متكبرتي ، الذي أقام في غزنة على رأس ستين ألفًا من فلول عسكر أبيه ، ولكن جنكيز خان لاحقه ، ففر جلال الدين ومعه رجاله إلى الهند ، في حين ملك التتر غزنة ، وقتلوا أهلها ونهبوا وسبوا الحريم ، ولم يبقوا على أحد ، ثم أحرقوها ، وتركوها كأن لم تغن بالأمس.

(١) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ٣/ ١٣٤.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢٠.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢٠.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢٠ -٢٢١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٦٦ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٣٧.

على أن السلطان جلال الدين منكيرتي ما كاد يعلم بعودة جنكيز خان إلى قراقروم في حوف قارة آسيا حتى رجع إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وبذلك أحيا الدولة الخوارزمية مرة أخرى متخذًا من أصفهان عاصمة له ، وبدلاً من أن يعمل جلال الدين منكبرتي في ذلك الدور على حماية العالم الإسلامي من خطر التتار الوثنيين ، قام – وهو الحاكم المسلم – بمهاجمة الخليفة العباسي في العراق وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥م / ٦٢٢هـ ، وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا – على مقربة من ممتلكات الأشرف موسى بن العادل الأيوبي – الأمر الذي جعل الأشرف يهرع إلى دمشق طلبًا لمعونة أخيه المعظم(١).

وبدأ العداء السافر بين أفراد البيت الأيوبي ، وبدأت رياح الفتنة في الهبوب ، واستعان كل طرف منهم بقوى خارجية على أخيه ، حيث استنجد المعظم عيسى بالسلطان جلال الدين منكبرتي سلطان الخوارزمية ، وأرسل إليه يطلب منه النجدة على أخيه الملك الكامل (ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل)(٢).

وفي المقابل استعان السلطان الكامل محمد بالإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوربا ، وطلب منه التأييد ضد أخيه ووعده إعطائه الساحل وبيت المقدس(٣).

وبينما كان العالم الإسلامي يشهد تنافسًا وخلافًا كبيرًا بين زعمائه الذين لم يكونوا يعلموا ما يحاك لهم في الظلام وما يبيت لهم بليل ، وإن كانوا على علم

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢١٤ – ٢١٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ١٠٠-١٠١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢٢ ، أبو الفدا ، ٣/ ١٣٨.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢١-٢٢١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٣٨.

فلم يكن يهمهم سوى الحكم والملك والسلطة ، وفي المقابل كانت أوربا تشهد أدق وأصعب مراحل الصراع بين البابوية وزعماء الإمبراطورية ، والمعروف أن تلك الحقبة التي استمرت من سنة ١٠٥٧ حتى سنة ١٢٥٠م تقريبًا تعرف في التاريخ الأوربي باسم (عصر البابوية والإمبراطورية) نظرًا لما شهدته من احتدام الصراع واشتداد الخلاف بين السلطة الدينية وعلى رأسها البابا ، والعلمانية وعلى رأسها الإمبراطور ، في غرب أوربا ، حول سيادة العالم فأيهما أسمى ؟ البابا أو الإمبراطور؟ وأيهما يجب أن تكون له الكلمة الأولى في العالم الغربي السلطة الكنسية أم السلطة الزمنية ؟ هذه هي المشكلة الحقيقية التي ألقت بغرب أوربا في صراع مرير ، في الوقت الذي كانت رحى الحرب لا تنقطع بين الصليبيين والمسلمين في أسبانيا والمغرب من ناحية ، وفي الشرق الأدنى من ناحية أخرى. وكان بطل الدور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والإمبراطورية على حقه في عرش الإمبراطورية والقضاء على خصمه أوتوا الرابع سنة ١٢١٤م ، دون أن تدري البابوية أن هذا الإمبراطور الجديد الذي جمع في قبضته بين عرش ألمانيا والصقليتين ، سيكون أخطر خصم لها في القريب العاجل ، ذلك أن فردريك الثاني لم يكد يفرغ من مشاكله في ألمانيا حتى اتخذ إيطاليا وصقلية مسرحًا لجهوده ، مما أثار مخاوف البابوية ، وهي الحريصة عندئذ على كبت كل سلطان سياسي يهدد حقوقها في إيطاليا ، وازدادت مخاوف البابوية عندما اتضح لها أن فردريك الثاني غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا ، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمالها ، أي في لمبارديا. حقيقة أن فردريك قد حرص – حتى ذلك الوقت – على احترام مركز البابوية وحقوقها في إيطاليا، ولكن سيطرة الإمبراطور على شمال إيطاليا وجنوبها أنذرت بوقوع أملاك البابوية بين شقي الرحى ، مما جعل البابا ينظر إلى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه في المستقبل[1] .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٨٥.

وكان فردريك الثاني قد وعد البابا أنوسنت الثالث ، ١٢١٥م ، بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل حكم صقلية عن تاج الإمبراطور ، ولكنه عاد وماطل في الوفاء بوعوده ، كما توج ابنه هنري سنة ١٢٢٠م ملكًا ليخلف أباه في حكم صقلية والإمبراطورية معًا ، مما ضايق البابوية وأفزعها ، وفي سنة ١٢٢٠م تم تتويج فردريك الثاني إمبراطورًا في كنيسة القديس بطرس بروما بعد أن جدد العهد للبابا بالقيام بالحملة الصليبية كما وعده ، ويبدو أن فردريك لم يكن جادًا في مشروعه الصليبي ، في الوقت الذي كانت البابوية تتوق إلى إرسال حملة صليبية على وجه السرعة لإصلاح الموقف الذي نجم في الشرق الأدنى عن فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢٢١م ، وهنا يصح أن نشير إلى أن حنا دي برين ملك بيت المقدس ذهب بنفسه إلى إيطاليا في خريف سنة ١٢٢٢م ليشرح للبابا والإمبراطور سوء موقف الصليبيين في الشام بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر ويستحث الغرب على إرسال النجدات والمساعدات العاجلة ، كما زار فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ليطلب من ملوكها النجدة السريعة.

وكان حنا دي برين قد أنجب من زوجته ماري ملكة بيت المقدس ابنة وحيدة هي يولاند وريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولكي يشجع البابا خصمه الإمبراطور الألماني فردريك الثاني على القيام بحملته الصليبية المزعومة أيد فكرة زواج فردريك من يولاند ، حتى يصبح للإمبراطور مصلحة فعلية في التوجه إلى الشرق والشام ، الأمر الذي جعل البابا يشترط على الإمبراطور أن يتم الزواج في الشام نفسها ، ولكن فردريك استدعى عروسه إلى صقلية حيث تم الزواج سنة ١٢٢٥م ، وفي ٢٥ يوليو من نفس العام تعهد فردريك للبابا في سان جرمانوا بأن ينفذ مشروعه الصليبي في أغسطس سنة ١٢٢٧م ، كما تعهد بإيداع كفالة قدرها مائة ألف أوقية من الذهب في خزينة البابوية بروما لا ترد إلى

الإمبراطورية إلا إذا وفى بوعده[١].

على أن فردريك الثاني لم يخط خطوة واحدة في سبيل تنفيذ وعده الصليبي هذا ، إلا أنه لجأ بعد تتويجه إمبراطورًا إلى فرض قيود مشددة على رجال الدين استهدفت الحد من نفوذهم وانتقصت من حقوقهم ، بل إنه عقد مؤتمرًا في كريمونا سنة ١١٢٦م أعلن فيه تمسكه بحقوقه الإمبراطورية كاملة ، لاسيما فيما يتعلق بالسيادة على لمبارديا. وقد فزعت المدن الإيطالية في لمبارديا – وهي الحريصة على استقلالها وسيادتها – من سيادة فردريك الثاني ، فجددت حلفها ضد الإمبراطور ، هذا في الوقت الذي كان صبر البابا هونريوس قد نفذ ، فأخذ يتأهب هو الآخر لمحالفة المدن اللمباردية ضد الإمبراطور ، وتوفى البابا في مارس ١٢٢٧م ، مما أجل فتح باب النزاع من جديد بين البابوية والإمبراطورية[٢].

الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا ١٢٢٩ :

وهكذا بدا لنا أن الخلافات ظلت مشتغلة في الغرب والشرق ، وإن كانت خلافات الشرق تؤدي إلى الفرقة والانقسام ولكن خلافات الغرب تدفع للقيام بحملة صليبية على المشرق.

وتدخل السلطان الكامل يلح على الإمبراطور فردريك الثاني في الحضور إلى الشرق لمساعدته ضد المعظم والخوارزمية ، وأرسل إليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه (يريد منه أن يقدم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض ما في يد المسلمين من بلاد الساحل ليشغل سر أخيه المعظم)[٣] وفي المقابل أخذ البابا هونريوس الثالث من ناحية أخرى يواصل

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٨٦.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٨٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢١-٢٢١ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٣٠.

ضغطه على الإمبراطور للوفاء بوعده والقيام بحملته الصليبية لإصلاح الوضع الذي غدا فيه الصليبيون في الشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، وإذا كان البابا هونريوس الثالث فقد توفى سنة ١٢٢٧م ، فإن خليفته جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) امتاز بقوة الإرادة رغم تقدم سنة ، فأبى قبول الأعذار التي طالما انتحلها فردريك الثاني لتأجيل حملته الصليبية وأصر على ضرورة رحيل الإمبراطور إلى الشرق فورًا . وكان أن أبحر الإمبراطور فعلاً من برنديزي قاصدًا بلاد الشام ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيًا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضًا ، فأصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور في ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧م[١] .

وهنا أدرك فردريك الثاني أن من مصلحته القيام بالحملة الصليبية ، حتى لا يظهر أمام العالم المسيحي بمظهر المخالف لتعاليم البابوية ، الهارب من واجبات المسيحية ، وحدث أن خرج فردريك على رأس مجموعة صغيرة من رجاله قاصدًا عكا في يونيو سنة ١٢٢٨م/ ٦٢٦هـ ، في وقت كانت مملكة بيت المقدس في حاجة إليه ، إذ توفيت يولاند في أبريل ١٢٢٨م ، ولكن بعد أن أنجبت ولدًا من الإمبراطور أسمته كونراد ، فكان الإمبراطور فردريك الثاني بذلك وصيًا على عرش ابنه الصغير صاحب الحق الشرعي في حكم مملكة بيت المقدس الصليبية ، أما جده الملك حنا دي برين فقد غادر الشام إلى القسطنطينية للقيام بالوصاية على الإمبراطور الصغير بلدوين الثاني[٢] .

وقد اشتد ساعد الصليبيين بوصول الإمبراطور فردريك الثاني إليهم (وقوي طمعهم ، واستولى في طريقه على قبرص وملكها ، وسار منها إلى عكا ، فارتاع المسلمون لذلك)[٣] وتشجع الصليبيون لما سمعوا بمقدم فردريك الثاني ، فقاموا بتحصين قيسارية ويافا ، وغيرهما من المدن لما سمعوا بمقدم فردريك ، وقد اتجه

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٩١.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٩٢.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٤٧٨.

الصليبيون نحو صيدا التي كانت أراضيها مناصفة بين المسلمين والفرنجة "وسورها خراب" فعمروها، وطردوا المسلمين من نصيبهم، وحصنوا جزيرة قلعة البحر عند الطرف الشمالي الشرقي من الميناء، وأعادوا بناء حصن القرين إلى الشمال الشرقي من عكا، ثم قاموا بعد ذلك في ربيع سنة ١٢٢٨م بإعادة بناء قلعة قيسارية التي كان المعظم قد هدمها، وأخيرًا وصل رجال الإمبراطور إلى عكا في أبريل سنة ١٢٢٨م، في حين تخلف الإمبراطور نفسه في قبرص، فجاء وصولهم مخيبًا لآمال الصليبيين والكامل جميعًا[١].

خرج فردريك الثاني من بلاده قاصدًا الشرق معتمدًا على فكرة واحدة وهي الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل، مقابل ما يقدمه من مساعدات للملك الكامل في نزاعه مع أخيه الملك المعظم صاحب دمشق، ولكن فردريك أصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى الشام فوجد أن المواقف قد تبدلت، وأن الذي سيحصل في مقابله على القدس قد ذهب أدراج الرياح، إذ أن المعظم قد توفى، واتفق الأخوان الكامل والأشرف على اقتسام بلاده، ومن أجل ذلك خرج الكامل من مصر على رأس جيشه، واحتلت قواته بيت المقدس ونابلس في صيف ١٢٢٨م[٢].

وكان الموقف بعد وفاة المعظم أن اتفق الأخوان الكامل والأشرف على إعادة تقسيم الدولة الأيوبية من جديد، وليس فقط ممتلكات المعظم صاحب دمشق، فحاصر الناصر داود بن المعظم عيسى في دمشق – لما رفض هذه القسمة – ثلاثة أشهر حتى اقتحماها في ١٢ يوليو ١٢٢٩م، وكان أن ترك الكامل لأخيه الأشرف دمشق "وعوض الناصر داود عنها الكرك والبقاء والصلت والأغوار والشوبك" وأخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت بيد الملك الأشرف،

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٢/٤٧٨، المقريزي، السلوك، ١/٢٢٩، سعيد عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص٣٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/٢٢٦.

ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الملك الكامل قبولها فقبلها[١] .

ولما وصل فردريك ووجد الأمور قد تغيرت فخشى أن ينكث الكامل وعده فأرسل إليه : "كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم ، والآن فقد بذلتم - زمن حصار دمياط - الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فعلناه ، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم ، وإعادتها إليكم ، ومن نائبي ؟ إن هو إلا أقل غلماني ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له"[٢] .

لم يستطع الكامل أن يجد ما يقوله لفردريك وهو الذي جاء بناء على طلبه، فتحير (ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه)[٣] .

وفي هذا الوقت لم يكن فردريك الثاني على استعداد للقيام بعمل عسكري كبير ومطول ، ولم تكن الظروف في مصلحته ، إذ وصلته أخبار تفيد بأن البابا أصدر قرار الحرمان للمرة الثانية ، وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، وأشاعت البابوية في الغرب بأن الإمبراطور قد مات ، ومن ثم أصبح للبابا الحق في الوصاية على الإمبراطورية ، فترك ذلك أسوء الأثر على الإمبراطور وجعله يفكر في العودة إلى بلاده ، ولكن بعد أن يحقق شيئًا يمكنه أن يفخر به أمام الصليبيين ، فإن عاد بدون ذلك فإن موقفه سيكون حرجًا أمام شعبه ، ولذلك أرسل خطابًا للملك الكامل جاء فيه ما يدل على الاستعطاف من أجل تحقيق مآربه ، فقد جاء في كتابه إلى الكامل: "وأنا مملوكك وعتيقك ، وليس لي عما تأمره خروج ، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك

(١) السابق ، ١/ ٢٢٧.

(٢) السابق ، ١/ ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٢٩ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٣٢.

باهتمامي وطلوعي ، فإن رجعت خائبًا انكسرت حرمتي بينهم ، وهذا القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد خربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه! ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"[١] .

وفي الوقت الذي كان فردريك يريد أن يحصل عل بيت المقدس حتى يحقق نجاحًا كبيرًا ليس للصليبيين على المسلمين ولكن لنفسه على البابوية ، وكانت البابوية نفسها حريصة على ألا ينال فردريك هذا الشرف ، وتسعى ألا يحصل على بيت المقدس حتى لا يكسبه ذلك شرفًا ونصرًا في معركته ضدها ، لذلك أخذت البابوية ترسل الرسل والخطابات إلى السلطان الكامل تحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ... ولا عجب فالبابا كان يعلم أنه لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته ، فإن ذلك سيكون في نظر المعارضين بمثابة حكم الله للإمبراطور المحروم ، وفي هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجوري ، أو بين الإمبراطورية والبابوية[٢] .

صلح يافا ١٢٢٩م وضياع بيت المقدس:

لم يكن الكامل رجل الساعة التي تعلق عليه الآمال ، وخاف من رفض مطالب الإمبراطور فردريك (ذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته عجزًا عن مقاومته)[٣] ولذلك استجاب في نهاية الأمر ، ووقع اتفاقية يافا ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م وتنص الاتفاقية أن :

- يتقرر الصلح لمدة عشر سنوات.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٠ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٣٢ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٢٩.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٧٩٧.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٠.

- يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة ، فضلاً عن تبنين وصيدا بأكملها.
- وبخصوص القدس اشترط الصلح على أن يبقى بيت المقدس على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها.
- أن يكون سائر قرى بيت المقدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج – وأن الحرم – بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى – يكون بأيدي المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الآذان والصلاة[1].

وبعد أن عقد الاتفاق (وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه للفرنج ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل[2].

(واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه)[3] (فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور)[4].

وقد ازداد ألم الناس من ذلك التسليم لبيت المقدس وهذه الاتفاقية المهينة في وقت كان الأشرف – بأمر من الكامل – يحاصر دمشق لانتزاعها من ابن أخيهما الذي انتقد تصرف الكامل وتسليمه القدس للصليبيين ، واشتد بغض الناس وكراهيتهم للكامل (وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار)[5].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٠ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٧١ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٣١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣١.

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٨٣.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٧٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٢٣ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٣٤.

(٥) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣١.

ولم يكتف فردريك بذلك بل أرسل إلى السلطان الكامل يستأذن في دخول القدس ، فأجابه إلى طلبه وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته ليقوم بتسليمه القدس ، فسار معه إليها ودخلها في ١٧/ ٣/ ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ ، وطاف معه في القدس ودخل جميع المزارات[١].

وبعد أن عقد الإمبراطور فردريك الثاني مجلسًا صغيرًا لبحث شئون الدفاع عن بيت المقدس ، فكر في زيارة المسجد الأقصى . وهناك علم الإمبراطور أن السلطان الكامل أصدر أوامره إلى المؤذنين بعدم إقامة الآذان طيلة وجود الإمبراطور في المدينة إعظامًا للملك واحترامًا له ، فاستاء فردريك لذلك، وقال للقاضي شمس الدين : "أخطأت فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرض في البيت المقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم في الليل.. ثم إن فردريك الثاني زأى قسيسًا بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى، فزجره الإمبراطور وطرده ، وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن ، وقال : "إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره!!؟" [٢].

ولم يستح الملك الكامل من فعلته الشنعاء واتفاقيته الفضيحة فنجده يريد أن يجمل صورته أمام المسلمين ويهون من أمره ويقول : "إنا لم نسمح للفرنج إلا بالكنائس وأدر خراب ، والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع"[٣]. مهما قيل من كلام أجوف فقد أحس فردريك نفسه بما سببته هذه الاتفاقية من حرج بالغ للكامل أمام المسلمين، فأرسل يعتذر للكامل (فاعتذر للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣١ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصلبية ، ٣/ ٣٣٣.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٠٢.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٠.

انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئًا من ذلك)[١].

لقد جاء فردريك الثاني في هذه الحملة العجيبة بجيش هزيل وفي عنقه قرار الحرمان البابوي ، ولكنه عاد بمكاسب لم تستطع أي حملة صليبية أخرى أن تحققه منذ نجاح الحملة الصليبية الأولى في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر الميلادي.

ولا يمكن تبرير موقف الكامل المتخاذل بأنه كان رجل سلام ، فليس معنى السلام أن يتنازل عن كفاح السنين ، وأن يهدر دماء الشهداء الذين خاضوا القتال ضد الصليبيين على مر السنين ، فهل يعقل أن يهدم الكامل بناء أفنى المسلمون في سبيل تشييده كل مرتخص وغال من أجل السلام ، ثم ما هو المقابل الذي حصده الكامل والمسلمون من وراء هذا السلام المزعوم.

أحسب أن القلم يعجز عن أن يعبر عن مدى الحزن الذي يملأ القلب والوجدان من حكام المسلمين الذين يتنازلون عن حقوق – هي وقف للمسلمين – لا يجوز التصرف فيها من أجل عروش زائلة ثم يقال إنهم رجال سلام.

فالكامل كان رجل سلام حين تنازل عن دماء الشهداء التي ارتوت بها الأراضي المقدسة ، وكان رجلا مغواراً وأسدًا هصورًا على إخوته وأبناء عمومته من أجل عرش زائل وملك لا يبقى .

وبعد أن فرغ الكامل – رجل السلام – من تسليم بيت المقدس للصليبيين ، سار إلى دمشق – حيث كان الملك الأشرف محاصرًا لها – فاشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد (وبلغت القلوب الحناجر)[٢] وشدد الكامل والأشرف من حصار دمشق (حتى اشتد العطش بالناس في دمشق لانقطاع الأنهار عنهم ،

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٠.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ١٢/ ٢٨٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٣-٢٣٤.

ثم ارتفعت الأسعار) [١]. ثم انتهى الأمر إلى تسليم الناصر داود واقتسام مملكة أبيه بين أعمامه – وهذا ما سبق ذكره.

وبعد ذلك بقليل استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف من جديد سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، ولكن وفاة الأشرف موسى في المحرم سنة ٦٣٥هـ/ سبتمبر ١٢٣٧م ، وضعت حدًا لهذا الخلاف ، فقد سار الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك يريدان أخذ دمشق من الملك الصالح إسماعيل الذي حكم دمشق بعد وفاة أخيه الأشرف ، وحاصر الكامل دمشق فاضطر الملك الصالح إسماعيل إلى التنازل عن دمشق لأخيه الكامل وعوضه عنها بعلبك والبقاع وبصرى ، بعد أن توسط الخليفة المستنصر بينهما في النزاع ، ولم تمض أيام حتى مرض الكامل في دمشق وتوفي في ٢١/ ٧/ ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧ ، بعد أن حكم مصر عشرين سنة نائبًا عن والده العادل ، وعشرين سنة سلطانًا بعد وفاة أبيه ، وحلف الأمراء للملك العادل ابن الملك الكامل سلطانًا ، وهو الذي كان ينوب عن أبيه في حكم مصر ، وأجبروا الملك الناصر داود على العودة إلى الكرك ، وكان لوفاة الملك الكامل أثر سيء على الأيوبيين في مصر والشام إذ ظهرت الخلافات بينهم من جديد وشغلتهم عن عدوهم المتربص بهم [٢].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٣٤.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٥٦-٢٦١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٥٩-١٦٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٤٦-١٤٧، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٣٣٧.

الفصل الثالث عشر

الصالح نجم الدين أيوب

والعلاقة بين الأيوبيين والصليبيين

الصالح نجم الدين أيوب والعلاقة بين الأيوبيين والصليبيين:

جاءت وفاة الملك الكامل محمد لتزيد فتنة البيت الأيوبي اشتعالاً، وتزيد عقده انفراطًا ، إذ أن أمراء ومماليك الكامل أجمعوا – بعد وفاة الكامل – أمرهم على اختيار ابنه العادل الثاني ليكون خليفته على الرغم من صغر سنه ، وتم استبعاد أخيه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب الذي كان يحكم الشرق حين وفاة الكامل ، واستقر رأيهم على مبايعة العادل سلطانًا على مصر والشام وأن يكون نائبه بدمشق ابن عمه الملك الجواد يونس ، وأن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله ، وتمت مبايعة العادل في مارس سنة ١٢٣٨م / ٦٣٥هـ ، وخطب له بمساجد القاهرة ومصر ، وشرع في التقرب إلى الناس والتودد إليهم فأبطل المكوس وزاد في أرزاق الناس[١].

لم يكن هذا الاختيار موفقًا بل جاء ليزيد الأزمة الأيوبية تفاقمًا ، فقد وصف المؤرخون العادل بأنه كان : (لاهيًا ومسرفًا.. اتخذ لنفسه جماعة يساعدونه على ما هو بصدده من اللعب واللهو ، وأبعد أهل الرأي والمعرفة .. واشتغل عنهم بالانهماك في شرب الخمر ، وكثرة اللهو والفساد) [٢] كما أن الملك الجواد يونس لم يكن أهلاً لأن يكون في نيابة دمشق إذ سرعان ما سوف يتنازل عنها مع أول محنة تواجهه ،فلم يكن رجل الساعة ، ولم يكن الرجل المناسب لنيابة دمشق.

كما جاء اختيار العادل الثاني على حساب الصالح نجم الدين أيوب – الابن الأكبر للكامل – الذي لم يكن ليرضى بهذه القسمة وطمع في أن يستولي على مصر من أخيه العادل وقد دفعه إلى ذلك ليس عدم رضاه بهذه القسمة فقط، بل أيضًا الضغط الذي كان يتعرض له من جانب التتار والخوارزمية في الشرق

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٦٧-٢٦٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٣-٣٠٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٤٩-١٥٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦١.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٥/ ١٧٤.

وسلاجقة الروم.

وحدث أن السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه كان قد لقى هزيمة قاسية على أيدي التتار وهرب إلى ميافاقين حيث لقى مصرعه وحيدًا طريدًا في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م ، وتحولت مملكة خوارزم شاه في كرمان ، جنوبي فارس إلى ولاية تابعة لأوقطاي بن جنكيز خان ، وبعد ذلك تفرق الجيش الخوارزمي وتحول جنوده إلى مرتزقة يبيعون سيوفهم وخدماتهم العسكرية لمن يدفع إليهم أكثر من الحكام المتنافسين في الجزيرة وديار بكر وأعالي العراق[1].

ولما حاول الملك الكامل صد التتار سنة ٦٢٩م ولكنهم تراجعوا ، ثم عين السلطان الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب على حصن كيفا في تلك البلاد بعد أن كان قد خلعه من ولاية العرش. وكانت تلك هي بداية علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية ، ففي سنة ٦٣٤هـ استأذن الصالح نجم الدين أيوب أبوه الكامل في أن يستخدم الجنود الخوارزمية الذين هربوا من سلطان سلاجقة الروم[2] وتمكن الصالح نجم الدين أيوب بمساعدتهم من الاستيلاء على سنجار ونصيبين والخابور (شمال الموصل بأعالي العراق) في سنة وفاة أبيه، ولكن سرعان ما انقلب الخوارزمية على الصالح نجم الدين أيوب بمجرد علمهم بوفاة والده الكامل ، وكادوا يفتكون به لولا أنه هرب إلى سنجار

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٤١ ، ٢٦٩ ، قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ص١٢٢.

(٢) بعد وفاة جلال الدين خوارزم شاه ، وهرب الجنود الخوارزمية إلى سلاجقة الروم حيث استخدمهم سلطانها علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بين قلج أرسلان ، وكان عددهم ١٢ألف فارس ، وبعد وفاة علاء الدين انقلب عليهم ابنه غياث الدين ونكل بهم وقتل قائدهم فهربوا منه وهاموا على وجوههم ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١٣٤-١٣٥.

واختفى بها ، بينما عاث الخوارزمية في الجزيرة فسادًا[١].

ولم يكن الخوارزمية وحدهم الذين يضغطون على الصالح نجم الدين أيوب ، بل كان سلطان سلاجقة الروم الذي كان يريد أن ينتزع ممتلكاته بشتى الوسائل[٢].

هذه الأحداث جعلت الصالح نجم الدين أيوب أكثر تصميمًا على ترك الشرق – بمشاكله وحروبه – والتوجه إلى دمشق أولاً ثم إلى مصر لانتزاع حقه المسلوب.

وسار الصالح نجم الدين بقواته إلى دمشق ودخلها في جمادى الآخرة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م ، بعد أن تنازل له الملك الجواد عن دمشق مقابل إعطائه – (الملك الجواد) – سنجار وعانه[٣].

ولم يكن الملك الجواد رجل الساعة ، فبعد أن تنازل عن دمشق في سهولة ويسر ودون مقاومة ، بعد أن ارتعدت فرائصه ، وإذا به يندم على تفريطه في دمشق وحاول استرجاعها ، ولكن لم يجد من يعينه على ذلك فقد تفرق عنه الدماشقة ولم يجد منهم معين (وقد كان أساء السيرة في أهل دمشق) فتركها بعد أن لعنه أهل دمشق في وجهه لسوء أثره فيهم وظلمه للرعية واستقر في مقره الجديد[٤].

استقر الصالح نجم الدين أيوب في دمشق ، وأقيمت الخطبة وضربت السكة باسمه ، وأخذ يوسع دائرة مملكته فاستولى على نابلس وقوي ساعده ، فتوجه

---

(١) ابن العديم ، زبدة حلب ، ٣/ ٢٤١ -٢٤٣.

(٢) قاسم عبده قاسم ، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٢٣.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٦٩ -٢٧٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٥.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٥-٣٠٦ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٣، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٧٩-٢٨٠.

إلى بلاد الناصر داود صاحب الكرك – الذي تركها وذهب إلى مصر ، ودخل في خدمة العادل الثاني – فاستولى عليها في سهولة[١].

بعد ذلك أخذ الصالح يجمع حشوده من أجل قصد مصر ، ولكي يضمن نجاح حملته على مصر أرسل – وهو بنابلس – إلى عمه الملك الصالح إسماعيل ابن العادل صاحب بعلبك وطلب منه يشاركه القيام بالحملة على مصر وأخذها من أخيه العادل الثاني[٢].

وفي الوقت الذي كان الصالح نجم الدين أيوب يعسكر بجيشه في نابلس يتنظر معونة عمه الصالح إسماعيل الذي لم يلتفت إلى طلب ابن أخيه نجم الدين أيوب ، وطمع في أخذ دمشق[٣] ، واتفق مع أسد الدين شيركوه صاحب حمص على ذلك ، وسار إلى دمشق – في غفلة من الصالح نجم الدين أيوب – ودخلها في أواخر سنة ١٢٣٩م/ ٦٣٧هـ[٤].

دخل الصالح إسماعيل دمشق وأقام فيها ، بينما كان الصالح نجم الدين أيوب مقيمًا في نابلس ، فلما وصل إليه الخبر تفرق عنه الجنود والأتباع وهرعوا إلى دمشق خوفًا على ذويهم (ففر بنو أيوب بأسرهم وخافوا على أولادهم وأهلهم بدمشق ، وكان الفساد قد لعب فيهم ، فتركوا الصالح أيوب ، وتوجهوا إلى دمشق ، وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه لا غير)[٥].

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٦.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٢.

(٣) وكان الأشرف موسى قبل وفاته قد أوصى بأن يخلفه في حكم دمشق أخوه الملك الصالح إسماعيل صاحب بصرى ، وبالرغم من أن إسماعيل كون حلفًا كبيرًا من بقية الأيوبيين ضد الكامل ، إلا أن الكامل نجح في القضاء على هذا التحالف، وعاد إسماعيل إلى بعلبك من جديد ، واستولى الكامل على دمشق.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٦-٣٠٧.

(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٦-٣٠٧ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٣ -١٦٥.

ظل الصالح أيوب عند نابلس في قلة قليلة من أتباعه ينتظر يدي الردي أن تتخطفه ، فاستغل الناصر داود صاحب الكرك والأردن سوء أحواله وقلة أتباعه (فأرسل إليه من أخذه من نابلس مهانًا على بغلة بلا مهماز ولا مقدمة ، فاعتقله عنده سبعة أشهر)[١] .

وبعد أن دخل الصالح أيوب الأسر ، بدأ أفراد الأسرة الأيوبية الكبار يتصارعون من أجل الحصول عليه إما لقتله أو استغلاله:-

- فالملك العادل الثاني اغتبط كثيرًا لما جرى لأخيه الصالح أيوب (فأظهر الفرح ودقت الكوبات وزينت القاهرة) وأرسل إلى الناصر داود يطلب منه الصالح أيوب وعرض عليه أن (يعطيه مائة ألف دينار)[٢] . والسبب في ذلك واضح وهو أن يتخلص من منافس قوي أولاً ثم يضمن أن لا ينافسه من جديد ويكون تحت سيطرته وسطوته يفعل به ما يشاء ، حتى يهنأ بحكم مصر.
- أما الصالح إسماعيل ، فكان حريصًا على الفتك بالصالح أيوب حتى لا ينافسه من جديد ولا ينادي بحقه في دمشق التي أصبحت بحوزته ولذلك كان يلح على الناصر داود أن يرسل بالصلح أيوب إلى مصر في قفص حديد[٣] .

أما الناصر داود ، فإنه لم يستجب لهذه المطالبات ورفض كل الإغراءات حتى حينما عرض عليه العادل أن يعطيه أربعمائة ألف دينار مصرية[٤] ولم يكن هذا حرصًا على سلامة الصالح أيوب ولا خوفًا عليه ولكن لما قد يجنيه والتحصل

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٤.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٩ -٣١٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٥.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٠٩-٣١٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٤.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٠.

عليه من وجوده في قبضته ، فبعد أن اعتقله عنده سبعة أشهر، أخرجه من الحبس وعقد معه اتفاقًا يقضي بالإفراج عنه ومساعدته في الحصول على مصر ، وبعدها يتنازل الصالح أيوب للناصر داود عن بعض الممالك والأموال والمصالح ، (فحلف الصالح على هذا كله وهو تحت القهر والسيف) [١] وأفرج عن الملك الصالح أيوب سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م ، فاجتمع عليه مماليكه وأصحابه الذين كانوا عند الناصر داود ، وتحركت قوات الصالح أيوب والناصر داود باتجاه مصر لأخذها من العادل ، وتجمعت هذه الأجناد عند غزة [٢] .

وفي هذه الأثناء بدأت أحوال العادل في الاضطراب في مصر ، فقد استوحشت منه العامة والخاصة ، ونفر منه العلماء والشيوخ والقادة ، فقد (شره في اللعب ، وأكثر في تقديم المساخر [٣] والصبيان وأهل اللهو ، حتى حسبت نفقاته في هذا الوجه خاصة فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف درهم) [٤] .

وكان الخطأ الأكبر الذي وقع فيه العادل – بخلاف اللهو والعبث – هو أنه استبعد القادة والأمراء الكبار في دولته وانتقص من إقطاعاتهم وأعطياتهم مما أوغر صدورهم عليه وانفضوا من حوله بل كانوا على استعداد للإيقاع به ، والذي زاد من حنقهم عليه ليس لإقصائهم فقط بل لتقريبه واعتماده على من هم دونهم من الشباب والموالي والرقيق [٥] .

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،٦/ ٣١٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٤ ، أبو الفدا، المختصر ، ٣/ ١٦٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٣.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٤.

(٣) المساخر : جمع مسخرة وهو الشخص الذي تسخر الناس منه ، أو البهلوان الذي يلعب لإضحاك الناس.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٤.

(٥) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٧٥.

على أية حال فإن العادل قد ارتاع لأنباء مسير جيش الصالح أيوب والناصر داود إلى مصر ، فقام بإعداد الجيوش لمقابلتهم وأرسل إلى الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق يطلب منه سرعة المسير إليه لمواجهة أيوب وداود(١).

وهنا بدأ أيوب وداود يشعران بصعوبة موقفهما ، إذ أنهما – في حال نجاح اتفاق الصالح إسماعيل والعادل – سوف يقعان بين شقي رحى في الشمال والجنوب ، كما أنهما لا قبل لهما بقوة الجيش المصري والدمشقي ، (وقد بلغ هو – الصالح أيوب – والناصر داود غاية من الخوف ، وزلزلوا زلزالاً شديدًا ، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام) ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان (فأتاهما من الفرج ما لم يسمع بمثله) ، وحدث أن اجتمع الأمراء والقادة الغاضبون على العادل بزعامة الأمير عز الدين أيبك الأسمر ، وأجمعوا أمرهم على خلع العادل (ورموه وقبضوا عليه ، ووكلوا به من يحفظه فلم يتحرك أحد لنصرته) ، وتم خلعه في يوم الجمعة آخر مايو سنة ١٢٤٠م/ ٦٣٧هـ(٢).

واتفق الأمراء وأجمعوا أمرهم على تولية الصالح نجم الدين أيوب ، وأرسلوا إليه لتولي السلطة في مصر ، حيث دخل مصر وتولى السلطنة في ١٩ يونيو ١٢٤٠م/ ٦٣٧هـ ، وأمر باعتقال أخيه العادل ، ثم أخذ البيعة من قادة مصر وأمرائها واحدًا واحدًا ، (وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة ، وسُر به الناس سرورًا كبيرًا – لنجابته وشهامته) ، وبعيد تولي الصالح أيوب السلطنة أتته رسل الخليفة العباسي بالخلع والتقليد بالحكم بصحبة ابن الجوزي الذي قرأ تقليد الملك الصالح ، وأصبح الحاكم الشرعي في البلاد في حين بقى العادل في غياهب السجن(٣).

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٤.

(٢) أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٦ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٤٤.

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٦ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٦-٢٩٧.

وعلى ما يبدو أن نار الفتنة الأيوبية لا تزيدها الحوادث إلا اشتعالاً ، فالبرغم من نجاح الصالح أيوب والناصر داود في الحصول على مبتاغهم مصر ، إلا أن ذلك لم يكن إلا إيذانًا ببداية مرحلة جديدة من العداء والعداء المستعر ، فقد بدت بوادر الوحشة بين المتحالفين – الصالح أيوب والناصر داود – بسبب عدم وفاء الصالح أيوب بما تعهد به للناصر داود – قبل إطلاق سراحه والإفراج عنه – مما جعل الناصر يسعى سرًا لخلع الصالح أيوب ، فاجتمع ببعض القادة والأمراء لهذا الغرض إلا أنه لم يجد منهم آذانًا صاغية ، ولما طلب من الصالح أيوب أن يعطيه قلعة الشوبك فامتنع السلطان من ذلك فأدى ذلك إلى أن (استوحش الناصر فطلب الإذن بالرحيل إلى الكرك فخرج من القاهرة وهو متغيظ)(1).

وفي الجانب الآخر من البيت الأيوبي فإن نجاح الصالح أيوب في الحصول على سلطنة مصر ، قد أوغر صدور بقية أعضاء البيت الأيوبي بزعامة الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، وضم إليه من الملوك الأيوبيين صاحب حماه وحمص إضافة إلى الملك الناصر داود الذي لم يكن يحتاج إلى دعوة ، هذه الاختلافات التي شقت صف الوحدة الإسلامية جاءت في وقت كان العالم الإسلامي في أشد الاحتياج للاتحاد لمواجهة الأقطار التي تحدق به سواء من التتار أو الخوارزمية أو حتى الصليبيين المتربصين ، الجاثمين على أرض الشام أو في الغرب الأوربي.

استرداد بيت المقدس:

الواقع أنه إذا كان الإمبراطور فردريك قد نجح في استرداد بيت المقدس للصليبيين بمقتضى صلح يافا سنة ١٢٢٩م ، إلا أن مدينة القدس في عهدها الجديد لم تتمتع بشيء من أهميتها السابقة التي كانت لها في المجتمع الصليبي (١٠٩٩- ١١٨٧م) قبل أن يفتحها صلاح الدين. ذلك أن مدينة بيت المقدس

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٨-٢٩٩ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٦.

ظلت منذ صلح يافا سنة ١٢٢٩م حتى غزاها الخوارزمية سنة ١٢٤٤م مدينة مفتوحة غير محصنة ، من حق المسلمين أن يدخلوها ويشرفون على بيوتهم الدينية داخلها ، ولو كان فردريك الثاني قد حصن بيت المقدس وعمر أسوارها وأبراجها وترك فيها حامية صليبية قوية لتغير مجرى الأمور ، ولكن بقاءها على ذلك الوضع مقسمة بين النفوذين الإسلامي والصليبي ، جعل كل جانب – يخشى النزوح إليها والمتاجرة معها والاستقرار فيها ، حتى غدت بيت المقدس في ذلك الدور من أدوار تاريخها مدينة فقيرة تشكو قلة السكان من المسلمين والصليبيين على سواء ، ولم يبق لها سوى مكانتها الدينية لا غير . وهذا هو السر في أن حكومة بيت المقدس الصليبية لم تنزح إلى بيت المقدس عقب صلح يافا سنة ١٢٢٩م واستمرت تلك الحكومة تتخذ من عكا قاعدة لها [١].

وقد شعر الصليبيون بمدى الفوضى السياسية والفتن والدسائس الأيوبية ، وأرادوا أن يستغلوا حالة الفرقة والانقسام التي يعيشها الأيوبيون ، فبدؤوا – الصليبيون – في تعمير القدس وتحصينه وأقاموا به قلعة قوية (وجعلوا برج داود أحد أبراجها) وكان هذا يناقض اتفاقية يافا ١٢٢٩ التي تنص على بقاء بيت المقدس على حاله بدون تعمير أو تحصين ، فلما بلغ الناصر داود ذلك خرج بقواته قاصدًا بيت المقدس وفرض عليها الحصار ، ورماه بالمجانيق وظل ملازمًا ومحاصرًا لبرج داود في القدس حتى دخله صلحًا في ١٥ جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ/ أواخر سنة ١٢٣٩م بعد أن أعطى الصليبيين الأمان على أنفسهم دون أموالهم ، وهدم الناصر داود صاحب حصن الكرك والأردن برج داود (واستولى على القدس ، وأخرج منه الفرنج ، فساروا إلى بلادهم) [٢].

---

(١)سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٠٧.

(٢)المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٩١ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٧٦-٣٧٧.

الحملة الصليبية الفرنسية سنة ١٢٣٩م /٦٣٧هـ:

في عام ١٢٣٩م / ٦٣٧هـ انتهت اتفاقية يافا ١٢٢٩م التي كان قد عقدها الكامل مع فردريك الثاني ، وفي نفس العام نجح الناصر داود في استرداد بيت المقدس وطرد الصليبيين منه ، ولم تكن البابوية في حاجة إلى استغلال هذه الحادثة للدعوة إلى الحروب الصليبية واستمرارها ، فقد سبق ذلك الحادث الدعوات الكثيرة لقيام حملة صليبية جديدة على الشرق الأدنى ، وصادفت الدعوة قبولاً كبيرًا بين الفرنسيين بوجه خاص ، حيث استجاب لها عدد كبير من زهرة الفرسان على رأس بعض كبار الأمراء أمثال يثبوت الرابع أمير شامبني، وملك نافاري ، وهيو الرابع أمير برجنديا ، وبطرس موكارك أمير بريتاني وغيرهم[(١)] .

غادر الصليبيون فرنسا في أغسطس ١٢٣٩م ليصلوا إلى عكا في سبتمبر ، وسرعان ما تمركز الجيش الصليبي هناك ، وقد اتخذ هؤلاء المجتمعين موقفًا حربيًا جامدًا ، وأمضوا معظم وقتهم في سلام بعكا ويافا وعسقلان ، ولم يقوموا بأي نشاط عسكري ذي بال إليهم إلا اشتباكين انتهى أحدهما بانتصار صغير في حين انتهى الاشتباك الثاني بهزيمة كارثية ، وهذا يؤيد الرأي القائل بأن هذه الحملة افتقرت إلى المرونة السياسية التي امتازت بها حملة ريتشارد قلب الأسد ثم حملة فردريك الثاني ، كما أنهم لم يستغلوا المنازعات الأيوبية الداخلية في تحقيق أهدافهم[(٢)] .

ولم يكد هؤلاء الصليبيون الفرنسيون يجمعون شملهم في عكا حتى سمعوا نبأ استيلاء المسلمين على بيت المقدس ، وعندئذ اجتمع زعماء الحملة بأمراء الصليبيين بالشام لدراسة الموقف وتحديد الخطوة التي يجب أن يتخذها

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨١٧.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨١٧ ، قاسم عبده ، الأيوبيين والمماليك ، ص١٢٧.

المسيحيون. ولم يلبث أن انقسم الصليبيون على أنفسهم فرأى بعضهم أن تقصد الحملة مصر بوصفها القلب النابض في الدولة الأيوبية ، فإذا استولى الصليبيون على دمياط أو الإسكندرية ، أمكنهم عمل مقايضة مع الأيوبيين ، فيستردون بيت المقدس بسهولة ، ورأى البعض الآخر أن يتجه الصليبيون ضد دمشق مباشرة ، في حين نادى فريق ثالث بالاتجاه إلى صفد - إلى الشمال الغربي من طبرية - والاستيلاء عليها من المسلمين وتحصينها ليصبح للصليبيين قاعدة حصينة في داخلية بلاد الشام ، يتخذوا منها مركزًا لعملياتهم الحربية ضد دمشق وبيت المقدس جميعًا. أما الفريق الرابع فقد أصر على أن يتجه الصليبيون مباشرة نحو بيت المقدس ، وتركيز جهودهم في الاستيلاء عليها أولاً وأخيرًا[١] .

على أن الصليبيين لم يتفقوا على أحد هذه الآراء بل اختاروا الرأي الأصعب وهو أن تقصد جموعهم عسقلان ، وذلك الاختيار من شأنه أن يوقعهم في عداء العادل الثاني الذي كان لا يزال سلطان مصر وتتبعه عسقلان ، ثم مع الصالح إسماعيل الحليف الأكيد لسلطان مصر ، مما سوف يضعهم بين شقي رحى حيث الشمال دمشق والجنوب مصر.

على أية حال أسرع ملوك الدولة الأيوبية إلى أخذ جانب الحيطة والحذر ، فقام العادل الثاني صاحب مصر بإرسال فرقة من الجيش إلى غزة للدفاع عن عسقلان ، في حين سارع الصالح إسماعيل إلى تحصين دمشق وإعدادها للدفاع[٢] .

لم يلبث الصليبيون أن ساروا بقواتهم إلى عسقلان ، وفي الطريق إليها استولوا على قافلة تجارية إسلامية كبيرة كانت محملة بالبضائع في طريقها إلى دمشق ، فقويت بها نفوسهم وازداد طمعهم في المزيد ، إلا أن ذلك أوقع الفرقة بين

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨١٨.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٤٧.

صفوفهم ، إذ طمع كل واحد منهم في الحصول على أكبر قدر من الغنيمة وحرمان الآخرين ، وكان هذا إيذانًا بهزيمتهم ، وحدث أن تابعوا الزحف نحو غزة حيث التقى الفريقان - جيش العادل المصري ، والصليبيين - يوم الأحد ١٤ ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ / ١٣ نوفمبر ١٢٣٩م ، حيث جرى قتال شديد بين الجانبين انتهى بانتصار المسلمين وهزيمة الصليبيين حيث (قتل منهم ألف وثمانمائة ، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة) . كما وقع في الأسر منهم بعض قادتهم ، إضافة إلى ثمانين فارسًا ومائتان وخمسون راجلاً وصلوا إلى القاهرة[(١)] .

كان وقع الهزيمة أليمًا على الصليبيين إذ أن البقايا التي كتبت لها النجاة هامت على وجوهها لا تلوي على أحد عائدة إلى عكا ، وكان بإمكان الأيوبيين تتبع هذه الفلول والقضاء عليها ، غير أنهم انشغلوا بخلافاتهم من جديد ، وعادوا إلى ممارسة العبث بمصير الأمة الإسلامية ، وليس أدل على مدى خلافاتهم من أن صاحب حماه الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد طلب معونة الصليبيين ضد خصومه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ، لم يتأخر الصليبيون عن تلبية تلك الدعوة ، حيث أسرعوا لتقديم المعونة لصاحب حماه ، وسارت قواتهم إلى طرابلس لدعمه ، غير أن الملك المظفر صاحب حماه سحب يده من أيديهم ، ورفض أن يتعاون معهم ، مما جعلهم يعودون إلى عكا يجرون أذيال الخيبة[(٢)] .

الخلافات الأيوبية وموقف المسلمين:

وكان من المفترض أن تكون الهجمات الصليبية على ممتلكات المسلمين عامل اتحاد بين ملوك الأيوبيين ، إلا أن ذلك لم يتحقق ، بل ازداد الشقاق فيما بين

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٢٩٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨١٨-٨١٩.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٢-٣٠٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٤ - ١٦٩.

هؤلاء الملوك ، إذ أن الصالح إسماعيل صاحب دمشق قد استاء كثيرًا من عزل حليفه العادل الثاني عن سلطنة مصر ، وولاية الصالح أيوب بدلاً منه ، واستمال إليه – في موقفه المعادي للصالح أيوب – الناصر داود الذي أصبح من أشد المعادين للصالح أيوب بعد أن نكث معه عهوده السابقة ورفض إعطائه ما كانا قد اتفقا عليه ، كما نجح الصالح إسماعيل في استمالة صاحب حمص وصاحب حماه – أعداءه السابقين – إلى جواره وكونوا حلفًا مضادًا للصالح أيوب في مصر[١].

وعلى ما يبدو أن الخلافات العائلية والأطماع الشخصية قد أعمت الصالح إسماعيل عن النظر فيما هو أبعد عن تحت قدمه ، وسعى حثيثًا إلى محالفة الصليبيين أعداء الإسلام ، وتعهد لهم مقابل التحالف معه إعطائهم بيت المقدس وتعهد لهم بإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه بما فيها الأردن ، وإمعانًا في ضمان مساعدته تنازل لهم وقام بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، قلعة الشقيف أندون وأعمالها وقلعة صفد وبلادها "ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[٢].

وقد ذهب الصالح إسماعيل أبعد من تحالفه مع الصليبيين والتنازل عن فتوحات صلاح الدين كلها بما فيها القدس ، وسمح لهم – الصليبيين – بدخول دمشق وشراء السلاح للأعداء لقتل المسلمين بها (فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق) ، وكان هذا مما زاد من سخط الناس على الصالح إسماعيل وأنكروا هذه الأفعال ومشوا إلى أهل العلم واستفتوهم فأفتى الشيخ العز بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج[٣].

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٣ ، ٣١٤-٣١٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٢-١٧٣، ١٨٠ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٥.

وقد ظهر دور العلماء في قيادة الأمة ، فقد أنكر العلماء هذه الأعمال الشنيعةِ التي يقوم بها الصالح إسماعيل ، وأعلنوا رفضها جهارًا نهارًا ، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب دمشق والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية ، فأفتى العز بتحريم بيع السلاح للفرنجة وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل ـ وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه : "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد ، تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك" والناس يضجون بالدعاء[١] .

وقد أحدث العلماء نوعًا من الوعي الديني والقومي لدى عامة الناس ، مما جعل الناس يظهرون إنكارهم لأفعال الصالح إسماعيل (وأنكروا معاضدة الصالح إسماعيل للعدو أو تسليم البلاد لهم) (وأن يكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب فعظم على المسلمين ، وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيعَ على الصالح إسماعيل بسبب ذلك)[٢] .

ثم إن الحامية العسكرية في الشقيف أرنون رفضت تسليم الحصن للصليبيين وأبت تنفيذ الأوامر المتكررة التي أصدرها لهم الصالح إسماعيل في ذلك الصدد، وأخيرًا اضطر الصالح إسماعيل إلى الحضور بنفسه لمحاصرة الشقيف أرنون ، حتى سلمت الحامية ، وعندئذ عاقب أفرادها ، كما أن الصالح إسماعيل صاحبُ دمشق والملك المنصور أيوب حضرا أيضًا على رأس جيوشهما قرب يافا لمعاونة الصليبين في تلك المهمة[٣] .

أدرك الصالح إسماعيل أن حركة العصيان المدني والعسكري التي عمت أرجاء مملكته كان وراءها العلماء ، فأمر باعتقال الشيخ عز الدين بن

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ،١٣/ ١٥٥.

(٢) أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٩.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٢٠.

عبد السلام والشيخ أبي عمرو بن الحاجب ، ولكنه اضطر إلى الإفراج عنهما ، ووضعهما تحت الإقامة الجبرية ، حيث (ألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وألا يفتي ، ولا يجتمع بأحد البتة ، فاستأذنه في صلاة الجمعة ، وأن يعبر إليه حبيب أو مزين، إذا احتاج إليهما ، وأن يعبر الحمام ، فأذن له في ذلك)[١] ثم سمح لهما بمغادرة دمشق ، فسارا سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م فاستقر الشيخ أبي عمرو بن الحاجب عند الناصر داود بينما سار الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر (فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والإكرام ، وولاه خطابة القاهرة ، وقضاء مصر)[٢].

ومن العلماء الذين هجروا دمشق القاضي جمال الدين بن واصل وذكر أبو المحاسن أن القاضي جمال الدين بن واصل أثناء مروره بمدينة القدس سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م رأى أن الصليبيين قد غيروا طابع المدينة الإسلامي ، حيث قال: "وسافرت أنا إلى مصر ، ودخلت القدس فرأيت الرهبان على الصخرة ، وعليها قناني الخمر ، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى ، وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر"[٣].

أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى استلام القدس وغيروا معالمها الإسلامية، ثم قاموا بتحصينها ، وعملوا على تحصين قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بين يافا وعسقلان ، تأكيدًا لسيطرتهم على هذه المناطق ، كما أن الصالح إسماعيل وعدهم بأنه إذا ملك مصر فسوف يعطيهم جزءًا منها[٤].

(١) المقريزي ، السلوك ، ١٠/ ٣٠٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٥.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٥٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٦٩.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢-٣٢٣ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٢.

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢.

هزيمة الصليبيين قرب غزة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م :

نال الصليبيون من الصالح إسماعيل أكثر مما كانوا يحملون به ، وزادهم الصالح إسماعيل أن وعدهم (إذا ملك مصر أعطاهم بعضها) ولذلك لما طلب منهم التوجه معه إلى مصر (تجمعوا وحشدوا) وتجمعت القوات الشامية إلى جانب القوات الصليبية وساروا معًا بالقرب من غزة من أجل التوجه إلى مصر والاستيلاء عليها ، حيث كان الصالح أيوب صاحب مصر لما وصلته هذه الأنباء أرسل جيشًا إلى غزة للتصدي للجموع الشامية الصليبية ، (وعندما تقابل العسكر أن انساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ومالوا جميعًا على الفرنج، فهزموهم وأسروا منها خلقًا لا يحصون)[(١)] وكان جند الشام من المسلمين الذي ارتاعوا وأنكروا على أنفسهم الوقوف إلى جانب الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين المصريين ، فتركوا مواضعهم وانضموا إلى جانب القوات المصرية على الرغم من بقاء قادتهم إلى جانب العدو وهذا موقف لابد منه ، إذ أن الوقوف إلى جانب الأعداء ضد المسلمين أمر غير مقبول في الإسلام علاوة على منافاته للروابط التي تجمع المسلمين وتجعل منهم أمة واحدة[(٢)] .

أما الصليبيون فقد كانت خيبة أملهم كبيرة لهزيمتهم المهينة أمام المسلمين أولاً ثم لضياع حلمهم الكبير في أن يحصلوا على جزء من مصر ، وفقًا لما كان قد وعدهم به الصالح إسماعيل ، ثم انسحبوا إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح إسماعيل سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وأطلق سراح الأسرى من الصليبيين الذين كانوا بمصر[(٣)] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٤-٣٠٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٢.

(٢) فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٣٥١.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٣.

وقد رضي الصالح نجم الدين أيوب هذه الهدنة نظرًا لما كان يتعرض لـه مـن ضغط كبير ، فأراد أن يتجنب الدخول مع الـصليبيين في معـارك وهـو في نفـس الوقت على خلاف كبير مع صاحب دمشق وبعض ملوك الأيـوبيين في الـشام ، وحتى لا يعطى العدو فرصة التحالف مع خونة المسلمين ، ولكـي يـستفيد مـن المصالحة مع العدو في إعداد القوة اللازمة للجهاد والعمل على إقـرار الأحـوال في داخل البلاد(١) .

ولم تلبث الحملة الفرنسية أن بارحت عكا عائدة إلى الغـرب في سـبتمبر سـنة ١٢٤٠م ، بعد أن استعادت للصليبيين بيت المقدس وصفد وعسقلان فضلاً عن بعض القلاع الداخلية(٢) .

الحملة الصليبية الإنجليزية :

ولم يكد يثبوت الرابع وحملته يرحلون إلى غرب أوربا حتى وصل إلى عكـا في ١١ أكتوبر ١٢٤٠م/ ٦٣٨ حملة صليبية جديـدة بقيـادة ريتـشارد كورنـول أخـو هنري الثالث ملك إنجلـترا علـى رأس بعـض الجمـوع الـصليبية ، وقـد رفـض ريتشارد عند وصوله أرض الشام المشاركة في النزاع القائم عندئذ بين الأسبتارية – الذين أيدوا مبدأ الصلح مع مصر – والداوية – الـذين كـانوا يـرون ضـرورة تحالف الصليبيين مع دمشق وليس مع مصر – أما ريتشارد كورونول فقد اختـار أن يوجه جهود الصليبيين جميعًا إلى عسقلان لتقوية استحكاماتها ، وبذلك يأمن الصليبيون في الشام أي هجوم من جانب مصر ، وبعـد أن أتم ريتـشارد تحـصين عسقلان في مارس سنة ١٢٤١م أجاب الـصالح أيـوب طلبـه الخـاص بـاحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع . وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الـصالح أيوب بحق الصليبيين في ملكية الشقيف أرنون ، وإقليم الجليل ، بما فيـه حـصون

(١) فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٥٢.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٢١.

ومدن تبنين وهوينن وطبرية والطور وكوكب فضلاً عن بيت المقدس ، وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان[١] .

وبعد أن تم لريتشارد كورنوول ما أراد ، غادر الشام عائدًا إلى بلاده في الثالث من مايو عام ١٢٤١م/ ٦٣٩هـ ، ولم يلبث الخلاف أن شب من جديد بين الصليبين ، إذ رفض الفرسان الداوية أن يلتزموا بالمعاهدة التي انعقدت مع الصالح أيوب ، فأغاروا في ربيع ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م على مدينة الخليل الإسلامية، وقام الملك الناصر داود بعمل انتقامي ضد الصليبيين بأن أرسل العساكر بقطع الطريق المؤدي إلى بيت المقدس ، ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه ، فأثار هذا العمل فرسان الداوية المتعصبين وخرجوا بقواتهم وهاجموا نابلس في يوم الجمعة الموافق ٣٠ أكتوبر ١٢٤٢م/ ٦٤٠هـ ، واستباحوها ، حيث (أحرقوا المسجد الجامع ، وقتلوا عددًا كبيرًا من السكان) ولم يكن السلطان الصالح أيوب مستعدًا للقتال ، فاكتفى بإرسال جيش قوي حاصر يافا فترة من الزمن ، وذلك إنذارًا للصليبيين لما قد يجري لهم في المستقبل، ولاسيما وأن الانقسام بين الصليبيين ينذر بالخطر ، فالمنازعات بين فرسان الداوية وفرسان الأسبتارية لم تتوقف ، وتصرفت الطوائف الدينية العسكرية على أنها جمهوريات مستقلة ، فأحدث ذلك اضطرابًا في البلاد الصليبية[٢] .

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م :

استمرار الخلاف الشديد بين الأيوبيين ، وقد حاول البعض إجراء الصلح ووأد الفتنة قبل أن تذهب بريح الأيوبيين ، ففي عام ٦٤١هـ/ ١٢٤١م تكررت

---

[١] السابق ، ٢/ ٨٢١-٨٢٢.

[٢] المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٠٥ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٨٠-٣٨٥ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٥٣.

الاتصالات والمراسلات بين كلا الجانبين من أجل عقد الصلح – الذي يعقد بسهولةٍ مع الصليبيين – بين جميع الأطراف على أساس أن (تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل ومصر للصالح أيوب ، وكل من صاحب حمص وحماه وحلب على ما هو عليه ، وأن تكون الخطبة والسكة في جميع البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يطلق الصالح إسماعيل سراح الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من الاعتقال .. وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الناصر داود.. ولكن الخلافات الأيوبية والأطماع الشخصية كانت أكبر من أن تنهيها مساعي السلام ، وأصبح الفتق أكبر من قدره الراتق (ولم يقع اتفاق وعادت الفتنة بين الملوك)[١] .

وبعد فشل مساعي الصلح بين الفرقاء الأيوبيين انطلق الفرقاء يبحثون عن مناصرين لهم ضد بعضهم البعض ، حيث اتفق الناصر داود صاحب الكرك مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق (على محاربة الملك الصالح نجم الدين أيوب)، وتحالف هؤلاء مع الصليبيين وأرسلوا الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص نائبًا عنهم للتفاوض مع الصليبيين ، وليعرض عليهم بالنيابة عنهم نصيبهم في مصر ، وأن تكون للصليبيين سيطرة تامة على بيت المقدس ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الأماكن التي ظلت – ولو نظريًا – في حوزة المسلمين منذ أن تسلم الصليبيون بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا ١٢٢٩م ، (وجرى استقبال الأمير المسلم (صاحب حمص) بكل مظاهر التشريف) وكان أمراء الصليبيين من فرسان.الداوية يحرضون بقية أمراء الصليبيين على الوقوف إلى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق ضد صاحب مصر ، ورحبوا بالتعاون معه ، ولهذا

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٢.

(تكفل الداوية بمعظم الضيافة) لأمير حمص الذي حضر بنفسه إلى عكا لإبرام هذا الاتفاق)[١] .

وبالرغم من أن الملك الصالح أيوب قد عرض على الصليبيين – من أجل التحالف معه ضد ملوك الشام – نفس العرض الذي عرضه الصالح إسماعيل وشيعته من الموافقة على سيطرتهم التامة والمطلقة على بيت المقدس بما فيها الأماكن الطاهرة والمقدسة لدى المسلمين ، إلا أن الصليبيين مالوا إلى الأخذ برأي الداوية وتأييد الصالح إسماعيل وشيعته والتحالف معه ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب ، مما دفع أيوب إلى البحث عن حليف يقوي لسانده ، ولم يجد أفضل من الخوارزمية حلفائه السابقين.

وكانت جموع الخوارزمية قد هامت على وجوهها في الجزيرة وشمال الشام بعد مقتل زعيمهم جلال الدين منكبرتي سنة ١٢٣١ ، وغزو المغول لأذربيجان وأرمينية الكبرى . وقد استقر جزء كبير من أولئك الخوارزمية في الجزيرة حول الرها وحران ونصيبين ، ومن هناك أخذوا يشنون غارات على المناطق القريبة بغية السلب والنهب ، وقد تمكن التحالف الأيوبي المكون من الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمنصور إبراهيم صاحب حمص وضيفة خاتون الوصية على عرش حلب ، تمكنوا من إنزال هزيمة قاسية بجموع الخوارزمية قرب الرها في أوائل أبريل سنة ١٢٤١م ، وتم طرد الخوارزمية من الرها ونصيبين وغيرهما من الأماكن التي كانوا قد احتلوها في الجزيرة ، وبعد هذه المعركة ظل الخوارزمية مستقرين بين الرها وحران يقومون بأعمال السلب والنهب ويعرضون خدماتهم على من يشتريها ، حتى استعان بهم الصالح أيوب سنة ١٢٤٤م ضد ملوك دمشق والأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين[٢] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٤-٣١٥ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٢ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٤٢ -٨٢٥ باختصار

وقد سبق أن ذكرنا أن الصالح نجم الدين أيوب كان على صلة وثيقة بالخوارزمية ، فلم تكد دعوته تصل إليهم – للإغارة على دمشق وفلسطين – حتى اندفع عشرة آلاف منهم نحو بلاد الشام ، حيث صارت فرقة منهم على بقاع بعلبك ، وفرقة على غوطة دمشق ، وأغاروا على المدن والحصون والقلاع التي واجهوها في طريقهم إلى الشام ، مما دعا الصالح إسماعيل إلى دخول دمشق والتحصن بها بعد أن ضم إليه عساكره من غزو التي كان قد أرسل بها لمهاجمة مصر ، وحدث أن تقدمت جموع الخوارزمية نحو مدينة القدس بعد أن اجتازوا نابلس، (وهم ينهبون ويقتلون ويسلبون) وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، وليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمير أنطاكية وطرابلس بوهيمند الخامس ، وملك قبرص هنري الأول ، فضلاً عن الصليبيين في عكا وحلفائهم ملوك حمص ودمشق والأردن . ولكن أحدًا من هؤلاء الأطراف لم يلب النداء ، إذ كان الصليبيون في الشام وقبرص في شغل بمشاكلهم الخاصة بعد أن انحلت أوضاعهم ، في حين كان ملكا دمشق وحمص – وهم حلفاء الصليبيين – لا يجسران على التدخل في ذلك الموقف لحماية مصالح الصليبيين في بيت المقدس مما يعرضهم لنقمة الرأي العام في البلدان الإسلامية[1] .

وتمكن الخوارزمية من اقتحام مدينة القدس في يوم ١١ يوليو ١٢٤٤م/ صفر ٦٤٢هـ ووقع القتال في الشوارع ، وبذل الخوارزمية السيف في كل من في القدس من الصليبيين (حتى أفنوا الرجال وسبوا النساء والأولاد) وقتل حاكم المدينة الصليبي ومقدم فرسان الأسبتارية وعدد كبير من الرهبان والراهبات الذين شاركوا في القتال ، وكان أن انقطعت الإمدادات عن مدينة القدس من جانب الصليبيين ، وعندئذ طلب الفرنجة من الناصر داود صاحب الأردن تأمين

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٢٥.

خروجهم ، فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم في شهر أغسطس قاصدين يافا. ولكن لم يكد هؤلاء يبتعدون عن بيت المقدس حتى دبر لهم الخوارزمية خدعة حربية ، حينما حاول بعض الصليبيين العودة مرة أخرى إلى المدينة عندما رأوا بعض أعلام الصليبيين ترفرف فوق أبراج القدس ، واعتقدوا أن نجدة صليبية قد وصلت إليهم ، غير أن الذين رجعوا تحت هذا الوهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة ، أعده الخوارزمية فهلك نحو ألفين منهم ، ومن هرب نجا بنفسه فلم يصل على يافا منهم سوى ثلاثمائة رجل ، حيث تعرضوا للمطاردة طوال طريقهم إلى يافا ، أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المسيحية الدينية داخل بيت المقدس ، فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا بعضها ، وبهذا تم تحرير مدينة القدس على أيدي الخوارزمية ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد سبعة قرون أثناء الحرب العالمية الأولى[1].

موقعة غزة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م :

بعد أن استولى الخوارزمية على بيت المقدس وحرروها من الصليبيين ساروا نحو غزة للاجتماع بالعسكر المصري الذي أرسله السلطان صالح نجم الدين أيوب بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس والتحالف معهم ، وأرسلوا على الصالح أيوب يخبروه بقدومهم ، وكان قد دعاهم للقدوم إليه لنصرته على عمه الصالح إسماعيل (فأمرهم بالإقامة في غزة ووعدهم ببلاد الشام بعد ما خلع على رسلهم ، وسير إليهم الخلع والخيل والأموال) [2] ، واجتمعت القوات الخوارمية مع الجيش المصري في غزة في حين أعد الصالح إسماعيل (عسكرًا من دمشق عليه الملك المنصور صاحب حمص ، لقتال جيش الصالح أيوب ، وتقدم

---

(١) المقريزي ، السلوك ،١/ ٣١٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٤ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٩٠-٣٩٣.

(٢) أبو للفدا ، المختصر ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٣.

الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بالقوات الشامية . وسار إلى مدينة عكا وأخذ في صحبته الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر وساروا نحو غزة حيث أتتهم نجدة الملك الناصر داود صاحب الكرك ، والشيء الذي يؤسف له "أن الفرنج دفعوا الصلبان على عساكر دمشق وفوق رأس المنصور صاحب حمص"[1] .

وسلكت القوات الشامية الصليبية المتحدة الطريق الساحل نحو غزة حيث وصلتِ إلى غزة ، حيث التقى الفريقان واقتتل الجيشان في السابع عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ وكان في ميمنة جيش الشام والصليبيين ، القوات الصليبية وفي الميسرة جيش الكرك وفي القلب قوات الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وقامت هذه الجيوش المتحالفة الجيش المصري الخوارزمي ، فقام الجيش المصري برد هجوم الصليبيين في حين هاجم الخوارزمية قوات الشام (ودارت بين الفريقين حرب شديدة) فانكسر الملك المنصور إبراهيم ، وفر الوزيري قائد جيش الكرك (وأحاط الخوارزمية بالفرنج ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلاً وأسرًا ولم ينج منهم سوى الشريد فكان عدة من أسر منهم ثمانمائة رجل ، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفًا ، وسيق الأسرى إلى مصر[2] .

ولا شك في أن هذه أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧م ، حتى أطلق المؤرخون على موقعة غزة الثانية في أكتوبر سنة ١٢٤٤م اسم "حطين الثانية" ، ويكفي لكي نأخذ فكرة عامة عن مدى خسارة الصليبيين أن نذكر أنه اشترك في موقعة غزة الثانية ثلثمائة من الداوية لم ينج منهم سوى ثلاثة وثلاثين ، واشترك فيها مائتان من الأسبتارية لم ينج منهم سوى ستة وعشرين ، في حين فقد الباقون بين قتلى وأسرى ، وكان مقدم

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٦-٣١٧.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٧ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٣ ، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ١٧٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٥.

الداوية بين القتلى ومقدم الأسبتارية بين الأسرى[1] .

وفي جانب جند الشام فقد اعترفوا بخطأهم الجم عندما أرادوا الانتصار بالفرنجة على المسلمين ، فيقول ابن واصل : "حكي لي عن المنصور أنه قال : والله لقد قصدت ذلك اليوم ، ووقع في قلبي أنه لا ننتصر لانتصارنا بالفرنج - قلت : عليه من الله ما يستحقه من الخزي . وايش يفيد تقصيره ، بعد أن صار هو والفرنج يدًا واحدة على المسلمين؟ - قال : ووصلت عسكر دمشق في أسوأ حال" ، ويعلق المقريزي بقوله : "إن الصليبين رفعوا الصلبان على عسكر دمشق ، وفوق رأس المنصور صاحب حمص ، والأقسة تصلب وبأيديهم أواني الخمر تسقى الفرسان"[2] .

وكأن لانتصار المسلمين في غزة رنة فرح كبيرة حيث خرجت البشائر ، وأمر بزينة القاهرة ومصر وظوهرهما وقلعتي الجبل والروضة (فبالغ الناس في الزينة ، وضربت البشائر عدة أيام ، وقدمت أسرى الفرنج ورؤوس القتلى ومعهم الظهير سنقر (أحد قادة جيش الكرك) وعدة من الأمراء والأعيان ، وقد أركب الفرنج الجمال ، ومن معهم من المقدمين على الخيول ، وشقوا القاهرة ، فكان دخولهم يومًا مشهودًا ، وعلقت الرؤوس على القاهرة وملأت الحبوس بالأسرى[3] .

وتابعت جموع الجيش المصري المنتصر سيرها وتقدمت بقيادة القائد ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي ومعه الأمير ابن أبي علي وهاجموا عسقلان ،

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٢٧ ، رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٣-٣٢٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٤-١٦٥.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٦٥/ ٣٢٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٢.

(فامتنعت عليهم لحصانتها) ثم ساروا إلى نابلس واستولوا عليها ثم استولوا على غزة والسواحل والقدس والخليل ، وبيت جبريل والأغوار ، ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء والصلت وعجلون[(١)].

استيلاء الصالح أيوب على دمشق:

بعد نجاح الصالح أيوب في هزيمة جند الشام والمتحالفين معهم من الصليبيين، وبعد نجاح نوابه في تقليم أظافر الناصر داود وتجريده من معظم أملاكه ، وجد الصالح أيوب أن الفرصة مواتية لمعاقبة الصالح إسماعيل وإخراجه من دمشق ، فأرسل إليه حملة بقيادة الصالح معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ لمهاجمة دمشق ، فوقع الهلع والرعب في عقل وقلب صاحب دمشق، فاستعد للحصار ، وخرب كثيرًا من الرباع خارج المدينة ، كما خرب جسر باب توما ، فغرقت المساكن التي على حافة نهر بردي ، على أن الصالح إسماعيل وكان معه المنصور إبراهيم صاحب حمص داخل دمشق . لم يستطيعا المقاومة "لعدم الميرة ولتخلي الحلبيين عنه" حيث استسلمت دمشق لقوات الصالح أيوب في أكتوبر سنة ١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ ، وكانت شروط التسليم أن يسمح للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم بالخروج سالمين بأموالهم ، وأن يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها ، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة[(٢)].

ثم كان على الصالح أيوب أن يواجه المشكلة الأخطر ، الخوارزمية ، الذين كانوا يأملون في أن يكافئهم الصالح أيوب على مساعدتهم في موقعة غزة له بالسماح لهم بالاستقرار في مصر ، ولكنه خشي ما يترتب على دخولهم مصر

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٨.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣١٩-٣٢١ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٤ ، ابن كثير ،البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٦.

من ضرر بالبلاد والعباد ، فأباح لهم الاستقرار في الشام على حساب الصليبيين، حيث أخذوا يغيرون على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلوا قرب ، وبعدما ساعدوا الجيش المصري في الاستيلاء على دمشق ولكنه منعهم من دخولها ، وكانوا "فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان"[(١)] "وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عسكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يدًا واحدة ويزوجوه منهم ، فمال إليهم ، وكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك ، فوافقهم ، ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبي علي – وكان قد ناب عن الصالح أيوب في بلاد الشام ، وتولى حفظ دمشق بعد وفاة الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ في دمشق في ٢٢/ ٩/ ٦٤٣هـ - من نابلس والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ، وانضم إليهم الصالح إسماعيل طريد دمشق"[(٢)] .

وقويت شوكة هذا الحزب المعادي للسلطان الصالح أيوب لاسيما بعدما استولى على ممتلكات الصالح أيوب في الشام كنابلس والقدس وغيرها ، وتقدمت قوات هذه الأحزاب صوب دمشق حيث فرضت عليها الحصار الخانق، وشددوا عليها الحصار وضايقوها (وقطعوا عنها الميرة فاشتد الغلاء بها.. ومات كثير من الناس جوعًا .. وعدمت الأقوات بالجملة .. وأكل الناس القطط والكلاب والميتات .. وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء ، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر)[(٣)] .

وبالرغم من ذلك فإن الصالح أيوب لم ييأس ولم يفكر في الاستسلام واجتهد

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٤٣٤.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٤ ، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ١٧٤.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٢ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٥.

في (أعمال الحيلة والتدبير) وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه ، واتفق أيضًا مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية ، كما استدعى الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث أرسل إليه القاضي نجم الدين محمد بن سالم النابلسي (فما زال يخدعه ويمنيه حتى فارق الخوارزمية ، وقدم معه إلى ديار مصر فاعتقل بقلعة الجبل وكان آخر العهد به) (١).

وبهذا التدبير استطاع الصالح أيوب أن يضعف جانب خصومه ، ثم تقدم الصالح أيوب بقواته من مصر وضم إليه الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وعساكر حلب إضافة إلى بعض العرب والتركمان ، حيث التقى بالخوارزمية بظاهر حمص في المحرم سنة ٦٤٤هـ/ مايو ١٢٤٦م ، حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة تبدد منها شملهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، وقتل مقدمهم بركة خان وأسر كثير منهم ، وتفرق شملهم بين الممالك حيث هرب بعضهم إلى التتار والبعض انضم للملك الناصر داود صاحب الكرك ، وسار بعضهم إلى نابلس فاستولوا عليها ، ولم تعد لهم قوة يهاب جانبها(٢).

وإذا كانت هذه هي خاتمة ركن الدين بيبرس والخوارزمية فإن الصالح إسماعيل لم يبق بيده (بلد يأوي إليه ، ولا أهل ولا ولد ولا مال ، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية) في حين بقى الصالح إسماعيل في ضيافة ابن أخته الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر غازي صاحب حلب ، (وبقى الناصر داود بالكرك في حكم المحصور) حيث أرسل إليه الصالح أيوب بعض القوات لقتاله حيث ألحقت به الهزيمة في الصلت في سبتمبر ١٢٤٦م/ ٦٦٤هـ ، فهرب إلى الكرك ، وحاصرته قوات الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد قوات الصالح أيوب ، وخربت ما حولها ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٥.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٦٧ ، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ١٧٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٥-٣٢٦.

واستولى على البلقاء (وأضعف الناصر حتى سأله الأمان) بعد أن سيطر جيش الصالح أيوب على كل بلاده وخضعت لنوابه ، وبهذا دانت بلاد الشام للملك الصالح أيوب ، ثم ما لبثت رسل الخليفة العباسي أن جاءت من بغداد بالخلع والتقليد للسلطان الصالح نجم الدين أيوب[1] .

وبالرغم من أن الصالح أيوب قد فقد حليفًا قويًا في الحرب مع الصليبيين هو الخوارزمية ، إلا أنه لم يفقد العزم القوي على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، لاسيما بعد أن استقرت قواعد الملك بيده ، سواء الشام أو مصر ، فانطلق بكل قوته لمحاربة الصليبيين ، حيث نجح الجيش المصري بقيادة الأمير فخر الدين بن الشيخ في ١٧ يونيو ١٢٤٧م في الاستيلاء على قلعة طبرية من الصليبيين، كما تمكنت القوات المصرية من اقتحام عسقلان والاستيلاء عليها في منتصف أكتوبر سنة ١٢٤٧م ، وهدم للصليبيين ما كانوا قد أقاموه من قلاع وحصون[2] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٣-٣٢٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٧٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ١/ ٣٢٥.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٢٧ -٣٢٨ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/ ٨٢٩.

الفصل الرابع عشر

الحملة الصليبية السابعة عشر على مصر

ونهاية الدولة الأيوبية

الحملة الصليبية السابعة على مصر ونهاية الدولة الأيوبية :

كان من آثار انتصار المسلمين على الصليبيين في غزة وتبديد القوات الصليبية وقوات الشام المتحالفة معهم ، وسقوط مدينة بيت المقدس في أيدي المسلمين سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، واستسلام طبرية وعسقلان أن ثار شعور بين بعض الأوربيين في الغرب ، وبدؤوا يفكرون في وسيلة لاسترداد القدس وتأديب المسلمين والثأر منهم ، وبعث القوة الصليبية في الشرق من جديد ، وزاد في حماسة هؤلاء ما سمعوه من أخبار أن الخوارزمية قد عذبوا النصارى وهدموا الكنائس والمعابد ونبشوا قبور الموتى ، فكان كل ذلك باعثًا على إثارة الفزع في نفس لويس التاسع ملك فرنسا وأهل الغرب ، سببًا في إثارة شعورهم ودفعهم للانتقام والثأر من المسلمين ، وخصوصًا أن الممتلكات الصليبية في الشام باتت مهددة بالسقوط في أيدي المسلمين.

وكان لويس التاسع المعروف بحماسته الدينية وتقواه وورعه قد أطلق عليه المعاصرون لقب القديس ، قد تعهد بحمل الصليبيين والمسير لغزو الأراضي المقدسة وإنقاذ الصليبيين، بعد أن أرسل الصليبيون في الشرق رسلهم إلى الغرب يطلبون النجدات ، وإلا فإن باقي ممتلكاتهم في الشرق لن يكتب لها البقاء طويلاً، كذلك أنفذ روبرت بطرق بيت المقدس إلى الغرب سفارة برئاسة واليران أسقف بيروت تستحثهم بالنهوض بحملة صليبية ضد المسلمين في الشرق ، وتمكن رسل الصليبيين من نشر أبلغ دعاية للحرب الصليبية ، خصوصًا في فرنسا ، وأصدر البابا أنوسنت الرابع المراسيم البابوية لحض الناس على الاشتراك في الحملة الصليبية السابعة ، ووعد كل من يشارك في الحرب في سبيل الأرض المقدسة بالغفران التام عن خطاياه والتكفير عن آثامه وذنوبه بمجرد

انضمامه إلى سلك الحروب الصليبية(١).

وبالرغم من أن ذلك الموقف قد تكرر كثيرًا وأعني به خروج النجدات والاستغاثات من صليبيو الشرق إلى الغرب الأوربي عقب كل انتصار يحققه المسلمون ، وقد تتطابق هذه الحالة مع الحملة مجيء الحملة الصليبية الثانية عقب استرداد عماد الدين زنكي الرها من الصليبيين سنة ١١٤٤م ، ومثلها مجيء الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد وفيليب ، عقب انتصار صلاح الدين في حطين واسترداد بيت المقدس ، إلا أن هذه الحملة تختلف في عدة أوجه:

- أن الغرب الأوربي قد تغيرت أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد بدأت النهضة الأوربية تؤتي ثمارها وأدت بالناس والمجتمع الغربي إلى التفكير في مثل جديدة وآمال جديدة ، وأهداف جديدة ، وحياة جديدة ، الأمر الذي غير نظرة المعاصرين إلى الحياة، وجعلهم يتجهون بنشاطهم إلى آفاق تتفق مع ما آمنوا به من مثل وآمال وأهداف جديدة.

- كما أن الغرب الأوروبي قد شهد آنذاك عصر نمو المدن وتضخم نشاطها الاقتصادي ، ونمو الملكيات وازدياد نفوذ الملوك على حساب أمراء الإقطاع، ونشأة الجامعات ، وما ارتبط به من علوم حديثة ، وظهور الآراء والمذاهب الهرطقية التي انتقدت الكنيسة واستهدفت الحد من سطوتها ، وازدهار الفن القوطي .. كان من الصعب في عصر شهد كل هذه التطورات أن يظل الناس عبيدًا للكنيسة ورجالها وإمكاناتهم في حروب ضد المسلمين أثبتت التجارب

(١) جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، ص٤٩-٤٦ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ص٣٦٤.

عدم جدواها وقلة نفعها[١].

- كان الصراع قد اشتد عندئذ مرة أخرى في الغرب الأوربي بين البابوية والإمبراطورية، الأمر الذي حال دون تكاتف بلدان الغرب الأوربي وبخاصة ألمانيا وإيطالي في المشروع الصليبي الجديد.

- واتخذت الحملة الصليبية السابعة طابعً فرنسيًا بحتًا، فزعيمهم ملك فرنسا، والمشتركون فيها غالبيتهم الساحقة من الفرنسيين، مما جعلها بعيدة عن الصبغة الدولية، واتخذت هذه الحملة طابعًا فرنسيًا استيطانيًا، فجاءت مثل الحملة الصليبية الأولى أداة ووسيلة لتدعيم النفوذ الفرنسي في الشرق الأدنى، ثم إن الصبغة الفرنسية التي امتازت بها تلك الحملة كانت سببًا من أسباب النجاح المعنوي الذي أحرزته في المشرق، لأن الصليبيين أنفسهم في بلاد الشام في القرن الثالث عشر، غلب عليهم الطابع الفرنسي فعلاً، كما كان كبار أمرائهم ينحدرون من أصول فرنسية، حتى لقد وصف بعض المؤرخين الحركة الصليبية بأنها حركة توسع فرنسية في العصور الوسطى، هذا مع ملاحظة أن البيوت الحاكمة في القسطنطينية والمورة وقبرص وأنطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا ويافا، كان معظمهم يرتبط بفرنسا من ناحيتي الأصل والميول، لذلك كله رحب الشرق الصليبي الفرنسي بملك فرنسا عند مجيئه، ولم يحجم ملوكه وأمرائه عن السير في ركاب لويس التاسع وتحت قيادته أو إمداده بفرق من جندهم تعمل معه وتأتمر بأمره[٢].

- والشيء اللافت في هذه الحملة هو موقف فردريك الثاني – إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الغرب – إذ وقف من الحملة الصليبية السابعة موقفًا

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٨٣١.

(٢) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/ ٨٣٣.

يدعو إلى العجب والدهشة ، وكان المفروض من الإمبراطور فردريك الثاني وهو صاحب المصالح الكبيرة في بلاد الشام بوصفه والد كونراد الوريث الشرعي لمملكة بيت المقدس - أن يؤيد لويس التاسع في حملته وجهوده لاستعادة أملاك الصليبيين المفقودة أخيرًا بالشام. وكان عليه أن يذكر - بالإضافة إلى ذلك - ما أداه لويس التاسع من خدمات للإمبراطورية أثناء نزاعها مع البابوية عن طريق وقوفه على الحياد بين الطرفين المتنازعين من ناحية ومحاولة التوفيق بينهما من ناحية أخرى. ولكن فردريك لم يجرؤ على معارضة مشروع لويس التاسع الصليبي في أوربا ، بل على العكس قام بتموين الحملة الصليبية عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص ، ولكن لجأ إلى تخويف الملك لويس التاسع من عاقبة مهاجمة مصر ، وعندما رأى إصرار لويس ، أرسل فردريك إلى السلطان الصالح - وكان قد ظل مصادقًا للسلطان الكامل ومن بعده لابنه الصالح أيوب سرًا يخبره ، بأن ملك فرنسا: "عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها"[١].

وتشير المصادر إلى أن فردريك الثاني قد بعث برسالة إلى السلطان (يعرفه بوصول الفرنسيين إليه وطالب دمياط) ومعه خلق كثير ويشير في رسالته أنه بذل جهوده من أجل رده عن قصدته (وخوفته فلم يرجع لقولي فكن على حذر منه)[٢].

وهكذا بدأ لويس التاسع رحلته إلى الشرق في جو تحيطه الخيانة والدسيسة، لاسيما وأن البنادقة - وهم أكبر قوة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط عندئذ - عارضوا أيضًا فكرة مهاجمة مصر ، نظرًا لما للروابط والمعاهدات

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤/ ٢٤٧ ، المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ١/ ٢١٩ ، ابن الجوزي، مرآة الزمان ، ٣/ ٥١٧ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٣٣.

(٢) ابن أيبك ، كنز الدرر ، ٧/ ٣٦٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٧/ ٢١١.

التجارية التي ربطتهم بها ، فضلاً عن مصالحهم الضخمة في الإسكندرية بالذات[١].

ومهما يكن من أمر فقد بارحت حملة لويس التاسع ملك أوربا في تلك الظروف لتصل إلى ميناء ليماسول في قبرص في سبتمبر سنة ١٢٤٨م . وهناك أحس الصليبيون وكأنهم في بلدهم بفضل رعاية هنري الأول ملك قبرص وحسن ضيافتهم واستقباله لهم ، الأمر الذي اختلف اختلافًا بيِّنًا عن موقف القبارصة من فردريك الثاني وحملته بقبرص قبل ذلك بعشرين سنة ، ثم إن السلطات القبرصية ساعدت لويس التاسع في الحصول على كميات ضخمة من التموين لرجاله سواء من النبيذ أو الغلال ، وبذلك أتاحت الأشهر العديدة التي قضاها لويس التاسع في قبرص (سبتمبر ١٢٤٨- مايو ١٢٤٩م) فرصة طيبة للصليبيين ، استجموا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من مؤن فضلاً عن المساعدات البشرية التي حصل عليها لويس التاسع من ملك قبرص وغيره من زعماء الصليبيين الذين وفدوا من عكا[٢].

وعلى الجانب الآخر ، فإن السلطان الصالح أيوب قد علم بتطورات الحملة الصليبية وهو في بلاد الشام وأنهم يقصدون مصر ، فعاد مسرعًا إليها ، ونزل بأشموم طناح في يوم الثلاثاء ١٨ مايو ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ ، حيث شرع في الاستعداد لمواجهة الحملة الصليبية ، حيث أعد المجاهدين للدفاع عن البلاد ، وقام بتحصين مدينة دمياط ، على اعتبار أنها هدف الصليبيين في الحملات السابقة ، وباعتبارها قفل الديار المصرية ، وجمع فيها من الأقوات والمؤن والسلاح والعتاد الشيء الكثير ، وقام بإعداد الأسطول المصري جيدًا ليقوم بدوره ، بل إن الصالح أيوب (عهد إلى طائفة من بني كنانة ، وهم قوم مشهورون بالشجاعة والإقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٣٤.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٣٥.

غائلة المعتدين[١].

وقد تجمعت جيوش الدولة الأيوبية بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ونزلت على البر الغربي لمدينة دمياط في انتظار وصول الصليبيين بحيث صار النيل يفصل بين دمياط وقوات الأيوبيين بزعامة الأمير فخر الدين[٢].

استيلاء لويس التاسع على دمياط :

وفي غمرة استعدادات الأيوبيين لمواجهة الصليبيين في دمياط ، وصل لويس التاسع على رأس حملته أمام دمياط في أوائل يونيو ١٢٤٩م ، في جيش قدر المؤرخون عدده "بنحو خمسين ألف مقاتل".

وعلى ما يبدو أن أعداء العالم الإسلامي قد اجتمعت كلمتهم على أن يرموه بالسهام من كنانة واحدة ، فقد ذكر المؤرخون أن التتار بزعامة جفطاي أحد يلخاناتهم ، في وسط فارس قد أرسل رسالة إلى لويس التاسع يعرض عليه فيها استعداد ملك التتار التعاون مع الصليبيين من أجل انتزاع بيت المقدس وفلسطين من أيدي المسلمين ، وأظهر رغبته في التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين ، وبالرغم من أن لويس التاسع قد رفض الفكرة من حيث المبدأ إلا أنه عامل رسل ملك التتار بالإحسان إليهم والترحيب بهم وحملهم الهدايا الثمينة ، وذلك بهدف عدم فقد حليف قوي ضد المسلمين قد يحتاج إليه في وقت من الأوقات ، كما أنه أراد أن يستميل التتار إلى المسيحية فيكونون بها قوة كبيرة ، ولكن حالة الفوضى التي أعقبت وفاة جيوك ايلخان التتار أجهضت هذا التحالف في مهده[٣].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٢-٣٣٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٢، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠.

(٣) جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، ص٧١-٧٢.

وقد استهل لويس التاسع وصوله إلى دمياط بإرساله رسالة تهديد ووعيد إلى الصالح أيوب ، ليسقط في يده ويبادر إلى الاستسلام وهو نفس أسلوب التتار ، وما يسمى الآن حرب الأعصاب ، فأرسل إلى الصالح أيوب يقول له : (أما بعد: فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ، ونستأثر البنات والصبيان ، ونخلي منهم الديار ، ولقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصليبيين ، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتالك في أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لي ، فيا هدية حصلت في يدي وإن كانت البلاد لك والغلبة علي فيدك العليا ممتدة إلي وقد عزقتك وحذرتك ، من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا) [١].

فلما وصلت هذه الرسالة إلى الصالح أيوب – وهو يعاني مرض الموت – اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع – إنا لله وإنا إليه راجعون – ، ثم كتب الرد جاء فيه : "أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأيت عيناك أيها المغرور! حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابي هذا ، فكن فيه على أول سورة النحل : ﴿ أَتَى أَمْرُ

(١)المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٤.

اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ، وكن على آخر سورة ص : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، وإلى قول الحكماء : "إن الباغي له مصرع ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يقلبك ، والسلام "[١] .

على أية حال وصلت حملة لويس التاسع – يملؤها الغرور والكبر إلى دمياط في يوم السبت الموافق ٥ يونيو ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ ، ليجد المدينة جيدة التحصين، وقد حاول الجيش الأيوبي أن يحول دون نزول أفراد الحملة الصليبية إلى الأرض المصرية ، ودارت معركة حامية بين الطرفين على رمال الشاطئ ، اضطرت معها خيول المسلمين إلى الخوض في مياه البحر ، ولكن كثرة عدد جيش الصليبيين غلبت قوة وشجاع الجيش الأيوبي المدافع عن دمياط ، حيث قتل في هذه المعركة الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام والأمير صارم الدين أزبك الوزيري واضطر الأمير فخر الدين نفسه إلى عبور النيل ليلاً ومعه بقية رجاله إلى الضفة الشرقية للنيل حيث توجد مدينة دمياط ، وترك وراءه الجسر (جسر السفن) على النيل دون أن يدمره ، بل إنه لم يقف عند دمياط بل تعداها إلى الجنوب صوب أشموم طناح[٢] .

كان هذا التراجع من الأمير فخر الدين وقواته سببًا في وقوع الهلع والرعب في نفوس أهل دمياط حيث خرجوا من مدينتهم (وقع الخذلان على أهل دمياط فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتى لم يبق بها أحد ، وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين)[٣] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٤.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠ ، أبو الفدا ، المختصر، ٣/ ١٧٨-١٧٩.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠ ، المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٥.

وبعد فرار الناس من دمياط إلى أشموم طناح أصبحت المدينة خالية ليس بها أحد البتة ، بل والطامة الكبرى أن جنود الحامية من قوم بني كنانة الذين أنزلهم السلطان الصالح أيوب للدفاع عن دمياط ، كانوا هم أيضًا من الفارين على وجوههم من المدينة تاركين المدينة بكل ما فيها من المؤنة والأسلحة وآلات الحرب، وكل ما استطاعوا فعله هو إحراق بعض الأسواق المكتظة بالبضائع(١).

لم يلبث خبر الهروب – الكبير – من دمياط أن وصل الصليبيون فتقدموا نحوها فوجدوا الأبواب مفتحة ولا يوجد من يحميها ، (عندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها ، خشوا أن تكون مكيدة ، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار ، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة ، والعدد الكثيرة والأقوات والأزواد والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك صفوًا وعفوًا) (٢)وبذلك تمكن لويس التاسع من دخول مدينة دمياط والاستيلاء عليها في يوم واحد ٢٢/ ٢/ ٦٤٧هـ/ ٦يونيو ١٢٤٩م ، في سهولة بالغة وتملكها بدون قتال(٣).

كان وقع سقوط دمياط بهذه السهولة في أيدي الصليبيين أليمًا على عامة الناس وخاصتهم (فانزعج الناس انزعاجًا عظيمًا ، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر ، لتملك الفرنج دمياط ، وهزيمة العساكر ، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة والحصن الجليل الذي لا يقدر على أخذه بقوة مع شدة مرض السلطان وعدم حركته) (٤).

أما الصالح أيوب فقد صب جام غضبه على الكنانيين الذين تركوا دمياط

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٣٨ ، فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٧١.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٦.

(٤) المقريزي ، السلوك ، / ٣٣٦.

وهربوا من وجه الصليبيين ، فقد استفتى الفقهاء ، فأفتوا بقتلهم لأنهم تركوا المصابرة والقتال ، فقام بشنق حوالي خمسين أميرًا من الكنانية وتركهم مصلوبين على النخل بثيابهم وملابسهم جزاء على هروبهم بدون إذن أو قتال ، وشاهدهم الناس حتى يكونوا عبرة لمن يفكر في الهرب أو يهمل في أمر الجهاد ضد أعداء البلاد والإسلام ، كما أن في هذا ما يشير إلى عزم السلطان على القتال ، ومدى عزمه الأكيد رغم مرضه الشديد[(١)].

وكاد الصالح أيوب أن يفتك بالأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلا أنه صبر وتغاضى ، ولكنه وبخه ومن معه توبيخًا شديدًا ، وآلمهم بالكلام ، حتى تغيرت نفوس كثير من الأمراء عليه حتى خاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان ، وهموا بقتله ، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر حتى يتبين أمر السلطان (فإنه على خطة ، وإن مات كانت الراحة منه ، وإلا فهو بين أيديكم)[(٢)].

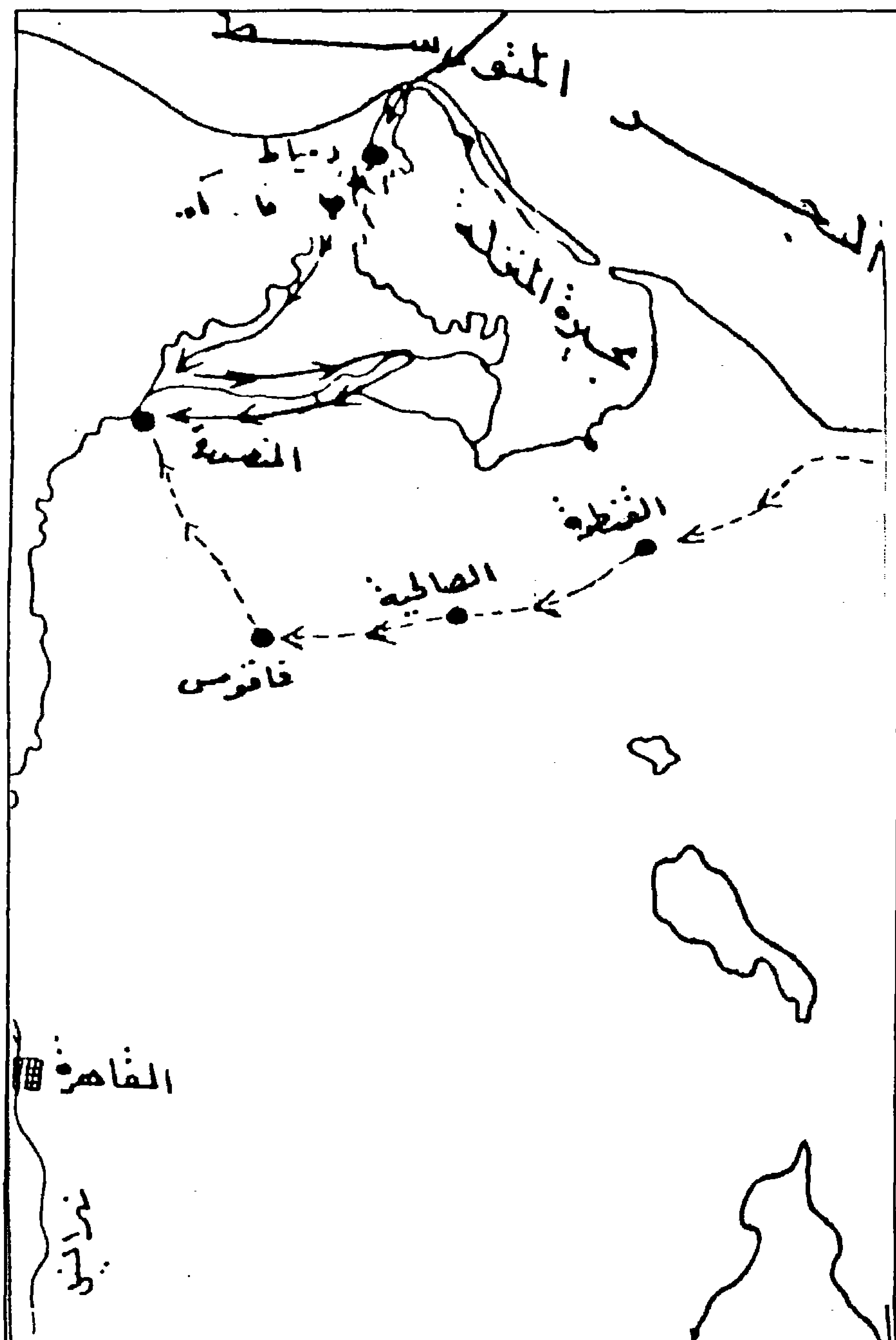
ومن النتائج التي ترتبت على سقوط دمياط أن الجيش الأيوبي شهد اضطرابًا كبيرًا ، وخاف الصالح أيوب من أثر ذلك على الحرب مع الصليبيين فرحل بالجيش إلى المنصورة لأنها أكثر حصانة ، وشرع في تجديد الحصون والمباني ونصب الأسواق ، وأصلح سور المدينة من ناحية النيل ، ونادى في الناس بالجهاد والانضمام للجيش "ووقع النفير العام في المسلمين ، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوعة والعربان ، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم ، واستمر ذلك شهرًا ، جاء ذلك في الوقت الذي كان يشتد المرض بالصالح أيوب وهو يدافعه دفعًا "والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به" [(٣)].

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٩.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٦.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٧٩.



الحملة الصليبية السابعة

ومهما يكن من أمر ، فإن الحملة الصليبية السابعة صادفت نجاحًا كبيرًا في الاستيلاء على دمياط ، إذ تذكرنا أن الحملة الخامسة بزعامة حنا دي برين لبثت أمام دمياط ثمانية عشر شهرًا ، بذلت فيها جهدًا طويلاً شاقًا حتى تم الاستيلاء على المدينة. ولم تغب هذه المقارنة عن المقريزي الذي يعجب من ذلك ويقول : " وقد كانت دمياط أيام الملك الكامل نازلها الفرنج أقل ذخائر وعددًا منها هذه النوبة ، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة ، وعندما فني أهلها بالوباء والجوع ، وكان فيها هذه المرة أيضًا جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغن شيئًا "(١).

والواقع أن سقوط دمياط بتلك السهولة كان "مصيبة لم يجر مثلها" على حد قول أبي المحاسن(٢) نظرًا لقوة تحصيناتها ، فضلاً عن أهميتها في تجارة مصر ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا في دمياط قدرًا كبيرًا من المؤن ، فأخذوا يعملون في سرعة لتحويلها إلى مدينة فرنجية ، وبدؤوا بتحويل جامع دمياط إلى كنيسة باسم نوتردام (مريم العذراء) وعينوا لها بطرقًا كاثوليكيًا(٣).

وفي المقابل كان رد المسلمين في الشام بأن قاموا بمهاجمة صيدا والاستيلاء عليها ، فلما وصل هذا الخبر إلى مصر سُر به الصالح أيوب والمصريون جميعًا ، وقويت به نفوسهم(٤).

وفي هذا الوقت أيضًا نجح الصالح أيوب في السيطرة على الكرك ، وذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك لما ضاقت به الأمور جعل ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبه في الكرك ، وسار هو بأمواله إلى حلب مستجيرًا بالملك

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٥.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠.

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٣٩.

(٤) المقريزي ، السلو ، ١/ ٣٣٧ ، فايد محمد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، ص٣٧٤.

الناصر يوسف بن الملك العزيز صاحب حلب (فأنزله وأكرمه) ولكن ولدا الناصر داود الملك الظاهر شادي والملك الأمجد حسن أنكرا على أبيهما ذلك ، لكونه قدم عليهما المعظم مع أنه الأصغر سنًا ، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما المعظم عيسى ، وأعلنا خضوع حصن الكرك إلى الصالح أيوب ، حيث سار الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض على المنصورة وبشره بذلك، فأحسن إليه الصالح أيوب (وأعطاهما إقطاعًا أرضاهما) وأرسل إلى الكرك وتسلمها يوم الاثنين ١٨ جماد الآخرة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م (وفرح الملك الصالح بالكرك فرحًا عظيمًا مع ما هو فيه من المرض لما كان في خاطره من صاحبها)[١].

وما من شك أن هذه الأنباء السارة قد قوت نفوس المسلمين المدافعين عن مصر ، فانطلق الجيش المصري يهاجم ويناوش الصليبيين ونشطت الأعمال الفدائية وحرب العصابات ، ومنح الصالح أيوب مبلغًا من المال عن كل رأس من رؤوس الصليبيين يأتيه بها أحد جنوده ، حيث "كان المسلمون يدخلون معسكرات الصليبيين مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من الصليبيين ، وقد حدث أن قتلوا حارس لورد كورتني وتركوه على إحدى المناضد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم ، ولهذا لحق بالعدو الكثير من الخسائر ، ولجأ الصليبيون إلى تشديد الحراسة على معسكرهم وجعلوا طائفة من الجند تقوم بالحراسة كل ليلة على ظهور الجياد (فكان المسلمون إذا أرادوا دخول المعسكر انتظروا حتى يهدأ صوت الجياد ويسكت صوت الجند ، ثم يتسللون إلى المعسكر فيصيبون ما يصيبونه ثم يغادرونه قبل انبلاج غرة الصباح ، ولذلك أمر الملك أن تترجل الفرقة الموكل إليها الحراسة ليكون كل ما بالمعسكر في أمان[٢] .

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٧- ٣٣٨ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٠-٣٣١ .

(٢) فايد محمد ، الجهاد الإسلامي ، ص٣٧٦.

وبدأت تزداد هجمات أفراد الجيش والعربان على معسكرات الصليبيين بحيث لا يخلو يوم من وصول الأسرى إلى القاهرة أو القتلى إلى معسكرات الجيش الأيوبي ، مما كان له الأثر الطيب في نفوس الأهالي وارتفاع روحهم المعنوية وإعادة بعث الروح القتالية في صفوف الجيش وعامة الناس(١).

وقد ساعد الأيوبيون في إعادة تنظيم صفوفهم بعد فقد دمياط أن الجيش بقيادة لويس التاسع لم يبادر بالزحف على داخليه البلاد بعد الاستيلاء على دمياط ، إذ أضاع الصليبيون في دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو – نوفمبر ١٢٤٩) ، وكانت تلك المدة كافية لإعادة استعداد الجيش الأيوبي وإعادة تنظيم صفوفه فضلاً عما اعترى الجيش الصليبي خلال أشهر الركود هذه من فساد وخمول(٢).

وربما يكون لويس التاسع قد أراد من تأخير الزحف على داخلية البلاد أن يتجنب فيضان النيل الذي كان سببًا في فشل حملة حنا دي برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة ، وربما كان ينتظر في دمياط مقدم أخيه الفوس دي بواتييه ومعه الإمدادات التي طلبها الملك لويس التاسع ، حيث أنه بمجرد قدوم هذه الإمدادات شرع الصليبيون في مبارحة دمياط نحو القاهرة(٣).

وفاة الصالح أيوب وزحف الصليبيين نحو القاهرة:

بدأ زحف القوات الصليبية نحو القاهرة في وقت اشتد فيه المرض على الصالح أيوب ، وما لبث أن توفى في ليلة الاثنين النصف من شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٣-١١-١٢٤٩م(٤).

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٧-٣٣٩.
(٢) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص١٢٠-١٢١.
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٤٠ ، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، ص١٣٠-١٣٢.
(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٣٩ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٣٧.

ولا شك أن وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد ، وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي.

ولما كانت الظروف لا تسمح بإعلان نبأ وفاة الصالح أيوب ؛ حتى لا يتجرأ العدو على مهاجمة البلاد ، ومات ولم يوص بالملك إلى أحد ، ولم يكن راضيًا على تولية ابنه المعظم تورانشاه لأنه لا يصلح للملك ، وهذا يدل إيثار مصلحة الإسلام والمسلمين ، وبذلك أبعد ابنه إلى حصن كيفا ، فلما مات أيوب آخفت زوجته وأم ولده شجرة الدر – أم الخليل – أخفت خبر وفاته بحيث لم يعلم بذلك الخبر – عداها – سوى الطواشي جمال الدين محسن والأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ "فكتموا ذلك خوفًا من الفرنج وجمعت شجرة الدر الأمراء وقالت لهم : إن السلطان يأمركم أن تحلفوا ، ثم من بعده لابنه المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا وللأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ"[1] ، ثم إن شجرة الدر أرسلت الفارس أقطاي – كبير المماليك البحرية – وقتئذ – لاستحضار المعظم تورانشاه على عجل من حصن كيفا . وفي الوقت نفسه سارت الاستعدادات الخاصة بالدفاع سيرًا طبيعيًا ، واستمرت الكتب والمراسيم فخرج بتوقيع السلطان المتوفى كأنه حي على قيد الحياة[2].

وعلى الرغم من حسن تدبير شجرة الدر والأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلا أن الخبر – وفاة السلطان – تسرب ليس للمصريين فحسب ، بل للصليبيين أيضًا ، وعندئذ قرر لويس الزحف نحو القاهرة ، وأن يبدأ بالهجوم على الجيش الأيوبي مستغلاً الظروف السيئة التي أحاطت بالدولة الأيوبية بوفاة

(١) المقريزي ، السلوك ، ٣/ ٣٤٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٤.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ٣/ ٣٤٣ – ٣٤٥ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٣/ ١٧٧.

الصالح أيوب وليتمكن من توجيه ضربته قبل مجيء المعظم تورانشاه ، وقد اختار أن يسلك للزحف على القاهرة طريق الدلتا ، وهو طريق كثير الترع والقنوات. وكان أن سار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوبًا في المنطقة التي تسمى " جزيرة دمياط " وهي عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقي بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي فرع أشموم طناح (بحر أشموم) المعروف اليوم باسم البحر الصغير ، وعند رأس المثلث من ناحية الجنوب الغربي ، أي عند نقطة تفرع بحر أشموم فرع دمياط تقع المنصورة إلى الجنوب من نقطة التفرع. ومعنى ذلك أن بحر أشموم كان يعترض طريق الصليبيين في زحفهم جنوبًا تجاه المنصورة ، ثم القاهرة ، وهو الأمر الذي أعطى الأمير فخر الدين قائد الجيش فرصة طيبة لاستغلال تلك الظروف الطبيعية في الدفاع. وقد أقام الأمير فخر الدين نفسه في المنصورة ، ومنها أخذ ينظم هجمات مفاجئة ضد الصليبيين في زحفهم لعرقلة ذلك الزحف[(١)].

وتقدم الصليبيون نحو المنصورة وصار يفصل بينهم وبين المنصورة ومعسكرات الجيش الأيوبي بحر أشموم طناح ، وقد دارت بين الفريقين مناوشات عديدة ، واشتد المسلمون في الهجمات على الصليبيين ، كانت أشدها تلك التي حدثت في ٧ سبتمبر ١٢٤٩م عندما قام ستمائة فارس من الجيش الأيوبي بمهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشارمساح والتي نجح فيها المسلمون من أسر عدد كبير من الصليبيين بالرغم من حلول الهزيمة بالمسلمين ومقتل أحد الأمراء الكبار هو الأمير العلائي وجماعة من العسكر ، وقتل من العدو جماعة ولكن العدو تغلب على المسلمين وأخذ شارمساح في نفس اليوم[(٢)].

وظل النيل يفصل بين المعسكرين ، ويمنع التحام الجيشين ، إلى أن قرر لويس

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٤٢.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٤٧ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٨٩.

التاسع عبور النيل عن طريق مخاضة بحر أشموم ، ووضع خطة تهدف إلى احتلال المنصورة وإبادة الجيش الإسلامي ، كما قرر بناء جسر يربط بين البر الشرقي والبر الغربي ، وذلك بعد أن يستولى لويس التاسع على المعسكر الإسلامي في المنصورة لتعبر باقي القوات الصليبية ، وفي ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م أخذ الصليبيون يعبرون بحر أشموم عن طريق تلك المخاضة(١). ولم يكن الأمير فخر الدين يعلم بعبور الصليبيين بحر أشموم حتى أسرع على الفور في الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة ، فجمع رجاله ووقف قبالة الصليبيين. ولكن فخر الدين لم يلبث أن وقع في كمين نصبه له الداوية وقتل على الأثر ، مما أنزل خسارة فادحة بالجيش الأيوبي في تلك الظروف "إذ تفرق المسلمون يمينًا وشمالاً وكادت أن تكون الهزيمة بالكلية" (٢).

تقهقرت القوات الإسلامية إلى داخل المنصورة ، بينما تقدمت القوات الصليبية بقيادة روبرت دي أرتوا – أخى لويس التاسع – إلى داخل المنصورة ، وكان خطأ روبرت لم ينتظر حتى تستكمل بقية القوات الصليبية المخاضة بل انطلق إلى داخل المنصورة حيث (قتلوا النساء والشيوخ والأطفال ، وكانوا يقتلون كل من يصادفونه في طريقهم دون رحمة أو هوادة) (٣).

وبينما لاحت في الأفق سحب الهزيمة للمسلمين ، إذ تفرق الناس وانهزموا يمينًا وشمالاً وكادت الكسرة أن تكون.. إلا أن الله تدارك بلطفه وقيض للإسلام والمسلمين ابن الإسلام بيبرس البندقداري الذي تزعم المماليك الصالحية في معركة المنصورة ضد الصليبيين... فحملوا على الفرنجة حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم ، فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس ، حتى قتل منهم في هذه

---

(١) هذه المخاضة هي مخاضة سلمون ودل الصليبيون عليها أهل بلدة سلمون وكان غالبيتهم من غير المسلمين.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٤٩ ، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، ص١٦٢-١٦٤.

النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم[(١)].

وقد انتهت المعركة بالقضاء على فرقة الفرسان التي كانت تؤلف مقدمة الجيش الصليبي قضاء مبرمًا تقريبًا بعد قتال شديد بين الجانبين ومن بين قتلى العدو كونت روبرت ارتوا شقيق الملك لويس التاسع وثلاثمائة من فرسانه، ومات جميع الفرسان الداوية الذي اشتركوا في المعركة إذ قتل منهم مائتان وخمس وثمانين فارسًا ولم يسلم منهم سوى أربعة أو خمسة بينما لم يفقد من الجيش الإسلامي سوى ثلاثين نفسًا[(٢)]. وهكذا كانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي.

قدوم تورانشاه وتوليته السلطنة وأمور الحرب:

وفي الأثناء التي كان الصليبيون يعانون مرارة الهزيمة في المنصورة ، وصل المعظم تورانشاه في يوم الجمعة ٢١ ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/ ٢٥ فبراير ١٢٥٠م إلى مدينة المنصورة ونزل في قصر أبيه ثم أعلن وفاة أبيه وتوليته السلطنة (وأصبح سلطان البلاد ، ويقع عليه تدبير شئون الحرب ، ومواجهة العدو الصليبي الذي يحتل جزءًا من البلاد المصرية)[(٣)] وقد ارتفعت الروح المعنوية لدى الجيش المصري بمقدم تورانشاه "ويتمن الناس بطلعته" فاشتدت هجمات الجيش الأيوبي على القوات الصليبية مما زاد من سوء موقفهم[(٤)].

وكان من حسن تدبير تورانشاه أنه أمر بصنع سفن (وحملوها وهي مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة بعد أن أعيد تركيبها) وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية وحال دون اتصال الصليبيين

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٠.

(٢) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص١٥٦-١٥٧، جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر ، ص١٦٩-١٧٠.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥١-٣٥٣.

(٤) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥١-٣٥٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٤.

بقاعدتهم في دمياط ، وكانت سفن الصليبيين تنقل المؤن والإمدادات إلى الصليبيين من دمياط إلى المنصورة عبر فرع دمياط ، فقطع تورانشاه بهذا العمل طريق الإمدادات عن الصليبيين ، حيث لم تلبث سفن المسلمين أن انقضت على المراكب الصليبية "وأخذتها أخذًا وبيلاً" [١].

وقد دارت عدة معارك بين الأسطول المصري والصليبي كان أشهرها تلك التي وقعت يوم عرفة ٩/ ١٢/ ٦٤٧هـ/ مارس ١٢٥٠م ، حيث اشتبكت السفن الإسلامية مع السفن الصليبية عند مسجد النصر ، حيث استولى المسلمون على اثنين وثلاثين مركبًا ، فاشتد الغلاء عند الفرنج وصاروا محصورين لا تصلهم الإمدادات. (فوهنت قوة الفرنج وتزايد الغلاء عندهم) [٢].

ولما وجد لويس التاسع سوء موقفه وأنه ومن معه مأخوذ لا محالة لجأ إلى الحيلة وإجراء المفاوضات حيث شرعوا في طلب الهدنة من المسلمين ، ووصلت رسلهم يطلبون الهدنة ، وعرض الملك الفرنسي ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس، ورفض المسلمون الاقتراح الصليبي لأنهم كانوا على علم بحقيقة وضع الصليبيين وضعفهم بعد أن أحكم الأسطول الإسلامي حصارهم وقطع طريق الإمدادات عنهم ، ولهذا انقطعت المفاوضات بين الجانبين [٣].

ومع يأس لويس التاسع من إجراء المفاوضات الهدنة وسوء موقف الصليبيين بعد انقطاع الإمدادات عنهم ، بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية لفرع دمياط ، حيث (أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب وأتلفوا ما عندهم مراكبهم ليفروا إلى دمياط) في حين حمل المرضى في السفن ، فيما يشبه الهروب ، ومن شدة سرعة الهرب ، أغفل الصليبيون أن يقطعوا الجسر الذي

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٣.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٤.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٤ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٨٩.

أقاموه على بحر أشموم طناح ، فعبر المسلمون خلفهم " وركبوا أقفيتهم" وساروا في أعقابهم – يهاجمونهم من كل ناحية[١] وقد أحاط بهم المسلمون من كل جانب ، وجرى بين الجانبين قتال شديد ، وبذل المسلمون سيوفهم في العدو، واستولوا عليهم قتلاً وأسرًا حيث بلغ عدد القتلى سبعة آلاف في قول المقل وثلاثين ألفًا في قول المكثر ، وأبلى المسلمون في هذه المعركة بلاء حسنًا ، وبالرغم من ذلك فإن لويس التاسع أظهر كفاءة واضحة في تنظيم صفوف الصليبيين حيث استطاع أن يصل بهم إلى شارمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام هجمات المسلمين فأصابه الوهن والمرض ، وبينما كان جيشه عند فارسكور إذ انقض عليه جيش المسلمين وحلت الهزيمة الساحقة بالصليبيين ، ووقع الجيش الصليبي بأكمله تقريبًا بين قتلى وأسرى ، وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه حيث وضع قيد حديد واعتقل بدار القاضي ابن لقمان بالمنصورة ، ووكل بحفظه الطواش صبيح المعظمي[٢] .

وقد بقي لويس التاسع في أمر المسلمين إلى أن عقد الصلح بين الطرفين على تسليم دمياط وأن تدوم الهدنة عشر سنوات وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح[٣] غير أن الصلح لم يتم لمقتل تورانشاه.

نهاية تورانشاه والدولة الأيوبية :

بعد الانتصار الذي حققه الأيوبيون على الصليبيين ، تمادى تورانشاه في غيه " وأقام على لهوه" وأخذ يسيء إلى شجرة الدر التي مهدت له السلطنة ،

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٥.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٥-٣٥٦ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٦ ، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر ، ص٢٠١-٢٠٢.

(٣) محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص٢٠٦ ، جوزيف نسيم ، لويس التاسع، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ،٢/ ٨٤٩.

وأرسل إليها ويتوعدها ويطالبها بأموال وكنوز أبيه ، وأخذ المعظم تورانشاه يتنكر لكبار قادة الدولة في عهد أبيه ، وأزاحهم عن مناصبهم (وأطرح الأمراء الأكابر أهل الحل والعقد) ، وأخذ يقرب مواليه وأتباعه الذين كانوا معه في حصن كيفا وديار ربيعه (وولاهم الوظائف السلطانية) ، بل إن المعظم تورانشاه، كان لا يخفي نيته بالفتك بمماليك وخاصة وأتباع أبيه (وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع ، ويقول : (هكذا أفعل بالبحرية) وسمى كل واحد منهم باسمه ، واحتجب عن الناس (مع الانهماك على الفساد)[١].

هذه الأفعال أوغرت صدر مماليك الدولة الأيوبية على المعظم تورانشاه وصاروا يسعون للتخلص منه ، أما شجرة الدر فقد داخلها منه خوف كثير، لما بدا منه من الهوج والخفة ، وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته في حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها ، فأنفوا لها ، وحنقوا من أفعال السلطان[٢] أما المماليك الذين ضارهم تولية تورانشاه السلطنة ، (فنفرت قلوب البحرية منه واتفقوا على قتله)[٣].

وبعد أن أجمع المماليك البحرية أمرهم على قتل تورانشاه ، اتفقوا على يوم الاثنين ٢٨ المحرم سنة ٦٤٨هـ / ٢مايو ١٢٥٠م حيث مد السلطان تورانشاه السماط في سرادقه المقام على ضفة النيل في فارسكور ، وجلس يتناول الطعام مع بعض الأمراء ، وعندما فرغوا من تناول الطعام ، قام المعظم من مجلسه ودخل خيمته ، فتقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري وضربه بالسيف فتلقاه المعظم بيده فقطع أصابعه والتجأ إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٧-٣٥٩.

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٥.

(٣) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٧-٣٥٩ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٥.

ولكن المماليك أشعلوا النار في البرج ، وعندئذ ألقى تورانشاه بنفسه في نهر النيل طلبًا للنجاة ، ولم يتركه المماليك بل لاحقوه بسهامهم فمات جريحًا غريقًا محترقًا ، وظل يصيح في المماليك "ما أريد ملكًا!.. "دعوني أرجع إلى الحصن (كيفا) يا مسلمين ... مما فيكم من لصطنعني ويجيرني"، ولكن لم يتقدم أحد لنجدته ، وتركت جثته ملقاة في العراء على شاطئ النهر ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة[1].

وبمقتل تورانشاه انتهى حكم الأيوبيين في مصر ، لأن المماليك اختاروا للحكم السلطانة شجرة الدر أرملة الصالح أيوب ، وكانت أصلها[2] أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين ، ولذلك يمكن اعتبارها أولى سلاطين المماليك في مصر[3].

وبعد أن استقرت الأمور لشجرة الدر ، أقرت الصلح مع الصليبيين على بنود منها:

- أن يرد لويس التاسع دمياط إلى المسلمين.
- أن يطلق سراح الأسرى المسلمين لديه.
- أن لا يقصد لويس التاسع سواحل الإسلام مرة أخرى.
- وأن يدفع لويس التاسع مبلغ ثمانمائة ألف دينار وذاك فدية عنه وعن الأسرى المسيحيين من جهة وعوضًا عما أحدثوه بدمياط من النهب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى ، على أن يدفع لويس التاسع نصف

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٥٩-٣٦٠ ، أبو الفدا ، المختصر ، ٣/ ١٨١ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٨.

(٢) وكانت شجرة الدر تركية الجنس وقيل بل أرمينية ، اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده.

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢/ ٨٥٢.

الفدية قبل إطلاق سراحه ، والنصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصلوه إلى عكا.

- تعهد الجانب الإسلامي برعاية مرضى الصليبيين الذين بدمياط والمحافظة على معدات الصليبيين وأثقالهم بالمدينة حتى يمكن نقلها .
- وحددت هذه المعاهدة بمدة عشر سنوات[1] .

وتسلم المسلمون دمياط بعد أن ظلت في أسر الصليبيين أحد عشر شهرًا وسبعة أيام ، وأفرج عن لويس التاسع وأخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة.

وبذلك تكون الحملة الصليبية السابعة قد باءت بالفشل وعادت إلى بلادها تجر أذيال الهزيمة والعار.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ١/ ٣٦٢ – ٣٦٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٣٦٨ ، السيوطي، حسن المحاضرة ، ٢/ ٣٤.

الخاتمة

الخاتمة :

وبعد انتهاء الحديث عن تاريخ الدولة الأيوبية ، فقد وجب على الكاتب – إتمامًا للفائدة – أن يدون بعد النقاط التي تستفاد من تاريخ هذه الدولة:

– ما أشبه الليلة بالبارحة ، فالعالم الإسلامي اليوم يعيش نفس ظروف نشأة وقيام الدولة الأيوبية من قيام دويلات مستقلة تسعى كل منها للحياة على أنقاض غيرها ، وحكام يعيثون فسادًا في الأرض لا يرعون حق مخلوق ولا حق خالق ، لا يعنيهم إلا العروش وإن كانت على جماجم الناس ، وفي سبيل ذلك فلا مانع من مهادنة الأعداء بل مصادقتهم مادام في ذلك حفاظ على العرش، والصراعات بين الدول والدويلات الإسلامية غير مبالين بما يتربص بالعالم الإسلامي الذي ترمقه عيون الأعداء من كل مكان.

– الوحدة الإسلامية هي السبيل الوحيد لتحقيق الأهداف وهزيمة الأعداء، فمادام العالم في حالة تشرذم وتفرق فلن تقوم له قائمة، ورأينا كيف كان العالم الإسلامي قبل مجيء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ثم صلاح الدين، كان كيانات مستقلة بل متعادية متناحرة مما مهد الطريق للصليبيين ليقتطعوا أجزاء غالية من الجسد الإسلامي، وقد أدرك العالم الإسلامي ثم أكمل نور الدين محمود البناء ثم انطلق صلاح الدين ليحطم أسطورة الكيان الصليبي الجاثم على أرض الإسلام ويسترد منه أغلى البقاع بيت المقدس ، والوحدة الإسلامية بناء لابد لكل واحد أن يساعد على تشييده.

– الدين الإسلامي هو الهواء الذي يتنفسه المسلمون والماء الذي يشربونه، وهو السماء التي تظلل المسلمون والأرض التي تقلهم وتجمعهم ، فلا تجدي قومية ولا عنصرية ولا لون ، إنما الذي يجمع الناس جميعًا باختلاف ألوانهم وأقوامهم ولغاتهم وأنسابهم هو الإسلام ، وقد أدرك صلاح الدين هذه الحقيقة

المهمة ، فحينما تحدث باسم الإسلام والوحدة التفت حوله عامة الناس قبل خاصتهم ، وأمدوه بكل ما يملكون من مرتخص وغال ، وحينما تتم تنحية الدين فلابد للأمة أن تتهاوى إلى أسفل سافلين.

- الاهتمام بالعلماء ورعايتهم ماديًا واجتماعيًا والإعلاء من قدرهم وشأنهم هو السمة الغالبة في تاريخ الدولة الأيوبية ، فالأيوبيون أجلوا العلماء وقربوهم بل واعتمدوا عليهم كثيرًا في تصريف أمور الدولة وفي فض المنازعات ، ولذلك أسلس العلماء قياد الأمة للأيوبيين ، ولما كان لهم من دور بارز في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولم يكن النشاط العلمي والاهتمام بالعلماء ترفًا فكريًا ولا إفرازًا تقليديًا لأجهزة الدولة ، ولكنه تصميم هادف يسعى إلى عملية التأصيل العقائدي والإصلاح الاجتماعي ، وكان امتدادًا طبيعيًا لما كان في عهد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ، وقد برز علماء أفاضل كان لهم دور في تاريخ الدولة الأيوبية مثل القاضي الفاضل والحافظ السلفي أبو طاهر بن عوف الأسكندراني وابن أبي عصرون وعيسى الهكاري وزين الدين على بن نجا والعمادِ الأصفهاني ، والعز بن عبد السلام ، وغيرهم كثير مما يضيق المقام بذكره.

- أهمية الإصلاح ، فلما جاءت الدولة الأيوبية إلى مصر ورثت تركة مثقلة من نظام اقتصادي متهاوي ، وإدارة سيئة وموارد منهوبة ، فأحدث صلاح الدين ثورة إصلاحية في مجال الزراعة والتجارة والصناعة ، وأنشأ المستشفيات في القاهرة والإسكندرية والقدس وأبطل المكوس الظالمة واكتفى بالموارد الشرعية ، وأنشأ المدارس والخانقاوات ، واهتم بالإصلاح العمراني ، هذه السياسة قربت حكام الأيوبيين من الناس بعدما أصلحوا أحوال الرعية وعملوا لها وأحدثوا فائضًا كبيرًا جعلهم ينطلقون بكليتهم للجهاد في سبيل الله ومكافحة العدوان الصليبي.

- احترام الخلافة العباسية ، فمنذ اليوم الأول لنشأة الدولة الأيوبية وحكامها المتعاقبين يحرصون على احترام وتوقير الخليفة والخلافة العباسية ، ولا يتركون مناسبة ولا احتفال إلى أظهروا ذلك ، في وقت كانت الخلافة العباسية ظلاً بلا جسم وأثرًا بعد عين ، ومع ذلك كان سلاطين الأيوبيين يظهرون احترامها لاعترافهم بأنها هي الغطاء السياسي لكل العالم الإسلامي ، وأن المسلمين تربطهم بها علاقة حب واحترام ، وكونها مصدر الشريعة الروحية لكل المسلمين.

- العدل أساس الملك ، فالعدل بين الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ، ويولد جيلاً قويًا وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها ، رعية تحب حكامها وتطيعهم لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم ، وأما الظلم فهو ظلمات يوم القيامة وفي الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول ، ولقد قيل : إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ويخذل الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة ، فلما جاءت الدولة الأيوبية لاسيما صلاح الدين ساد فيها العدل بين الرعية وتم إيصال الحقوق إلى أهلها ، ولذلك دامت الدولة الأيوبية وعاشت بين صفحات التاريخ مذكورة بالعدل وإنصاف المظلوم.

- العالم الإسلامي يمرض ولكن لا يموت ، ينحني ولكن لا يسقط هكذا يحدثنا التاريخ ، فالمتأمل في أحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين ونور الدين محمود يرى ظلامًا حالكًا وأفقًا ضيقًا وسماء ملبدة بغيوم الضعف والانقسام ، ولكن لما شاءت إرادة الله النصر للإسلام قيض للإسلام والمسلمين ابن الإسلام البار صلاح الدين الأيوبي فأخذ بيد العالم الإسلامي المتعثر وأزال عنه غبار الهزيمة والانكسار ، ومسح عن وجهه تراب الضعف والوهن وأعاد له

نضارته وقوته ، وضخ في عروقه دماء جديدة دماء الجهاد في سبيل الله ، ولله در القائل: من رحم المحنة تولد المنحة ، وكلما زادت ظلمة الليل كان ذلك إيزانًا بقرب الفجر.

- التاريخ هو الميزان الذي يُقَيِّم به الرجال وتُعرف به مثاقيلهم ، فالتاريخ لا يكذب – وإن كذب المؤرخ – ولا يحابى ، ولا يقبل الأموال والهبات – وإن قبلها المؤرخ – وسيضع التاريخ كل إنسان في مكانه الذي يستحقه دون تفريط ولا إفراط ، نقول ذلك لأن التاريخ سيذكر بخير عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وأمثالهم ومن سار على دربهم ، وسيأتي الإسلام يوم القيامة فيشفع لهم ويقول: يا رب هؤلاء نصروني فانصرهم، أما من أساء إلى الإسلام وتنازل عن حقوق المسلمين وباع مقدساتهم من أجل عروش زائلة فسوف يذهبون إلى مزبلة التاريخ ، وقد وصف ابن حزم حكام المسلمين بقوله: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليهم ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من جُرم المسلمين وأبنائهم وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا فأخلوها من المسلمين"(١).

ويقول ابن حبان: دهرنا غربل أهليه أشد غربلة ففسفس أخلاقهم وسفه أحلامهم وخبث ضمائرهم.

- إن الدولة هي بنت الظروف التي تنشأ فيها ، والأرض التي تنبت فيها، فالدولة الأيوبية نشأت في محيط كله صراعات ودسائس ومؤامرات، وحقبة تاريخية لا تعترف إلا بالأقوى، القوي له كل الحقوق والضعيف ليس له أي حقوق، فلا يؤخذ على الدولة الأيوبية استخدام القوة في إخضاع الآخرين لاسيما وإن كانوا ممن يقف في طريق الوحدة الإسلامية، ومادامت القوة هي

---

(١) رسائل ابن حزم ، ٣/ ١٧٦.

اللغة التي أجمع المعاصرون على فهمها، ولا يؤخذ على الدولة الأيوبية السعي لمصالح أفرادها مادام المجتمع كله يتبع هذا النهج ، وخلاصة القول أن لكل دولة ظروف تحكم نشأتها وتحدد ملامح ومعالم سياستها ولا ينبغي الحكم عليها وتقييمها إلا من خلال ظروف نشأت فيها وحددت معالمها.

- إن الحروب الصليبية هي سلسلة محكمة الحلقات ، وهي ليست وليدة اللحظة التي قامت فيها ، بل امتدت عبر التاريخ ، ومنذ قيام الإسلام في شبه الجزيرة العربية وإن أخذت أشكالاً أخرى وألوانًا غير التي نعرفها وإن تزيت بأزياء خدعت المسلمين ألوانها وقسماتها ، وبتعبير أدق ، إن الحركة الصليبية هي ردة الفعل المسيحي تجاه الإسلام ، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره ، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية ، وإن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل طور جديد ، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (٤٨٨-٦٩٠هـ/ ١٠٩٥-١٢٩١م) إلا أحد أطوارها ، وأحد ميادينها الجغرافية فقط ، وإن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل كثيرة ، ومعقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية من عقالها في هذه الفترة.

الملاحق

جداول بأسماء الحكام

١- السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقة العظام

طغرلبك	١٠٣٧-١٠٦٣
ألب أرسلان	١٠٦٣-١٠٧٢
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢-١٠٩٢
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢-١٠٩٤
بركياروق بن ملكشاه	١٠٩٤-١١٠٤
محمد بن ملكشاه	١١٠٤-١١١٨
أحمد سنجر بن ملكشاه	١٠٩٦-١١٥٧

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨-١١٣١
داود بن محمود	١١٣١
طغرل الأول بن محمد	١١٣٢-١١٣٣
مسعود بن محمود	١١٣٣-١١٥٢
ملكشاه بن محمود	١١٥٢
محمد بن محمود	١١٥٣-١١٥٩
سليمان شاه بن محمد	١١٥٩-١١٦١
أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١-١١٧٧
طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧-١١٩٤

(جـ) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١١٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥-١١١٣
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥-١١٠٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣-١١١٤

سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤-١١١٧

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١-١٠٨٦
قلج أرسلان الأول	١٠٩٢-١١٠٧
ملكشاه الأول بن قلج أرسلان	١١٠٧-١١١٦
مسعود الأول بن قلج أرسلان	١١١٦-١١٥٦
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦-١١٨٨
ملكشاه الثاني	١١٨٨-١١٩٢
كيخسرو الأول	١١٩٢-١٢٠٠
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠-١٢٠٣
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣-١٢٠٤
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	١٢٠٤-١٢١٠
كيكاوس الأول بن كخيسرو الأول	١٢١٠-١٢١٩
كيقباد الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٩-١٢٣٦
كيخسرو الثاني بن كيقباد الأول	١٢٣٦-١٢٤٥
كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥-١٢٥٧
قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧-١٢٦٧
كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧-١٢٨٣
مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣-١٢٩٦
كيقباد الثالث	١٢٩٦-١٣٠٠

٢- بنو أرتق

(أ) الأراتقة في حصن كيفا ثم في آمد

سقمان الأول بن أرتق	١١٠١-١١٠٤
إبراهيم بن سقمان	١١٠٤-١١٠٨
داود بن سقمان	١١٠٨-١١٤٨

قرا أرسلان بن داود	١١٧٤-١١٤٨
محمد بن قرا أرسلان	١١٨٥-١١٧٤
سقمان الثاني بن محمد	١٢٠٠-١١٨٥
محمود بن محمد	١٢٢٢-١٢٠٠
مودود بن محمود	١٢٣١-١٢٢٢

(ب) الأراتقة في ماردين

إيلغازي الأول بن أرتق	١١٢٢-١١٠٨
تمر تاش بن إيلغازي	١١٥٢-١١٢٢
ألبي بن تمرتاش	١١٧٦-١١٥٢
إيلغازي الثاني بن ألبي	١١٨٤-١١٧٦
يولق أرسلان بن إيلغازي الثاني	١٢٠٠-١١٨٤
أرتق أرسلان بن إيلغازي الثاني	١٢٣٩-١٢٠٠
غازي الأول بن أرتق أرسلان	١٢٥٩-١٢٣٩
قرا أرسلان بن غازي الأول	١٢٩١-١٢٥٩

(جـ) الأراتقة في خرتبرت

أبو بكر بن قرا أرسلان	١٢٠٣-١١٨٥
إبراهيم بن أبي بكر	؟-١٢٠٣
الخضر بن إبراهيم	؟
أرتقشاه بن الخضر	حوالي ١٢٦١

٣- بنو زنكي

(أ) أتابكة الموصل

عماد الدين زنكي بن آقسنقر	١١٤٦-١١٢٧
سيف الدين غازي الأول بن زنكي	١١٤٩-١١٤٦
قطب الدين مودود بن زنكي الأعرج	١١٧٠-١١٤٩
سيف الدين غازي الثاني بن مودود	١١٧٦-١١٧٠

عز الدين مسعود الأول بن مودود	١١٧٦-١١٩٣
نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود	١١٩٣-١٢١٠
عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	١٢١٠-١٢١٨
نور الدين أرسلان شاه بن مسعود الثاني	١٢١٨-١٢١٩
ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني	١٢١٩-١٢٣٣
بدر الدين لؤلؤ وابنه ركن الدين إسماعيل	١٢٣٣-١٢٥٩

(ب) أتابكة الشام

العادل نور الدين محمود بن زنكي	
في حلب	١١٤٦-١١٧٤
في دمشق	١١٥٤-١١٧٤
الصالح نور الدين محمود بن إسماعيل	
في حلب	١١٧٤-١١٨١
ضم حلب إلى أتابكية الموصل وسنجار	١١٨١-١١٨٣

(جـ) أتابكة سنجار

عماد الدين أبو الفتح زنكي الثاني بن مودود	١١٧٠-١١٩٧
قطب الدين محمد بن زنكي الثاني	١١٩٧-١٢١٩
عماد الدين شاهنشاه بن محمد	١٢١٩
جلال الدين محمود بن محمد	١٢١٩-١٢٢٠

٤- بنو أيوب

(أ) الأيوبيون في مصر

الناصر صلاح الدين يوسف	١١٧٤-١١٩٣
العزيز عثمان	١١٩٣-١١٩٨
المنصور محمد	١١٩٨-١١٩٩
العادل الكبير أحمد	١١٩٩-١٢١٨
الكامل (الأول) محمد	١٢١٨-١٢٣٨

العادل الصغير أبو بكر	١٢٣٨-١٢٤٠
الصالح أيوب	١٢٤٠-١٢٤٩
المعظم توران شاه	١٢٤٩-١٢٥٠

(ب) الأيوبيون في دمشق

الأفضل نور الدين علي	١١٩٣-١١٩٦
العادل الكبير أحمد	١١٩٦
المعظم عيسى	١٢١٨-١٢٢٧
الناصر داود	١٢٢٧-١٢٢٩
الأشرف موسى	١٢٢٩-١٢٣٧
الصالح إسماعيل (المرة الأولى)	١٢٣٧
الكامل الأول محمد	١٢٣٨
العادل (الصغير) أبو بكر	١٢٣٨-١٢٣٩
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الأولى)	١٢٣٩
الصالح إسماعيل (المرة الثانية)	١٢٣٩-١٢٤٥
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الثانية)	١٢٤٥-١٢٤٩
المعظم توران شاه (صاحب مصر)	١٢٤٩-١٢٥٠

(جـ) الأيوبيون في حلب

العادل الأول (الكبير) أحمد	١١٨٣-١١٨٦
الظاهر غازي الأول	١١٨٦-١٢١٦
العزيز محمد	١٢١٦-١٢٣٦
الناصر (الثاني) يوسف	١٢٣٦-١٢٦٠

(د) الأيوبيون في حمص

القاهر محمد بن شيركوه	١١٧٨-١١٨٦
المجاهد شيركوه الثاني	١١٨٦-١٢٤٠
المنصور إبراهيم	١٢٤٠-١٢٤٦

الأشرف موسى الثاني	١٢٤٦-١٢٦٣

(هـ) الأيوبيون في حماه

المظفر الأول عمر	١١٧٨-١١٩١
المنصور الأول محمد	١١٩١-١٢٢٠
الناصر قلج أرسلان	١٢٢٠-١٢٢٩
المظفر الثاني محمود	١٢٢٩-١٢٤٤
المنصور الثاني محمد	١٢٤٤-١٢٨٤

(ز) الأيوبيون في ميافارقين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥
العادل سيف الدين أبو بكر أحمد (الكبير)	١١٩٤-١١٩٩
الأوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩-١٢١٠
الأشرف الأول موسى	١٢١٠-١٢٢٠
المظفر شهاب غازي	١٢٢١-١٢٤٤
الكامل الثاني ناصر الدين محمد	١٢٤٤-١٢٦٠

٥- سلاطين المماليك في مصر

(أ) دولة المماليك البحرية

شجرة الدر	١٢٥٠
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين على بن أيبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الأول)	١٢٦٠
السعيد ناصر الدين محمد بن بركه خان	١٢٧٧
العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاون	١٢٧٩
الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠

الناصر محمد بن قلاون	١٢٩٣
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦
الناصر محمد بن قلاون (المرة الثانية)	١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس (الثاني)	١٣٠٨
الناصر محمد بن قلاون (مرة ثالثة)	١٣٠٩
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	١٣٤١
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	١٣٤١
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	١٣٤٢
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢
الكامل سيف الدين شعبان (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٥
المظفر زين الدين حاجي (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٦
الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد	١٣٤٧
الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	١٣٥١
الناصر ناصر الدين الحسن (مرة ثانية)	١٣٥٤
المنصور صلاح الدين بن حاجي	١٣٦١
الأشرف ناصر الدين شعبان (الثاني)	١٣٦٣
المنصور علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٦
الصالح صلاح الدين حاجي (الثاني)	١٣٨١

(ب) دولة الجراكسة

الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢
الناصر فرج بن برقوق	١٣٩٨
المنصور عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
الناصر فرج بن برقوق (المرة الثانية)	١٤٠٥
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	١٤١٢

المظفر أحمد بن شيخ	١٤٢١
الظاهر ططر	١٤٢١
الصالح محمد بن ططر	١٤٢١
الأشرف برسباي	١٤٢٢
العزيز يوسف بن برسباي	١٤٣٧
الظاهر جقمق	١٤٣٨
المنصور عثمان بن جقمق	١٤٥٣
الأشرف إينال العلائي	١٤٥٣
المؤيد أحمد بن إينال	١٤٦٠
الظاهر خشقدم	١٤٦٠
الظاهر بلباي المؤيدي	١٤٦٧
الظاهر تمر بغا	١٤٦٨
الأشرف قايتباي	١٤٦٨
الناصر محمد بن قايتباي	١٤٩٦
الظاهر قانصوه خمسمائة	١٤٩٧
الناصر محمد بن قايتباي (للمرة الثانية)	١٤٩٧
الظاهر أبو سعيد قانصوه	١٤٩٨
الأشرف جانبلاط	١٥٠٠
العادل طومان باي الأول	١٥٠١
الأشرف قانصوه الغوري	١٥٠١
الأشرف طومان باي الثاني	١٥١٦

٦- ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفري دي بوايون (وصي على الدولة)	١٠٩٩-١١٠٠
بلدوين الأول (أول ملك متوج)	١١٠٠-١١١٨
بلدوين الثاني	١١١٧-١١٣١

فولك الأنجوي	١١٣١-١١٤٤
بلدوين الثالث	١١٤٤-١١٦٢
عموري الأول	١١٦٢-١١٧٤
بلدوين الرابع	١١٧٤-١١٨٥
بلدوين الخامس	١١٨٥-١١٨٦
جاي لوزجنان	١١٨٦-١١٨٢
كونراد دي مونتفرات	١١٩٢
هنري دي شامبني	١١٩٢-١١٩٧
عموري الثاني	١١٩٧-١٢٠٥
ماري (ابنة كونراد تحت الوصاية)	١٢٠٥-١٢١٠
حنا دى برين	١٢١٠-١٢٢٥
الإمبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥-١٢٥٠
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك إسمي)	١٢٥٠-١٢٥٤
كونرادين (ملك إسمي)	١٢٥٤-١٢٦٨
هيو الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٦٩-١٢٨٤
حنا الأول ملك بيت المقدس	١٢٨٤-١٢٨٥
هنري الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٨٦-١٢٩١

٧- أمراء أنطاكية النورمان

بوهيموند الأول	١٠٩٨-١١٠٤
تنكرد	١١٠٤-١١١٢
روجر دي سالرنو	١١١٢-١١١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦-١١٣٠
ريموند دي بواتيه	١١٣٦-١١٤٩
ريجنالد دي شاتيون (أرناط)	١١٥٣-١١٦٠

بوهيموند الثالث	١١٦٣-١٢٠١
بوهيموند الرابع	١٢٠١-١٢١٦
ريموند روبان	١٢١٦-١٢١٩
بوهيموند الرابع (مرة ثانية)	١٢١٩-١٢٣٣
بوهيموند الخامس	١٢٣٣-١٢٥١
بوهيموند السادس	١٢٥١-١٢٦٧

٨- أمراء طرابلس

ريموند الأول (الصنجيل)	١١٠٢-١١٠٥
وليم جوردان	١١٠٥-١١٠٨
برتراند	١١٠٨-١١١٣
بونز	١١٣-١١٣٧
ريموند الثاني	١١٣٧-١١٥٢
ريموند الثالث	١١٥٢-١١٨٧
بوهيموند الرابع (+أنطاكية)	١١٨٧-١٢٣٣
بوهيموند الخامس (+أنطاكية)	١٢٣٣-١٢٥١
بوهيموند السادس(+ أنطاكية)	١٢٥١-١٢٧٥
بوهيموند السابع	١٢٧٥-١٢٨٧

٩- أمراء أرمينية الصغرى

روبان الأول	ت ١٠٩٠
قسطنطين الأول	ت ١١٠٠
ثوروس الأول	١١٠٠-١١٢٩
ليون الأول	١١٢٩-١١٣٦
ثوروس الثاني	١١٤٤-١١٦٧
روبان الثاني (تحت الوصاية)	ت ١١٧٠
ملح	١١٧٠-١١٧٥

روبان الثالث	١١٧٥-١١٨٧
ليون الثاني	١١٨٧-١٢١٩

تزوجت إيزابيل ابنة ليون الثاني ، من هيثوم لامبرون، الذي أصبح ملكًا على أرمينية الصغرى)

١٠- ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الأول	١٢٢٢-١٢٦٩
ليون الثالث	١٢٧٠-١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩-١٢٩٣
ثوروس الثالث	١٢٩٣-١٢٩٤
هيثوم الثاني (مرة أخرى)	١٢٩٤-١٢٩٦
سمباد	١٢٩٧-١٢٩٨
قسطنطين الأول	١٢٩٨-١٢٩٩
هيثوم الثاني (مرة ثالثة)	١٢٩٩-١٣٠٥
ليون الرابع	١٣٠٥-١٣٠٨
أوشين	١٣٠٨-١٣٢٠
لوين الخامس	١٣٢٠-١٣٤١
جاي دي لوزجنان	١٣٤٢-١٣٤٤
قسطنطين الثاني	١٣٤٤-١٣٦٣
قسطنطين الثالث	١٣٦٥-١٣٧٣
ليون السادس	١٣٧٣-١٣٧٥

١١- أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الأول كومنين	١٠٨١-١١١٨
حنا الثاني كومنين	١١١٨-١١٤٣
مانويل الأول كومنين	١١٤٣-١١٨٠
ألكسيوس الثاني كومنين	١١٨٠-١١٨٣

أندرونيق الأول كومنين	١١٨٣-١١٨٥
إسحاق الثاني أنجليوس	١١٨٥-١١٩٥
ألكسيوس الثالث أنجليوس	١١٩٥-١٢٠٣
إسحاق الثاني – ألكسيوس الرابع	١٢٠٣-١٢٠٤
ألكسيوس الخامس	١٢٠٤
تيودور الأول لاسكارس	١٢٠٤-١٢٢٢
حنا الثالث دوقاس	١٢٢٢-١٢٥٤
تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٤-١٢٥٨
حنا الرابع لاسكارس	١٢٥٨-١٢٦١
ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩-١٢٨٢
أندرونيق الثاني باليولوجس	١٢٨٢-١٣٢٨
أندرونيق الثالث باليولوجس	١٣٢٨-١٣٤١
حنا الخامس باليولوجس	١٣٤١-١٣٩١
حنا السادس	١٣٤٧-١٣٥٤
حنا السابع	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجس	١٣٩١-١٤٢٥
حنا الثامن باليولوجس	١٤٢٥-١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر باليولوجس	١٤٤٩-١٤٥٣

المصادر والمراجع

قائمة بمصادر ومراجع الكتاب

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الجزري):

١- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ١٩٦٣م.

٢- الكامل في التاريخ ، ط المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، ١٣٠١هـ.

- إبراهيم النعمة :

الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ، مطبعة الزهراء الحديثة ، ١٤٢٥هـ.

- أحمد عبد الجواد :

صلاح الدين الأيوبي ، ط١ المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

- أسامة ذكي زيد :

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (عصر الحروب الصليبية) .

- أنور الجندي :

الإسلام وحركة التاريخ.

- ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري):

كنز الدرر وجامع الغرر ، حـ٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط القاهرة ، ١٩٧٢.

- جوستاف لوبون:

حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر.

- ابن الجوزي (عبد الرحيم بن علي):
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
- ابن الجوزي (سبط بن الجوزي):
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط حيدر آباد الركن ، ١٩٥١م.
- جوزيف نسيم :
١- العدوان الصليبي على مصر ، ط دار الكتب الجامعية، ١٩٦٩م.
٢- لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ط القاهرة ، ١٩٥٩ .
- جيمس روستون الابن :
مقاتلون في سبيل الله ، ترجمة رضوان السيد ، ط مكتبة العبيكان ، ٢٠٠٢م.
- حسن إبراهيم حسن :
تاريخ الإسلام ، ط١٣ دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الحنبلي (ابن العماد الحنبلي) :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط دار الآفاق الجديدة.
- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم الحنبلي):
شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.
- حمزة النشرتي وآخرون :
صلاح الدين ، ط المكتبة القيمة بالقاهرة.
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد):
وفيات الأعيان ، ط القاهرة ، ١٣١٠هـ.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط القاهرة.
- رانسيمان (ستيفن) :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د/ السيد الباز العريني ، ط بيروت ١٩٦٩م.

- الراوندي :
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، نقله إلى العربية من الفارسية إبراهيم الشواربي ، ط القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور :
١- الحركة الصليبية ، ط٤ مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٦.
٢- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ط دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٩٠م.
٣- قبرص والحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٩٥٧م.
- سلامة محمد الهرفي البلوي :
دور المرأة في الاستخبارات الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٤هـ.
- سيد حسين العفاني :
مبشرات النصر والتمكين ، ط القاهرة ، ٢٠٠٠.
- السيوطي :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط القاهرة ، ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م.
- شاكر مصطفى :
صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه ، ط دار القلم، دمشق.
- أبو شامة (شهاب الدين – أبو محمد عبد الرحمن المقدس):
١- الروضتين في تاريخ الدولتين ، ط القاهرة، ١٢٨٧م.
٢- الذيل على الروضتين ، ط القاهرة ، ١٩٧٤م.
- ابن شداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم):
سيرة صلاح الدين الأيوبي ، المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د/ جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ، ١٩٦٤م.

- ابن الطقطقي :
الفخـري في الآداب في الـسلطانية والـدول الإسـلامية ، ط بـاريس، ١٨٩٥م.
- عباس العزاوي :
التعريف بالمؤرخين في عهود المغول والتركمان ، ط بغداد ، ١٣٧٦هـ.
- عبد العزيز سيد الأهل:
أيام صلاح الدين ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- عبد الله عبد الرازق مسعود السعيد:
المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني ، دار الفيحاء ، عمان الأردن ، ط١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- عبد الله علوان:
صلاح الدين الأيوبي ، ط دار السلام ، بالقاهرة.
- عبد الله علي السلامة:
الاستخبارات العسكرية في الإسلام ، ط٢ مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٢.
- عبد الله سعيد حمد الغامدي:
صلاح الدين والصليبيون ، واسترداد بيت المقدس ، ط دار الفضيلة ، بيروت.
- عبد الرحمن محمد عبد الرحمن:
الدبلوماسية الإسلامية ، ط دار اليقين ، المنصورة ، مصر.
- عبد العزيز بن إبراهيم العمري:
الفتوح الإسلامية عبر التاريخ ، ط١ دار أشبيليه ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

- عبد المنعم ماجد:
الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ط٢ دار مكتبة الجامعة العربية ببيروت ، ١٩٦٧.
- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم):
زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان ، ط دمشق، ١٩٥٤م.
- عز الدين عمر أحمد موسى:
دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ط دار الشروق،١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.
- علي بيومي:
قيام الدولة الأيوبية في مصر ، ط دار الفكر بالقاهرة، ١٩٥٢.
- علي محمد الصلابي:
١- صلاح الدين الأيوبي ، ط١ مؤسسة اقرأ، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
٢- الدولة الفاطمية ، ط١ مؤسسة اقرأ ، ١٤٢٧، ٢٠٠٦م.
٣- دولة السلاجقة، ط١ دار ابن الجوزي، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
٤- تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين ،ط١ دار الإيمان بالإسكندرية، ٢٠٠٢م.
٥- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي، ط١ مؤسسة اقرأ، القاهرة، ١٤٢٨هـ.
- علية المهتدي الزبدة:
صلاح الدين وتحرير القدس، ط١ وزارة الثقافة الأردنية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- علية عبد السميع الجنزوري:
الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

- العماد الكاتب الأصفهاني:
الفتح القسي في الفتح القدسي.
- عماد الدين خليل:
. نور الدين محمود ، الرجل التجربة ، ط دار القلم ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- أبو فارس:
دروس وتأملات في الحروب الصليبية ، دار الفرقان ، عمان الأردن.
- فايد محمد عاشور:
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط١، دار الاعتصام
- فاطمة المحجوب:
الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية.
- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن علي):
المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان.
- فرسبت مرعي:
جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول، ط٢ صنعاء،٢٠٠٣م.
- قاسم عبده قاسم:
في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ط١ دار عين، القاهرة، ٢٠٠١م.
- قدري قلعجي:
صلاح الدين الأيوبي، ط٣ بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن كثير (الحافظ ابن كثير):
البداية والنهاية.
- أبو المحاسن بن تغربردي:
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط القاهرة، ١٩٣٣-١٩٣٦م.

- محسن محمد حسين:

الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ط١ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ.

- محمد أحمد محمد:

في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ط مكتبة الرشد ناشرون.

- محمد السيد الوكيل:

أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ، ط دار المجتمع السعودية.

- محمد حامد الناصر:

الجهاد والتجديد ، ط مكتبة الكوثر بالرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- محمد سهيل طقوش:

١- تاريخ الأيوبيين في مصر والشام والجزيرة ، ط١ دار النفائس بيروت ، ١٤٠٠هـ.

٢- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ، ط١ دار النفائس ببيروت، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٣- تاريخ الفاطميين ، ط دار النفائس ببيروت.

- محمد عبد الله الحمدان:

بنو الأثير ، الفرسان الثلاثة.

- محمد العيده:

أيعيد التاريخ نفسه ، ط٣ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

- محمد عبده السروري:

تاريخ اليمن الإسلامي ، مكتبة حامد بن الوليد، صنعاء ، ٢٠٠٣م.

- محمد مصطفى زيادة:

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ط القاهرة،١٩٦١م.

- محمد مؤنس:

الحروب الصليبية ، العلاقات بين الشرق والغرب، ط دار عين، القاهرة، ١٩٩٩-٢٠٠٠م.

- محمود الحويري:

العادل الأيوبي ، ط دار حراء ، ١٩٨٠م.

- مراجع عقيلة الغناوي:

سقوط دولة الموحدين، ط جامعة قابوس ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

- مصطفى الحباري:

صلاح الدين القائد وعصره ، ط دار الغرب الإسلامي،١٤١٥هـ.

- المقريزي :

١- السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور زيادة ، القاهرة،١٩٣٤م.

٢- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

٣- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.

- منير عدور:

الوجيز في الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء ، دار الفارابي للمعارف، ط١ دمشق ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

- ممدوح حسين:

الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري ، ط عمان الأردن، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- نظير حسان سعداوي:

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، ط القاهرة ، ١٩٥٧.

- نهلة أنيس محمد مصطفى:

الأيوبيون في كتابات كل من ابن الأثير ، وأبي شامة ، ط القاهرة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

- نعمان محمود جبران – محمد حسن العمادي:

دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ط ٢٠٠٠م.

- ابن واصل (جمال الدين بن واصل):

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ط القاهرة ، ١٩٥٣-١٩٥٨.

- وليد نويهض:

صلاح الدين سقوط القدس وتحريرها ، قراءة معاصرة ، ط١ دار ابن حزم ، لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

- ياسين سويد :

حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي ، ط دار الملتقى للطبع والنشر ، بيروت لبنان ، ١٩٩٧م.

- ياقوت الحموي:

معجم البلدان ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

أخيرًا :

فما كان من توفيق فمن الله ، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والنقص في أصل الطبيعة كامن

فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب، وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب، والإخلاص والقبول، وأن يرزقني الشهادة في سبيله، ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنات الخلد.

ولمن أراد مراسلتي لمعرفة رأيه في الكتاب أو إبداء الملاحظات ، فرحم الله امرءًا أهدي إليّ عيوبي:

عبر الهاتف:

٠٤٥ ٣٤٣٣٩٢٩ ٠١٠ ٣٨٤٤٩٣٢

وعبر البريد الالكتروني

Ragabmahmoud@windowslive.com

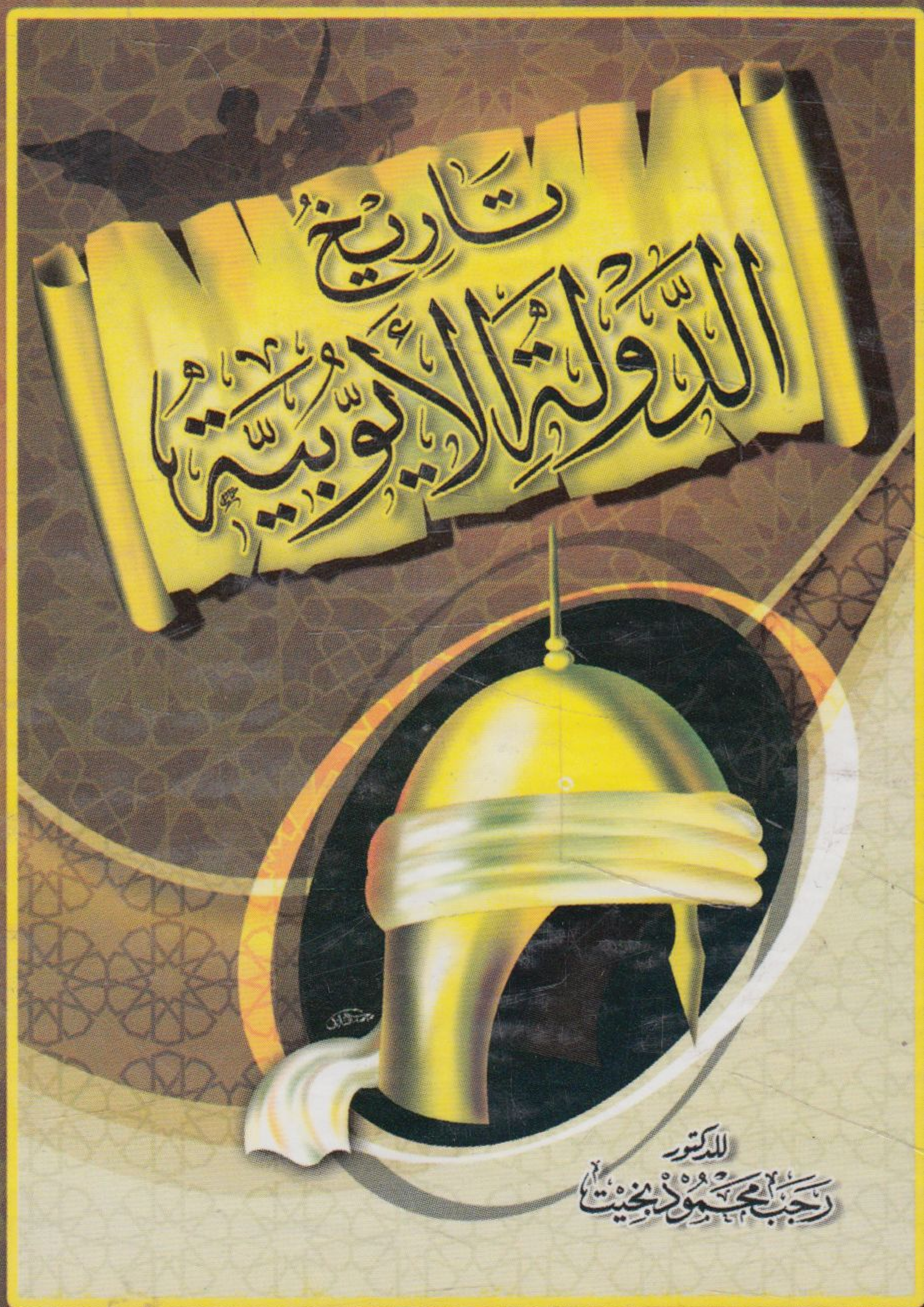
الفهـــرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



مكتبة جزيرة الورد
شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر - بالحسين
ت : ٠٢٢٥١١٤٣٧١ - ٠١٢٢١٠٨٤٩٣

مكتبة الإيمان
بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر ت: ٢٢٥٧٨٨٢ ـ ٠٥٠